لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

مناهج النقد الأدبي

المناهج الكلاسيكية

محمد دحروج

دار البداية ناشرون وموزعون

مناهج النقد الأدبي

المناهج الكلاسيكيَّة

فِي ثنَايَا هَذَا الكِتَابِ مَقَالَةٌ ضَافِيَةٌ بِعُنْوَان

مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر

﴿ ١٣٢٧ ــ ١٤١٨ هـ = ١٩٠٩ ــ ١٩٩٧م ﴾

مَوَاقِفُهُ وَنَظْرَتُهُ إِلَى الحَيَاة

فِي ضَوْءِ مَنْهَجِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ

محمد دحروج

الطبعة الأولى

٢٠١٥م /١٤٣٦ هـ

دار البداية ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٤/٦/٣٠٣٠)

٨١٠.٩

دحروج، محمد محمود

مناهج النقد الأدبي المناهج الكلاسيكية/ محمد محمود دحروج، عمان، دار البداية ناشرون وموزعون، ٢٠١٤

( ) ص.

ر.أ.: ٢٠١٤/٦/٣٠٣٠

الواصفات: /الأدب العربي// النقد الأدبي/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٥م /١٤٣٦ هـ

دار البداية ناشرون وموزعون

عمان - وسط البلد - تلفاكس ‎+962 6 4640679

ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن

Info.daralbedayah@yahoo.com

خبراء الكتاب الأكاديمي

ISBN: ‎9978-9957-82-319-1 (ردمك)

استناداً إلى قرار مجلس الإفتاء رقم ٢٠٠١/٣ بتحريم نسخ الكتب وبيعها دون إذن المؤلف والناشر.

وعملاً بالأحكام العامة لحماية حقوق الملكية الفكرية فإنه لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من

مَنَاهِج النَّقْدِ الأَدَبِيّ

المناهج الكلاسيكية

تنبيه

كِتَابٌ قَدْ حَوَى دُرَراً

بِعَيْنِ الحُسْنِ [مَنْظُورَهْ]

لِهَذَا قُلْتُ تَنْبِيهَاً :

[سِهَامُ الغَضْبِ مَحْظُورَهْ] (١) .

---

(١) ـ ما بين المُعقَّفات من كلمات ؛ إنما هى من كيسى . [أَبُو نِزَار] .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ؛

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَبَوَيْهِ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً

.....

❁ - إِهْـدَاء

﴿ سَأَظَلُّ أَمْضِى فِى طَرِيقِى ... ؛ يَوْمَاً أَجُوبُ الدَّرْبَ مُبْتَسِمَاً وَيَوْمَاً قَد أُقَضِّى الوَقْتَ فِى هَمِّى وَضِيقِى !!... ؛ يَمْضِى النَّهَارُ وَلَسْتُ أَشْعُرُ فِيهِ بِالسَّاعَاتِ وَالوَقْتِ !!... ؛ وَاللَّيْلُ يَأْتِى لا يَرَى غَيْرَ السُّكُونِ هُنَاكَ فِى حُزْنِى وَفِى صَمْتِى !! ؛ لا الشَّمْسُ تَذْكُرُ أَنَّ لِى نَصْرٌ هُنَاكَ يِدَرْبِى أَو أَرْضِى !!... ؛ وَحْدِى هُنَا مِن بَعْدِ أَن أَبْصَرْتُ كُلَّ الأُمْنِيَاتِ تَمُوتُ أَو تَمْضِى !! ؛ دَهْرٌ يُحَتِّمُ أَن يَكُونَ العُمْرُ مَهْزُومَاً تَعِيس !!... ؛ وَعَزَائِى إِن جَاءَت نِهَايَةُ عَهْدِنَا ؟!! ... ؛ أَنِّى بِأَرْضِ العِلْمِ كُنْتُ الرَّاهِبَ القِدِّيس !! . ﴾ .

.....

إِلَى كُلِّ أَحْلامِى القَدِيمَةِ الَّتِى اغْتَالَهَا الزَّمَنُ !!
إِلَى عَهْدٍ عَاشَت بِجَنَبَاتِهِ آمَالِى البَرِيئَة !! ؛ وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ القَلَمَ وَلا سِوَاه !!... ؛ هُوَ الَّذِى سَيَبْقَى مَعِى !!... ؛ لا بَأْس !!... ؛ لا حِيلَةَ لِلْمَرْءِ مَعَ أَقْدَارِ الحَيَاة !!... ؛ لَعَلَّ مِن جَمِيلِ صُنْعِ اللهِ مَعِى أَن حُرِمْتُ مِن كُلِّ مَا رَجَوْتُهُ كَى أَهَبَ نَفْسِى

لِلْعِلْمِ وَالفِكْرِ وَالأَدَبِ ... ؛ وَإِنِّي بِحَظِّي مِنَ الحَيَاةِ لَرَاضٍ سَعِيدٌ !! .

۞۞۞۞۞

القَادِمُ مِنَ الزَّمَنِ المَجْهُول

«مُحَمَّد مَحْمُود دَخْرُوج»

مَدِينَةُ الرِّيَاض ..... الحَارَةُ العَتِيقَة

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

.....

❁ - تَصْدِير

يَقُولُ أَبَعْدَ اليَأْسِ تَبْكِي صَبَابَةً؟!
. ؛ فَقُلْتُ وَهَل قَبْلَ الإِيَاسِ بُكَاءُ ؟!
أَبْكِي عَلَى مَن لَسْتُ أَرْجُو ارْتِجَاعَهُ
؛ وَأَبْكِي عَلَى أَن لا يَكُونَ رَجَاءُ !!

إِنِّي أُحِبُّكِ لَم أَزَل !!... ؛ إِنِّي أُحِبُّكِ يَا كَيْنُونَتِي الأُولَى !!

قَضَى اللهُ يَا (أَسْمَاءُ) أَن لَسْتُ زَائِلاً
أُحِبُّكِ حَتَّى يُغْمِضَ العَيْنَ مُغْمِضُ !!

.....

مَدْخَل

أُنَسَى كَأَنِّى لَم أَكُن !!
أُنَسَى كَأَنِّى لَم أَكُن يَوْمَاً هُنَا !!
لازِلْتُ أَجْهَلُ مَن أَنَا !!
أَنَا خُطْوَةٌ حَيْرَى بِأَرْضِ الحُزْنِ
فِى صَمْتِ الدُّرُوب !!
وَأَنَا المُسَافِرُ فِى مَجَاهِلَ يَرْتَجِى
عَوْدٌ وَلَم يَدْرِ هُنَالِكَ أَنَّهُ لا لَن
يَئُوب !!
أَنَا صَرْخَةٌ جَاءَت لأَرْضِ النَّاسِ
مِن صَمْتِ القُبُور !!
أَنَا حُلْمُ مَأْسُورٍ يُعَانِى بِقَيْدِهِ
مَرَّت عَلَيْهِ هُنَاكَ آلافُ
العُصُور !!
أَنَا قَهْرُ هَذَا العَالَمِ الأَرْضِىُّ
لَكِن إِنَّمَا يَحْيَا بِبَعْضٍ مِن
بَقَايَا كِبْرِيَاء !!

كَالفَارِسِ المَطْعُونِ يَبْغِى أن
يُهَادِنَ إِنَّمَا يَمْنَعُهُ شَىْءٌ مِن
حَيَاء !!
وَأَنَا الحَقِيقَةُ وَسْطَ هَاذِى
الأَرْضِ ثَمَّت قَد أَتَى نَفْيِ
وَشَرَّدَنِى الزَّمَان !!
وَأَنَا الَّذِى أَحْيَا وَلَكِن مِن
غَرِيبِ عَجَائِبِى تَأْتِى
القَصَائِدُ وُقِّعَت مِن لا
مَكَان !!
وَأَنَا المُعَانِدُ أَجْبَرَتْهُ خِيَانَةُ
الأَيَّامِ أَن يُعْطِى السَّلام !!
وَأَنَا الَّذِى فِى صَمْتِهِ بَيْنَ
المَقَابِرِ جَاوَبَتْهُ هُنَاكَ
أَشْلاءُ العِظَام !!
وَأَنَا القَتِيلُ أَنَا الطَّرِيدُ أَنَا
الأَسِيرُ وَإِنَّنِى الجَانِى !!
وَأَنَا المُخَلَّدُ وَسْطَ لَعْنَتِهِ
وَفِى الغُفْرَانِ كُنْتُ الذَّائِبَ

الفَانِى !!
وَأنَا الهُوِيَّةُ مَحْضُ مَجْهُولٍ
وَإِنِّى مِثْلُ نَخْلٍ فِى السَّمَاءِ
فُرُوعُهُ وَجُذُورُهُ بَاتَت
عَرِيقَه !!
وَأنَا الخَيَالاتُ الكَذُوبَةُ إِى
كَذَاكَ فَإِنِّى عَيْنُ التَّجَلِّى
وَالحَقِيقَه !!
أنسَى كَأنِّى لَم أكُن يَوْمَاً
هُنَا !!
لا ذَنبَ لِلدُّنيَا !! ؛ كَذَاكَ فَإِنِّى !!
لازِلتُ أجْهَلُ مِن أنَا !! . ◆ . (١) .

✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿

(١) ـ ((أنسَى كَأنِّى لَم أكُن !!)) : مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى ◆ وَدَاعَاً أيُّهَا العُمُر ◆ .

.....

❁ـ كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوع :

بسم الله الرحمن الرحيم

لازِلْتُ أحْيَا كَمَا أنَا !! ؛ «الرَّاهِبُ الأَدِيب» !! ؛ أحْيَا فِي عُزْلَتِي !! ؛ وَلِكِنِّي مَازِلْتُ مُحْتَفِظاً بِعَزْمِي وَقُوَّتِي ؛ مَا أعْلَنْتُ هَزِيمَتِي وَمَا سَأُعْلِنُهَا ؛ لأَنِّي أخَذْتُ العَهْدَ عَلَى نَفْسِي أن أمْضِي عَلَى دُرُوبِ الحَيَاةِ عَرَبِيّاً مُنَاضِلاً أبِيّاً ؛ لا المِحْنَةُ تَهْزِمُنِي ؛ وَلا النَّكْبَةُ تَكْسِرُنِي وَتَحْطِمُنِي ؛ أنَا ابْنُ الصَّبْرِ وَالإِيمَانِ وَالتَّجَلُّدِ وَاليَقِين ؛ لا تُحْزِنُنِي مُعَانَدَةُ الدَّرْبِ وَلا تَقْهَرُنِي خُطُوبُ الأَيَّامِ وَالسِّنِين ؛ إنِّي عَلَى الطَّرِيقِ مَاضٍ وَسَائِر ؛ أنَا الكَاتِبُ الأدِيبُ الشَّاعِر ؛ صَنَعْتُ نَفْسِي بِنَفْسِي ؛ وَسَأَظَلُّ عِصَامِيّاً شَرِيفاً إلَى يَوْمِ أن أُدْفَنَ بِقَبْرِي وَرَمْسِي ؛ أمْشِي بِخُطُوَاتِي لا أحْمِلُ بِقَلْبِي كُفْراً وَلا شَرّاً ؛ بَلْ لا أرَى بِهِ سِوَى حُزْنِي وَألَمِي !! ؛ وَلَئِن طَالَت بِيَ الحَيَاةُ أو قَصُرَت ؛ فَلَن أُقْدِمَ عَلَى المَوْتِ وَالرَّدَى إلاَّ وَأنَا قَابِضٌ بِيَدِي عَلَى قَلَمِي !! ؛ إنَّهُ رَمْزُ كِفَاحِي ؛ بِهِ صَنَعْتُ تَارِيخِي ؛ وَبِهِ شُفِيتُ مِن هَمِّي وَدَاوَيْتُ جِرَاحِي ؛ لِعَرْشِ الفِكْرِ وَالأَدَبِ فِي بِلادِنَا أنَا الآتِي وَالقَادِم ؛ وَلَسْتُ بِيَوْمٍ عَلَى مَا قَد قَضَيْتُهُ مِن سَنَوَاتِ شَبَابِي فِي رِحَابِ العِلْمِ بِآسِفٍ أو نَادِم .

.....

ثُـمَّ :

دَلَّ كَلامُكَ عَلَى جَهْلِكَ !! ؛ وَأَخْبَرَ قَوْلُكَ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِكَ وَرَأْيِكَ !! ؛ أَهْدَيْتُ لَكَ كِتَابِي (البَرْقُ الخَاطِف) يَوْمَ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ تَحْمِلُ لِي فِي نَفْسِكَ مِثْلَ مَا قَدْ كُنْتُ أَحْمِلُ لَكَ فِي نَفْسِي !! ؛ وَلَقَدْ نُشِرَ الكِتَابُ بِعَاصِمَةِ المَمْلَكَةِ الأُرْدُنِيَّةِ ؛ فَعَرِفَ النَّاسُ هُنَاكَ أَنَّكَ مِن رِفَاقِي وَأَصْحَابِي !! ؛ وَلَيْتَنِي مَا فَعَلْتُ !! ؛ وَاللهِ إِنَّ صُحْبَتَكَ لَعَارٌ عَلَيَّ !! ؛ مَا أَخْطَأْتُ يَوْمَ أَن ذَكَرْتُكَ وَذَكَرْتُ غَيْرَكَ فِي كِتَابِي الأَخِيرِ (شُعَرَاءٌ فِي المِيزَان) (١) ؛ فَقُلْتُ :

(رِفَاقِي القُدَامَى !!... ؛ وُجُوهُ الرِّجَال ... ؛ وَنُفُوسُ المُومِسَات)

دَلَّ كَلامُكَ عَلَى جَهْلِكَ !! ؛ وَأَخْبَرَ قَوْلُكَ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِكَ وَرَأْيِكَ !! ؛ ظَنَنْتُكَ جِئْتَ إِلَيَّ كَي تُبْدِي فَرَحَكَ وَسَعَادَتَكَ بِالانْتِصَارِ الَّذِي حَقَّقَهُ رَفِيقُكَ هَذَا العَامَ إِذ صَدَرَت لَهُ خَمْسَةُ أَعْمَالٍ أَدَبِيَّةٍ جَدِيدَةٍ بِدَارِ أَطْلَس بِالعَاصِمَةِ المِصْرِيَّةِ ؛ وَسَبْعَةُ أَعْمَالٍ فِي بَعْضِ دُورِ النَّشْرِ بِالعَاصِمَةِ اللُّبْنَانِيَّةِ !! ؛ ظَنَنْتُ ذَلِكَ !! ؛ وَلَكِنِّي أُخْطِيءُ إِذ أُحْسِنُ الظَّنَّ بِأَمْثَالِكَ أَيُّهَا الرَّفِيقُ القَدِيم !! ؛ مَا كِدْتَ تَجْلِسُ حَتَّى رُحْتَ تَبْعَثُ وَتَفُوحُ بِهَذِهِ الرَّوَائِحِ المُنْتِنَةِ !! : لِمَاذَا تَسْتَمِرُّ بِالكِتَابَةِ إِلَى اليَوْمِ ؟!! ؛ بِمَاذَا سَيَنْفَعُكَ العِلْمُ ؟!! ؛ مَا هِيَ الثَّمَرَةُ المَادِيَّةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِن مُؤَلَّفَاتِكَ ؟!! ؛ مَاذَا صَنَعْتَ بَعْدَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي امْتَدَّت لِسَنَوَاتٍ وَسَنَوَات ؟!!... ؛ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ الاسْتِنْكَارِيَّةِ الَّتِي لا يَنْطِقُ

(١) ـ [ص : 15] ؛ دَار أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِيّ ؛ ط [1] : 2012 م.

بِهَا سِوَى مَن هُم مِن صِنفِكَ وَطَبَقَتِكَ !! .

تَاللهِ مَا ابْتُلِيَ كَاتِبٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِإِخْوَانِهِ وَرِفَاقِهِ كَمَا ابْتُلِيتُ أَنَا !! ؛ فَمِن حَاقِدٍ - كَالعَرُوضِيِّ المَأْفُونِ الَّذِي لَم يَفْعَل شَيْئاً فِي حَيَاتِهِ سِوَى الجُلُوسِ فِي قَعْرِ بَيْتِهِ كَالمَرْأَةِ الَّتِي فَجَرَت فَافْتُضِحَت فَانْكَمَشَت - !! ؛ أَو جَبَانٍ - كَالشَّيْخِ المُنَافِقِ الَّذِي يَنْسِبُ نَفْسَهُ إِلَى بَنِي النَّجَّارِ كَذِباً وَزُوراً ؛ وَهُوَ لا يُؤْمِنُ بِسِوَى السَّحَرَةِ وَالدَّجَّالِينَ وَالمُشَعْوِذِينَ ؛ وَيَظُنُّ مِن حَمَاقَتِهِ أَنَّ سِتْرَهُ لَيسَ بِمَهْتُوكٍ أَو مَكْشُوفٍ - !! ؛ أَو مَرِيضٍ نَفْسِيٍّ كَأَخِينَا هَذَا ؛ فَشِلَ أَن يَكُونَ شَاعِراً ؛ فَأَخَذَ يَلْعَنُ الشِّعْرَ وَالأَدَبَ وَالعِلْمَ - !! .

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ القَضِيَّةَ الَّتِي يَجْهَلُهَا - أَو يَعْرِفُهَا وَيَجْحَدُهَا - رَفِيقُنَا القَدِيمُ : هِيَ أَنَّنِي لَم أَدْخُل إِلَى عَالَمِ الأَدَبِ إِلاَّ وَأَنَا عَلَى وَعْيٍ كَامِلٍ بِالصُّرُوفِ القَاهِرَةِ وَالخُطُوبِ القَاتِلَةِ الَّتِي تُوَاجِهُ الأَدِيبَ الَّذِي لا يَمْلِكُ مِن حُطَامِ الدُّنْيَا سِوَى قَلَمِهِ الَّذِي يَكْتُبُ بِهِ ؛ مَا كُنْتُ غَافِلاً عَن كُلِّ ذَلِكَ !! ؛ وَلَقَد كُنْتُ أَعْلَمُ مَا سَيَعْتَرِضُنِي فِي سَبِيلِي !! ؛ وَلَكِنِّي أَقُولُ :

إِنَّ الأَدِيبَ الَّذِي لَم يَدْخُل عَالَمَ الأَدَبِ إِلاَّ لِكَوْنِهِ يُرِيدُ أَن يَكُونَ مُجَدِّداً حَقِيقِيّاً وَمُبْدِعاً عَبْقَرِيّاً ؛ وَأَيْقَنَ بِأَنَّ هَذِهِ الطِّلْبَةَ لا تُنَالُ إِلاَّ بِأَن يَهَبَ شَبَابَهُ وَعُمْرَهُ وَزَمَنَهُ ؛ بَل وَرُوحَهُ وَوُجْدَانَهُ وَمَشَاعِرَهُ لِلْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ وَالأَدَبِ ؛ ثُمَّ كَانَ كَسَائِرِ أَبْنَاءِ جِيلِهِ وَوَطَنِهِ لَن يَحْيَا بِكَرَامَةٍ بَينَ النَّاسِ مَا لَم يَكُن قَادِراً عَلَى الإِتْيَانِ بِرِزْقِهِ مِن كَدِّهِ وَنَصَبِهِ وَكِفَاحِهِ ؛ وَأَنَّهُ لا يَرَى لِنَفْسِهِ عَمَلاً سِوَى

التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ وَالإِبْدَاعِ ؛ وَأَنَّ هَـذَا العَمَـلَ لا يَجُـودُ عَلَـى صَـاحِبِهِ إِلاَّ بِاليَسِيرِ الَّذِى يُقِيمُ وَيَصُونُ مَعَ كَوْنِهِ سَيَبْذُلُ جَهْدًا فِكْرِيًّا وَرُوحِيًّا وَعَصَبِيًّا رَهِيبًا لا طَاقَةَ لِلْكَثْرَةِ الكَاثِرَةِ مِنَ النَّاسِ بِهِ !! ـ مَن كَانَ شَأْنُهُ كَـذَلِكَ ؛ فَإِنَّ نَظْرَتَهُ إِلَى المَالِ لَن تَكُونَ إِلاَّ فِى حَجْمِ مُتَطَلَّبَاتِ حَيَاتِـهِ المَعِيشِيَّةِ ؛ وَأَمَّا مَـا خَرَجَ عَنْ هَذَا الحَدِّ فَإِنَّهُ لَن يَعْبَأَ بِهِ مَادَامَ أَنَّهُ سَيَدْفَعُهُ إِلَى التَّقْصِيرِ فِى أَمْرِ خُطَّتِهِ الَّتِى اخْتَطَّهَا لِنَفْسِهِ ؛ بِأَن يَنْشَغِلَ بِأُمُورٍ أُخْرَى ؛ أَو يَلْجَأَ إِلَى التَّصْنِيفِ التُّجَارِىِّ المُبْتَذَلِ !! ؛ وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَـد قَتَلَ نَفْسَهُ إِبْدَاعِيًّا ؛ وَتِلْكَ هِىَ الخَسَارَةُ الحَقِيقِيَّةُ بِلا رَيْبٍ !! .

أَقُـول : وَأَنَـا لَن أُغَامِرَ يَوْمًا بِسُمْعَتِى الأَدَبِيَّـةِ مِن أَجْلِ عَرَضٍ رَخِيصٍ زَائِلٍ لا قِيمَةَ لَهُ عِنْدَ أَصْحَابِ الأَلْبَابِ وَالعُقُول ؛ وَإِنِّـى لأَعْلَـمُ يَقِينًـا أَنَّ المُبْدِعَ الحَقِيقِىَّ إِن ظَلَمَتْهُ وَهَضَمَتْهُ الحَيَاةُ اليَوْمَ ؛ فَهِىَ سَتُنْصِفُهُ وَتَنْـصُرُهُ فِـى الغَدِ القَرِيبِ ؛ وَالشَّوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيـرَةٌ تَدْعُو إِلَى التَّفَاؤُلِ وَتَنْفِى اليَأْسَ الَّذِى قَد يُعَكِّرُ صَفْوَ النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ المُثَابِرَةِ .

إِنَّ رِسَالَةَ الأَدِيبِ فِى بَلَدِنَا وَفِى عَصْرِنَـا ؛ بَل وَفِى كُلِّ مِصْرٍ وَعَصْرٍ ؛ هِىَ أَن يُصَوِّرَ عَلَى الصُّحُفِ مَـا يَرَاهُ مِن حَقَـائِقِ الحَيَـاةِ مِـن خَيْـرٍ أَو شَـرٍّ ؛ وَأَن يَكْتُبَ مَا يَدْعُوهُ ضَمِيرُهُ وَتَدْفَعُهُ رُوحُهُ وَمَشَاعِرُهُ إِلَى كِتَابَتِهِ ؛ لا أَن يَكْتُبَ مَـا يَتَلاءَمُ وَفِكْرُ المُؤَسَّسَةِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِـى يَعْمَـلُ بِهَـا حَتَّـى وَإِن كَـانَ هَـذَا الفِكْـرُ يُخَالِفُ مَا يُؤْمِنُ بِهِ مِن عَقِيدَةٍ وَفِكْرٍ وَرَأْىٍ !! ؛ لابُـدَّ أَن تَكُونَ ذَاتُهُ هِىَ الَّتِى

تَتَبَدَّى عَلَى القِرْطَاسِ ؛ فَإِنَّ الكَاتِبَ لَيْسَ بِأَجِيرٍ كَى يَكْتُبَ مَا يُرِيدُهُ مَن يَدْفَعُ لا مَا يُرِيدُ هُوَ ؛ وَلَئِن فَرَضَت عَلَيْهِ الأَيَّامُ أَن يُصَانِعَ وَيُدَاهِنَ مُقَابِلَ إِجْزَالِ العَطَاءِ لَهُ ؛ فَالأَوْلَى بِهِ أَن يَنْشُرَ أَعْمَالَهُ عِنْدَ أَىِّ نَاشِرٍ آخَرٍ بِأَجْرٍ زَهِيدٍ مَادَامَ أَنَّهُ سَيَنْشُرُ مَا يُرِيدُ وَمَا يَبْتَغِى ؛ إِنَّ الأَدِيبَ الَّذِى لا يَنْظُرُ لِسِوَى المَالِ لَيْسَ بِجَدِيرٍ أَن يَحْظَى بِهَذَا اللَّقَبِ ؛ فَالأَدِيبُ عِنْدَنَا مَا هُوَ سِوَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ القِيَمِ وَالمَبَادِىءِ وَالأَفْكَارِ الأَخْلاقِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ وَالجَمَالِيَّةِ ؛ فَهُوَ فِى بَعْضِ المَوَاطِنِ شَاعِرٌ حَالِمٌ ؛ وَفِى أُخْرَى أَدِيبٌ فَيْلَسُوفٌ يَنْطِقُ بِالحَقِيقَةِ وَالحِكْمَةِ ؛ ثُمَّ هُوَ فِى بَعْضِ المَوَاقِفِ كَاتِبٌ وَطَنِىٌّ ثَوْرِىٌّ عَنِيفٌ لا يَخَافُ فِى اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ؛ وَأَمَّا الكَاتِبُ الَّذِى لا يَمْشِى إِلاَّ فِى الطَّرِيقِ الَّذِى يَسُوقُهُ إِلَيْهِ الرِّيحُ ؛ فَذَلِكَ لَيْسَ مِن طَبَقَتِنَا فِى كَثِيرٍ أَو قَلِيلٍ ؛ بَل هُوَ دَعِىٌّ لا يَعْرِفُ الصِّدْقَ أَو الحَقَّ أَو الرُّجُولَةَ !! ؛ سُبْحَانَ اللهِ !! ؛ لِمَاذَا ؟!! ؛ لِمَاذَا لا يَتَوَكَّلُ الأَدِيبُ عَلَى رَبِّهِ ؛ فَلا يَشْغَلُهُ مِن أَمْرِهِ سِوَى أَعْمَالِهِ وَكِتَابَاتِهِ ؛ ثُمَّ يَدَعُ أَمْرَ الرِّزْقِ إِلَى مَن تَكَفَّلَ بِهِ ؛ وَهُوَ مُوجِدُهُ وَخَالِقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ يِرَبِّى إِنِّى لأَشْعُرُ بِالاشْمِئْزَازِ مِن ذَلِكَ الأَدِيبِ الَّذِى صَيَّرَ نَفْسَهُ إِمَّعَةً !! ؛ فَهُوَ لا يَكْتُبُ إِلاَّ مَا تُوحِى بِهِ إِلَيْهِ المَطَامِعُ الدُّنْيَوِيَّةُ ؛ لا مَا يُوحِى بِهِ إِلَيْهِ العَقْلُ أَو القَلْبُ ؟!! .

وَإِذَا كَانَ الحَدِيثُ شُجُون (١) ؛ فَأَذْكُرُ يَوْمَ أَن كُنتُ أَتَنَاقَشُ مَعَ المَسْئُولِينَ

(١) ـ قَوْلُهُم الحَدِيثُ ذُو شُجُون : أَي ذُو فُنُونٍ ؛ يَتَشَبَّثُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . =............

بِدَارِ أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِيِّ بِالقَاهِرَةِ حَوْلَ بَعْضِ المَسَائِلِ الَّتِي تُنَاطُ بِكُتُبِي الَّتِي أَصْدَرَتْهَا لِي فِي عَامِ ٢٠١٣م ؛ فَقَالَ الأُسْتَاذ ((طَارِق وَافِي)) : إِنَّ ((مُحَمَّد دَخْرُوج)) هُوَ القَضِيَّةُ الَّتِي تَشْغَلُ الكَاتِبَ مُحَمَّد دَخْرُوج !! ؛ فَقُلْتُ لَهُ بِأَنِّي لَسْتُ مِن طَائِفَةِ الكُتَّابِ الَّذِينَ يَوَدُّونَ أَعْمَالَهُم كَالاتٍ لا حِسَّ بِهَا وَلا رُوح !! ؛ إِنَّمَا أَنَا كَاتِبٌ لِي ذَاتِي وَكَيَانِي وَأُسْلُوبِي وَطَرِيقَتِي ؛ وَإِذَا كَانَت المَسْأَلَةُ هِيَ مَحْضُ أَخْذٍ وَعَطَاءٍ ؛ فَلا حَاجَةَ لِي بِالمَالِ الَّذِي سَيَأْتِي مِن قِبَلِكُم إِن كَانَ سَيُصَيِّرُنِي مُجَرَّدَ نَاسِخٍ !! ؛ فَإِنَّ فِي الأَمْرِ مُتَّسَعٌ !! .

مَا أَغْرَبَ هَؤُلاءِ النَّاس !! ؛ إِنَّ مِحْنَةَ الأُدَبَاءِ الحَقِيقِيِّينَ فِي مِصْرَ هِيَ

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ التَّنُوخِيُّ ((ت ٣٨٤ هـ)) فِي ((الفَرَجُ بَعْدَ الشِّدَّةِ)) ؛ [١٦٦/١] : ((وَلَكِنَّ الحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ ؛ وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذْكَرُ ؛ وَنَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ .)) .

تَحْقِيقُ الأُسْتَاذ عَبُّودِ الشَّالِجِيِّ ؛ دَار صَادِر ؛ بَيْرُوت ؛ ط : ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

ـ وَانْظُر : ((الفَاخِر)) لِلْمُفَضَّلِ بْنِ سَلَمَةِ بْنِ عَاصِم ت ((نَحْو ٢٩٠ هـ)) ؛ [ص : ٥٩] ؛ تَحْقِيقُ الأُسْتَاذ عَبْدِ العَلِيمِ الطَّحَاوِيِّ ؛ وَمُرَاجَعَةُ الأُسْتَاذ مُحَمَّد عَلِي النَّجَّار ؛ دَارُ إِحْيَاءِ الكُتُبِ العَرَبِيَّةِ ؛ عِيسَى البَابِي الحَلَبِيُّ ؛ الطَّبْعَةُ الأُولَى : ١٣٨٠ هـ .

مِحْنَةٌ كَافِرَةٌ فَاجِرَةٌ !! ؛ إِنَّ الأَدِيبَ الَّذِى يُعْطِى الدَّنِيَّةَ فِى أَمْرِهِ ؛ يَصِيرُ عَبْدَاً ذَلِيلاً ؛ فَلا هُوَ بِالكَاتِبِ الْمُبْدِعِ ؛ وَلا هُوَ بِالتَّاجِرِ الَّذِى لا عَلاقَةَ لَهُ بِالأَدَبِ إِلاَّ أَنَّهُ يَعِيشُ فِى سِعَةٍ وَحُسْنِ حَالٍ !! ؛ إِنَّمَا هُوَ وَرَّاقٌ فِى هَيْئَةِ أَدِيبٍ !! ؛ أَضَاعَ عُمْرَهُ سُدَىً !! ؛ فَلا هُوَ بِالْمُبْدِعِ العَبْقَرِيِّ ؛ وَلا هُوَ مَن فَارَقَ الْمُعَانَاةَ الْمَادِيَّةَ الَّتِى يَعِيشُهَا الأُدَبَاء !! ؛ فَهُوَ ذَلِيلٌ !! ؛ ذَلِيلٌ !! ؛ ذَلِيل !! .

مَا هَذِهِ البَلَد؟!! ؛ أَحَرَامٌ عَلَى الأَدِيبِ أَن يَقُولَ فِى كُتُبِهِ : « هَا أَنَا » ؟!! ؛ أَمُعْجِزَةٌ بِهَذَا الوَطَنِ أَن يَعِيشَ صَاحِبُ القَلَمِ وَهُوَ يَرَى لِنَفْسِهِ كَرَامَةً كَكَرَامَةِ العُظَمَاءِ وَالنُّبَلاءِ ؟!! ؛ أَمَكْتُوبٌ وَمُقَدَّرٌ عَلَى الأُدَبَاءِ الشُّبَّانِ بِهَذِهِ الأَرْضِ أَن يَفْقِدُوا شَخْصِيَّاتِهِمِ الأَدَبِيَّةِ فِى بَدْءِ أَمْرِهِم ؟!! ؛ تَبَّاً لِمَن يَرْضَى بِذَلِكَ !! ؛ وَلَقَد رَضِىَ بِهِ بَعْضُهُم وَمَا رَأَوْا فِى ذَلِكَ سُبَّةً أَو عَاراً !! ؛ وَأَمَّا الآخَرُونَ فَقَد انْصَرَفُوا عَنِ الْمَيْدَانِ بِالكُلِّيَّةِ !! ؛ فَأَمَّا هَؤلاءِ الَّذِينَ بَاعُوا أَنْفُسَهُم فَهُم خَنَازِيرٌ عَفِنَةٌ !! ؛ وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ انْصَرَفُوا ؛ فَهُم ضُعَفَاءُ النُّفُوسِ !! ؛ لا عَزْمَ لَدَيْهِم !! ؛ وَلا بِأَرْوَاحِهِم إِرَادَةٌ !! ؛ أَمَّا أَنَا ؟!! ؛ فَأَنَا أَنَا !! ؛ أَنَا ابْنُ ذَاتِى !! ؛ أَنَا ابْنُ نَفْسِى !! ؛ مَا تَرَكَ لِى إِيمَانِىَ الرَّاسِخُ بِتَفَرُّدِى وَقُوَّةِ رُوحِى مِن صَدِيقٍ أَو صَاحِبٍ أَو رَفِيق !! ؛ أَنَا صَاحِبُ القَلَمِ الَّذِى لا يُدَانِيهِ فِى شِدَّةِ وَهَجِهِ قَلَمٌ أَو يَرَاعٌ !! ؛ سَأَمُوتُ قَبْلَ إِخْوَانِى بِلا رَيْبٍ عِنْدِى!! ؛ ثُمَّ سَيَمُوتُ رِفَاقِى جَمِيعاً ؛ وَسَتَبْقَى كَلِمَاتِى تُعْلِنُ عَن مَجْدِى وَتُخْبِرُ عَن خُلُودِى .

ثُمَّ :

وَأَمَّا كَلِمَةُ هَذَا « الفَاشِلِ » !! ؛ « التَّافِهِ » !! ؛ « الجَاهِلِ » !! ؛ فَإِنَّهَا مَازَالَت تَرِنُّ فِى أُذُنِى :

﴿ مَاذَا صَنَعْتَ بَعْدَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِى امْتَدَّت لِسَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ؟! ﴾

أَأَنَا يَا خَبِيثَ النَّفْسِ يُقَالُ لِى مِثْلُ هَذَا الكَلامِ؟!! ؛ أَتُنْكِرُ مَا قَد فَعَلْتُ وَصَنَعْتُ؟!! ؛ لَن أَغْضَبَ !! ؛ وَلَكِنِّى سَأَرُدُّ عَلَيْكَ بِهُدُوءٍ !! :

إِنَّ لِلعِلْمِ مَكَانَةً وَمَنْزِلَةً لا تُدَانِيهَا مَكَانَةٌ أَو مَنْزِلَةٌ !! ؛ فَهُوَ اليَقِينُ إِذَا مَا زُلْزِلَت العَقَائِدُ ؛ وَهُوَ الإِيمَانُ فِى سَاعَةِ الضَّلالِ وَالكُفْرِ ؛ وَهُوَ النُّورُ إِن انْتَشَرَ الظَّلامُ ؛ وَهُوَ الرُّجُولَةُ إِذَا مَا جَاءَ الضَّيَاعُ وَالهَذَيَان !!.

وَمِن لَدُنِ أَن مَضَيْتُ فِى هَذَا الطَّرِيقِ ؛ أَى مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا : وَأَنَا أُومِنُ بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ ؛ فَهِىَ الحَقِيقَةُ الَّتِى لا تَعْدِلُهَا أَو تُدَانِيهَا حَقِيقَةُ المَالِ أَو الجَاهِ أَو غَيْرِهِمَا مِنَ الحَقَائِقِ الحِسِّيَّةِ المَلْمُوسَةِ !! ؛ وَسِرْتُ فِي هَذَا السَّبِيلِ ؛ وَإِن كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كَم سَارَ فِيهِ مِن شَبَابٍ وَكُهُولٍ ؛ إِلاَّ أَنَّهُم سَقَطُوا فِى أَثْنَاءِ السَّيْرِ وَعَجَزُوا عَن مُوَاصَلَةِ الإِقْدَامِ أَو السَّعْى !! ؛ كُنْتُ وَحْدِى ؛ ثُمَّ سَارَ شَبَابٌ مِن أَبْنَاءِ مَدِينَةِ الرِّيَاضِ ؛ مِن قَصَبَتِهَا (١) وَبَادِيَتِهَا ؛ وَكَانَ مِن بَيْنِهِم هَذَا المِسْكِينُ الغَبِىُّ !! ؛ ثُمَّ أَخَذُوا يَتَسَاقَطُونَ وَاحِدًا وَاحِدًا وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِم !! ؛ وَأَكْمَلْتُ وَحْدِى ؛ فَلَمَّا اكْتَمَلَت أَدَوَاتِى أَو كَادَت : خَرَجْتُ إِلَى عَاصِمَةِ هَذِهِ البِلادِ ؛ وَأَعْلَنْتُ عَن نَفْسِى ؛ فَرَحَّبَ بِىَ القَوْمُ ؛ وَأَخَذْتُ فِى

(١) ـ مِن قَصَبَتِهَا : أَى مِن عَاصِمَتِهَا .

هَذِهِ البِلادِ ؛ وَأَعْلَنْتُ عَن نَفسِي ؛ فَرَحَّبَ بِيَ القَوْمُ ؛ وَأَخَذْتُ فِي العَمَلِ بِالمُؤسَّسَاتِ الثَّقَافِيَّةِ ؛ فَمِن وَاحِدَةٍ إِلَى أُخْرَى ؛ وَعَرِفَ النَّاسُ أَنَّ هَذَا الفَتَى يَقِفُ عَلَى أَرْضٍ لا تَهتَزُّ أَبَدَاً !! ؛ فَتَوَّجَ جَهْدِي بِأَن عَمِلْتُ بِدَارِ أَطْلَسٍ كَمَسْئُولٍ عَن قِسْمِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ وَالنَّقْدِ الأَدَبِيِّ ؛ وَجَاءَ « المَخْذُولُ !! » يُبَارِكُ !! ؛ أَخَذَت أَعْمَالِي تَصْدُرُ وَتَنْتَشِرُ ؛ وَيَأْتِي « المَرِيضُ !! » يُبَارِكُ !! ؛ ثُمَّ نُشِرَ لِي ذَلِكَ العَمَلُ الكَبِيرُ الضَّخْمُ « المُوجَزُ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ » ؛ نُشِرَ فِي الهَيْئَةِ المِصْرِيَّةِ العَامَّةِ لِلْكِتَاب ؛ وَكُنْتُ أَصْغَرَ مَن نَشَرَ كِتَابَاً بِهَذَا الحَجْمِ فِي تَارِيخِ الهَيْئَةِ المِصْرِيَّةِ العَامَّةِ !! ؛ وَجَلَسَ « المَعْتُوهُ !! » وَنَحْنُ عَلَى إِحْدَى المَقَاهِي « بِوَسَطِ البَلَدِ » بِالقَاهِرَةِ يُصَفِّقُ وَيَقُول : أَنْتَ تِلْمِيذِي النَّجِيب !! ؛ وَكُنْتُ أَتْرُكُهُ يَدَّعِي مَا يَدَّعِي لِعِلْمِي بِأَنَّهُ أُسْلُوبٌ مِن أَسَالِيبِ التَّعْوِيضِ النَّفْسِيِّ !! ؛ ثُمَّ نَشَرْتُ فِي العَامِ التَّالِي ـ أَي المَاضِي ـ عَدَدَاً كَبِيرَاً مِن أَعْمَالِي بِالقَاهِرَةِ وَبَيْرُوت وَعَمَّان ؛ جَاوَزَ العِشْرِينَ عَمَلاً !! ؛ فَأَنَا أَصْغَرُ أَدِيبٍ عَرَبِيٍّ صَنَعَ هَذَا الأَمْرَ الَّذِي يُعَدُّ مِنَ المَفَاخِرِ بِلا جِدَال !! ؛ وَهُنَا؟!!... ؛ أَبْدَى « المُعَقَّدُ !! » عَن دَخِيلَتِهِ وَعَن مَكْنُونِ صَدْرِهِ !!.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ :

فَالأَدِيبُ الَّذِي لا يَطْمَحُ لِسِوَى العَبْقَرِيَّةِ الَّتِي تَكْفُلُ لِصَاحِبِهَا البَقَاءَ وَالخُلُودَ ؛ مِنَ المُحَالِ أَن يَلْتَفِتَ إِلَى حُجَجِ الثَّكَالَى وَبَرَاهِينِ السُّذَّجِ وَأَدِلَّةِ مَرْضَى القَرَائِحِ وَالعُقُول !! ؛ فَرِسَالَةُ الأَدِيبِ رِسَالَةٌ مُقَدَّسَةٌ مِن قَدِيمِ الزَّمَانِ

وَمِن غَابِرِ الدَّهْرِ !! ؛ فَهِيَ عَتِيقَةٌ وَلَيْسَت بِمُحْدَثَةٍ ؛ فَمَن صَرَفَتْهُ دَعَاوَى الرِّعَاعِ وَالهَمَجِ وَالأَغْبِيَاءِ سَقَطَ سُقُوطاً مُنْكَراً فَاحِشاً !! ؛ نَعَم ؛ وَمَن سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَل .

وَإِنِّي عَلَى دَرْبِي لا أَمِيلُ وَلا أَحِيد ؛ وَسَأَصْنَعُ مَا أُرِيد ؛ وَإِنَّ غَداً لِنَاظِرِهِ قَرِيب ؛ وَسَأَبْقَى وَحْدِي حَتَّى النِّهَايَةِ .

﴿ يَمْضِي بِمُفْرَدِهِ وَلا أَحَدٌ مَعَهْ
تَنْمَى شِكَايَتُهُ وَلا لَم تَسْمَعَهْ
وَبِرَغْمِ نَكْبَتِهِ وَذَوْبِ شُجُونِهِ
لَم يُخْتَرَم يَأْسَاً وَوَارَى أَدْمُعَهْ
لا الحُزْنُ بَدَّدَهُ وَلا جُرْحُ الجَوَى
وَيَقُولُ دَوْمَاً : فِي البَقِيَّةِ لِي سَعَهْ
لا الرِّيحُ تَحْطِمُهُ وَلا زَمَنُ الأَسَى
مَا قَالَ يَوْمَاً لِلْهَوَى مَا أَوْجَعَهْ
وَالعَوْدُ بَعْدَ العَوْدِ لَم يَجْنِ لَهُ
إِلاَّ الصُّمُودَ فَلا هُنَا مَا أَفْزَعَهْ
فَعَلامَ تَنْتَلِبُونَ عَصْرَ مُهَذَّبٍ
كُنْهُ الخُلُودِ بِذِي الدُّنَا هُوَ أَبْدَعَهْ
مَا كَانَ يَوْمَاً ابْنَ جِسْمٍ زَائِلٍ
هُوَ قَد أَنِفَ لِحُطَامِكُم أَن يَجْمَعَهْ

لَو كَانَ يَرْغَبُ أن يَعِيشَ مُنَعَّمَاً
لَرَأى النِّفَاقَ؛ وَإِنَّمَا قَد أَقْمَعَهْ
جَعَلَ الرُّجُولَةَ هِيْ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ
صَاحَ الغِوَايَةُ فِى الوَرَى مُسْتَبْشَعَهْ
بَيْنَا البَغَايَا أَطْعَمَت أَقْرَانَهُ؛
أَمَّا هُوَ فَالنَّجْمُ فِى مَهْدِ الطُّفُولَةِ أَرْضَعَهْ
دَع شَأنَهُ !! ؛ هُوَ لِلبَقَاءِ مُخَلَّدٌ
فَالرَّبُّ إِن يَرْغَب فَمَن ذَا يَمْنَعَهْ ؟! ﴾(١)

✿✿✿✿✿

كولردج العرب

محمد محمود دحروج

الشَّهِيرُ بـ:

﴿ نِزَار شَاهِين المِصْرِى ﴾

وكَانَ الفَرَاغُ مِن تَقْيِيدِ هَذِهِ الكَلِمَات

فِى سَحَرِ لَيْلَةِ الأَحَد 25/5/2013

بِمَنْزِلِى ؛ بِجَوْفِ الحَارَةِ العَتِيقَةِ ؛ بِمَدِينَةِ الرِّيَاض ؛ بِشَمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّة

✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿

(١) - ((يَمْضِى بِمُفْرَدِهِ !!)) ؛ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى ﴿ مَرْثِيَّاتُ الزَّمَنِ القَدِيم ﴾

مقالات لابد منها

.....

٥ - حَظُّ الأَدِيبِ فِي مِصْرَ !!(١)

.....

خَاضَ بَعْضُ أَفَاضِلِ الكُتَّابِ فِي هَذَا الحَدِيثِ - فَتَظَاهَرُوا عَلَى أَنَّ الأَدَبَ لا يُجْدِي فِي مِصْرَ عَلَى أَهْلِهِ !! ؛ وَإِن هُوَ أَجْدَى بَعْضَ الأَحْيَانِ ؛ فَفِي شُحٍّ وَتَقْتِيرٍ !! ؛ إِذ هُوَ فِي بِلادِ الغَرْبِ يَعُودُ بِالغِنَى وَالثَّرَاءِ ؛ وَقَد يَعُودُ بِأَوْسِعِ الغِنَى وَأَضْخَمِ الثَّرَاءِ ؛ وَرَاحُوا يَتَشَعَّبُونَ مَذَاهِبَ العِلَلِ وَالأَسْبَابِ لِهَذِهِ الحَالِ : وَمِن بَيْنِ هَذِهِ الأَسْبَابِ قِلَّةُ عَدَدِ المُتَعَلِّمِينَ فِي البِلادِ ؛ وَفُتُورِ هَؤلاءِ عَن اقْتِنَاءِ كُتُبِ العِلْمِ وَالأَدَبِ ؛ وَخَاصَّةً إِذَا اسْتُخْرِجَت (٢) منه أثمانها ؛ وانتشار الأدب الرخيص تنتضح به بعض المجلات الأسبوعيَّة فيُقبل عليه الشباب من المتعلمين ومن لا يزالون في طريق التعلُّم - مُطاوعةً للشهوةِ ؛ ولأنه لا يحتاج إلى كَدٍّ ولا مُطاولةٍ .

وكذلك أضافوا الأمر إلى أثَرَةِ الناشرين واستغلالهم حاجة الأدباء

---

(١) - ((مَجَلَّةُ الرِّسَالَةِ)) ؛ العَدَدُ : ٣ ؛ [٩ - ١٢] ؛ بِتَارِيخ : ١٥ - ٢ - ١٩٣٣ ؛ ؛ بِقَلَمِ الأُسْتَاذ عَبْدِ العَزِيزِ البِشْرِي .

(٢) - عِنْدَ هَذَا الحَدِّ خَرَجَت رُوحِي ؛ وَسَئِمْتُ مِن وَضْعِ الحَرَكَاتِ وَالشَّكْلِ .

وضعف وسائل هؤلاء إلى القيام بنشر آثارهم بأنفسهم؛ ثم إلى عدم عناية القادرين - من أيِّ صنفٍ كانوا - بالأدب الرفيع يُذْكُونَهُ بألوان المعونة والتشجيع.

وكُلُّ هذه الأسباب لا تعدو في رأي الحقِّ الواقع في كثيرٍ ولا قليلٍ؛ وعلى ذلك لم أدفع القلم اليوم لمناقشتها والتماس سواها؛ وإنما لأسرد تاريخاً مُوجزاً لصلة الأدب بالمادة في بلادنا: ابتداءً من الجيل الذي شهدنا طرفه إلى غاية هذا الجيل الذي نعيش فيه:

كان الأدب من بضعٍ وخمسين سنةٍ مجُرَّد حليةٍ وزينةٍ؛ يتكلَّفه المتأدبون: إما للمُفاكهة والتعابث والتظرُّف؛ وإما للزُّلفى طلباً للتمكين من المنصب أو الحظوة عند أولي الأمر؛ أو استخراجاً للإحسان.

لم يكُن الأدبُ - في الجُملة - إذن يطلب غرضاً سامياً؛ سواء من إمتاعِ النفس باطلاعها على ما في الكون من فتنةٍ وجمالٍ؛ أو معالجة القضايا العامة ومُلابسة الأسباب الدائرة بين الناس؛ فكان الشعر - في الجُملة أيضاً - يدور في المذاهب التي سلكها العرب الأقدمون من مدحٍ؛ وهجاءٍ؛ وفخرٍ؛ وغزلٍ؛ ورثاءٍ؛ على أنه - حتى في هذه الأغراض الضئيلة - لم يكُن أكثره على شيءٍ من الخطر؛ سواءً في سُمُوِّ المعاني؛ أو في قُوَّة الأداء - بل كان نسلاً ضعيفاً مُتزايل الأجزاء... ؛ أما النثر - وأعني النثر الفنيَّ بالضرورة - ؛ فكان أشدَّ فُسولةً وأبلغ تزايلاً؛ كلامٌ لا يكاد يجري لغرضٍ أو يستشرف إلى غايةٍ؛ إنما هو السجع يُلتزم فيه كُلِّهِ؛ فترى فيه السخن والبارد؛ والحلو والحامض.

لم يكُن من شأن هذا المقال أن يعرض للأسباب التي بعثت هذا الأدب القويَّ العالي الذي نذوقه اليوم ؛ فذلك مبسوطٌ في كُتُب تاريخ الأدب العربيِّ ؛ وإنما عقدنا هذا الكلام لإيراد موجزٍ من تاريخ التكسُّب بالأدب عندنا في العصر الحديث كما ذكرنا في صدر هذا المقال .

لقد كان التكسُّب بالشِّعر - في الجُملة - من طريقٍ واحدةٍ : هي أنَّ طائفةً ممن يتكلَّفون نظم الكلام كانت الحاجة تبعثهم إلى أن يرتصدوا إلى حُكَّام البلاد وأعيانها ومُوسريها ؛ حتى إذا دخلت على أحدهم نعمةٌ من أيِّ لونٍ كانت ؛ أو مات له ولدٌ أو نسيبٌ - بادروا بإزجاء التهنئات يُموِّهُون حروفها بماء الذهب ؛ أو المراثي يجُلِّلون رقاعها بالسَّواد ؛ ولا يزالون يختلفون إليه في طلب العطيَّة ؛ وقد لا يظفرون في الغاية إلاَّ بتسريحٍ بغير إحسان !!.

ولقد أساء هؤلاء إلى الأدب إساءةً بالغةً ؛ بحيث نشأت ناشئة الجيل الماضي وهي لا تكاد ترى في الأدب إلا الكُدْيَة !! ؛ ولا في الأديب إلا أنه شحَّاذ !!.

أما التكسُّب بالنثر - فكان له طريقٌ آخرٌ أقبح من ذاك وأخزى !! ؛ وذلك بإصدار صُحُفٍ صغيرةٍ حقيرةٍ !! ؛ قد تظهر مرَّةً في الأسبوع أو في الشهر أو في نصف العام ؛ ومادة كسبها في الواقع من تخويف ضعاف النُّفُوس بتشهيرهم وطلب معايبهم والتدسُّس إلى مكارههم إلى أن يشتروا أعراضهم - فإن فعلوا ؛ وَإِلاَّ فَلأُمِّهِم الهَبَل !!.

ولقد انتهى - والحمدُ للهِ - هذان الضربان من التكسُّب بالأدب ؛ ولم يبق

لهما في بلادنا ـ على ما أرى ـ من أثرٍ ؛ ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى تغيُّر فهم الناس لمعنى الأدب ؛ وارتفاعهم به على ذلك الهوان ؛ وإلى انتشار الثقافة بوجهٍ عام ؛ وإلى خشية سطوة القانون بوجهٍ خاص .

وليس معنى هذا أنه لم يكُن هناك لا أدبٌ ولا أدباء !! ؛ بل كان الشُّعراء وَخِيَارُ الكُتَّاب ؛ إلا أنه لم يكُن يتكسَّب أحدٌ من هؤلاء ـ ما عدا الصحفيين المُحترفين ـ بصنعة القلم .

نعم كانت الصحافة بمعناها الصحيح ـ ولا زالت ـ مهنةً كريمةً نبيلةً تُجْدي على أصحابها وعلى المُشتغلين بها ما يعودون به على شملهم ؛ بل ما قد يُغنيهم ويُضيف إليهم الثروات الضخام .

أما هُواة البيان ـ على حَدِّ التعبير الحديث ـ ؛ فلم يكُن لهم من هذه الجدوى نصيب .

ثم كانت « الجريدة » ؛ وقام على شأنها الأستاذ العلاَّمة الكبير أحمد لطفي السيِّد بك ؛ فرأى أن يدعو نفراً من كبار العُلماء والكُتَّاب إلى تغذية الجريدة من وقتٍ لآخرٍ بالمقالات المُتخيَّرة المُنتقاة في مُختلف أسباب الحياة ؛ واجتعل لهم لذلك الجُعَالات ؛ ولعلَّه في ذلك كان مُتهدياً بِسُنَّةِ الصحافة في الغرب .

على أنه لمَّا اشتدت قُوَّةُ الصحافة في مصر وعظُم انتشارها بحُكم اطِّراد الحضارة وكثرة المُتعلِّمين ؛ وازدياد تتبُّع الجمهرة للأسباب العامة وَشِدَّةِ اهتمامها بها ـ اضطرَّت كُبريات الصُّحُف ـ بنوعٍ خاصٍّ ـ إلى العناية بتجويد

تحريرها ؛ وإغزار مادَّتها ؛ حتى لقد جرَّدت بعض صفحاتها لطريف البحوث في شتى العلوم والفُنُون ؛ وفوق أنها أضعفت وظائف مُحَرِّريها أضعافاً ؛ فقد جعلت كذلك تؤجر الكاتبين فيها من غير مُحَرِّريها بما لم يكُن يحلُم به أحدٌ من عشر سنواتٍ خَلَت !! ؛ هذه حقيقةٌ للأُدباء أن يغتبطوا بها ؛ وإذا كان المدى بين حظوظهم وبين حظوظ رُصَفَائِهِم في الغرب لا يزال فسيحاً ؛ فلهم من الأمل في القريب مزيدٌ إن شاء الله .

بَقِيَ الحديث في التكسُّب بالأدب من طريق نشر الكُتُب ودواوين الشعر ـ والذي شهدناه من أعقاب الجيل الماضي ولا نشهد غيره إلى اليوم : أن الكسب من هذه الطريق يكاد يكون مكسوراً على جماعة الورَّاقين ـ كما قال بحَقٍ بعض كبار الكاتبين ـ ؛ على أنني أرجو منه أن يأذن لي في استثناء أصحاب الكُتُب المُقرَّرة للتدريس ؛ فأولئك وحدهم المجدودون ؛ أو الذين كانوا مجدودين إلى وقتٍ قريبٍ .

لقد كان الأدب عندنا ـ ولعلَّهُ لا يزال عند الأكثرين إلى الآن ـ ينتظم في سمط الكماليَّات ؛ والكماليَّات عند أكثر الناس ليست حقيقةً بأن يخُفَّ المرء إليها ؛ اللهُمَّ إلا إذا واتته عفواً ؛ أو بغير مشقَّةٍ ولا جليل إنفاق .

فبات بديهاً ألا تنفق كتب الأدب حتى تعود على أصحابها بنفقات طبعها ؛ بله الثروة وكرائم الأموال .

أما كُتُبُ العلم ـ فإن العلم يُطلب في بلادنا على أن يُفضي إلى إحراز شهادةٍ رسميَّةٍ تُقلِّد محرزها منصباً حُكوميَّاً ؛ فإذا لم يكُن الأمر على هذا ؛

فلا كان علمٌ !! ؛ ولا كان تعليمٌ !!.

هذه حقيقةٌ واقعةٌ ؛ أرى أن إنكارها ضَرْبٌ من الغشّ والتدليس مُشايعةً لهوى الجمهور ؛ والعياذ بالله !! ؛ لعلّ واحداً في كُلِّ ألفٍ من الذين ختموا دروسهم في بلادنا هم الذين يَشُقُّونَ كتاباً علميّاً ؛ لا تدعوهم إلى شَقِّهِ حاجة المهنة .

نعم ؛ لعلّ في الألف من المتعلمين واحداً أو دُون الواحد هم الذين يطلبون العلم ويُراجعون مُدوّناته ليُكملوا أنفسهم ؛ وليتزيّدوا من معارفهم ؛ ويُفسحوا في ملكاتهم .

العلم عسير الهضم !! ؛ يَكِدُّ الذهن !! ؛ ويجُهد النفس !! ؛ ففيم مُكابدته وشِدّة المطاولة في تحصيله ما لم تقض بتحصيله ضرورةٌ مُلِحّةٌ قاسيةٌ ؛ من إرهاق الوليّ ؛ أو إلحاح الحاجة ؛ أو جموح الشهوة إلى المنصب بغرض الجاه ؛ ويعزُّ في الأهل والصحاب؟!! ؛ فكيف تُريدون أن تنفق عندنا كتب العلم للعلم ؟!!.

أما الكُتُبُ المُقرّرة للتدريس ؛ فهي التي كانت - إلى وقتٍ قريبٍ - تُدِرُّ على أصحابها الكثير ؛ بل الذي يستطيعون أن يُكاثروا به أعلى مؤلفي الغرب قدراً وأبعدهم صوتاً !! ؛ ولا أحسب أن هذا الإجداء كُلَّهُ يرجع إلى فضل المؤلفين وحده وَعِظَمِ تجويدهم لما يخُرجون من فُنُون الكُتُبِ ؛ بل لعلّ شيئاً من ذلك يعود إلى أن هذه الكُتُبَ مفروضةٌ فرضاً على العديد الأكبر من تلاميذ المدارس تشتريه وزارة المعارف لهم ؛ أو تُريدهم على شرائه وإلا خُذِلُوا في

الامتحان وأفلتتهم الإجازات ؛ أو على الأصحِّ فاتهم التأميل في المناصب الحُكُوميَّة ؛ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله !!.

الواقع أن أكثر الكُتُبِ المُقرَّرة مُوفٍ على الغاية من التجويد والإحسان ؛ ولكنها غير مدينةٍ في رواجها إلى هذا التجويد والإحسان ؛ بل هي مدينةٌ في ذلك - مع الأسف الكثير - لأنها مفروضةٌ على التلاميذ فرضاً ؛ ولو قد عُدِلَ عنها ما أخرجت المكتبات عُشْرَ ما خرج منها على أسخى تقرير .

وهذه الحقيقة المُرَّةُ القاسيةُ تُرينا مبلغ حظِّ العلم والأدب في هذه البلاد !!.

ومهما يكُن من شيءٍ ؛ فإن لنا أن تغتبط - ولو قليلاً - إذا نحن قسنا حاضرنا بماضينا القريب ؛ فبين مُؤلفينا من يستردُّون من أثمان مُؤلَّفاتهم ما أخرجوا لطبعها ؛ وفيهم من تفضل عليهم من الربح الكثير أو القليل .

وكُلُّ الذي نرجو أن تَطَّرِدَ هِمَمُ الشباب في تحصيل العلم الصحيح ؛ وتتجرَّدَ عزائمهم في طلب الأدب العالي ؛ مُعرضين عن التماس هذا الأدب الهيِّن الرَّخيص !! ؛ هُنالك تنبعث في البلاد الحياة القويَّة العزيزة ؛ وهُناك يُجازى العُلماء والأُدباء بما يُكافئ الجهد العظيم .

✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿

.....

○ - بَيْنَ كَرَامَةِ الثَّقَافَةِ وَضَآلَةِ المِهْنَةِ !! (١).

.....

في العالم الأوربيِّ والأميركيِّ ملايينُ المُثقَّفين الذين تُلقي بهم المقادير مُكرهين إلى المهن الضئيلة في غير رفقٍ ولا رحمةٍ ؛ فلا يُقال إن العلم بذلك قد أُهينت كرامته وانتُهِكَت حُرمته !! ؛ لأنهم يفهمون العلم على أنه سبيل الرُّجُولة التي تدفع بصاحبها إلى الضرب في زحمة الحياة في غير تردُّدٍ أو تبرُّمٍ حتى يُساهم في الإنتاج وقد أنِفَ من أن يعيش حَمِيلَةً على غيره .

أما نحن فنفهم العلم على أنه الوسيلة إلى المكاتب الفخمة والمراوح الجميلة والأُبَّهة المرموقة والفخفخة المغبوطة ؛ ولذلك أصبحت للعلم في مصر كرامةٌ « محليَّةٌ » خاصَّةٌ بهذا البلد التَّعِسِ ينبغي إن ذكرتها أن ترفق بها وألا تشتد عليها ؛ وَإِلاَّ فقد أدميتها بشدَّتك وآذيتها بقسوتك !!.

هذا التَّرَفُّهُ في مظاهر الحياة آية الأُمم عندما تَدُبُّ إليها الشيخوخة ويمضي عهد شبابها ؛ ولست أجد شاهداً على صدق هذا أعدل من الدولة الرُّومانيَّة التي أصابت في عهد فُتُوَّتها من الغنى والثراء والأسرى ما أدخل الغرور إلى

---

(١) - « مَجَلَّةُ الرِّسَالَة » ؛ العَدَد : ٤ ؛ [٣٢ - ٣٤] ؛ بِتَارِيخ : ١ - ٣ - ١٩٣٣ ؛ بِقَلَمِ الأُسْتَاذ تَوْفِيق الطَّوِيل .

نفوس أبنائها ؛ فمالوا عن فلاحة الأرض واستثمارها ؛ وجنحوا عن الاشتغال بالجُنديَّة إلى اللهو والتَّرف ــ فلم يُغن عنهم مالُهُم وعبيدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعلومهم ؛ وارتجَّ عرش دولتهم أمام القبائل المتوحشة من الصقلب والكلت والجرمان !! ؛ وما لبث التاريخ أن شهد مصرع الدولة العظيمة ومجدها يتوارى وعزُّها يغرب وجلالها يميل إلى الانحدار !!.

نعلم أن من طبيعة المُجتمع أن يَحِنَّ إلى الكمال ؛ وينزع إلى المثل الأعلى ؛ ولا يُقيم على حُبِّ « الواقع » فيطمح إلى ما ينبغي أن يكون ؛ ولا أكاد أشُكُّ في أن المُجتمع لا يسعه أن يحُقِّق مَثَلَهُ الأعلى كما ينبغي أن يحُقَّق إن ظلَّت المهن التافهة مقصورة على الأُميين والجهلة ؛ لأن جُمُودهم الذهنيَّ وظلامهم العقليَّ يحُولان دُون تطور هذه المهن وتدرُّجها إلى الكمال .

وهكذا حدَّثنا تاريخ الزراعة في مصر ؛ شُغِلَ بها الجهلةُ ؛ ومال عنها المُثقَّفون من طُلاَّب الزراعة الذين انطلقوا كُلَّما أتموا دراستهم يبحثون عن وظيفةٍ يظفرون فيها بالمكتب والمروحة وما إليهما من راحةٍ ونعيمٍ !! ؛ فكانت النتيجة أن الفلاَّح المصريَّ مازال يستخدم من الآلات ما كان يستخدمه أجداده الأولين !! ؛ ولو مارس المهنة المثقفون من طُلاَّب الزراعة لتطورت على أيديهم وسارت إلى الكمال بين الحين والحين ؛ وبدت آياتها في شتى مناحيها ؛ ولكن هؤلاء قد جهلوا أن غاية العلم تنحصر في « خدمة المُجتمع » !!.

ولستُ في شَكٍّ من أن السائح الذي يرى معالم النهوض تبدو في مصر

واضحةً في العمارة والعلم والفنِّ والاقتصاد ؛ ثم يشهد الانحطاط الذي يَدُبُّ في مهنة الزراعة عندنا سيأخذه الذهول والعجب !!.

إذا أردنا أن نُحقِّقَ للمُجتمع مَثَلَهُ الأعلى الذي ينشده ويحُنُّ إلى تحقيقه - فلنعُد إلى شتَّى طبقاته ؛ ونُوجد بينها التعاون الفكريَّ ؛ ليُوجد التوازن في التطور الذي يعُمُّ الحياة ويسود مرافقها .

وأظُنُّ أن المُجتمع يحُسن إلى نفسه كثيراً إن هو غيَّرَ نظرته إلى المهن التافهة - لأنَّ الاحتقار الذي يصُبُّهُ الناس عليها يُباعد بينها وبين رغبة المثقفين في الاشتغال بها .

كان توماس كارليل يتغنَّى بالبُطُولة ويُناشد الإنسانيَّة عبادة أصحابها وإجلال شأنهم ؛ فما تاريخ الإنسانيَّة في زعمه إِلاَّ تاريخ العُظماء من أبنائها .

ولكن سبنسر يقول : إن البطل يبني عظمته على حساب من يبخل عليهم المُجتمع باحترامه ؛ فمن جهاد الجُنديِّ المسكين استعار القائد عظمته ؛ ومن شقوة العامل المُعذَّب استمد الثريُّ راحته .

فمن الظُّلم والجَوْرِ أن نقول أن تاريخ الإنسانية بأسرها تاريخ العظماء من أفرادها .

ولكنَّ الإنسانيَّة قد بدأت تُكفِّر عن سيئاتها حين هبَّت تحُيي الجُنديَّ المجهول « في ميدان الحرب » ؛ وترفع من شأنه ؛ وتجُلُّ من ذِكْرِه ؛ وقد بَقِيَ عليها أن تمضي إلى إجلال الجُنديِّ المجهول في ميدان السِّلْم ؛ إذ مازالت تعيش على عرق جبينه في الكثير من مناحي حياتها .

وأكبر ظنّي أن هذا الإجلال الذي سيظفر به الجُنديُّ المجهول قبل أن يُواريه التُّراب خير ما يُمهِّد للمثقفين الطريق إلى الاشتغال بالمهن الضئيلة .

تساءل صامويل سمايلر : أيهما يخفض أو يرفع من شأن الآخر : المهنة أم الإنسان ؟!! ؛ إنما يرفع من شأن المهنة التافهة ناضجُ الفكر سليمُ العقل ؛ وكأنما تستعير المهنة من جلاله جلالةً ؛ ومن رهبة مكانته قداسةً .

وهذا بالإضافة إلى نتاجها الذي سيربو ويزداد على يديه ؛ واعتبر عكس هذا في المهن الرفيعة العالية يوم يشغلها من ليس أهلاً لها .

ولا ينبغي أن نخشى على عبقريّة المثقفين أن تنزوي وتفنى في تفاهة المهنة ؛ فإن العبقريّة الصحيحة لا تستكين لظُلم الزمان ؛ ولا تخضع لحِكم القدر ؛ وَإنَّ آياتها لتبدو وتلوح ولو كرهت ظروف صاحبها وعملت على طمس معالمها .

فاتركوا المثقفين يعملوا ويضربوا في زحمة الحياة حيثما ألقت بهم المقادير ؛ والجهاد خير محكٍّ للعبقريّة ؛ وأصدق ميزانٍ لها .

.....

۞ - رسالة الأديب فى مصر (١).

.....

وقف الفيلسوف الإنجليزيُّ توماس كارليل وقفةً طويلةً في كتابه ﴿ الأبطال ﴾ عند البطل في صورة الأديب ؛ وعرَّفه بأنه : ((الرَّجُلُ الذي يُرَدِّدُ لنا نفسه المُلهمة ؛ وأقول : المُلهمة ؛ لأنَّ ما نُسمِّيه بالعبقريَّة أو الصدق أو الموهبة أو صفة البطولة التي لا نجد لها اسماً خليقاً بها تَدُلُّ على أن الأديب : هو الذي يعيش في أعماق الأشياء ؛ في الحقيقيِّ ؛ في الإلهيِّ ؛ في الخالد الذي يوجد أبداً والذي لا تراه الدَّهْمَاء ؛ لأنه يختفي وراء الزائل الحقير دائماً أبداً .

الأديب هو الذي يُذيع هذا الخفيَّ للناس بالقول أو بالعمل ؛ وحياته إذن قطعةٌ من قلب الطبيعة الذي لا يعتوره الفناء)) .

ثم استعان بآراء الفيلسوف الألمانيِّ ((فختـه)) الذي أذاع سلسلة محاضرات في موضوع ((طبيعة الرَّجُل الأديب)) ؛ قال فيها : أنَّ كُلَّ الأعمال التي يعملها الناس ؛ والأشياء التي تقع عليها أبصارهم في هذه الدنيا ـ

---

(١) ـ ((مَجَلَّةُ الرِّسَالَة)) ؛ العَدَد : ١ ؛ [٢٣ـ ٢٥] ؛ بِتَارِيخ : ١٥ ـ ١ـ ١٩٣٣ ؛ بِقَلَمِ الأُسْتَاذ عَبْدِ الحَمِيد يُونُس .

ليست الا ثوباً أو مظهراً إحساسيًّاً يجثم وراءها ما أسماه «فكرة العالم الإلهيَّة» ؛ وهي : «الحقيقةُ التي توجد في أعماق المظاهر جميعاً .» ؛ وهي بالطبع لا تظهر لعامة الناس لأنهم يعيشون بين المظاهر والماديَّات .

فرسالة الأديب أن يُميِّز لنفسه وللناس هذه الفكرة الإلهيَّة بما فيها من روعةٍ وجمالٍ وقُوَّةٍ ؛ وأن يقف إلى جانبها مُعجباً مُتعجِّباً ؛ وأن يذيعها في الناس حتى يكونوا أنعم بحياتهم وأقدر على فهم وجودهم .

عليه أن يسمو بهم فوق رغبات العيش الماديِّ من طعامٍ وشرابٍ وكساءٍ ؛ وأن يُحرِّرهم - ولو إلى حَدٍّ ما - من قيود الزمان والمكان .

وأظنُّكَ تستطيع أن تتخذ هذا التعريف مقياساً توازن به بين الأدب الحيِّ والأدب الميِّت .

فكما يُوجد في هذا العالم أطبَّاءٌ ودجَّالون يدَّعون الطِّبَّ ؛ كذلك يوجد أُدباءٌ وأدعياءٌ يدَّعون الأدب .

وإذا كُنْتَ تحرص الحرص كُلَّهُ على التمييز بين النقود الصحيحة والنقود الزائفة وهي التي تحصل بها على أغراضك الماديَّة ؛ فالأجدر بك أن تكون أكثر حرصاً على التمييز بين الآثار الأدبيَّة الصالحة والآثار الأدبيَّة الزائفة ؛ وهي التي تحصل بها على أغراضك الرُّوحيَّة .

والأديب يُولد ولا يُصنع - كما يقول الإنجليز - ؛ أي أنه رَجُلٌ لا يكتسب صنعة الأديب بالتعلُّم وَالمِرَان ما لم يكن موهوباً بطبيعته ؛ بَيْدَ أن هذه الموهبة كالشجرة ؛ ما لم تُثقَّف وتُشذَّب فلن تُؤتي أُكلها لذيذاً شهيّاً .

نخرج من هذا : بأنَّ الأديب في مصر هو الأديب في غير مصر ؛ وأن رسالته هُنا هي بعينها رسالته هُناك ؛ وكل ما في الأمر اختلاف طرائق التعبير .

على أن مُهِمَّةَ أديبنا أشقُّ من مُهِمَّةِ الأديب الغربيِّ ؛ لأن الغربيين يعرفون لأديبهم قدره ؛ فيبسطون له في الرزق حتى ينصرف إلى الإنتاج الأدبيِّ الصالح ؛ بينما يُنكر المصريون أديبهم ؛ ويُضيِّقون عليه الخناق ؛ وهم إن اعترفوا له بشيءٍ ؛ فإنما يكون هذا الاعتراف بعد أن يُفارق هذه الدنيا !! .

ولهذا - دُونَ شَكٍّ - أثره البالغ في خُلُقِ الأديب ؛ فهو إما أن يتزلَّف إلى السُّلطات الحاكمة ؛ أو يترضَّى الأُمراء والزُّعماء ؛ فإذا لم يستطع هذا أو ذاك أخذ يتملَّق الجمهور !!.

ولا تتهمني بالمبالغة ؛ فأمامك تاريخنا الأدبيُّ الحديث ؛ فهو حافلٌ بأسماء الأدباء « وأشباه الأُدباء » الذين كانوا أقرب إلى المتسولين منهم إلى أيِّ شيءٍ آخر !! ؛ والذين انحطُّوا بصناعة الشعر والنثر إلى الدَّرْكِ الأسفل ؛ حتى أصبح الأدب نوعاً من « البهلوانيَّة » في التعبير !! ؛ فإذا ألحَّت عليهم الحقيقة اتخذوا في إذاعتها فُنُون اللَّفِّ والدوران والمُواربة !! ؛ وما أقلَّ أُولئك الذين عافت نفوسهم التمسُّح بأذيال السَّادة ؛ أو التعلُّق بأرْدَانِ الجماهير !! .

والأديب - بل وشبه الأديب - معذورٌ ؛ لأنَّ الجماعة لا تُريد إلاَّ من يُسلِّيها ويُدخل السُّرور عليها ؛ أما الذي يكشف لها عن المُثُلِ العُلْيَا ؛ ويُظهرها على الفرق بين حاضرها وهذه المُثُلِ - فهو أبغض الناس إليها !!.

والأديب المصريُّ الذي يُريد أن يُؤدِّي رسالته على الوجه الأكمل :

يصطدم بعقبتين ؛ كلتاهما صعبةٌ شديدةٌ !! ؛ فما بالك إذا علمت أنهما مُتآخيتان !! ؛ هاتان العقبتان هما : « السياسة ؛ والتقاليد » .

أما السياسة ـ فقد طغت علينا ؛ وأفسدت مزاجنا الأدبيَّ ؛ حتى اضطربت موازين النقد في أيدي الكُتَّاب ورجال التعليم ؛ يجورون في أحكامهم على الأُدباء جوراً ظاهراً !! ؛ والطُّلاَّب والقُرَّاء في حيرةٍ ليس مثلها حيرة !! .

وأسرفت السياسة في طُغيانها !! ؛ واشتدت جنايتها على الأدب حتى انصرف الأُدباء إلى السياسة !! ؛ وأدركوا أنَّ الشُّهرة الأدبيَّة لن تأتيهم إلا على حساب الشُّهرة السياسيَّة !! .

والتقاليد أمرها غريبٌ حقّاً !! ؛ فهي من مُحاربتها للأدب والأُدباء تتستر وراء الدين حيناً ؛ ووراء السياسة حيناً آخر !! ؛ تظهر مرَّةً وتختفي مرَّات !! .

وويلٌ للأديب الذي يُتَّهم بالإلحاد !! ؛ وويلٌ للأديب الذي يُتَّهم بالخيانة !! وويلٌ للأديب الذي يُتَّهم بالإباحيَّة !! : لو كان مُوظَّفاً طُرِدَ من وظيفته !! ؛ ولو كان عالماً جُرِّدَ من شهادته !! ؛ ولو كان كاتباً حُورب في صحيفته !! .

على أن الأديب القويَّ هو الذي يصمد لهذا كله ؛ ويمضي في إذاعة رسالته مُؤمناً بانتصاره ؛ أو قُل : بانتصار آثاره ؛ تدفعه الفكرة الإلهيَّة التي فيه ؛ فإذا اعترف له أبناء عصره بفضله عليهم وعلى الأجيال المُقبلة من بعدهم ؛ فذاك ؛ وَإِلاَّ فقد كتب اسمه في ثبت الخالدين .

وأُدباء مصر في هذا الزمن هم « الطلائع » التي تتعرَّض للأخطار وتتلقَّى عن بقيَّة الجيش السِّهام تتلوها السِّهام ؛ والطلقات تعقبها الطلقات !! ؛

فعليهم أن يضربوا المثل الصالح لأبناء الجيل الجديد .

وإنّي لأعلم أن مُهِمَّةَ الأديب المصريّ في الجيل المُقبل ستكون أسهل من مُهِمَّةِ أخيه في هذا الجيل - لأنَّ الأخير عليه إلى جانب مُهِمَّتِهِ الأساسيَّة مُهِمَّةٌ أُخرى : هي « التمهيد » ؛ وتعبيد طرائق التعبير : من نحت ألفاظ ؛ وإصلاح ألفاظ ؛ ومن خلق قوالبٍ أدبيَّةٍ لم يكُن لها في تقاليد الأدب العربيِّ وُجُودٌ ؛ كالدرامة ؛ والشعر ؛ والقصص ؛ والمقال الاجتماعيِّ ؛ وما يتطلبه هذا كله من التغيير في قواعد النظم والكتابة .

وليذكر أولئك الذين يُغرمون بتأليف المجامع اللُّغويَّة : أن إصلاح اللُّغة لا يقوم به النحّاة والعروضيون وأصحاب الأبحاث الفيلولوجية ؛ وإنما يقوم به الأُدباء ؛ والأُدباء وحدهم ؛ لأنهم بطبيعة رسالتهم أقدر على ابتكار الألفاظ التي تتلاءم مع المعاني ؛ والأساليب التي تتفق والأغراض ؛ ثم هم أقدر على إذاعة هذه الأساليب وتلك الألفاظ في الناس ؛ ثم يأتي بعدهم أصحاب النحو والعروض وعلوم اللسان يستخرجون من آثارهم القواعد العامة ؛ ويُرتِّبُونها ؛ ويُصنِّفُونها ؛ ويضعون المُطوّلات والقواميس فيها .

فليمض الأُدباء المصريون - وهُم قِلّة - في تحقيق الرِّسالة السامية التي وُجِدُوا من أجلها ؛ والتي يعيشون لها ؛ والتي يجب أن يموتوا في سبيلها كما يموت كل صاحب رسالةٍ يؤمن برسالته ؛ وليكُن عزاءهم خلود آثارهم ؛ وأحرى بالناس أن يُقدِّرُوا الأديب الذي لا يعيش لنفسه ؛ وإنما يعيش لهم !! .

.....

ـ الفنانون والمال (١)

.....

يذهب دافنيل في كتابه عن « تاريخ الملكيَّة الاقتصاديّ » : أنَّ العمل الفنيَّ الذي أخرجه أُناسٌ مجهولون أوتِيَ ـ مُنْذُ القرن السابع عشر ـ ربما يُعادل ثلاثة أضعاف الرِّبح الذي قُدِّرَ للآثار الفنيَّة الرَّائعة التي أبدعها فنَّانون عباقرة عرفهم الناس ؛ فسار اسمهم وشردت روائعهم في كُلِّ مكانٍ ؛ أفيكون للمال الذي يربحه الفنَّان ؛ والرَّواج الذي يُقَدَّر لآثاره وروائعاته أثرٌ في قريحته ونبوغه؟ ؛ أيَدُبُّ اليأس في نفسه عند رُؤيته الغثَّ يروج وينفق ؛ والحسن يكسد ويُهمل ؟

هذا الأثرُ ـ كما أعتقد ـ يظهر في عدد المؤلفات وفي شكل الآثار عند من يبتغي المال ؛ ويتخذ الفنَّ سبيلاً له ؛ ويُبدع ـ إن أبدع ـ للسُّوقة لا للخواص ؛ لا جَرَمَ أن هُناك فنَّانين ذوي اقتصادٍ أو بُخْلٍ أو تفتيرٍ ؛ وأن هُناك آخرين ذوي سَرَفٍ وترفٍ وتبذيرٍ ؛ وأن فيهم جميعاً من يُحِبُّ المال ويسعى إليه ؛ ولكن ذلك كله لا يُؤثِّر في عبقريَّة الفنَّان فيُشلُّها أو يُعِلُّها .

---

(١) ـ « مَجلَّةُ الرِّسَالَة » ؛ العَدَد : ٤٩٩ ؛ [١٣ـ ١٥] ؛ بِتَارِيخ : ٢٥ ـ ١ ـ ١٩٤٣ ؛ بِقَلَمِ الأُسْتَاذ صَلاحِ الدِّينِ المُنَجِّد .

لقد كان من المُقترين : الموسيقيُّ الإيطاليُّ باليسترينا ؛ وفيكتور هوغو ؛ وميكيل آنج ؛ وكان من المُبَذِّرين : موزار ؛ ولامرتين ؛ ورامبراند ؛ ولكن لم نَرَ أن حُبَّهُم للمال أو تقتيرهم فيه أو حرصهم عليه : كان سبباً في خصب قرائحهم أو جدبها ؛ لأنَّ الحقيقة هي أن هؤلاء - ونعني الفنَّانين الموهوبين - سواءٌ أمُبذِّرين كانوا أم مُقترين : يجدون في الفنِّ حاجةً لا يتحولون عنها ؛ لأن فيها متعة ولذّة ؛ فهم لا يعملون - كُلٌّ في فَنِّـهِ - ابتغاءَ المال ؛ لكن إرضاءً لأنفسهم ؛ إذ ليس بهم سبيلٌ إلى الصدوف عن الفنِّ ؛ فهم يعملون للفن ؛ كما يعملون - بقدرٍ - للحياة ؛ ينظمون كما يُبصرون ؛ ويشعرون كما يأكلون ؛ ويُصوِّرُون كما ينامون !! ؛ فإذا أشبعوا نفوسهم الجياع ؛ ورووا أرواحهم الظمآء بإبداع مُتع الفنِّ الخالدات - تطلّعوا إلى المال ؛ فحاسَّة الفنِّ ؛ ما هي غير الرغبة في المال ؛ لأن الرغبة في المال حاسَّةٌ تساعد الفن ؛ فما هي بالتي تبدع وتخلق ؛ ولكنها تدفع وتُهيِّج .

وقد يكون من النُّزُوع عن جَدَدِ العقل أن نُقدِّر قيمة مُؤلَّفٍ من التواليف ؛ أو أثرٍ من الآثار : بما يُقدِّم لصاحبه من الأموال !! ؛ فقد يخرج الفنَّان آيةً من آيات الفنِّ تتجلَّى فيها العبقريَّة والنُّبوغ والسُّمُو ؛ فلا يُقدَّر لها النجاح !! ؛ ولا يُقدِّم لصاحبها إلا « فلوس » غير كِثار !! ؛ وقد يخرج مُتأدِّبٌ من الأدب السُّوقيِّ ما يُوافق عقل العاميِّ ويُطابق هواه - فينال النَّفاق والرَّواج ؛ ولقد ربح كورنيل الكبير من مسرحيته « آتيلا » و« تيت وبيرينيس » ما لم يربحه من « السِّيد » أو « هوراس » !! ؛ فقد نال في كُلٍّ منهما ما كان يُعادل في

القرن الخالي سبعة آلاف من الفرنكات ؛ وهذا مبلغٌ - في القرن السابع عشر - عظيمٌ ؛ رغم أن هاتين المسرحيتين لم تبلغا ذروة الفن !! .

ونال توماس كورنيل من مسرحيته « تيموقراط » ما يفوق هذا المبلغ ؛ مع أنَّ توماس كان لا يُجاري أخاه كورنيل الكبير في البراعة !! .

وكانت الآثار التي جلبت لرسُّو الأموال ؛ هي آثاره التي نسيها الناس في هذه الأيَّام !! ؛ فلقد مهَّد معجمه السبيل للمال ليصل إلى جيبه .

وربح هوغو من « البائسين » أربعمائة ألف فرنك ؛ وما كانت بأروع آثاره .

وقد أُوتِيَ الرِّوائيُّ الفرنسيُّ أوجين سو هذا المبلغ من كتابيه « خفايا باريس » و « اليهوديُّ التائه » ؛ وتخطَّاه ربح بونسون داتيراي من كتابه « روكومبول » .

فمن أراد الفنَّ ؛ لا يحفل المال .

ويقول الدكتور لالو : إذا أردت أن تعيش عيشةً طيِّبةً : فاكتب وريقات ؛ وميلدرامات ؛ وضع للتمثيل الموضوعات ؛ أما إذا أردت أن تخدم الفنَّ ؛ وتُخرج رائعات فاتنات : فاعزف عن العيش الناعم ؛ والمال الكثير ؛ فإذا كان عيشك الساذج آنئذٍ مُترعاً بالفنِّ والجمال ؛ فإنه لعيشٌ لا يقدر عليه من البشر غير أفرادٍ قِلال !! ؛ وقد يُخشى أن يسفُل الفنُّ إذا سعى وراء المال .

ويقول برودون في كتابه : « ليس لدينا في مكان الأدب والفنِّ ؛ غير صناعةٍ مُقدَّرةٍ لخدمة الترف العامل على الفساد والخراب » .

ولقد احتج على الملكيَّة الفنيَّة وحقوق الفنَّانين في القرن الخالي ؛ وقال إنه ليس من يكتب للفن ؛ وليس من يبدع للفن ؛ فهم جميعاً يبتغون التجارة ؛ ويُساعدون بما يكتبون على فساد البلاغة !! ؛ وخراب الروح !! .

وكان شارل نوديير - الرِّوائيُّ المعروف - يحسب عندما يكتب : أن كل ثماني كلمات تؤلف سطراً ؛ وأن السطر ثمنه فرنك واحد !! .

وقد علَّلوا وفرة حروف الاستفهام والتعجب عند أبطال « دوماس الكبير » في رواياته ؛ كقولهم : أوه !! ؛ أو : آه !! ؛ أو : إيه !! ؛ بأن ثمن السطر كان فرنكاً ونصف فرنك ؛ وهذه الحروف كانت تحسب في السطر من الكلمات التِّسع !! .

وقد لاحظ النقَّادة الفرنسيُّ « سانت بوف » هذا ؛ فقال : « إذا كنت تجد عند مُؤلِّفٍ بارعٍ كهذا - يعني دوماس الأب - جُملاً فارغةً جوفاً ؛ فذلك لأنه قد اعتاد مُنذ الصبا أن يُشوِّه جُمله ؛ فيضع أقلَّ ما يكون من الفِكَر في أكثر ما يكون من الكلمات !!. » .

وما ذلك الإسهاب إلا لإكثار عدد السطور !! ؛ وإكثار عدد الفرنكات !! .

فبرودون يغضب ويثور !! : لأنَّ الفنَّ لا ينبغي أن يُصبح سلعةً يُلتمس من ورائها المال فتُبتَذل !! ؛ ولكن يجب أن يبقي مُتعةً يُلتمس فيها الجمال والخُلُود .

.....

ـ كَلِمَةٌ عَن بِنْيَةِ هَذَا الكِتَاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

أَقُولُ دَائِمَاً : لِكُلِّ كِتَابٍ مَنْهَجٌ وَخُطَّةٌ وَطَرِيقَةٌ ؛ وَلَقَد اعْتَادَ مَن يَقْرَأُونَ أَعْمَالِي عَلَى رُؤْيَتِى فِى كُلِّ مَرَّةٍ بِصُورَةٍ جَدِيدَةٍ !! ؛ حَتَّى لَقَد يَظُنُّ أَحَدُهُم أَنَّ مَن كَتَبَ السِّلْسِلَةَ الَّتِى صَدَرَت فِى عَامِ 2012 عَن دَارِ أَطْلَس بِعُنْوَان : « مَكْتَبَةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة » ؛ لَيسَ هُوَ مَن كَتَبَ المَجْمُوعَةَ الثَّانِيَةَ وَالَّتِى خَرَجَت فِى عَامِ 2013 !! ؛ وَمِنَ المُحَالِ أَن يَكُونَ هُوَ نَفْسَهُ مَن نَشَرَ أَجْزَاءَ المَوْسُوعَةِ الأَدَبِيَّةِ المَوْسُومَةِ بِـ « المَقَالات الشَّوَارِد » ؛ تِلْكَ المَوْسُوعَةُ الَّتِى نُشِرَت بِالمَمْلَكَةِ الأُرْدُنِيَّةِ فِى هَذَا العَامِ أَيْضَاً !! ؛ بَل مَن ذَا الَّذِى يُخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ بِنَصِّهِ وَشَخْصِهِ هُوَ مَن أَخْرَجَ « سِلْسِلَة نَوَادِرِ الأَجْزَاءِ الحَدِيثِيَّة » ؛ تِلْكَ الَّتِى نُشِرَت بِمَطْلَعِ هَذَا العَامِ فِى بَيْرُوت ؟!! ؛ وَيَزْدَادُ هَذَا الظَّنُّ قُوَّةً لِكَوْنِ الاسْمِ الَّذِى تُنْسَبُ إِلَيْهِ كُلُّ مَجْمُوعَةٍ يَخْتَلِفُ عَن الآخَرِ !! ؛ وَلَقَد أَوْضَحْتُ هَذَا الأَمْرَ بِجَلاءٍ فِى غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِن تَصَانِيفِى .

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ الأَعْمَالَ الَّتِى أَعْمَلُ بِهَا بِهَذِهِ الأَيَّامِ ـ وَقَد فَرَغْتُ مِن بَعْضِهَا وَوَصَلَت إِلَى يَدِ النَّاشِرِ ـ ؛ وَالَّتِى تَصْدُرُ إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى مَعَ مَطْلَعِ العَامِ الجَدِيدِ عَن مُؤَسَّسَةِ طَيْبَة ـ هِىَ بِلا رَيْبٍ عِنْدِى تُعَدُّ أَعْظَمَ

أَعْمَالِى التَّأْلِيفِيَّةِ وَالإِبْدَاعِيَّةِ مِن لَدُنِ دُخُولِى إِلَى هَذَا المَيْدَانِ ـ وَإِن كَانَت تَقِفُ بِجِوَارِهَا بَعضُ أَعْمَالِى الَّتِى نَشَرْتُهَا بِالأُرْدُن ؛ وَهِىَ : « كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف » ؛ « البَرْقُ الخَاطِف » ؛ « مَنَارَةُ الأَبْرَاج » ـ ؛ فَبِهَا تَمثُلُ فِى وُضُوحٍ ؛ وَتَتَجَلَّى فِى قُوَّةٍ : صُورَتِى وَحَقِيقَتِى : النَّاقِدُ ؛ الأَدِيبُ ؛ الشَّاعِر .

وَلَقَد أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِى قَبْلَ أَن أَضَعَ القَلَمَ عَلَى أَوَّلِ صَحِيفَةٍ مِن صَحَائِفِ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ : أَن أَبْذُلَ كُلَّ طَاقَتِى ؛ وَأَلاَّ أَضِنَّ بِجَهْدٍ أَو أَدَّخِرَ فِكْرَةً أَو رَأْياً ؛ وَأَن أَجْعَلَ عَقْلِى وَرُوحِى فِى احْتِشَادٍ دَائِمٍ حَتَّى أَتَمَكَّنَ مِنَ أَدَاءِ مَا أَنَا بِسَبِيلِهِ ؛ وَعِلَّةُ إِتْيَانِى بِكُلِّ مَا عِنْدِى فِى هَذِهِ الأَعْمَالِ ـ هُوَ أَنِّى قَد سَئِمْتُ الحَيَاةَ كَمَا أَنَّهَا قَد سَئِمَت مِنِّى !! ؛ عَشْرُ سَنَوَاتٍ كَافَحْتُ بِهَا كِفَاحاً رَهِيباً مَرِيراً ؛ وَنَشَرْتُ أَفْكَاراً وَأَعْمَالاً وَكُتُباً ؛ فِى كُلِّ مَيْدَانٍ وَفِى كُلِّ مَجَالٍ !! ؛ فِى اللُّغَةِ ؛ وَالأَدَبِ ؛ وَالشِّعْرِ ؛ وَالنَّقْدِ ؛ وَحَقَّقْتُ عَدَداً لَيسَ بِاليَسِيرِ مِن كُتُبِ التُّرَاثِ العَرَبِىِّ ؛ فِى عِلْمِ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ ؛ وَفِى فَنِّ التَّرَاجِمِ أَيضاً ؛ كَتَبْتُ وَكَتَبْتُ حَتَّى رَحِمَتْ أَنَامِلِى !! ؛ لَقَد عِشْتُ مَعَ العِلْمِ وَآثَرْتُهُ عَلَى كُلِّ مُتْعَةٍ مِن مُتَعِ الحَيَاةِ وَمَا أَشْفَقْتُ عَلَى جَسَدِى يَوْماً !! ؛ وَلَكِنِّى حَقّاً تَعِبْتُ !! ؛ وَإِنِّى أُرِيدُ أَن أَرْتَاح !! ؛ وَلأَنِّى أَخْشَى مِن مُهَاجَمَةِ المَنِيَّةِ فِى هَذِهِ الأَيَّامِ !! ؛ فَقَد أَرَدْتُ أَن آتِى بِأَنْضَجِ ثِمَارِى قَبْلَ أَن تَضِيعَ الفُرْصَةُ فَأَمْضِى إِلَى جَدَثِى وَرَمْسِى وَأَنَا نَادِمٌ عَلَى تَقْصِيرِى وَتَفْرِيطِى !! .

وَلَئِن وُفِّقْتُ فِى القِيَامِ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِى أَرْجُو وَأَشْتَهِى ـ فَسَتَغْدُو هَذِهِ الأَعْمَالُ ـ بِلا شَكٍّ أَو رَيْبٍ عِنْدِى ـ هِىَ الذِّكْرَى الَّتِى

سَتَبْقَى بَعْدَ رَحِيلِي .

﴿ وَيَمْضِي العُمْرُ يَا لَيْلَى !!
وَيَمْضِي العُمْرُ يَا لَيْلَى !!
بِلا ضَوْءٍ !! ؛ بِلا وَامِض !!
وَيَمْضِي العُمْرُ يَا لَيْلَى !!
كَلُغْزٍ شَارِدٍ !! ؛ غَامِض !!
وَيَمْضِي مِثْلَ أَشْعَارِي !!
كَغُصْنٍ بَيْنَ رِيحِ خَرِيف !!
وَيَمْضِي العُمْرُ لا يَعْبَا
كَلَيْلٍ بَارِدٍ !!... ؛ وَمُخِيف !!
كَأُغْنِيَةٍ بِلا لَحْنٍ !! ؛ بِلا
صَوْتٍ !! ؛ بِلا كَلِمَات !!
كَظِلٍّ يَمْشِي مُرْتَعِباً !!... ؛
يُكَتِّمُ مِنْهُ أَنْفَاساً !!... ؛ يَخَافُ
لِيُوقِظَ الأَمْوَات !!
كَوَجْهِ حَالِمٍ عَابِر ... ؛ بِدَرْبٍ
فِي ظَلامِ شِتَاء !!... ؛ وَقَيَّدَ
أَحْرُفاً بِجِدَار !!... ؛ سَيَبْقَى

الشِّعْرُ يَا لَيْلَى ... ؛ وَإِن مَاتَ
الفَتَى الشَّاعِر !!
مَرَرْتُ بِكُلِّ آمَالِى !!... ؛ وَمَا
خُبِّرْتُ يَا لَيْلَى ... ؛ بِأَنَّ الشِّعْرَ
قَد يَغْدُو !!... ؛ هُنَا فِى هَيْكَلِ
الأَحْزَان !!
وَوَلَّى العُمْرُ فِى عَجَلٍ !!... ؛
وَيَرْحَلُ مِثْلَ أُمْنِيَتِى !!..... ؛
يَصِيرُ لِعَالَمِ النِّسْيَان !!
أَنَا إِنسَانُهَا الدُّنْيَا ... ؛ مَرَرْنَا
لَم نَقُل شَيْئًا ... ؛ وَلَم تَعْبَأ هِىَ
الأُخْرَى !!..... ؛ فَلا كَانَت هِىَ
الدُّنْيَا !!... ؛ وَلا كُنَّا !!
رَأَيْنَاهَا كَوَهْمٍ سَرَاب !!......
وَخِلْنَا السَّيْرَ يَنْفَعُنَا !!... ؛ وَلَمَّا
حَانَ مَوْعِدُنَا ؟!!... ؛ فَثَمَّ
ظَلامُ !!... ؛ ثَمَّ ضَبَاب !!
عَلامَ الحُلْمُ يَا أُخْتَاهُ قَد عُدْنَا
بِلا ظِلٍّ !!... ؛ بِلا مَاءٍ !!

مَشَيْنَاهَا عَلَى وَجَلٍ !!... ؛ فَإِن
كَانَ اليَقِينُ أَتَى ... ؛ فَلُمِّى !! ؛
بَعْضَ أَشْلائِى !!
قَطَعْنَا الدَّرْبَ فِى حُزْنٍ !!... ؛
بِقَلْبٍ مُوجَعٍ وكَئِيب !!
سَأَرْحَلُ دُونَ أُمْنِيَتِى !!
وَتَبْقَى الذِّكْرَى يَا لَيْلَى !!
وَتَبْقَى الذِّكْرَى حِينَ أَغِيب !!. » . (١)..

نَعَم ؛ إِن مَضَيْتُ إِلَى عَالَمِ الفَنَاءِ ؛ فَسَتَبْقَى هَذِهِ الأَعْمَالُ مُخْبِرَةً بِخُلُودِ رُوحِى .

وَبَعْد :

المُقَدِّمَةُ مِن حَقِّ الكَاتِبِ ؛ لَهُ أَن يُعَبِّرَ مِن خِلالِهَا عَمَّا يَشَاء ؛ وَأَمَّا عَن المَقَالاتِ الَّتِى أَتَيْتُ بِهَا عُقَيْبَ المُقَدِّمَةِ ؛ فَهِىَ بِمَثَابَةِ التَّفْصِيلِ لِمَا أَجْمَلْنَاهُ فِى مُقَدِّمَتِنَا ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ يُنَاطُ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ بِقَضِيَّةِ الأَدَبِ وَرِسَالَةِ الأَدِيبِ فِى

---

(١) ـ ((وَيَمْضِى العُمْرُ يَا لَيْلَى)) ؛ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى « وَدَاعاً أَيُّهَا العُمْر »

حَيَاتِنَا المُعَاصِرَةِ ؛ وَهُوَ أَمْرٌ مِنَ الأَهَمِيَّةِ بِمَكَان .

ثُمَّ يَأْتِى التَّمْهِيدُ - وَهُو الَّذِى تَرَاهُ بَينَ يَدَيْكَ الآن - ؛ وَبِهِ تُعْرَفُ خُطَّتُنَا بِهَذَا العَمَلِ:

يَشْتَمِلُ هَذَا الكِتَابُ بَينَ جَوَانِبِهِ عَلَى أَبْحَاثٍ وَمَقَالاتٍ أَرَدْنَا مِن خِلالِهَا أَن نُعَبِّرَ عَن كُنْهِ مَنَاهِجِ النَّقْدِ الكِلاسِيكِيَّةِ ؛ وَعَن آلِيَّاتِهَا ؛ وَعَن نَتَائِجِهَا ؛ وَمَا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا .

وَتَأْتِى أَبْحَاثُ هَذَا الكِتَابِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيب :

✪ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ النَّفْسِىِّ الأَنْثُرُبُولُوجِى

وَبِهِ دِرَاسَةٌ طَرِيفَةٌ بِعُنْوَان :

✪ - مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر

(١٣٢٧ - ١٤١٨ هـ = ١٩٠٩ - ١٩٩٧)

مَوَاقِفُهُ وَنَظْرَتُهُ إِلَى الحَيَاة فِى ضَوْءِ مَنْهَجِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِىِّ

ثُمَّ:

✪ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ التَّارِيخِىِّ

ثُمَّ:

✪ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ الاجْتِمَاعِىِّ

وَقَد جَرَّنَا الحَدِيثُ عَنِ المَنْهَجِ الاجْتِمَاعِىِّ فِى الدِّرَاسَاتِ النَّقْدِيَّةِ ؛ إِلَى

الحَدِيثِ عَن :

✿ - كَارْل مَارْكِس وَالمَارْكِيسِيَّة

ثُمَّ إِلَى الحَدِيثِ عَن :

✿ - الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّة
(الوَاقِعِيَّةُ الجَدِيدَة)

ثُمَّ جَاءَ البَابُ الرَّابِعُ - إِذ كُلُّ مَنْهَجٍ نَقْدِيٍّ يَشْغَلُ بَاباً مُسْتَقِلاً - لِيَتَحَدَّثَ عَن :

✿ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ الفَنِّيِّ

ثُمَّ البَابُ الخَامِسُ - وَالأَخِير - :

✿ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ التَّكَامُلِيِّ

✿✿✿✿✿

وَبَعْد :

فَهَذَا هُوَ جَهْدِي ؛ وَتِلْكَ هِيَ ثِمَارُ قَرِيحَتِي ؛ وَمَا ذَلِكَ الَّذِي سَيَأْتِي سِوَى خُلاصَةِ رِحْلَتِي وَتَجْرِبَتِي ؛ صَرَفْتُ وَقْتاً وَسَاعَاتٍ وَأَيَّامَا ؛ وَقَهَرْتُ النَّصَبَ وَالكَلالَ وَخَاصَمْتُ العُيُونَ النِّيَامَا !! ؛ رَأَيْتُ شَمْساً وَقَمَراً وَنَهَاراً وَظَلامَا !! ؛ وَبَقِيتُ فِيمَا أَنَا بِسَبِيلِهِ لَم أَعْبَأ بِجُنُودِ الرَّهَقِ أَو جُيُوشِ

الكَرَى !! ؛ وَغِبْتُ عَن نَفْسِي وَرُوحِي وَعَن كُلِّ الخَلْقِ وَالوَرَى !! ؛ حَتَّى انْتَهَيْتُ مِن أَمْرِ هَذَا الكِتَابِ وَفَرَغْتُ مِن قَضِيَّتِهِ ؛ وَقَدَّمْتُ إِلَى العِلْمِ مَا يُبْصِرُ الآنَ وَمَا يَرَى ... ؛ وكَمَا أَقُولُ دَوْمَاً : إِنِّي عَلَى دَرْبِ الكِفَاحِ وَالنِّضَالِ لَم أَزَل سَائِرِ ؛ وَسَأَبْقَى دَائِمَاً : أَنَا الكَاتِبُ ؛ الأَدِيبُ ؛ الشَّاعِرِ .

٥٥٥٥٥

القَادِمُ مِنَ الزَّمَنِ المَجْهُول

محمد محمود دحروج

الشَّهِيرُ بِـ:

«نِزَار شَاهِين المِصْرِي»

وَالمَعْرُوفُ فِى الأَوْسَاطِ الثَّقَافِيَّةِ الأُرْدُنِيَّةِ بِاسْمِ :

‹ عُمَر إِيزِيل ›

وكَانَ الفَرَاغُ مِن تَقْيِيدِ هَذِهِ الكَلِمَات

فِي ظَهِيرَةِ يَوْمِ الثُّلاثَاء 3/6/2013

بِالحَارَةِ العَتِيقَة

مَدِينَةُ الرِّيَاض ..... بِشَمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّة

٥٥٥٥٥ ٥٥٥٥٥ ٥٥٥٥٥

مناهج النقد الأدبيّ

.....

۞ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ النَّفْسِيِّ الأنثربُولُوجِي

﴿ هَل مِنَ المُمْكِنِ عَدَمُ إِقَامَةِ أَيِّ عَلاقَةٍ
بَينَ الإِنْسَانِ وَإِبْدَاعِهِ ؟!!
فَمِن أَيِّ قُوَىً يَقْتَاتُ هَذَا الإِبْدَاعُ إِن لَم
يَكُن مِن تِلْكَ الَّتِي تَعْمَلُ عِنْدَ المُبْدِعِ ؟!! ﴾

(أندريه غِرين)

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

.....

۞ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ النَّفْسِيِّ الأَنثُرُبُولُوجِي

۞۞۞۞۞

﴿ يَعْمَلُ التَّارِيخُ وَالْمُجْتَمَعُ وَاللُّغَةُ بِالتَّحْدِيدِ فِي إِنْسَانٍ مِن لَحْمٍ وَعَظْمٍ ؛ وَيَتَكَوَّنُ الْمَنْهَجُ النَّفْسِيُّ مِن فَهْمِ هَذَا الإِنْسَانِ . ﴾ .

إنريك أندرسون إمبرت

.....

١ - كَيْفَ تُولَدُ وَتَنْشَأُ عَمَلِيَّةُ الإِبْدَاعِ الأَدَبِيِّ؟!! ؛ مَا هُوَ سِرُّ حَرَكَةِ الخَلْقِ وَالإِبْدَاعِ الأَدَبِيِّ كَمَا تَرَاهُ نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ النَّفْسِيِّ لِلأَدَب؟!! ؛ مَا هِيَ العَنَاصِرُ الشُّعُورِيَّةُ وَغَيْرُ الشُّعُورِيَّةِ ؛ وَالَّتِي تُنْتِجُ عَمَلِيَّةَ الخَلْقِ الأَدَبِيِّ ؟!! ؛ كَيْفَ تَأْتِي وَتَجْتَمِع ؟!! ؛ أَيٌّ مِنْهَا كَامِنٌ فِي أَعْمَاقِ الذَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَأَيٌّ مِنْهَا طَرَأَ عَلَى الذَّاتِ وَجَاءَ إِلَيْهَا ؟!! ؛ مَا هِيَ العَلَاقَةُ النَّفْسِيَّةُ بَيْنَ التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ الشُّعُورِيَّةِ وَالنَّزْعَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ ؟!!.

٢ - مَا هِيَ دِلَالَةُ التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ عَلَى نَفْسِيَّةِ مَن صَنَعَهَا وَأَبْدَعَهَا ؟!! ؛ كَيْفَ نَصِلُ إِلَى اسْتِقْرَاءِ هَذِهِ الدِّلَالَةِ وَنَسْتَنْطِقُ مُكَوِّنَاتِهَا ؟!! ؛ هَل بِمُكْنَةِ الْمَنْهَجِ النَّفْسِيِّ أَن يُرْشِدَنَا إِلَى التَّطَوُّرَاتِ النَّفْسِيَّةِ لِلْمُبْدِعِ عَن طَرِيقِ سَبْرِ

أَغْوَارِ التَّجْرِبَةِ الأَدَبِيَّةِ ؟!!.

٣ـ كَيْفَ يَتَأَثَّرُ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ بِالرِّسَالَةِ عِنْدَ مُطَالَعَتِهَا ؛ أى : كَيْفَ يَتَأَثَّرُ القَارِىءُ بِالعَمَلِ الإِبْدَاعِىِّ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ ؟!!.

سُؤالاتٌ تَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ !! ؛ وَلا تَجِدُ الجَوَابَ يَأْتِى إِلاَّ مِن قِبَلِ الْمَنْهَجِ النَّفْسِىِّ .

ثُمَّ :

١ـ مَا الْمَكَانُ الَّذِى تَشْغَلُهُ نَظَرِيَّةُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِىِّ فِى النَّقْدِ الأَدَبِىِّ فِى مَيْدَانِ الفِكْرِ الثَّقَافِىِّ ؟!!.

٢ـ مَا هِىَ نَتَائِجُه ؟!!

٣ـ مَا هُوَ الأَثَرُ الَّذِى يُحْدِثُهُ فِى قِرَاءَتِنَا لِلنُّصُوصِ الإِبْدَاعِيَّةِ ؟!!

٤ـ كَيْفَ تُؤَثِّرُ نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ التَّحْلِيلِىِّ عَلَى كَيْفِيَّةِ رُؤْيَتِنَا لِمَاهِيَّةِ التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ ؟!!

ثُمَّ :

١ـ مَا هِىَ الصُّورَةُ الَّتِى تُقَدِّمُهَا هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ اليَوْم ؟!!

.....

.....

✪ ـ شُرُوعٌ

.....

يقُول ستانلي إدجار هايمن [Stanley Edgar Hyman] ((ت سنة ١٣٩٠ هـ)) في كتابه ((النَّقْدُ الأَدَبِيُّ وَمَدَارِسُهُ الحَدِيثَة)) ؛[جـ١ / ٢٥٨ ـ ٢٦١]:

﴿إِنَّ النقد النفسيَّ للأدب ليُعد في بلادنا نحن تطوراً ؛ أكثر من أيِّ منهجٍ نقديٍّ آخرٍ نتحدث عنه في هذا الكتاب ؛ لأن علم النفس ـ كفرعٍ مُنظَّمٍ من المعرفة ـ قد بدأ في حياة من لا يزالون منَّا أحياء حتى اليوم ؛ فإن عدينا عن هذا المعنى الدقيق ؛ قُلنا : إن النقد بعامة كان نفسيّاً مُنْذُ بدايته ؛ بمعنى أنَّ كُلَّ ناقدٍ قد حاول بوضوحٍ أن يستغل في نقده ما يعرفه أو يؤمن به من عمليات الفكر الإنسانيِّ ؛ فلما تعرف فرويد قبل أن ينتهي القرن التاسع عشر بقليل إلى اللاوعي ـ أحرز علم النفس اتجاهاً يستطيع منه أن يفهم ويستبصر الأمور على نحوٍ لم يكن مُتيسّراً في أصول الأعمال الأدبية ومبانيها ؛ وقليلٌ هم الذين يستحقون الذكر من النُّقَّاد النفسيين قبل فرويد ؛ وأعلاهم أهميةً ـ بالطبع ـ أرسطوطاليس : المصدر الأول لعلم النفس والنقد النفسيِّ للأدب ؛ وتتخلّل سيكولوجيته التجريبية كل مؤلفاته ؛ كما أنها المحور الذي يدور عليه ((كتاب النفس)) وكتاب ((الطبيعيات الصُّغرى)) ورسائله القصيرة الطبيعية عن الذاكرة والتذكُّر وعن الرؤيا والتنبؤ عن طريق الرؤيا .

وقد طبَّق سيكولوجيته على الشعر في « البويطيقا » ؛ ردّاً على الأغلوطة الشعريَّة التي وقع فيها أفلاطون في « الجمهورية » ؛ إذ قال : إنَّ الشعر يُغذِّي العواطف ؛ وإنه لذلك ضارٌّ اجتماعيّاً ؛ فعارضه أرسطوطاليس بنظريته السيكولوجية الرصينة في التطهير ؛ أي أن الشعر يستثير عاطفتي الشفقة والخوف على نحوٍ رمزيٍّ - يمكن ضبطه - ثم يطهرهما ؛ وما « البويطيقا » إلا نصٌّ في سيكولوجية الفن ؛ وما مبادئ (hamartia) - أي الخطأ التراجيديّ الناشئ عن قصر نظر البطل في موقفه - ؛ و « Peripateia » - أو هِزَّة التغيُّر والانقلاب في مُقدَّرات البطل - ؛ وتفضيل المستحيل المحتمل على الممكن غير المحتمل ؛ وغير هذه من مبادئ - إلا الدعائم الأولى للحقائق النفسيَّة .

وقد كان أفلاطون في كتابه « إيون » يرى أن الشاعر مجنونٌ مُلهمٌ ؛ أو مريضٌ عصبيّاً ؛ أما أرسطوطاليس فوجد فيه شيئاً يشبه السيكولوجيَّ المُلهم .

وقد وسَّع في هذه النظرات السيكولوجية الأرسطوطاليسيَّة في الفنِّ ونمَّاها كُتَّاب العهود الكلاسيكية المتأخرة ؛ مثل : لونجينوس ؛ وهوراس ؛ ولكن الخطوة العظمى في النقد النفسيِّ إنما حقَّقها كولردج في « السيرة الأدبيَّة » ؛ فقد تناول كولردج سيكولوجية أرسطوطاليس ؛ كما عدَّل فيها : توما الإكويني ؛ وديكارت ؛ وهوبز ؛ وهارتلي ؛ دون أن يُضيف أحدهم إليها شيئاً هامّاً وسلَّطها على الشعر .

وما حال بين كولردج وتحقيق نقدٍ نفسيٍّ مُكتملٍ إلا الذي منع أرسطوطاليس نفسه من ذلك ؛ أي عدم كفاية ما لديهم من علمٍ نفسيٍّ كمَّاً

وكيفاً .

والحقُّ أن كولردج قد حوَّم حول اللاَّوعي حين أشار إلى « انطلاقات تأمُّلات لا ضابط لها ؛ وقد تخلَّى عنها الوعي الصريح كله ؛ لأنها قد أصبحت شيئاً مُجرَّداً شفَّافاً ؛ حين اجتازت حدود قُوانا العقليَّة وأهدافها » ؛ ولكنه كان قد تقدَّم عصره كثيراً إلى حدٍّ أعجزه عن أن يفيد من كشفه هذا .

ومما سبق إليه كولردج في ميدان النقد النفسيِّ الحديث في « السيرة الأدبيَّة » : اقتراحه على القارئ تجارب مشابهة للتي أجراها رتشاردز في أيامنا ؛ وتفرقته على أساس عاطفة القارئ وتأثره بين الشعر والعلم ؛ وفكرته القيِّمة الهامة عن الخيال ـ وقد أنفق رتشاردز فيها مُجلَّداً سمَّاه « رأي كولردج في الخيال » ليطورها في المصطلح السيكولوجيِّ الحديث ـ .

وهُناك مُعاصرٌ لكولردج يستحق أن يُذكر في هذا الفصل وإن لم يدن منه أهمية ؛ ذلك هو « تشارلس لام » ؛ الذي لم يكن صاحب آراءٍ نفسيَّةٍ مُنظَّمةٍ ؛ غير أن جنون أُخته الباعث على الأسى ؛ واضطراب أحواله العقليَّة ـ قد جعلاه مُرهف الحسِّ على العلاقة بين علم النفس والفن ؛ وقد كتب في مقاله « سلامة العبقريِّ عقليًّا » خير تفرقةٍ لدينا بين الفن والمرض العصبيِّ ؛ وفي « السواحر والمخاوف الليلية الأُخرى » قد سبق يونج إلى فكرة النماذج العُليا ؛ حيث يقول :

إنَّ السعالى والأفاعي المُتعدِّدة الرُّؤوس والوحش الثلاثية الرؤوس والقصص المُرعبة عن الوحوش المُجنَّحَة التي تنفث الروائح القاتلة ؛ قد

تتصور في الذهن الغارق في الخرافة ؛ ولكنها كانت هناك من قبل ؛ ذلك لأنها نُسخٌ منقولةٌ أو نماذجٌ ؛ أما النماذج العُليا الأصلية فهي فينا ؛ وهي خالدة .

وهذه المُرعبات سواء أكانت سابقة على خلق الجسم أو وُجِدَت دون أن يخلق ؛ فشأنها واحدٌ لا يتغيّر . ﴾ .أهـ .

.....

٥- سيجمُوند فرُويد

[١٨٥٦ - ١٩٣٦]

بَدَأت تَتَجلّى مَعَالِمِ نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ النَّفْسِيِّ الأَنْثُرُبُولُوجِي مُنْذُ مِائَةِ عَامٍ ؛ أى فِى إبّانِ ظُهُورِ مُؤلّفَاتِ عَالِمِ النَّفْسِ الشّهِير « سيجمُوند فرُويد » [١٨٥٦ - ١٩٣٦] فِى عِلْمِ النَّفْسِ وَالتَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ ؛ إذ اسْتَعَانَ مِن أَجْلِ تَحقيقِ هَذَا الهَدَفِ بِدِرَاسَةِ ظَوَاهِرِ الإِبْدَاعِ فِى الأَدَبِ وَالفَنِّ كَتَجلّيَاتٍ لِلظّوَاهِرِ النّفسِيَّةِ ؛ لَقَد عوّلَ عَلَى دِرَاسَةِ الأَدَبِ مُنْذُ بِدَايَةِ تَارِيخِهِ مَعَ عِلْمِ النَّفسِ وَالتَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ ؛ فَقَد ظَلّ مُنْذُ عام ١٨٩٧ م يَرْبِطُ قِرَاءَتَهُ لِـ « أُوديب مَلِكاً » لِسُوفُوكْلِيس وَ« هَامْلِت » لِوِلْيم شِكسْبير بِتَحْلِيلِهِ لِحَالاتِ مَرْضَاهُ وَبِتَحْلِيلِهِ الذَّاتِيِّ لِنَفْسِهِ ؛ وَذَلِكَ مِن أَجْلِ إِنْشَاءِ وَاحِدٍ مِن مَفَاهِيمِهِ الأَسَاسِيَّةِ فِى التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ ؛ وَهُوَ مَا عُرِفَ بِاسْم « عُقْدَة أُوديب » ؛ ثُمّ أَضَافَ فِى عَام ١٩٢٨م إِلَى « أُوديب مَلِكاً » وَ « هَامْلِت » رِوَايَةَ « الإِخْوَةُ كِرَامَازُوف » لِدُسْتويفسْكِى ؛ وَلِذَلِكَ لَم يَشْطُط فرُويد حِينَ صَرّحَ بِأَنّ الّذِينَ أَلْهَمُوهُ

مَبَادِىءَ نَظَرِيَّتِهِ فِى التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ هُم الفَلاسِفَةُ وَالشُّعَرَاءُ وَالفَنَّانُون ؛ وَذَلِكَ لأَنَّ الإِبْدَاعَ فِى أَىِّ صُورَةٍ كَان : هُوَ أَدَاةُ التَّعْبِيرِ الأَقْوَى وَالأَعْظَمُ ؛ وَالَّتِى بِمُكْنَتِهَا أَن تُعَبِّرَ عَن مُخْتَلَفِ الحَالاتِ الشُّعُورِيَّةِ لِلذَّاتِ الإِنْسَانِيَّة .

وَقَد قَامَ فُرُويد بِتَصْنِيفِ حَالاتِ الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ البَاطِنِيَّةِ إِلَى ثَلاثَةِ أَقْسَام :

١ ـ المُسْتَوَى الشُّعُورِىّ .

٢ ـ مَا قَبْلَ الشُّعُور .

٣ ـ اللاَّشُعُور .

وَهَذَا المُسْتَوَى الأَخِيرُ هُوَ الَّذِى تَقُومُ عَلَيْهِ نَظَرِيَّةُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ ؛ وَهُوَ يَنْقَسِمُ بِدَوْرِهِ إِلَى هَذِهِ الأَقْسَام :

١ ـ الهُو : وَيُمَثِّلُهُ الجَانِبُ البَيُولُوجِىّ .

٢ ـ الأَنَا : وَيُمَثِّلُهُ الجَانِبُ السَّيْكُولُوجِىُّ أَو الشُّعُورِىّ .

٣ ـ الأَنَا الأَعْلَى : وَيُمَثِّلُهُ الجَانِبُ الاجْتِمَاعِىُّ أَو الأَخْلاقِىّ .

وَقَد تَوَصَّلَ سِيجمُوند فُرُويد إِلَى غَرِيزَتَيْنِ أَسَاسِيَتَيْن ؛ تُوَجِّهَانِ الجِهَازَ النَّفْسِىَّ لِلإِنْسَانِ ؛ وَهُمَا :

١ ـ غَرِيزَةُ الحُب ـ أَو الحَيَاة ـ : وَتُمَثِّلُ الحَاجَاتَ النَّفْسِيَّةَ البَيُولُوجِيَّةَ ؛ وَالَّتِى تُتِيحُ لِلإِنْسَانِ الاسْتِمْرَارَ فِى الحَيَاةِ وَبَقَاءَ النَّوْعِ الإِنْسَانِىِّ .

٢ ـ غَرِيزَةُ المَوْت ـ أَو الفَنَاء ـ : وَتُمَثِّلُ مُخْتَلَفَ الرَّغَبَاتِ الَّتِى تَدْفَعُ الإِنْسَانَ إِلَى العُدْوَانِ وَالتَّدْمِير .

لَقَد كَانَ فُرُويد يَعْتَقِدُ أَنَّ الغَرِيزَةَ الجِنْسِيَّةَ هِيَ الطَّاقَةُ الَّتِي تُوَجِّهُ سُلُوكَ الإِنْسَانِ ؛ ثُمَّ اكْتَشَفَ بَعْدَ مَرْحَلَةٍ مِنَ المُبَاحَثَةِ وَالمُحَاقَقَةِ أَنَّ الغَرَائِزَ الكَامِنَةَ بِالإِنْسَانِ قَد لا تَتَوَجَّهُ نَحْوَ الآخَرِين ؛ بَل قَد تَرْتَدُّ إِلَى الذَّات ؛ فَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ حُدُوثَ نَتِيجَةٍ مِن هَذِهِ النَّتَائِج :

١ ـ أَن يَغْرَقَ الإِنْسَانُ فِي حُبِّ نَفْسِهِ ؛ وَهَذَا هُوَمَا يُسَمَّى بِـ « النَّرْجِسِيَّة » .

٢ ـ أَن يُوقِعَ الأَذَى وَالأَلَمَ بِنَفْسِهِ كَي يَحْصُلَ عَلَى الإِشْبَاعِ الجِنْسِيّ ؛ وَهَذَا هُوَ مَا يُسَمَّى بِـ « المَازُوخِيَّة » .

٣ ـ أَن يَحْصُلَ عَلَى هَذَا الإِشْبَاعِ عَن طَرِيقِ إِيذَاءِ النَّاسِ وَإِيلامِهِم ؛ وَهَذَا هُوَ مَا يُسَمَّى بِـ « السَّادِيَّة » .

وَمِن خِلالِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ اقْتَحَمَ فُرُويد عَالَمَ الأَدَبِ وَالفَنّ ؛ كَي يُطَبِّقَ عَلَى الأُدَبَاءِ وَالفَنَّانِينَ مَا بِجُعْبَتِهِ مِن عِلْمٍ فِي مَجَالِ عِلْمِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ ؛ وَكَانَ مِن أَبْرَزِ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِهَذَا الصَّدَد :

« الفَنَّان : إِنْسَانٌ عُصَابِيٌّ ؛ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِن دَائِرَةِ الجُنُونِ إِبَّانَ العَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِيَّة . » !! .

وَبَعْدَ أَن يَفْرَغَ المَرْءُ مِن عَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِ فَإِنَّهُ يَعُودُ إِنْسَانًا سَوِيًّا وَاعِيًا مُدْرِكًا .

كَانَ فَلاسِفَةُ الإِغْرِيقِ وَمَن تَبِعَهُم مِن فَلاسِفَةٍ وَنُقَّادِ القَرْنَيْنِ السَّابِعِ عَشَر وَالثَّامِنِ عَشَر يَرَوْنَ أَنَّ البَاعِثَ الأَعْظَمَ عَلَى الفَنّ هُوَ المُحَاكَاة ؛ بَيْنَمَا رَأَى فُرُويد أَنَّ الغَرِيزَةَ الجِنْسِيَّةَ هِيَ البَاعِثُ الأَوَّلُ عَلَى الفَنّ ؛ وَعَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الغَرِيزَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الغَرَائِزِ الإِنْسَانِيَّةِ انْدَفَعَ إِلَى تَحْلِيلِ شَخْصِيَّتَي الرَّسَّامِ

الإِيطَالِيّ « لِيُونَارْدُو دَافِنْشِي » وَالأَدِيبِ الرُّوسِيّ « دُسْتُويفِسْكِي » وَتَحْلِيلِ أَعْمَالِهِمَا الفَنِّيَّةِ ؛ ففَسَّرَ الحُلْمَ الَّذِي رَآهُ « لِيُونَارْدُو » فِي طُفُولَتِهِ ؛ وَكَانَ هَذَا الحُلْمُ يَتَمَثَّلُ فِي أَنَّ نَسْرًا حَطَّ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي المَهْدِ ؛ وَفَتَحَ مِنْقَارَيْهِ وَأَخَذَ يَضْرِبُهُ عَلَى شَفَتَيْهِ لِعِدَّةِ مَرَّاتٍ ؛ فَسَّرَ فُرُويد هَذَا الحُلْمَ بِالبُطْءِ الَّذِي عُرِفَ بِهِ « لِيُونَارْدُو دَافِنْشِي » فِي إِنْجَازِ أَعْظَمِ أَعْمَالِهِ الفَنِّيَّةِ .

وَكَذَلِكَ فَقَد تَنَاوَلَ بِالتَّحْلِيلِ شَخْصِيَّةَ الرِّوَائِيّ الرُّوسِيّ « دُسْتُويفِسْكِي » وَرِوَايَتَهُ الشَّهِيرَةَ « الإِخْوَةُ كِرَامَازُوف » ؛ فَوَجَدَ أَنَّ شَخْصِيَّةَ هَذَا الأَدِيبِ تَشْتَمِلُ عَلَى عَدَدٍ عَظِيمٍ مِنَ المُتَنَاقِضَات !! ؛ فَهُوَ الفَنَّانُ المُبْدِعُ الخَالِد ؛ وَهُوَ العُصَابِيّ ؛ وَهُوَ الأَخْلاقِيّ النَّبِيل ؛ وَهُوَ المُجْرِمُ الآثِمُ المُتَعَاطِفُ مَعَ أَمْثَالِهِ مِنَ المُجْرِمِينَ وَالآثِمِين ؛ وَهُوَ المُصَابُ بِهَوَسِ المُقَامَرَةِ ؛ وَهُوَ المُولَعُ بِتَعْذِيبِ نَفْسِهِ ؛ وَهُوَ الرَّاغِبُ فِي تَعْذِيبِ الآخَرِين !! ؛ وَكُلُّ هَذَا مُصَوَّرٌ فِي رِوَايَتِهِ « الإِخْوَةُ كِرَامَازُوف » ؛ فَهِيَ الصَّدَى الأَقْوَى لِحَيَاةِ هَذَا الأَدِيبِ الرُّوسِيّ ؛ فَهِيَ تُمَثِّلُ انْفِعَالاتَهُ اللاشُعُورِيَّةَ ؛ وَبِهَا أَيْضًا جَرِيمَةُ قَتْلِ الأَبِ ؛ وَبِهَا الانْحِرَافُ الجِنْسِيّ .

لَم تَتَوَقَّف جُهُودُ فُرُويد عِنْدَ هَذَا الحَدّ ؛ أَي أَنَّهُ لَم يَكْتَفِ بِتَحْلِيلِ شَخْصِيَّةِ المُبْدِعِ وَتَجْرِبَتِهِ الإِبْدَاعِيَّةِ ؛ بَل انْشَغَلَ أَيْضًا بِتَحْلِيلِ شَخْصِيَّاتِ الأَعْمَالِ الرِّوَائِيَّةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ ؛ كَاهْتِمَامِهِ بِـ « غِرَادِيفَا » بَطَلَةُ مَسْرَحِيَّةِ « هَامْلِت » لِلْكَاتِبِ الأَلْمَانِيّ « يَنْسِن » ؛ كَمَا انْشَغَلَ فُرُويد بِعَمَلِيَّةِ الخَلْقِ الإِبْدَاعِيّ ذَاتِهَا ؛ فَهِيَ تُشْبِهُ عَدَدًا مِنَ النَّشَاطَاتِ البَشَرِيَّةِ ؛ وَالَّتِي تَتَمَثَّلُ فِي :

اللَّعِب ؛ التَّخَيُّل ؛ الحُلُم ؛ وَالمُبْدِعُ فِي لَحْظَةِ الإِبْدَاعِ مَا هُوَ سِوَى طِفْلٍ أو مُرَاهِقٍ ؛ فَهُوَ يَلْعَبُ أو يَتَخَيَّلُ ؛ وَيَحْلُمُ لِيَصْنَعَ لِنَفْسِهِ عَالَماً خَيَالِيّاً يَتَمَكَّنُ مِن خِلالِهِ أن يَنْسُجَ الوَاقِعَ كَمَا يُحِب ؛ فَيَتَسَنَّى لَهُ أن يُحَقِّقَ آمَالَهُ الَّتِي عَجَزَ عَنْهَا فِي عَالَمِ الحَقِيقَةِ .

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الجُهُودِ العَظِيمَةِ الَّتِي قَدَّمَهَا فُرُويد فِي هَذَا المَيْدَان - أي فِي دِرَاسَةِ وَتَحْلِيلِ طَبِيعَةِ التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ وَشَخْصِيَّةِ المُبْدِعِ - ؛ إِلاَّ أَنَّهُ لَم يَصِل - رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ - إِلَى تَقْدِيمِ الحُلُولِ العَبْقَرِيَّةِ القَوِيَّةِ الحَاسِمَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الإِقْنَاعِ المُطْلَقِ ؛ وَصَرَّحَ بِأَنَّ وَسَائِلَ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ تُعَدُّ عَاجِزَةً عَن الوُصُولِ إِلَى الأَسْرَارِ الخَفِيَّةِ لِلْعَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِيَّةِ ؛ فَإِنَّ غَايَةَ الأَمْرِ مَعَ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ أن يَصِلَ إِلَى بَعْضِ مَظَاهِرِ التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ ؛ وَلِذَا فَإِنَّنَا نَجِدُ فُرُويد يَذْكُرُ فِي أَكْثَرِ مِن مُنَاسَبَةٍ أَنَّ الأُدَبَاءَ وَالشُّعَرَاءَ وَالفَنَّانِين : هُم وَحْدَهُم الأَكْثَرُ فَهْماً لِطَبِيعَةِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ وَأَسْرَارِهَا الخَفِيَّةِ ؛ وَإِلَيْهِم يَرْجِعُ الفَضْلُ فِي اكْتِشَافِ اللاَّوَعْي أو اللاَّشُعُور .

يَقُول Stanley Edgar Hyman فِي كتابه « النَّقْدُ الأَدَبِيُّ وَمَدَارِسُهُ الحَدِيثَة » ؛ [جـ١ / ٣٦١ - ٣٦٥] :

« بدأ النقد المعتمد على التحليل النفسيِّ في الأدب حين نشر فرويد كتابه « تفسير الأحلام » سنة ١٩٠٠ ؛ ولما أسداه فرويد عددٌ من المظاهر ؛ لعلَّ أهمها ما كتبه عن المشكلات غير الأدبية ؛ وبخاصة الأحلام ؛ وتوازن القوى

العقلية ؛ وأعراض الأمراض العصبية ؛ وفي هذه كُلِّها مبادئ يمكن أن تستغل استغلالاً مُثمراً في الأدب ؛ وهذا يشمل « تفسير الأحلام » نفسه بما فيه من آليَّات الحُلم ؛ كالخلط الكلاميّ ؛ والخلط المكانيّ ؛ والتفصيلات الثانويَّة ؛ والفصم ؛ وهي على ما يظهر الآليَّات الأساسية في الخلق الأدبيّ ؛ كما تشمل مبدأ الحُلم الأساسيّ ؛ وهو تحقيق الرغبة التي يمكن تطبيقها على الفن ؛ وكذلك كشوفها القيِّمة في طبيعة الرمز ؛ أضف إلى ذلك مُؤلَّفات أخرى له ؛ مثل « قُوَّة اللَّمح الساخر وعلاقتها باللاَّوعي » و « ثلاث مقالات في نظريَّة الجنس » .

وربما تلا هذه الأهمية تعليقات مُحدَّدة لفرويد على طبيعة الفنّ والفنَّان .

ومقالاته الأُولى في هذه الناحية تشمل : علاقة الشاعر بأحلام اليقظة ؛ بحوثٌ في سيكولوجيَّة الحُب ؛ نظريَّات حول القاعدتين في وظيفة العقل .

بل إنَّ المُحاضرة الثالثة والعشرين من كتابه « مُقدِّمةٌ عامَّةٌ في التحليل النفسيّ » ؛ وهي ليست من أُولى بحوثه ؛ وإنما تعود في تاريخها إلى سنة ١٩٢٠ م لا تزال تُعالج الفنَّان على أنه طُفُوليٌّ مريضٌ في أعصابه ؛ أما أبحاثه المُتأخِّرة ؛ وبخاصة في « مُحاضراتٌ تقديميَّةٌ جديدةٌ » و « ما فوق مبدأ اللَّذَّة » ؛ فإنها تنحو إلى أن تتجاوز النظريَّات الأُولى ؛ فترى في الفنَّان مريضاً في أعصابه ؛ له فنُّهُ الذي يستطيع أن يفهم من خلاله الحقيقة ويُغيِّرها .

وقد أنكر فرويد في خطابٍ ألقاه في الاحتفال بعيده السبعينيّ أنه صاحب الفضل في الكشف عن العقل الباطن ؛ وقال : إن الفضل الصحيح يعود

للأُدباء .

وآخر بابةٍ فيما أسداه فرويد للنقد الأدبيّ المُتصل بالتحليل النفسيّ : هي أحاديثه المُحدَّدة عن فنَّانين بأعيانهم ؛ وآثارٍ فنيَّةٍ بأعيانها ؛ وهذه الأحاديث مُتناثرةٌ في مُؤلَّفاته على شكل تعاليق مُوجزة ؛ بعضها مشمولٌ بسعة الإدراك كذكره هاملت في « تفسير الأحلام » ـ وعليه بنى جونز دراسته ـ وتحليله « الملك لير » ؛ وحديثه عن التراجيديا اليونانيَّة في « الطوطم والمُحرَّم » ؛ ولم يكتب إلا ثلاث دراسات طويلة ؛ وهي : « ليوناردو دافنشي : دارسةٌ نفسيَّةٌ جنسيَّةٌ لذكرياتٍ طُفُوليَّةٍ » ؛ ومقالة عن « دوستويفسكي وجريمة قتل الأب » ؛ ودراسة لقصةٍ ألمانيَّةٍ مغمورةٍ عُنوانها « غراديفا » Gradiva ؛ ومُؤلفها فلهلم ينسن ؛ وبهذه الدراسات الثلاث أقام فرويد منهجين من التحليل ؛ اقتفى أتباعه فيهما خطواته :

ـ الأول : الباثوغرافيا ؛ أو : دراسة المريض عصبيًّاً ؛ أو : الشخص المريض نفسيًّاً ؛ مع اتخاذ آثاره الفنيَّة دليلاً هادياً في هذه الدراسة .

ـ والثاني : نقدٌ أدبيٌّ مُتّصلٌ حقّاً بالتحليل النفسيّ ؛ أو : دراسة الأثر الأدبيّ ؛ مع استعمال الآليَّات التي تُستعمل في التحليل النفسيّ أو الفروض الإكلينيكيَّة مفاتيح لهذه الدراسة .

أما كتابه « ليوناردو دافنشي » ؛ فهو في مُعظمه قصة مرض « باثوغرافيا » ـ وإن كان فرويد يُصِرُّ على أن ليوناردو لم يكن مريضاً في أعصابه بأيّ حالٍ ـ ؛ وهو محاولةٌ تعتمد كثيراً على تحليل فذٍّ لذكرى وهميَّة تخيَّلها ليوناردو

عن نَسْرٍ ؛ ويريد العالم النفسيُّ أن يبني على أساسها سيرة الفنَّان وتطوره النفسيَّ ؛ بفهمه مكبوتاته الجنسيَّة والفنيَّة المُتأخِّرة ؛ ويُسمِّي فرويد عمله هذا « محاولةً في كتابة سيرة » ؛ ويُصِرُّ على أنها شيءٌ في تشخيصه « الشُّذُوذ الجنسيُّ المثاليُّ أو البدائيُّ عند ليوناردو » ؛ ولا يهتم فرويد بآثار ليوناردو إلا أن يكشف فيها عن مزيدٍ من الشهادات حول الحياة النفسيَّة للفنَّان ؛ مُقيِّداً نفسه بالتحفُّظ الآتي : « عندما يُقدِّر المرء أيَّ استحالةٍ عميقةٍ مرَّت بها تجربة الفنَّان قبل أن تتمثل خلقاً فنيَّاً سويَّاً ؛ يتحتم عليه أن يتواضع في مدى ما يتوقع أن يحققه الدارس ؛ حين يعجز عن أن يكشف عن شيءٍ محُدَّدٍ . » .

ويُهمل فرويد الجوانب الأخرى للآثار الفنيَّة ؛ ويبدو أنه يوحي في موطنٍ واحدٍ أنه لا خيرة له في ذلك ؛ وأنَّ « طبيعة الإتقان الفنيِّ لا يمكن بلوغها عن طريق التحليل النفسيِّ » ؛ ومع ذلك فإن هذا الكتاب في حدود مادته ومنهجه : من أجمل كُتُب فرويد ؛ وهو إعادة بناءٍ يكاد يكون مُعجزاً لحياة فنَّانٍ وفكره !! ؛ فنَّانٍ مُعقَّدٍ مات قبل أربعمائة سنة !!.

وأما كتابه « دستويفسكي وجريمة قتل الأب » ؛ فإنه يكاد يقع في منتصف المسافة بين المنهجين ؛ وهو معنيٌّ في الدرجة الأولى ببلوغ الصرع الهستيريِّ الذي كان يُصيب دوستويفسكي ؛ ورغبته الأوديبيَّة في موت أبيه ؛ وشذوذه الجنسيِّ الدفين ؛ غير أنه ـ على الرغم من قوله « أمام مشكلة الفنَّان الخالق ؛ على التحليل أن يلقي السلاح عجزاً » ـ ما يزال جيِّد التذوق لقصص دستويفسكي من حيث هي آثارٌ فنيَّةٌ باهرةٌ ؛ مُهتمَّاً كثيراً بتقديم كل ما

يستطيعه في سبيل مشتملاتها ؛ من حيث علاقتها الرمزية بمرض المؤلف ؛ ومن حيث علائقها الشكلية الخالصة .

وأما « الإيهام والحُلم في غراديفا لفلهلم ينسن » ؛ فإنه تحليلٌ أدبيٌّ خالصٌ ؛ ويرفض فرويد أيَّ محاولةٍ للكشف عن عُقَدِ ينسن وأمراضه العصبية بهذه الكلمة الموجزة : « ليس ثمة مدخلٍ ننفذ منه إلى الحياة النفسية للمؤلف » ويكتفي بتفسير المبنى السيكولوجيِّ والحُلميِّ في الكتاب ؛ مُحَلِّلاً تقنياته الرمزيَّة في الخلط الكلاميِّ والخلط المكانيِّ ؛ مُعمِّقاً في معناه ؛ مُقوياً له بعامة .

ويستنتج أن ينسن كان على وعيٍ بحقائق التحليل النفسيِّ ؛ لا لأنه درس هذا العلم ؛ بل لأنه استكشف ذاته ؛ فما الفنَّان إلا مُحَلِّلٌ نفسيٌّ من نوعٍ آخر .

والحقُّ أن مُعالجة فرويد للكتاب مُرهفةٌ تبجيليَّةٌ ؛ إلى درجة أنها ليست فرويدية تامة في الحقيقة ؛ وهو ينسى - أو يتناسى - عُقدة أُوديب في البطل - وفي المؤلف افتراضاً - ؛ ومن الواضح أن جانباً من الاحترام الذي ناله ذلك الكتاب من فرويد إنما يرجع إلى التطابق الدقيق بينه وبين النظرية النفسيَّة ؛ فهو إلى حدٍّ ما « يوثقها » في سنواتها الأولى « القصَّاصُون أعوانٌ لنا مفيدون ؛ وشهادتهم تُؤخذ بكُلِّ تقديرٍ ؛ لأنهم يعرفون أشياء بين السماء والأرض لا تحلم بها حكمتنا الأكاديميَّة !! » ؛ ولكن ليس ثمة من كبير ريبٍ في أن « غراديفا » قصَّةٌ صغيرةٌ هزيلةٌ سخيفةٌ تستأهلُ أن تكون مغمورةً مُهملةً !! ؛ وأن فرويد في إعلائه وتحليله لها قد كتب بقلمه قصَّةً خيراً منها .

والحقُّ أن الباثوغرافيا - أو قصة المرض - ليس موروثاً استحدثه فرويد ؛

وإنما هي استمرارٌ لموروثٍ ذي حلقاتٍ كثيرةٍ ؛ كان يتألف في القرن التاسع عشر من تشخيصاتٍ طبيَّةٍ غير علميَّةٍ ؛ يستنتج فيها أحد الأطباء ليشبع لهفة العالم الأدبيِّ : أن شعر « بيرون » يدُلُّ على أنه كان مُصاباً بحصاة المرارة ؛ وأن « بوب » كان مُصاباً بضغطٍ عالٍ في الدَّم ؛ ثم استمرَّ هذا على يد النفسيين في صورة سلسلةٍ من التشخيصات النفسانيَّة غير العلميَّة ؛ غير أن هذه النغمة كانت تتردَّد بين كثيرٍ من تلامذة فرويد أكثر من تردُّدها عند أُستاذهم ؛ بما في ذلك بعض الثوريين منهم ؛ فهي نغمة حديث بريل Brill - مثلاً - عن حُبِّ الشعر ؛ وأنه ليس إلا تعبيراً عن شهويَّةٍ شفويَّةٍ ؛ أي : « مضغاً ورضاعاً للكلمات الجميلة » . ﴾ .أهـ .

.....

۞ - أوتو رانك

[١٨٨٤ - ١٩٣٩]

يقُول Stanley Edgar Hyman في كتابه « النَّقْدُ الأَدَبِيُّ وَمَدَارِسُهُ الحَدِيثَة » ؛ [جـ١ / ٢٦٥ - ٢٦٨] :

﴿ أما العالم النفسانيُّ الوحيد الذي قصر جهده على دراسة الفنِّ بدقَّةٍ ؛ فهو : أوتو رانك ؛ وقبل أن ينشق عن فرويد في أوائل العقد الثالث من القرن كتب عدداً من الدِّراسات الأدبيَّة القيِّمة المُعتمدة على التحليل النفسيِّ ؛ وهي : « الفنَّان » سنة ١٩٠٧ ؛ و « أسطورة ميلاد البطل » سنة ١٩٠٩ ؛

ودراسة لقصة « لوهنغرين » سنة ١٩١٢ ؛ و « دافع الزِّنا بالمحُرَّمات في الشعر والأُسطُورة » سنة ١٩١٢ ؛ ومقالتان إحداهما في سنة ١٩١٤ ؛ والثانية سنة ١٩٢٢ ـ وقد نُشِرَتَا فيما بعد باسم « دون جوان وصنوه » ؛ ولعلَّ أهمها جميعاً « أسطورة ميلاد البطل » ؛ فقد التقط رانك تلميحاً من فرويد بأنه يستطيع أن يجرب طريقة جالتون في خلق نموذجٍ أعلى للميلاد الأُسطوريِّ ـ ويظهر أنه يجهل أن مُهمَّةً مُماثلةً قد أدَّاها ألفرد نت على نحوٍ مُجزَّإٍ مُشتَّتٍ بدراسة حياة البطل كلها ـ ؛ فحقَّق رانك دراسةً نفسيَّةً مُؤثِّرةً في ميدان الأساطير المقارنة ؛ هامَّةً جدَّاً للأدب ؛ ولعلَّها النواة التي نمت من حولها دراسة اللورد راجلان القيِّمة « للبطل » سنة ١٩٣٥ .

ويتضمَّن كتابه « دافع الزِّنا بالمحُرَّمات » عدداً من التحليلات الأوديبيَّة المُثيرة ؛ ومن بينها : تحليلٌ لمسرحية يوليوس قيصر من تأليف شكسبير ـ وقد بيَّن أن بروتس وكاسيوس وأنطونيوس ثلاث شعب من « ابن » قيصر ؛ يُمثِّل الأول منهما ثوريته ؛ والثاني شفقته ؛ والثالث تقواه الطبيعية ـ ؛ وتحليلٌ لقصيدة بودلير « الماردة » ؛ ثم لَمَّا انشق رانك عن فرويد لم يكتب عن الفنِّ شيئاً ذا قيمةٍ إلا قليلاً ؛ وما كتابه الكبير في هذا الموضوع وعنوانه « الفنُّ والفنَّان » الذي نُشِرَ بالإنجليزيَّة سنة ١٩٣٢ إلا أطروحة بليدة ؛ ألمانية الرُّوح في علم الجمال ؛ تستمد كثيراً من أنثروبولوجيا أُحميت بعد أن بردت ؛ وتجعل دافع الفنِّ مُرتكزاً على الرغبة في تخليد الذات ؛ وتُحذِّر من شدَّة الوعي وازدياده لأنه يقتل الفن ؛ وتقاوم التفسيرات النفسيَّة في بعض النقاط ؛ حيث

تكون تلك التفسيرات مفيدة قيِّمة ؛ كما أنها تحيل التحليل النفسيَّ في مواطن أخرى - بمُغالاتها المُتحمِّسة - إلى شيءٍ مُبتذلٍ سُوقيٍّ ؛ وبخاصة في دراسة « هاملت » على أنها سيرةٌ ذاتيَّةٌ مُباشرةٌ لكاتبها .

ولعلَّ من أقيم الدراسات الأدبية النفسانية التامة التي قام بها مُحلِّلون أو نفسانيون محترفون ؛ ومن أبعدها أثراً : دراسة إرنست جونز لهاملت في كتابه « مقالات في التحليل النفسيِّ التطبيقيِّ » ؛ فقد حطَّم جونز كل نظرية عن هاملت سبق اعتناقها ؛ في مائة صفحة حافلة بالمعرفة ؛ مكتنزة بالمنطق ؛ تدُلُّ على تضلُّعٍ في الدراسات الشكسبيرية ؛ وعلى الاطلاع الواسع ؛ ثم يقيم جونز نظريته هو ؛ ويرسي قواعدها ؛ وخلاصتها : أن في المسرحية مبنىً أوديبيّاً ؛ هو لا شعوريٌّ في هاملت ؛ لا شعوريٌّ في شكسبير ؛ لا شعوريٌّ في الجمهور ؛ ثم يزيد زيادةً حقيقيَّةً في مدى استساغة المسرحية حين يظهر فيها ما عجز عنه كل أحدٍ إلاّه ؛ وهو مدى المعقولية والحتمية في أحداثها ؛ مع أنه يترك عدداً من الأسئلة دون جواب ؛ ولم يكتب جونز تحليلاً أدبياً آخر مشبهاً لهذا .

وثمة كتاب مثل مقال جونز عن هاملت في حساسيته نحو القيم الأدبية وبُعده عن مجال الباثوغرافيا ؛ وإن لم يكُن مثله مُثيراً في حدِّ ذاته ؛ ذلك هو كتاب شارل بودوان « التحليل النفسيُّ وعلم الجمال » ؛ وهو دراسة مطولة للرمزية الشعرية عند فرايرن ؛ كتبها رَجُلٌ كان هو نفسه شاعراً ؛ والتحليل النفسيُّ عند بودوان انتقائيٌّ يستمد دون تحيُّزٍ من فرويد ويونج وأدلر ورانك

وريبو ؛ ومع أن كتابه قلّما يتجه عنه بكليته نحو الدراسة النفسية ؛ فهو عملٌ هـامٌ مـن التحليـل الرمـزيِّ المُسهب ؛ مع انطلاقـات عارضـة هامة ؛ تُعَـدُّ إرهاصات بعدد من التقنيات النقدية الجديدة ؛ منها : التفسير المتعدد للمعنى بمصطلحات متعددة مختلفة ؛ واستقطاب الصور المشحونة بالعاطفة زوجاً زوجاً في خطوط متوازية ؛ وشرح ميزة الأصوات والرمزية السماعية .

ويؤكد بودوان في بداية الكتاب : أن تحليل آثار العبقريِّ يظهر عبقريته ؛ لا مرضاً عصبيّاً ؛ ولكنه يعود فيقع في الخطأ ـ في الطرف الثاني ـ ؛ ويؤكد عنـد نهاية الكتاب أن القصيدة : بمـا أنهـا « صـورة معجبـة توضـح سيكولوجية التسامي » ؛ وبما أنها لذلك « حق » ؛ إذن فهي قصيدة « جميلة » ؛ وبما أن القصائد التي تمضي باسم روائع فرايرن هي التي « تشحن بالمعاني الرمزية أكثر من غيرها » ؛ إذن لعل القصائد الأخرى التي تكون مشحونة بالمعاني السيكولوجية هي أيضاً روائع .

وعلى الطرف الثاني من تحليل بودوان لفرايرن يقـع كتـاب عـن بـودلير لأحد بني وطنه ؛ أعني المحُلّل النفسيَّ الفرنسيَّ رينيه لافورج ؛ فإن كتابـه « هزيمة بودلير » ـ The Defeat of Baudelaire ـ محض باثوغرافيـا ؛ عنوانها الفرعيُّ : « دراسـةٌ نفسيَّةٌ تحليليَّةٌ للمرض العصبيِّ عند شارل بودلير » ؛ وهو يُصرِّح بغايته فيه على الصفحة الأولى ؛ فيقول :

« ليس من همِّي أن أُقدِّر مكانة بودلير في الأدب ؛ ولست أرغب في الأخذ بتحليل فنِّـه ؛ إذ ليس بودلير لديَّ إلا إنساناً ؛ أعني إنساناً مريضاً ؛

ضحيَّةً للحياة بين آخرين كثيرين مثله ؛ فهو صورةٌ لحشدٍ جمٍّ ممن يُسيء الناس فهمهم ؛ وليس لديَّ إلا سبب واحد للحديث عنه قبل أن أتحدث عن غيره ؛ وما ذلك إلا لأني ـ وشُكراً لفنِّه ـ أجد مدخلاً لدراسته ؛ وأراه من خلال ذلك الفنِّ لا يعزُّ على الفهم .)) .

ولم يخْفَ لافورج أنه لا يرى في قصائد بودلير ويوميَّاته ومُقيَّداته وفي السيرة التي كتبها بورشيه شيئاً سوى مُقيَّدات إكلينيكيَّة ؛ فوجد أن بودلير كان مُصاباً بعقدة أُوديب ؛ وعقدة ماسوشية مع أخيلة الضرب بالسوط ؛ وجلد عميرة ؛ وبشذوذٍ جنسيٍّ كمين ؛ ونقصٍ في عضو التناسل ؛ وربما كان مُصاباً بالعنَّة ؛ وبالتهيُّج عن طريق النظر إلى الأوضاع الجنسية ـ والأخيرة مبنية على تجربة في الطفولة ؛ حدسية إطلاقاً ـ ؛ ويرى لافورج ـ وهو يود دائماً أن غاياته من تأليف الكتاب تشمل تحذير رجال التعليم من أن يخوفوا الأطفال ؛ وتحسين معاملة المُجرمين ـ أن الفنَّان مريضٌ ((مُتميِّزٌ)) ؛ يستطيع أن يخلق فنَّاً ؛ وما الشكل الشعريُّ إلا وسيلة تُخْفي المرض العصبيَّ عند الشاعر ؛ حتى يَعَزُّ كشفه إلا على الإكلينيكيين ﴾ .أهـ .

ثم يعود Stanley Edgar Hyman فيقول ـ [جـ ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٨] ـ :

﴿ إنَّ الأُدباء المُحترفين الذين اعتمدوا فرويد والتحليل النفسيَّ ليكاد يقصر عنهم الحصر ؛ وأول استخدامٍ صحيحٍ للمبادئ النفسية تمَّ سنة ١٩١٢ في مقالٍ لفردريك كلارك برسكوت عنوانه ((الشعر والأحلام)) نشره بمجلة

Journal of Abnormal Psychology ؛ وأعاد طبعه في كتابٍ سنة ١٩١٩ ؛ وقد تناول برسكوت كتاب « تفسير الأحلام » لفرويد ؛ ولم يكُن يومئذٍ قد تُرجم إلى الإنجليزية ؛ فطبَّقه تطبيقاً مُنظَّماً في تفسير الشعر ؛ فوجد أن الشعر ـ كالحُلم ـ تحقيقٌ مُقنعٌ لرغباتٍ مكبوتةٍ ؛ وألمع إلى أن الآليّات التي وجدها فرويد في « العمل الحُلمي » قد تكون هي الآليّات في « العمل الشِّعريّ » ؛ وفي الوقت نفسه حاول أن يؤيد كثيراً من جدليات فرويد الجديدة المُزعجة ؛ وأن يُوثِّقها بالاقتباسات من الأُدباء على مَرِّ العصور ؛ وإذا استثنينا التطبيق الميكانيكيَّ نوعاً ما ؛ واعتقاده أن الشعر « هربٌ من الواقع » ؛ واحتقاره « لِمعميّات » كولردج في الوهم والخيال ؛ فإن كتاب برسكوت بداية هامة ؛ اعتمدت عليها الأعمال التي جاءت من بعد اعتماداً كبيراً ؛ وفي سنة ١٩٢٢ نشر « العقل الشِّعريّ » ؛ وهو مُعالجة أوفى ؛ غير أنها على الرغم من بعض الأُمُور القيِّمة ؛ ومنها الإرهاص بمبدأ « الغموض » الذي عالجه إمبسون ؛ والنص على تكثُّر المعنى ؛ فإنها تمثِّل انحداراً واضحاً ؛ مع المُغالاة في الأخذ بالتحليل النفسيِّ الفرويديِّ ؛ ليُجعل مُلائماً للصوفية الرُّومانتيكية وعبادة « شللي ».

ومن أُولى المُحاولات التي بذلها رَجُلٌ غير مُحترفٍ في استعمال مبادئ التحليل النفسيِّ لنقد آثار أدبية بأعيانها : محاولة تمَّت سنة ١٩١٩ في كتاب لكونراد أيكن عنوانه « شكيّات : ملاحظ في الشعر المعاصر » ؛ فلم ينتفع أيكن بنظرة فرويد في الفنِّ فحسب ؛ بل حاول أن يوفق بينها وبين نظرية

كوستيلف التي تعتبر الشعر تفريغاً آليّاً للكلمات ؛ وبينها وبين مبدأ بافلوف عن الرجع المنضبط ؛ ونُتف أُخرى من السيكولوجيا « المشكلة » ؛ ولم ينجم عن هذا الخليط استبصار كثير ؛ ولكن أيكن أخذ من فرويد النزعة الأساسية للنقد المعاصر ؛ سابقاً قولة رتشاردز ذات التأثير الواسع ببضع سنوات ؛ أي : « إنَّ الشعر نتاجٌ إنسانيٌّ ؛ يَسُدُّ كغيره من ضروب النتاج حاجات إنسانية ؛ وله أُصُولٌ ووظائفٌ يُمكن الكشف عنها ؛ وتعريضها للتحليل » .

وقد كان روبرت غريفز من أوائل الإنجليز الذين بيَّنوا للناس النقد المتصل بالتحليل النفسيِّ في سلسلةٍ من الكُتُب ؛ تشمل : « في الشعر الإنجليزيِّ » ؛ « معنى الأحلام » ؛ « اللاعقلانيَّة في الشعر » ؛ وقد حاول غريفز دراسات نفسية مسهبة لقصائد معينة ؛ وبخاصة في « معنى الأحلام » ؛ حيث حلّل قصيدة كيتس « السيِّدة الجميلة التي لا رحمة لديها » وقصيدة كولردج « قبلاي خان »وقصيدة من نظمه ؛ وربما لأن غريفز استبعد فرويد ويونج مُفضّلاً عليهما النظريات النفسية لرفرز ؛ مُتكئاً على انفصال الروابط في الشخصيات اللاشعورية والتجارب الصادمة ؛ وربما لأنه حاول أن يربط أحسن الشعر بأحسن أنواع الصراع الذاتيِّ اللاشعوريِّ ؛ وربما ـ وهذا أقرب الاحتمالات ـ لأنه جمع بين الجهل والسلاطة إلى درجةٍ مُدهشةٍ ؛ أقول : ربما لكُلِّ ذلك كانت نتائجه بشعة ـ ولعلها هي التي خذلت الجهود الإنجليزية بعده عن الضرب في هذا السبيل ـ ؛ إن التطبيق الوحيد لمبادئ التحليل النفسيِّ على أحد الآثار الفنية ـ التطبيق الذي نجح نجاحاً كاملاً على يد ناقدٍ

إنجليزيٌ : هو مقال وليم إمبسون عن « أليس في بلاد العجائب » - ؛ ويمثل هربرت ريد الإنجليزي موقفاً خاصاً مُحيِّراً ؛ فلم يكتب أحدٌ بمثل حماسته عن أهمية التحليل النفسيِّ ؛ بل أهمية كل العلوم النفسية - في الحقيقة - للأدب والنقد الأدبيِّ ؛ فهو يقول : إن على الناقد أن يلتقط من السيكولوجيا ؛ وبخاصة التحليل النفسيِّ « ألمع أسلحته » ؛ وإن الناقد قد يسأل في بعض المجالات أسئلة لا يجيب عليها إلا علم النفس ؛ وإن علم النفس قد استطاع أخيراً أن يُفسِّر خفايا علم الجمال ؛ مثل مبدأ التطهير ؛ وما أشبه ؛ وقد كتب ريد في مقالٍ له عنوانه « التحليل النفسيُّ والنقد » ؛ نُشِرَ في كتابه « العقل والرومانتيكية » Reason and Romanticism - ثم وسَّعهُ من بعد وسمَّاه « طبيعة النقد » ؛ وضمَّنه كتابه « مقالات مجموعة في النقد الأدبيِّ ». كتب حُججاً مستقلة مقنعة - غاية في ذلك - في سبيل النقد المعتمد على التحليل النفسيِّ ؛ ونصَّ على الانتقائية والاعتدال ؛ وبيَّن محدوديَّة التحليل النفسيِّ وأخطاره ؛ كما بيَّن إمكانياته الهائلة ؛ غير أن المُحيِّر في كل هذا أن ريد لم يُطبِّق إلا قليلاً من نصائحه للناس !! ؛ فإذا استثنينا كتابه عن وردزورث ؛ ومقاله الطويل عن شللي ؛ ودراسته للأخوات برونتي - وليس فيها جميعاً دراسة عميقة أو شاملة الإدراك - ؛ وإذا استثنينا ترديده الكثير لبعض اصطلاحات فرويد واصطلاحي يونج « انطوائية » و « انبساطية » - وجدنا أن ما أنتجه ريد مضى دون أن يمسه التحليل النفسيُّ - فيما يبدو - ؛ فهو مثل موسى النَّبيِّ : رأى أرض الميعاد ؛ ولكنه لم يحاول أن يدخلها ؛

وكذلك « و . هـ . أودن » ؛ فإنه حلّل قيمة فرويد للفنّ ؛ في مقاله « علم النفس والفنُّ اليوم » ـ الذي نُشِرَ في مجموعة « الفنون في أيّامنا » ـ تحليلاً لامعاً ؛ دون أن يفيد كثيراً من الطريقة النفسية في نقده .

وحال ليونل ترلنغ بأميركة مشبهة لحال هذين الناقدين الإنجليزيين ـ فقد كتب تقديراً بالغ الجودة لقيمة فرويد في الأدب وعلم الجمال ؛ مُبرزاً معرفة واسعة بمؤلفات فرويد ؛ بمجلة Kenyon Review ربيع ١٩٤٠ ؛ وأشار إلى أن فرويد في بعض الأحوال يرى العقل الإنسانيّ عضواً صانعاً للشعر ـ في الحقيقة ـ ؛ وأن التحليل النفسيّ على هذا هو علم المجازات والكنايات ؛ ثم أخذ يضرب حول هذه الحقيقة نطاقاً من التضييقات ناشئة عن ميلٍ مُناقضٍ رآه في فرويد ؛ أي : نظرة تحقيرٍ للفن ؛ فإذا به ينتهي إلى الوقوف « على الحياد » ؛ وتعكس دراسته لماثيو آرنولد و « إ . م . فورستر » هذا التوزُّع في ذهنه ؛ ومع أن استغلاله للاستبصارات النفسية واسعٌ ؛ إلا أنه لتبدو لديه دائماً تجريبيةٌ قليلة الحماسة ؛ وأحياناً تُولد ميِّتة .

ومن النُّقّاد الأميركيين الآخرين الذين حاولوا الإفادة من التحليل النفسيّ ؛ اثنان ؛ هما : إدموند ولسن ؛ وفان ويك بروكس ـ أما الأول : فقد تزايد إقباله على التحليل النفسيّ حين تخلّى عن الماركسية ؛ وأما الثاني : فقد انتقى نُتفاً طيِّبة المذاق من كل أنواع التحليل النفسيّ ليلفظها جميعاً في النهاية .

وهُناك أيضاً : وليم تروي ـ الذي كتب قطعةً واحدةً ـ على الأقل ـ في

التحليل النفسيِّ ؛ عن : عُقدة أوديب عند ستندال ؛ ومن المتأثرين ببروكس اثنان ؛ هما : فرانك ؛ وممفورد ـ أما فرانك : فقد غاص يُفتِّش عن أغمض المجالات في التحليل النفسيِّ ؛ ليتبرأ منها جميعاً من بعد ؛ لأن المحُلِّلين النفسيين « ذوو ضحالةٍ فلسفيًّا » ؛ ويختار بدلاً منها صوفيته الخاصة ـ أعني التقديس ؛ والحياة الخيِّرة ؛ والرُّوح الرياضيَّة ـ ؛ وأما ممفورد : فقد التقط سيرة ملفيل السخيفة الغنائية التي كتبها ريموند ويفر بعنوان « هرمان ملفيل : البحَّار والمتصوف » ؛ وبنى عليها دراسة أسخف وأشد غنائية بعنوان « هرمان ملفيل » ؛ وهي حافلةٌ بمبادئٍ فرويديَّةٍ غير مهضومةٍ وبذوقٍ رديءٍ ساذجٍ ـ من أقواله فيها : ربما كانت زوجة ملفيل شديدة الحياء لا تُحسن الاستجابة في الحُب . .

وهُناك بضع سيرٍ أُخرى مؤسسة على التحليل النفسيِّ ظهرت في العقد الثالث والرابع من هذا القرن ؛ ويبدو أنها أحسن وأنفذ إدراكاً ؛ مثل سيرتين كتبتهما كاترين أنتوني ـ إحداهما : سيرة مارجريت فللر ؛ والثانية : سيرة لويزا ماي ألكوت ؛ ومثل دراسة روزاموند لانغردج **R. Langbridge** لشارلوت برونتي ؛ ومثل : سيرة « بو » التي كتبها جوزف وود كرتش ؛ مع أنها جميعاً كان من المُمكن أن تنتهي بصورة من صور أغلوطة « ليس إلا » التي أنهى بها كرتش سيرة « بو » ؛ إذ قال : « إذن فنحن قد تتبَّعنا فنَّ بو حتى رددناه إلى حالٍ شاذَّةٍ في أعصابه . » .

وهناك ما هو أردأ من كل ما تقدم في النقد الأميركيِّ المعاصر الذي حاول

الإفادة من التحليل النفسيِّ ؛ وأكبر الآثمين هم المتحدثون عن الجنس ـ هوايةً لا علماً ـ ؛ و « المتوصوصون » في النقد ؛ ونمطهم متمثل في كتاب « التعبير في أميركـة » Expression in America تأليف : لـودفج لـويزون ـ من أمثلة فيه : إن ثورو ـ مثلاً ـ غِرٌّ لثق ؛ محشوٌّ بالمكبوتات إلى حدِّ العنَّة النفسية ؛ وإلا فهو ضعيف الباه ضعفاً لا يُرجى له شفاء ؛ وهو يفضح عوار كُلِّ أديبٍ أميركيٍّ على هذا النحو ـ ؛ وفوق هـذا المثـل ببضع درجات فقـط دراسات : كدراسة توماس بير لهنري آدمز المُسمَّاة « العهـد الزاهي » ؛ حيث فسَّر بير شخصية المدروس تفسيراً جنسيّاً مُباشراً ؛ وكدراسة فـان دورن ؛ الـتي فضح بها دعوى شعر وتمان وأفكاره على أساس من شذوذه الجنسيِّ ؛ وكالتفسيرات الجنسية للأدب كله على يد إدوارد دلبـرغ في « أتحيا هـذه العظام ؟!! » Do These Bones Live ؛ باسم المعاداة للتحليل النفسيِّ ؛ وكقولة تولستوي : « إن أعمق ألم المرء هـو دائماً مأساة غُرفة النَّوم !! » .

وقد سُلِّطت على الفنِّ علوم نفسية أخرى إلى جانب التحليل النفسيِّ وأحـرزت قسطاً طيِّباً مـن النجـاح في عـصرنا ؛ وربما كـان أبعـدها أثراً : سيكولوجيا رتشاردز المتكاملة التي تستمد من سيكولوجيا طِبِّ الأعصاب ؛ وسيكولوجيا السُّلُوك والتحليل النفسيِّ والجشطالت ؛ وملاحظه التجريبية ؛ أما كنث بيرك الذي توسَّع في الاستمداد من فرويـد ؛ وكتب أحـذق تحليـل أعرفه عن مشتملات التحليل النفسيِّ والتعديلات الضرورية لها إذا شئنا استخدامها في النقد في مقاله « فرويد وتحليل الشعر » ؛ الذي نُشِرَ في « فلسفة

الشكل الأدبيّ » The Philosophy of Literary Form ؛ فإنه أيضاً استمد من كل مدرسة نفسية حديثة ليحقق سيكولوجيا متكاملة يسميها « السيكولوجيا المبنية على علم الظواهر » ؛ وهي مؤسسة على الجشطالت في الدرجة الأولى ؛ وتحيد عن « رقّة ما هو استبطانيٌّ محض » ؛ وتُجانب « جدب ما هو سُلُوكيٌّ محض » كذلك .

أما المدرسة الجشطالتية ؛ فإنها فرع نفسيٌّ ذو بوادر طيِّبة للنقد الأدبيِّ - فيما يبدو - ؛ مثلها مثل التحليل النفسيِّ على الأقل ؛ ولكنها - حسب ما أعلم - لم تطبق على الأدب تطبيق احتراف مباشر إلا قليلاً ؛ ويبدو أن سبب ذلك إنما يرجع إلى النص على العلم التجريبيِّ ؛ وهو ما دعا إليه مؤسسو النظرية الأولون ؛ مثل : ماكس فرتايمر M. Wertheimer ؛ و : كرت كوفكا K. Koffka ؛ و : ولفغانغ كوهلر W. Kohler ؛ لتفضيلهم الظواهر التي يمكن التثبُّت منها موضوعيّاً عن طريق التجارب المُنضبطة ؛ وحتى اليوم ظل اهتمام هذه المدرسة واقفاً عند حدود العقل الواعي ؛ وعمليات مثل « الإدراك » و « التعليم » ؛ ترد واضحة في كتاب فرتايمر « التفكير المثمر » Productive Thinking ؛ حيث يتناول أمثلة من العمليات المعقولة في النظريات الهندسية ؛ وفي كشف أينشتين للنسبية ؛ لا من مظاهر أقل معقوليةً وأبعد عن دائرة التثبُّت واليقين ؛ كالصور الشعرية ؛ أو الملك لير لشكسبير ؛ ومع هذا فإن الفكرة الأساسية في هذه المدرسة ؛ وهي : أن رَدَّ الفعل إنما يكون للكُليِّ المُتكامل ؛ أو ما يُسمَّى : جشطالت التجربة لا « للدافع » المفرد ؛ وأنه

في الحالة هذه يكون الكل أكبر من مجموع الأجزاء ؛ وأنه يتحكم في طبيعتها .

إن هذا كله ليبدو مُرتبطاً تماماً بمشكلات الأدب والفن ؛ والحقُّ أن مبدأ الجشطالت عن الكُليِّ المتكامل إنما استُوحيَ في نواته من الطبيعة الشكلية للفنِّ حين تعرَّف فون إهرنفل Von Ehrenfel إلى أنه حين يغير مكان اللحن الموسيقيِّ وتغير أيضاً النغمات التي يتألف منها ذلك اللحن ـ فإن الصفة الجشطالتيه له لا تتغير ؛ لأن العلاقات بين النغمات ظلَّت محفوظة .

وربما كانت مشكلة الفنَّان في نقل الأنموذج الأساسيِّ لتجربته خلال وسيط ليست له فيه تجربة وبخاصة إن كان وسيطاً يستغل معنىً مغايراً ـ كمنظرٍ طبيعيٍّ في قصيدة شعرية أو أُغنية طير في تمثال منحوت ؛ وهكذا ـ ؛ أقول : ربما كانت مشكلة الفنَّان في هذا هي بالدقَّة مسألة هذه الصفة الجشطالتية ؛ وآنئذٍ فهي مجال تستطيع فيه سيكولوجيا الجشطالت أن تكون مثمرة بخاصة ؛ هذا وإن هيكلها النظريَّ الذي ينصُّ على مبادئ « الحقل » يستطيع أن يمد النماذج السلوكية للعقل اللاوعي ؛ وهي ذات صبغة كلية أيضاً ؛ وأن يدرك نظريَّاً أن العلاقات المتباينة في المجاز الشعريِّ إدراكات « مُثمرة » للشعر مثلها في ذلك مثل العلاقات الرياضية التقليدية في مجال العلم ؛ ولا ريب في أن الجشطالتيين التكامليين الشُّبَّان ؛ وهم أتباع المرحوم « لفن » ـ الذي قال في « مبادئ السيكولوجيا الطوبولوجية » : « إن الاقتراب الوحيد من المشكلات العميقة إنما هو العمل اللامع الذي قام به فرويد » ـ ؛ والحشطالتيين الاجتماعيين مثل « س . إ . آش » ؛ و « ج . ف .

براون »؛ لا ريب في أن هؤلاء حين يوجهون انتباههم إلى الكُلّيّات و « الحقول » و « الطوبولوجيا » في الآثار الأدبية ؛ ويلتقط النُّقَّاد المحترفون منهم استبصاراتهم ؛ ويوسِّعُون فيها ؛ عندئذٍ ينفتح أمام النقد الأدبيِّ مجالٌ جديدٌ ذو قيمةٍ هائلةٍ . ﴾ . أهـ .

.....

✪ - ألفرد أدلر

[١٨٧٠ - ١٩٣٧]

ألفِرد أدلِر هُوَ مُؤسِّسُ مَدْرَسَةِ عِلْمِ النَّفْسِ الفَرْدِيِّ ؛ وَهُوَ يَرَى أَنَّ البَاعِثَ الأَوَّلَ عَلَى الفَنِّ هُوَ غَرِيزَةُ حُبِّ الظُّهُورِ أو غَرِيزَةُ الرَّغْبَةِ فِى السَّيْطَرَةِ وَالتَّمَلُّكِ ؛ وَمَا يُمَيِّزُ مَنْهَجَ هَذَا العَالِمِ هُوَ اهْتِمَامُهُ بِالجَانِبِ الاجْتِمَاعِيِّ ؛ فَالدَّوَافِعُ اللاشُعُورِيَّةُ لا يُمْكِنُ أن تُقَدِّمَ بِمُفْرَدِهَا فَهْمَاً مُكْتَمِلاً وَعَمِيقاً لِطَبِيعَةِ الذَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ ؛ فَلابُدَّ مِن تَفَاعُلِ العَالَمِ البَاطِنِيِّ لِلذَّاتِ بِالعَلاقَاتِ المَوْضُوعِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ إِذ المُبْدِعُ لَيْسَ إِنْسَاناً مَعْزُولاً عَن الجَمَاعَةِ وَالعَلاقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ حَتَّى وَإِن حَاوَلَ هُوَ ذَلِك ؛ وَلَيْسَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أن يُحَكِّمَ دَوَافِعَهُ اللاشُعُورِيَّةَ فِى كُلِّ وَقْتٍ طَالَمَا أَنَّهُ يَعِيشُ فِى المُجْتَمَع .

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ أدْلِر لَم يَتَعَمَّق وَيَسْبر السِّيَاقَ الاجْتِمَاعِيَّ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِن تَنَاقُضَاتٍ ؛ وَظَلَّ مُتَمَثِّلاً عِنْدَهُ فِى غَرِيزَةِ حُبِّ السَّيْطَرَةِ وَحُبِّ الظُّهُورِ وَفِى مَسْأَلَةِ التَّعْوِيضِ وَالرَّغَبَاتِ اللاشُعُورِيَّةِ وَالطَّابِعِ البِيُولُوجِيِّ الوِرَاثِىِّ ؛

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ اهْتِمَامَ أَلْفِرِيد أَدْلِر بِالجَانِبِ الاجْتِمَاعِىِّ لَم يُحْدِث الأَثَرَ الرَّهِيبَ فِى نَظَرِيَّةِ التَّحْلِيلِ النَّفسِىِّ .

.....

٥ـ كَارْل غُوستَاف يُونغ

[١٨٧٥ـ ١٩٦١]

أَنْكَرَ كَارْل غُوستَاف يُونغ عَلَى أُستَاذِهِ سيجمُوند فُرُويد مُغَالاتَهُ فِى إِعْطَاءِ الغَرِيزَةِ الجِنْسِيَّةِ هَذَا القَدْرَ العَظِيمَ مِنَ الأَهَمِيَّةِ حِينَ رَأَى أَنَّهَا تُمَثِّلُ البَاعِثَ الأَوَّلَ عَلَى الفَنِّ وَالإِبْدَاعِ ؛ وَإِن كَانَ يَرَى شَأْنَ أُستَاذِهِ أَنَّ اللاشُعُورَ يُعَدُّ مِن دَوَاعِى الإِبْدَاعِ وَأَسْبَابِهِ ؛ وَيُسَمِّيهِ « اللاشُعُورُ الفَرْدِىُّ » ؛ وَيُضِيفُ إِلَيْهِ مَا أَسْمَاهُ « اللاشُعُور الجَمْعِىُّ » ؛ وَيَرَاهُ بِمَثَابَةِ الدَّافِعِ الأَقْوَى لِلأَعْمَالِ الإِبْدَاعِيَّةِ ؛ وَأَنَّهُ المَعِينُ الَّذِى يَستَقْبِلُ كَافَّةَ النَّمَاذِجِ البِدَائِيَّةِ وَالرَّوَاسِبِ القَدِيمَةِ وَالتَّرَاكُمَاتِ المَوْرُوثَةِ ؛ فَاللاشُعُورُ الجَمْعِىُّ يُمَثِّلُ تَجَارِبَ الأَسْلافِ وَخِبْرَاتِ المَاضِى ؛ فَاللاشُعُورُ الجَمْعِىُّ يُعَدُّ عِنْدَ كَارْل غُوستَاف يُونغ بِمَثَابَةِ نُقْطَةِ الانْطِلاقِ المِحْوَرِيَّةِ فِى التَّحْلِيلِ النَّفْسِىِّ لِعَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِ ؛ فَالتَّجْرِبَةُ الإِبْدَاعِيَّةُ تَحْدُثُ عَن طَرِيقِ النَّمَاذِجِ الرَّئِيسِيَّةِ المُتَرَاكِمَةِ فِى اللاشُعُورِ الجَمْعِىِّ ؛ فَالخِبْرَاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ السَّيِّئَةُ أَو المُحْزِنَةُ تُسَبِّبُ اضْطِرَابَاً نَفْسِيَّاً لَدَى الفَنَّانِ ؛ فَتَأْتِى التَّجْرِبَةُ الإِبْدَاعِيَّةُ كَى تَعْمَلَ عَلَى تَشْكِيلِ حَالَةٍ مِنَ الاتِّزَانِ الشَّامِلِ أَو النِّسْبِىِّ .

قُلْتُ : وَإِنِّى لأَرَى فِى هَذَا الرَّأْيِ الأَخِيرِ كَثِيراً مِنَ الوَجَاهَةِ المَنْطِقِيَّةِ ؛ وَلَيْس

مَن سَمِعَ كَمَن رَأَى ؛ فَأَنَا أَذْكُرُ مَوْقِفاً مِن خَيْرِ مَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ ؛ وَهُوَ مَوْقِفٌ مِن تَجْرِبَتِي الحَيَاتِيَّةِ المُرْتَبِطَةِ بِاللاشُعُورِ الجَمْعِيِّ ؛ فَقَد عِشْتُ ـ كَمَا ذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ كُتُبِي ؛ وَهُوَ كِتَاب « كَلِمَاتٌ فِي مَوْسِمِ الخَرِيف » ؛ وكَذَلِكَ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِي « عِلْمُ البَلاغَة : الجُزْءُ الأَوَّل : عِلْمُ المَعَانِي » ـ قِصَّةَ حُبٍّ مُنْكَرَةٍ !! ؛ أَفْضَت بِي إِلَى العُزْلَةِ وَالاكْتِئَاب !! ؛ وَكُنْتُ كُلَّمَا غُلِبْتُ عَلَى أَمْرِي تَذَكَّرْتُ « أَسْمَاء » !! ؛ تِلْكَ الفَتَاةُ النَّقِيَّةُ الطَّاهِرَةُ البَرِيئَةُ !! ؛ وَالَّتِي عَرِفْتُهَا فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا يَوْمَاً مَا يُنْكَرُ ؛ كُنْتُ كُلَّمَا تَذَكَّرْتُ فَتَاةَ فِبْرَايِر ٢٠١١ م هَرِبْتُ إِلَى ذِكْرَى « أَسْمَاء » !! ؛ فَكُلَّمَا طَافَ بِي طَيْفٌ كَئِيبٌ يُخْبِرُ وَيَحْكِي عَن عَهْدِ الفَتَاةِ المَأْفُونَةِ الحَمْقَاء !! ؛ رَدَّدْتُ اسْمَ صَاحِبَةِ الوَجْهِ الَّذِي لَن أَنْسَاهُ أَبَدَاً !! ؛ « أَسْمَاء » !! ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّنِي مَا خَسِرْتُ شَيْئَاً يَوْمَ أَن ذَهَبَت فَتَاةُ فِبْرَايِر الرَّخِيصَة !! ؛ وَأَنَّ الخَسَارَةَ الحَقِيقِيَّةَ إِنَّمَا كَانَت يَوْمَ أَن رَحَلَت « أَسْمَاء » !! ؛ فَكُنْتُ أَسْتَعِيدُ بِتَذَكُّرِهَا ثِقَتِي بِكُلِّ شَيْءٍ ؛ حَتَّى إِذَا مَا عِشْتُ مَعَ الذِّكْرَى يَوْمَاً فَصِرْتُ فِي حَالَةٍ مِنَ الغِيَابِ عَن كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ عَنْهَا ؛ كَتَبْتُ هَذِهِ القَصِيدَة :

.....

✿ - تَرْنِيمَةُ الأَوْرَاقِ الأَخِيرَةِ .... ؛ فِى السِّفْرِ الَّذِى !!... ؛ مَا عَرِفَ القَدَاسَة

أَسْمَاءُ يَا وَجَعَ الفِرَاقِ الْمُؤْسِفِ !!
وَحْدِى احْتَرَقْتُ ؛ وَذِى حَقِيقَةُ مَوْقِفِى !!
... ؛ أَسْمَاءُ يَا هَمَّ البِعَادِ بِلا رَجَا !!
.. ؛ مَاذَا يُفِيدُ تَوجُّعِى وَتَلَهُّفِى ؟!!
وَحْدِى ابْتُلِيتُ وَلا دَوَاءَ بِمِثْلِهَا !!
قَرِحَت شُئُونُكِ يَا عُيُونُ فَكَفْكِفِى !!
؛ سَئِمَ الزَّمَانُ حِكَايَتِى وَتَلَدُّدِى !!
... ؛ يَا مَوْتُ هَاكَ تَوَدُّدِى وَتَزَلُّفِى !!
إِن لَم يَكُن فِى المَوْتِ إِلاَّ رَحْمَتِى !!
لَكَفَى ؛ فَكُن يَا مَوْتُ كُن لِى مُسْعِفِى !!
صَرَخَت طُلُولُ الحَىِّ وَيْلَكَ لا تَعُد !!
فَأَجَبْتُ لا أَدْرِى !! ؛ وَصَبْرِى لا يَفِى !!

أَسْمَاءُ يَا أَلَقَ البَرَاءَةِ وَالهَوَى !!... ؛ يَا فِتْنَةَ السَّنَوَاتِ يَا مَهْدَ الأُلَى ... ؛ قَد سَطَّرُوا فِى الكُتُبِ كَيفَ الحُبُّ !!... ؛ مَا سِرُّ الصَّبَابَةِ وَالجَوَى !!... ؛ يَا نَسْمَةً مَادَت عَلَى رُوحِى لِحِقْبَةَ مِن زَمَن !!... ؛ حِينَ اقْتُلِعْتُ مِنَ المَوَاطِنِ

كُلِّهَا !!... ؛ وَبَقِيتُ مَعْزُولاً بِلا اسْمٍ وَلا أَرْضٍ ؟!!... ؛ كَانَت حَقِيقَتُكِ البَرِيئَةُ لِي وَطَن !!... ؛ بِالبَسْمَةِ السَّكْرَى تَحَوَّلْتُ النَّبِيُّ المُنْتَظَر !!... ؛ وَبِلَحْظَةِ العَوْدِ الوَجِيعِ رَأَيْتَنِي !!... ؛ مَلْعُونٌ قَد حُرِمَ الأَمَل !!... ؛ رُوحِي تَجَلَّت مِثْلَ مَسْخٍ !!... ؛ لَم تَعُد تُنْسَب !!... ؛ لأَيَّامِ البَشَر !!

قَد عُدتُ !!

قَد عُدتُ لَم أَجْنِ أَحْلامِي وَلا فَرَحِي
لَم يَبْقَ مِن بَعْدِ تَرْحَالِي سِوَى شَبَحِي
... ؛ عَصْرُ المَرَائِي قَد وَلَّى ؛ وَهَا أَنَذَا
... : أُنْشُودَةُ الثُّكْلِ مِن قِيثَارَةِ الجُرْحِ
وَحْدِي صُلِبْتُ ... ؛ بِلا جُرْمٍ أَتَيْتُ بِهِ
. ؛ لَم يُجْدِ عِنْدَهُمُ قَوْلِي وَلا شَرْحِي
... ؛ وَحْدِي قُبِرْتُ بِلا دَمْعٍ وَلا كَفَنٍ
...... ؛ وَمَرَّ قَوْمِي بِلا شَجَنٍ وَلا تَرَحِ
وَحْدِي نُسِيتُ ؛ أَنَا وَحْدِي ؛ وَكَم سَخِرَت
بِي الحَيَاةُ .... ؛ وَغُلَّ العَزْمُ فِي مَرَحِ
.. ؛ وَحَطَّمَت سَيْفَ آمَالِي بِلا سَبَبٍ
..... ؛ وَغَادَرَتْنِي بِلا حِصْنٍ وَلا صَرْحِ

.....

إِذَا دَارَت بِنَا الدُّنْيَا !!... ؛ إِذَا دَارَت بِنَا الدُّنْيَا وَضَاعَت عِنْدَ أَقْدَامِي جَلِيَّاتُ الحَقَائِقْ !!... ؛ إِذَا ذَوَت الغُصُونُ هُنَاكَ بِوَسْطِ صَمْتِ مَوَاجِعِي فَتَحَوَّلَت أَغْلَالُ !!... ؛ أَو صَارَت مَشَانِق !!... ؛ إِن صَارَ لَوْنُ الجَدْوَلِ المُنْسَابِ قَانٍ !! ؛ مِن دَمِي !!... ؛ إِن جَاءَت الغِرْبَانُ تَنْهَشُ مَا تَنَاثَرَ مِن بَقَايَا أَعْظُمِي !! ... ؛ لَو صِرْتُ مَاضٍ قَد تَلَاشَى وَقِيلَ أَضْحَى مَحْضُ ذِكْرَى لَم يَعُد فِي الأَرْضِ نَفْسَا ؟!!... ؛ فَبِرَغْمِ ذَوْبِ جَمِيعِ أَشْلَائِي فَإِنِّي لَسْتُ أَغْفَلُ !! ... ؛ إِي وَإِنِّي ؟!!... ؛ لَسْتُ أَنْسَى !!

.....

عِنْدَ احْتِضَارِي !!... ؛ عِنْدَ احْتِضَارِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ يُلْهِمَنِي التَّشَهُّدَ بِاسْمِهِ مِن خَوْفِ أَن يَسْبِق لِسَانِي بِذِكْرِ حُبِّيهَا المُقَدَّس !!... ؛ حُبِّي أَنَا المَعْصُومُ !! ... ؛ حُبِّي أَنَا المَعْصُومُ بَيْنَا العِشْقُ فِي زَمَنِي كَلَامٌ سَاحِرٌ !!... ؛ وَبُعَيْدَهُ يَغْدُو الهَوَى !! ... ؛ عِشْقٌ مُدَنَّس !!

.....

تَتَلَاشَى مِن قَامُوسِ أَشْعَارِي تَرَاتِيلُ الحَيَاةِ جَمِيعُهَا !!... ؛ تَغْدُو عَوَالِمُ رِحْلَتِي صَرَخَاتُ شَيْطَانٍ بِأَرْضٍ كُلُّ مَا فِيهَا خَوَاء !!... ؛ وَأَعُودُ لِلخُلْدِ لِلدُّنْيَا الَّتِي بِالأَمْسِ كُنْتُ أُرِيدُهَا !!... ؛ وَأَعُودُ حَسْبٌ إِذَا مَا قُمْتُ فِي صَمْتِ اللَّيَالِي المُمْطِرَه !!... ؛ وَصَرَخْتُ فِي فَضَاءَاتِ كَوْنٍ شَاحِبٍ !!... : إِنِّي أُحِبُّكِ لَم أَزَل !!... ؛ إِنِّي أُحِبُّكَ يَا كَيْنُونَتِي الأُولَى !!... ؛ أُحِبُّكِ أَنْتِ يَا أَسْمَاء !!

.....

وَحَمَلْتُ جُرْحِي !!... ؛ وَحَمَلْتُ جُرْحِي عَلَى أَكْتَافِيَ العَذْرَاء !!... ؛ أَمْشِي كَإِنْسَانٍ ... ؛ وَرُوحِي !!... ؛ كُنْهُهَا أَشْلاء !!

.....

أَسْمَاءُ مَا هَانَت !!... ؛ وَظَنِّي أَنَّنِي رَغْمَ التَّشَتُّتِ أَنَّنِي مَا هُنْت !!
لَو أَنْظُرُ العَيْنَيْنَ قَبْلَ رَحِيلِ سَنَوَاتِي ؟!!... ؛ لَن يَذْكُرَ التَّارِيخُ فِي كُتُبِ الهَوَى إِن جَاءَ دَوْرِي !!... ؛ أَنَّنِي قَد مِت !!
لَو غَادَرَ العُمْرُ الوَجِيعُ بِقَهْرِهِ ؟!!... ؛ وَبِآخِرِ اللَّحَظَاتِ جَاءَت تَرْقُبُ مَشْهَدِي عِنْدَ الرَّحِيلِ ؟!!... ؛ فَكُلُّ العُمْرُ أَنْت !!

.....

أَو لَو تَسَلْطَنَ مَن تَسَلْطَنَ فَوْقَ صَرْحِ عُرُوشِهِم ... ؛ وَبَقِيتِ أَنْتِ رَفِيقَتِي !! ... ؛ أَوَلَسْتُ أَعْظَمُ مَن مَلَكْ ؟!!
مَا مِن حِكَايَةِ عَاشِقٍ إِلاَّ وَتَفْنَى !!... ؛ إِن تَنَاسَى ... ؛ أَو هَلَكْ
أَمَّا أَنَا سَيَظَلُّ حُبِّي بَاقِياً مَادَامَ رَبِّي يَحْكُمُ الدُّنْيَا ... ؛ وَمَا دَارَ الفَلَكْ

.....

مَازِلْتُ أَعْزِفُ لَحْنَ أَيَّامٍ تَوَلَّت !!... ؛ مَازَالَ دَهْرِي رَاضِياً عَن كُلِّ عُشَّاقِ الهَوَى !!.... ؛ إِلاَّ أَنَا !!..... ؛ يَا رُوحِيَ الثَّكْلَى وَيَا قَلْبِي المُعَذَّبَ وَسْطَ لَعْنَتِهِ !! ... ؛ كُلُّ الكَابَاتِ الَّتِي فِي عَصْرِنَا !!... ؛ صَارَت لَنَا !!

خَفِّف صَدَى تِلْكَ المَلاحِمِ يَا فَتَى !!... ؛ مَا عَادَ مِن أحَدٍ
هُنا !!... ؛ مَا عَادَ مِن أحَدٍ هُنَالِك !!
لَم يَبْقَ مِن تَرْحَالِ أزْمِنَتِك ؟!!... ؛ سِوَى دَمْعِ المَسَالِك !!
لَم يُرَ قَلْبٌ كَقَلْبِكِ رُقِّعَت جَنَبَاتُهُ !!... ؛ إي لَم
نَر فِي النَّاسِ شِبْهَكَ !!... ؛ لَم يَعُد حَالٌ كَحَالِك !!
إن كَانَ عِيسَى قَد غَدَا وَالدَّمْعُ آيَتُهُ ؟!!... ؛ فَأنَا
مَسِيحٌ !!... ؛ إي وَأحْلامِي !!... ؛
كَذَلِك !! ﴾ (١). أهـ .

وَهَكَذَا كَانَ اللاَّشُعُورُ البَاطِنِيُّ الجَمْعِيُّ يَأتِي فِي لَحَظَاتِ الجُنُونِ لِيَصْنَعَ حَالَةً مِنَ الاتِّزَانِ وَالاسْتِقْرَارِ النَّفْسِيِّ ؛ ثُمَّ تَأتِي ذِكْرَى « **أسْمَاء** » !! ؛ تَأتِي لِتَصْنَعَ بِدَوْرِهَا حَالَةً أُخْرَى مِنَ الجُنُون !! ؛ نَعَم كَانَت الحَالَةُ الأُولَى أثَراً مِن آثَارِ التَّرَاكُمَاتِ السَّيِّئَةِ ؛ وَهَذِهِ حَالَةٌ مِن نَتَائِجِ تَرَاكُمَاتِ المَاضِي الجَمِيلِ الَّذِي أطَاحَت بِهِ الأيَّامُ ؛ إلاَّ أنَّ حَالَةَ الجُنُونِ الإبْدَاعِيِّ كَانَت تُحْدِثُ ذَاتَ الأثَرِ العَنِيفِ المَرْهُوب !! ؛ فَجَاءَ اللاَّشُعُورُ هَذِهِ المَرَّةَ بِدَوَاءٍ لِعِلَّةِ فُقْدَانِ الاتِّزَانِ النَّفْسِيِّ الوَقْتِيِّ ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ غَرِيباً مُسْتَبْشَعاً !! ؛ يَتَمَثَّلُ فِي إنْكَارِ « **أسْمَاء** » !! وَمُحَاوَلَةِ نَفْيِهَا عَن عَالَمِ الشَّاعِرِ !! ؛ وَذَلِكَ مِن أجْلِ إبْعَادِهِ عَن حَيَاةِ اليَأسِ وَالقُنُوطِ وَالبَحْثِ عَن حُبٍّ جَدِيدٍ حَتَّى لا تَتَوَقَّفَ بِهِ الحَيَاةُ عِنْدَ « **أسْمَاء** »

---

(١) ـ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِي : ﴿ التَّرْنِيمَةُ الأخِيرَة ﴾ .

الّتِى رَحَلَت وَمِنَ الُمحَالِ أن تَعُود !! ؛ وكَانَت هَذِهِ القَصِيدَة :

✿ ـ القَلْبُ الخَلِىُّ !!... ؛ مِنَ النُّقُوش !!

مَجُوسِيّةُ الرَّغَبَاتِ !!... ؛ عَذْرَاءُ الجَسَد !!... ؛ تَحيّا بِقَلْبٍ نِصفُهُ صَخْرٌ وَنِصفٌ قَد فُطِر فِى لَيْلِ أصْوَاتِ السَّآمَةِ وَالكَمَد !!... ؛ تَسْعَى بِأَوْرِدَةِ الحَيَاةِ دَمٌ خَؤونٌ لَم يَكُن يَوْمَاً لأَشْعَارِ التَّوَحُّدِ وَالبَرَاءَةِ مُسْتَمِع !!... ؛ لَم تَقْتَرِف فُحْشَاً ... ؛ لَم تَقْتَرِف فُحْشَاً لِتَقْبَع فِى زَوَايَا الاعْتِرَافِ تُرِيدُ مَحْوَ خَطِيئَةٍ عِنْدَ الصَّوَامِعِ وَالبِيَع !! ... ؛ حَنِيفِيَّةُ النَّظَرَاتِ !!... ؛ حَنِيفِيَّةُ النَّظَرَاتِ لَم تَدْرِ الغِوَايَةَ لَم تَذُق طَعْمَ المَآثِمِ وَالخَنَا الرَّذِلِ الكَئِيب !!... ؛ مِن نَسْلِ أَبْنَاءِ اليَهُودِ !!... ؛ فَهِىْ تَعِيشُ اليَوْمَ جُبْنَاً مُفْزِعَاً !!... ؛ وَغَدَاً تُقِيمُ الحَفْلَ !!... ؛ فِى كِبْرٍ رَهِيب !!... ؛ لَم تَدْرِ سِرَّ الدَّمْعِ فِى عَيْنِ الفَتَى العُذْرِىِّ يَرْنُو فِى ظَلَامِ اللَّيْلِ فِى زَمَنِ المَطَر !!... ؛ مَا كَانَ عَيْبَاً عِنْدَهَا !!... ؛ فَفُؤَادُهَا جُلْمُودُ صَخْرٍ !! ... ؛ لا يَحُسُّ كَيَانُهَا مَعْنَى الهَوَى !!... ؛ إِى لَم يُفَزِّع مُقْلَتَيْهَا عِنْدَ أَوْقَاتِ السَّحَر !!... ؛ عَيْنَانِ كَالطِّفْلِ البَرِىءِ المُستَكِين !!... ؛ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الشِّفَاهَ رَأَيْتَهَا كَالنَّارِ تَأكُلُ لا تَدَع زَرْعَاً وَلا صَرْحَاً مَكِين !!... ؛ وَيَدَانِ لَم تَرَيَا بِعُمْرٍ غَيْرَ آثَارِ التَّنَزُّهِ وَالنَّعِيم !!... ؛ أَقْدَامُهَا فِى حِيرَةٍ !!... ؛ تَمْشِى كَمَغْضُوبٍ عَلَيْهِ يَسِيرُ كَى يُلْقَى !!... ؛ لأَفْوَاهِ الجَحِيم !!.

مُتَنَاقِضٌ !!... ؛ مُتَنَاقِضٌ هَذَا الكِتَاب !!... ؛ مُلِئَت طُرُوسُهُ مِن كُلَيْمَاتٍ

الرُّسُل!!... ؛ وَالسِّفْرُ مَحْفُوظٌ بِحِصْنٍ عِنْدَهُ وَقَفَت شَيَاطِينٌ تَصِيحُ بِقَلْبِهِ أَصْدَاءُ أَرْوَاحٍ مُشَوَّهَةٍ غِضَاب !!... ؛ مُتَنَاقِضٌ !!... ؛ مُتَنَاقِضٌ يَا قَلْبُهَا ؟!! ... ؛ إِبْلِيسُ تَابَ بُعَيْدَ أَن عَرِفَ الهَوَى؟!!... ؛ قِدِّيسٌ عَاشَ بِدَمْعِهِ ... ؛ وَيفَجْأَةٍ ؟!!... ؛ مَزَّق مُسُوحَ الطُّهْرِ وَلَّى قَد تَزَنْدَقَ أَو غَوَى؟!!... ؛ أَهِيَ حَفِيدَةُ مَن حَمَت مُوسَى مِنَ الوَيْلاتِ فِى يَوْمِ العَذَاب ؟!!... ؛ أم أَنَّ جَدَّتَهَا الكَبِيرَةُ تِلْكَ مَن أَخَذَت تُرَاوِدُ عَبْدَهَا الصِّدِّيقَ إِى مِن مَكْرِهَا قَد غَلَّقَت فِى السِّرِّ بَاب؟!! ... ؛ هَاذِى يُرَبِّى مَن تَكُون؟!!... ؛ رَبُّ الطَّهَارَةِ وَالبَرَاءَةِ وَالسُّكُون؟!! ... ؛ أم إِلَهُ الخَسْفِ وَالإِعْصَارِ فِى لَيْلِ الجُنُون ؟!!... ؛ رُوحٌ تَقُولُ بِأَنَّهَا الأُمُّ المُبَرَّأَةُ الرَّؤُوم ؟!!... ؛ سَيْفٌ بِلَوْحَتِهِ دِمَاءٌ !!... ؛ لَيْسَ يَعْرِفُ غَيْرَ جَلَّادٍ غَشُوم؟!! ... ؛ مُتَنَاقِضٌ هَذَا الكَلام !!... ؛ تَعِبِيرُ مِنْطِيقٍ ... ؛ وَأَحْيَانًا تَرَى المَحْمُومَ يَهْذِى فِى المَنَام !!.

هِىَ تَعْرِفُ التَّكْبِيرَ فَوْقَ مَآذِنِى!!... ؛ وَكَذَاكَ تَطْرَبُ لِلنَّوَاقِيسِ الَّتِى تَعْلُو كَنِيسَةَ رَاهِبٍ !!... ؛ آيَاتُنَا فِى مُصْحَفٍ عِنْدَ السَّحَر وَالصَّوْتُ يَحْجُزُهُ النَّحِيب !!... ؛ دَمْعَاتُ قِدِّيسٍ يَنُوحُ وَيَبْتَهِل عِنْدَ الصَّلِيب !!... ؛ لا فَرْقَ بَيْنَ مُوَحِّدٍ وَمُثَلِّثٍ !!... ؛ أَو بَيْنَ أَرْبَابِ السَّعَادَةِ وَالنُّحُوس !!... ؛ تَبْكِى بِيَوْمِ السَّبْتِ تَعْشَقُ شَعْبَهَا المُخْتَارُ لَكِن إِن أَتَى زَمَنُ الشِّتَاءِ ... ؛ فَهِى هُنَاكَ ... ؛ بِوَسْطِ نِيرَانِ المَجُوس !!.

مُتَشَابِهٌ !!... ؛ مُتَشَابِهٌ فِى عُرْفِهَا يَوْمُ الثَّكَالَى وَالجَنَائِز !!... ؛ أو حُبٌّ لاهِيَةٍ تَسِيرُ وَلا تَرَى غَيْرَ المَخَازِى وَالغَرَائِز!!... ؛ قَلْبٌ كَصَخْرٍ مُعْتِمٍ لَم يَعْرِفِ

البَوْنَ الَّذِى جَعَلُوهُ بَيْنَ الغُولِ فِى البَيْدَاءِ أَو دِفءِ البُيُوت !!... ؛ كَحَمَامَةٍ بَيْضَاءَ لَكِن حَوْلَهَا !!... ؛ تُبْنَى خُيُوطُ العَنْكَبُوت !!... ؛ سِيَّانَ مَن يَحْيَا هُنَاكَ بِأَرْضِهَا ... ؛ أَو مَن يَمُوت !!... ؛ أَصْدَاءُ كَلِمَاتِ الفَمِ المَغْسُولِ يَمْلأُ سَاحَتِى!!... ؛ وَبِلَحْظَةٍ !!... ؛ وَبِلَحْظَةٍ وَكَأَنَّ شَيْئاً لَم يَكُن !!... ؛ وَبِلَحْظَةٍ ... ؛ كَانَ السُّكُوت !!.

أَتُرَاهُ قَلْبَاً قَد يُرِيدُ بِغَيْرِ كَدٍّ أَو نَصَب جَنْىَ الأَزَاهِرِ وَالثِّمَار؟!!... ؛ أَم أَنَّهُ يَأْسٌ قَدِيمٌ قَد نَشَا فِى ظِلِّ أَوْدِيَةِ التَّعَاسَةِ وَالمَرَار؟!!... ؛ النَّفْسُ قَد فَنِيت وَطَعْمُ الغَدْرِ مِن تَابُوتِهَا يَأْتِى يَفُوح ؟!!... ؛ أَبَرِيئَةٌ وَالعُذْرُ أَن الرُّوحَ قَد مُلِئَت بِآثَارِ المَوَاجِعِ ... ؛ وَالجُرُوح؟!!.

يَا سَيِّدِى !!... ؛ يَا سَيِّدِى هَاذِى تَعِلَّةُ حَائِر!!... ؛ وَحَقِيقَةُ الأَمْرِ اللَّعِينِ بِأَنَّهَا !!... ؛ أَمَدَائِنُ العُشَّاقِ يَوْمَاً قَد هَوَت !!... ؛ وَسْطَ الظَّلامِ وَفِى الجَحِيمِ هُنَاكَ قَد قَامَت عُرُوش !!... ؛ كُلٌّ هَبَاءٌ يَعْرِفُهَا !!... ؛ لاجَرَمَ هَذَا فَإِنَّهُ !! ... ؛ قَلْبٌ خَلِىٌّ !!... ؛ مِنَ النُّقُوش !! .﴾. (١).

.....

عود على بدء:

وَهَكَذَا انْتَهَى يُونغ ـ شَأْنَ أُسْتَاذِهِ ـ إِلَى أَنَّ عَمَلِيَّةَ الإِبْدَاعِ الفَنِىِّ عَمَلِيَّةٌ مُعَقَّدَةٌ وَمُسْتَعْصِيَةٌ ؛ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَى فُرُوضِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِىِّ أَن يَصِلَ

(١) ـ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى : ﴿ عِنْدَمَا نَجْلِس سَوِيًا ﴾.

إِلَى سِرِّهَا الغَامِضِ !! ؛ وَإِن كَانَ قَد اقْتَرَحَ البَحْثَ عَن مَنْهَجٍ فَنِّيٍّ جَمَالِيٍّ كَي يَسْعَى إِلَى سَبْرِ أَغْوَارِهَا ؛ أَو العَوْدَةَ إِلَى المُشَارَكَةِ الصُّوفِيَّةِ مِن أَجْلِ حَلِّ بَعْضِ رُمُوزِهَا المُسْتَغْلَقَةِ !!.

.....

وبعد

« هَذَا المَنْهَجُ هُوَ مُحَاوَلَةٌ لِتَفْسِيرِ الأَدَبِ عَلَى أَسَاسٍ نَفْسِيٍّ ؛ اعْتِمَادًا عَلَى كَوْنِ العَمَلِ الأَدَبِيِّ يُعَدُّ صُورَةً مِن صُوَرِ التَّعْبِيرِ عَن النَّفْسِ ؛ إِذ الأَدِيبُ فِي كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِن نَشَاطٍ أَدَبِيٍّ يَسْتَلْهِمُ تَجَارِبَهُ العَقْلِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ ؛ إِذَن ؛ فَمَعِينُ الإِبْدَاعِ ؛ هُوَ : اللاَّشُعُور.

فَالمَنْهَجُ النَّفْسِيُّ مَعْنِيٌّ بِالتَّعَرُّفِ عَلَى طَبِيعَةِ العَمَلِ الأَدَبِيِّ وَتَكْوِينِهِ فِي دَاخِلِ الأَدِيبِ مِنَ الوِجْهَةِ النَّفْسِيَّةِ.

وَقَد تَنَبَّهَ لأَثَرِ النَّفْسِ قُدَامَى النُّقَّادِ العَرَب ؛ وَرَبَطُوا بَيْنَ الدَّوَافِعِ النَّفْسِيَّةِ وَالإِنْتَاجِ الأَدَبِيِّ : فَابْنُ قُتَيْبَةَ الدِّينَوَرِيُّ يَرَى أَنَّ الشِّعْرَ مَا هُوَ سِوَى اسْتِجَابَةٍ لِدَوَاعٍ نَفْسِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ يَتَحَكَّمُ فِيهَا الزَّمَانُ وَالمَكَان ؛ وَالجُرْجَانِيُّ يَرَى أَنَّ اخْتِلافَ الطَّبَائِعِ قَد يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلافٍ فِي المَعَانِي وَالأَلْفَاظِ فِي الشِّعْر.

عَلَى أَنَّ نُقَّادَ العَصْرِ الحَدِيثِ اتَّسَعُوا فِي الأَخْذِ بِهِ وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ وَالاعْتِمَادِ وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهِ : نَتِيجَةً لِظُهُورِ الدِّرَاسَاتِ النَّفْسِيَّةِ عَلَى يَد : فُرُويد ؛ وَأَتْبَاعِهِ ؛ كَـ : يُونْج ؛ وَأَدْلِر : إِذ أَفَاضُوا فِي الحَدِيثِ عَن : اللُّغَة ؛ وَالبَاطِن ؛ وَالشُّعُور ؛ وَاللاَّشُعُور ؛ وَأَثَرِهِمَا فِي الإِبْدَاعِ ؛ وَفِي طَبِيعَةِ العَمَلِ

الفَنِّيِّ: الأُسْطُورَة؛ وَالرَّمْز: وَعَلاقَتِهِمَا بِالنَّفْسِ عِنْدَ التَّعْبِيرِ عَنْهَا.

وَغَايَةُ المَنْهَجِ النَّفْسِيِّ:

البَحْثُ عَن سِرِّ الإِبْدَاعِ؛ وَإِرْجَاعُهُ ـ عِنْدَ تَفْسِيرِهِم لِلْعَمَلِ الأَدَبِيِّ ـ لِلأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ؛ كَـ: العُصَاب؛ وَالفِصَام؛ وَالنَّرْجِسِيَّة؛ وَتَعْلِيلِ السُّلُوكِيَّاتِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الحَاضِرِ بِأَحْدَاثِ المَاضِي وَمَا كَانَ فِيهِ مِن أَمْرَاضٍ وَعُقَدٍ نَفْسِيَّةٍ.)). (١).

.....

✪ ـ شَارْل مُورُون

[١٨٩٩ ـ ١٩٦٦]

شَارْل مُورُون هُوَ مُنْشِيءُ النَّقْدِ النَّفْسِيِّ؛ وَقَد أَنْكَرَ أَن يَكُونَ التَّحْلِيلُ النَّفْسِيُّ لِلأَدَبِ وَالفَنِّ مُجَرَّدَ تَحْلِيلٍ كِلِينِيكِيٍّ عِيَادِيٍّ يَخْضَعُ لِوَسَائِلِ التَّشْخِيصِ الطِّبِّيِّ !! ؛ وَأَنْكَرَ أَن يَكُونَ الأَدِيبُ أَو الفَنَّانُ ـ فِي كُلِّ الحَالاتِ ـ

---

(١) ـ انظُر: ((فى النصِّ الجاهليِّ: قراءةٌ تحليليَّةٌ)) للدكتور عبد الرزَّاق حُسَيْن؛ (ص: ٢٣ ـ ٢٤)؛ مؤسَّسة المُختار بالقاهرة = دار المعالم الثقافيَّة بالأحساء / الطبعة الأُولى: ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م.

وَانْظُر كِتَابَنَا: ((مَنَاهِجُ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ: المَنَاهِجُ الكِلاسِيكِيَّة))؛ [ص: ١٨١ ـ ١٨٢]؛ وَهُوَ مِن مَنْشُورَاتِ دَار أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِيِّ؛ وَهُوَ مِن جُمْلَةِ المُؤَلَّفَاتِ الَّتِي أَخْرَجْتُهَا بِاسْمِي المُسْتَعَار ((نِزَار شَاهِين)).

إِنسَانًا عُصَابِيًّا مُضْطَرِبًا !! ؛ وَأَن يَكُونَ أَدَبُهُ أو فَنُّهُ مِن دَلائِلِ مَرَضِهِ وَاضْطِرَابِهِ وَشُذُوذِهِ !! ؛ وَإِن كَانَ شَارْل مُورُون لَم يُهْمِل بَعْضَ فَرْضِيَّاتِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ فِي دِرَاسَةِ شَخْصِيَّةِ الْمُبْدِعِ وَعَمَلِهِ الإِبْدَاعِيِّ ؛ فَلَقَد أَفَادَ مِنْهَا فِي دِرَاسَتِهِ لِشَخْصِيَّةِ « رَاسِين » وَمَسْرَحِيَّاتِهِ ؛ فَقَد أَفَادَ مِن فِكْرَةِ اللاَّشُعُور ؛ وَمُرَكَّبِ « أُودِيب » ؛ وَمَبْدَأِ اللَّذَّةِ ؛ وَالسَّادِيَّةِ ؛ وَالمَازُوخِيَّةِ ؛ وَالصِّرَاعَاتِ الكَامِنَةِ مِن جَرَّاءِ المَصَائِبِ وَالمَآسِي .

وَتَكْمُنُ القِيمَةُ الحَقِيقِيَّةُ لِشَارْل مُورُون فِي كَوْنِهِ لَم يَقِف عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ وَحَسْب ؛ بَل تَجَاوَزَهَا إِلَى تَنْوِيرِ الآثَارِ الإِبْدَاعِيَّةِ وَخَلْقِ قِرَاءَةٍ جَدِيدَةٍ لَهَا ؛ وَجَعَلَ « فَنُّ القِرَاءَةِ » أَعْظَمَ رَكَائِزِ نَظَرِيَّةِ النَّقْدِ النَّفْسِيِّ .

وَعِنْدَهُ أَنَّ الإِبْدَاعَ الأَدَبِيَّ يَنْطَلِقُ مِن عَوَامِلِ ثَلاثَةٍ ؛ هِيَ :

١ـ الوَسَطُ الاجْتِمَاعِيُّ ؛ وَتَارِيخُهُ .

٢ ـ شَخْصِيَّةُ الأَدِيبِ ؛ وَتَارِيخُهَا .

٣ـ اللُّغَةُ ؛ وَتَارِيخُهَا .

وَإِن كَانَ العَامِلُ الثَّانِي ـ شَخْصِيَّةُ الأَدِيبِ ؛ وَتَارِيخُهَا ـ هُوَ العَامِلُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ النَّقْدُ النَّفْسِيُّ .

وَلا يَذْهَبُ بِكَ الظَّنُّ أَنَّ دِرَاسَةَ شَخْصِيَّةِ الأَدِيبِ وَتَارِيخِهَا تُعَدُّ وَقْفًا عَلَى نُقَّادِ مَدْرَسَةِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ ؛ فَهُنَاكَ جَمْعٌ مِنَ النُّقَّادِ يُعَوِّلُ عَلَى هَذَا المَبْدَأِ وَيَتَّخِذُهُ بِمَثَابَةِ النُّقْطَةِ المِحْوَرِيَّةِ الَّتِي تُحَرِّكُ الدِّرَاسَةَ وَتَصْنَعُهَا ؛ كَأَمْثَالِ : سَانْت بِيف [١٨٠٤ ـ ١٨٦٨] .

.....

وبعد:

لِنَظَرِيَّةِ التَّحْلِيلِ وَالنَّقْدِ النَّفْسِيِّ آثَارٌ سَلْبِيَّةٌ دَفَعَت النُّقَّادَ إِلَى إِظْهَارِهَا وَتَجْلِيَتِهَا؛ وَمِن أَبْرَزِ هَذِهِ الانْتِقَادَاتِ الَّتِي وُجِّهَت إِلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ: كَوْنُ التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ عَمَلِيَّةٌ مُعَقَّدَةٌ وَغَامِضَةٌ فِي آن؛ لا تُجْلِي مَعَهَا فَرْضِيَّاتُ وَتَخْمِينَاتُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ؛ كَمَا أَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ تَضْرِبُ عُرْضَ الحَائِطِ بِالجَانِبِ الجَمَالِيِّ فِي التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ؛ وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ جَلِيًّا حِينَمَا يَأْتِي دَوْرُ المُمَارَسَةِ وَالتَّطْبِيق؛ فَفْرُويد وَمَن يَنْضَوِي تَحْتَ لِوَاءِ مَدْرَسَتِهِ يَرَوْنَ فِي التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ مُجَرَّدَ وَثِيقَةٍ تَصْلُحُ لِدِرَاسَةِ نَفْسِيَّةِ المُبْدِعِ وَإِظْهَارِ أَمْرَاضِهِ العُصَابِيَّةِ؛ فَيَأْتِي التَّحْلِيلُ النَّقْدِيُّ لِلتَّجْرِبَةِ وَكَأَنَّهُ تَقْرِيرٌ طِبِّيٌّ وَلَيْسَ عَمَلاً طِبِّيًّا أَدَبِيًّا».

إِلاَّ أَنَّ مَا قَامَ بِهِ شَارْل مُورُون [١٨٩٩ ـ ١٩٦٦] أَعَادَ نَظْرَةَ الإِجْلالِ وَالتَّعْظِيمِ إِلَى مَبَادِىءِ نَظَرِيَّةِ التَّحْلِيلِ النَّقْدِيِّ النَّفْسِيِّ.

.....

○ ـ الآنسة بُودكين

يقُول Stanley Edgar Hyman فى كتابه «النَّقْدُ الأَدَبِيُّ وَمَدَارِسُهُ الحَدِيثَة»؛ فِي الفَصْلِ الَّذِي عَقَدَهُ بِعُنْوَان «مُود بُودكِين وَالنَّقْدُ النَّفْسِيُّ» [جـ١ / ٢٤٤ ـ ٢٨٥] ـ بِاخْتِصَار؛ يَحْذُو حَذْوَ الاكْتِفَاءِ بِالعَنَاصِرِ المُهِمَّةِ:

ـ تتميَّزُ مود بودكين في أنها حقّقت ما لعله أن يكون خير استغلالٍ للتحليل النفسيّ في مجال النقد الأدبيّ حتى اليوم ؛ فقد نشرت كتابها « النماذج العُليا في الشعر » Archetypal Patterns in Poetry ؛ وعنوانه الفرعيُّ : « دراساتٌ نفسيَّة للخيال » في إكسفورد سنة ١٩٣٤.

ـ ويبدو أن مبادئ يونج في علم النفس التحليليّ أكثر جدوى على النقد الأدبيّ من مبادئ فرويد من عدَّة وجوه .

ـ بل إنَّ يونج يُعلي من شأن الشاعر عرضاً في مقالته « السيكولوجيا والشِّعر » التي نُشِرَت في مجلّة « فترة الانتقال » ؛ حين يقول إنه « إنسانٌ جماعيٌّ ؛ إنه الحامل المشكل للنفس الإنسانيَّة الحيويَّة لا شعوريّاً » .

ـ وقد تحدَّثت الآنسة بودكين عن فائدتين لها حسبما رأتهما ؛ فقالت : إن مصطلح فرويد لا يستطيع أن ينصفه ـ أي التفاعل بين فكر الفرد والموروث الاجتماعيّ في القصيدة ـ ؛ ذلك لأنَّ المُسلَّمات التي يعمل على ضوئها ؛ تقضي بأن تفسر أعلى النتائج وأدناها في عملية الحياة بمصطلح العناصر التي كانت موجودةً في البدء ؛ كذلك فإنَّ إلحاح الكُتَّاب الفرويديين على العلاقة الحسيَّة بين الأب والابن يغفل وجهه نظرٍ أخرى لا تقل عنها صحَّةً ومتانةً ؛ أعني أن سحر الأب في نظر الابن وتأثيره البالغ فيه إنما يرجعان إلى أن الأب يمثل الرافد الأول في ذلك التأثير الواسع للهيئة الاجتماعيَّة نفسها ولرصيدها المخزون .

ـ ولعلَّ أهم ميزةٍ لمبادئ يونج على مبادئ فرويد في مجال النقد الأدبيّ :

هي أن فرويد ـ على خلاف يونج ـ كان ينزع ـ حيناً ما ـ إلى أن يعتبر الفنَّ تعبيراً مرضيًّاً ؛ أي أنه على وجه الدقّة : نتاج مرحلةٍ نرجسيَّةٍ من مراحل التطور ؛ أي تحقيقٌ وهميٌّ للرَّغبات ؛ أي رضىً مُعوَّضٌ ناشئٌ عن توقانٍ منهومٍ لم يجد شبعه في عالم الحقيقة ؛ وقد كتب عن « الجمال » في « المدنيَّة وما يعلق بها من تبرُّم » Civilization and its Discontents ؛ يقول : « إن ما يبدو أكيداً في حال الجمال هو أنه مُستمدٌّ من عوالم الحسِّ الجنسيِّ ؛ فحُبُّ الجمال مثلٌ تامٌّ كاملٌ على شعورٍ ذي غاياتٍ مكبوتةٍ » ؛ وليس من هذا إقراره بأن التحليل النفسيَّ « لا يستطيع أن يقول عن الجمال إلا شيئاً أقل مما يقوله عن غيره من الأشياء » ؛ ومع ذلك فإن فرويد ـ لا أيٌّ واحدٍ من تلامذته الذين انشقُّوا عنه ـ هو الذي قد طبع أثره البالغ على كُلِّ أديبٍ وناقدٍ حديثٍ ـ على وجه التقريب ـ ؛ وإذا استثنينا اصطلاح « مُركَّب النقص » الذي ابتكره أدلر ـ وهو اصطلاحٌ قد عمَّ وطم ـ لم نجد نسبيّاً لهذا العالم النفسيِّ إلا أثراً أدبيّاً قليلاً ؛ ولكن لابُدَّ من أن نُقِرَّ بأنه تكاد كل القصص التي تتعلق « بالأنا » أو دوافع القوة أو التعويض ابتداءً من « جاتسبي العظيم » The Great Gatsby حتى « ما الذي يجعل سامي يجري ؟؟ » What Makes Sammy Run : تكاد كلها أن تكون اغترفت ـ لا شعورياً ـ شيئاً من سيكولوجية أدلر الفردية .

ـ إن الطبيعة الجماعية التقريرية لسيكولوجية يونج هي أعظم شيءٍ فائدةً للنقد الأدبيِّ ؛ ولكنها أيضاً تتضمَّن أعظم الأخطار عليه ؛ أعني ما فيها من

ميلٍ لإعلاء شأن اللاعقلانية والتصوف و « ذاكرة الجنس » ؛ أي تلك الأشياء التي جعلت يونج جذَّاباً لدى المفكرين النازيين والفاشيين ؛ وقد تجنَّبت الآنسة بودكين هذه الهُوَّة في أفكار يونج ؛ ولكنها في مرَّةٍ واحدةٍ في كتابها ـ على الأقل ـ تدعو إلى المُضيِّ في المحاولة لفهم النماذج السيكولوجية الكامنة ـ بطريق الشعور لا بطريق الفكر ـ ؛ وفي هذا ما قد يلمح ـ ولو في شيءٍ من الغموض ـ إلى إعلاء شأن اللاعقلانية التي حبَّبت يونج إلى الفريق المؤمن بتميُّز الثريِّ الدم ؛ أما في أكثر من اعتمادها على الجوانب المتافيزيقية الصوفية عنده ؛ ومن الأمور ذات المغزى أن تُصدِّر كتابها بعبارةٍ من عبارات يونج في أشدِّ أحواله تواضعاً وأقلها إثارةً للناس ؛ حيث يقول :

« لقد أعانني النقد الفلسفيُّ على أن أرى أن لكل سيكولوجيا ـ بما في ذلك مذهبي أنا نفسي ـ طابعاً اعترافيًّا ذاتيًّا ... ؛ وبقبول هذه الحقيقة التي لا محيص عنها أستطيع أن أخدم قضية معرفة الإنسان للإنسان » .

ـ إن كتاب « النماذج العُليا في الشِّعر » من الكُتُب القلائل التي يتلازم فيها العنوان والموضوع ؛ لأنه يتحدَّث فحسب عن النماذج العُليا في الشعر ؛ ويتألف الكتاب من ستة فصول ؛ يُثير الأول منها : مشكلة النماذج العُليا ؛ كما تمثلها الروايات التراجيدية ؛ ويتناول كشف إرنست جونز لعُقدة أوديب في هاملت ؛ ثم تعالج الفصول الخمسة الأخرى الموضوعات الآتية على التوالي :

١ـ أنموذج الولادة الجديدة في قصيدة « الملاَّح القديم » .

٢ـ أنموذج الجنّة والنار عند كولردج وملتن ودانتي .

٣ـ نساءٌ يُعتبرن نماذج عُليا في الشعر .

٤ـ الشيطان والبطل والله : نماذج عُليا .

٥ ـ بعض النماذج العُليا في الأدب المعاصر .

وينقسم كتابها منهجيًا في قسمين :

ـ الأول : الكشف المُسهب عن الأنموذج الأعلى في العمل الفنيّ الواحد ؛ مثل الولادة الجديدة في « الملاّح القديم » .

ـ والثاني : مقارنة أنواع من الأنموذج الأعلى في عددٍ من الأعمال الفنيّة ؛ كالفصل عن النماذج العُليا من النساء عند عُظماء الشُّعراء .

وكلا المنهجين يستحقان الفحص .

تبدأ الآنسة بودكين في « الملاّح القديم » بأن تلحظ العبارات التي تصف هدأة السفينة ثم حركتها العجيبة أخيراً ؛ وتجد أن هاتين الظاهرتين ـ أي الهدأة والحركة ـ يقدمان لنا مشكلة الموت والولادة الجديدة ؛ رامزتين رمزاً مُحدَّداً إلى تجربة كولردج الشعرية كيف كانت جهداً ذهنيّاً ضائعاً ؛ تلاه فجأةً إلهامٌ خالقٌ ؛ وتعتمد في هذا التفسير على تداعي أفكارها وذكرياتها التي أوحت بها الأبيات ؛ ثم علّلا ما لديها من آثار كولردج نفسه ؛ مما يشير إلى تداعي الأفكار عنده ؛ وأخيراً على الروابط العامة التي توضحها اقتباساتها من التوراة ؛ بين هبوب الرِّيح وانتعاش الرُّوح الإنسانية ؛ ثم تمضي الآنسة بودكين لتلقي نظرة على ذروة القصيدة ؛ أي حين يتحدث الشاعر عن بركات

الأفاعي وما نتج عنها ؛ وتعلق هذا بالأسطورة الأنموذجية التي عند يونج وهي « الرحلة الليلية تحت ماء البحر » كما تصورها قصته « ذو النون » ؛ وهي أساس شعيرة الولادة الجديدة ؛ وتدور حول فكرة الخطيئة والتكفير ؛ وهنا تشمل طريقتها أيضاً مرَّةً أخرى خواطرها المتداعية وأحلامها ؛ وما كشفه لويس Lowes من مصادر كولردج ؛ وتحليل « بدوران » لصور مماثلة عند فرهايرن ؛ كما تشمل المأزق الذي وقع فيه هاملت ؛ ونماذج أخرى من « الجواب الذي يلاحقه شبح الخطيئة » ؛ مثل قابيل واليهوديّ التائه ؛ والمشكلة العامة التي تتمثل في تشهي الموت والعودة إلى الرَّحِم ؛ كما تنعكس في الأحلام والشعر ونظرية التحليل النفسيّ ؛ وحين ينتهي بها المطاف يكون عملها غير قاصرٍ على استغلال القصيدة لتوضح بها الأنموذج الأعلى ؛ بل هي قد جعلت الأنموذج يلقي أضواءه على القصيدة وأثرها ؛ ويضعها في مصاف الشعر العظيم ؛ ويعلي من درجة المتعة فيها ؛ ويبعثها حيَّةً فيها إلى درجةٍ كبيرةٍ .

ـ ولقد برئت الآنسة بودكين من تطرُّف النقد المتصل بالتحليل النفسيّ بما لديها من يقظةٍ دائمةٍ حالت دون مُغالاتها في تقدير العوامل السيكولوجية في الشعر ؛ فهي تقول :

ينتقض تذوقنا لجمال الشعر ويفسد : إن نحن غالينا في النَّصِّ على هذه الأصداء النفسية العضوية حتى نحسبها أوغل في الحقيقة من سائر العناصر التي تمتزج بها في الفكر الناضج ؛ كأنما تلك العناصر الأخرى التي تؤدي دوراً

هامًّا في الاستجابة الحقيقية للشعر ليست إلا تبريراً أو قناعاً لتلك العناصر البدائية القليلة التي تعرَّف إليها المُحلِّلُ النفسانيُّ مُنْذُ عهدٍ قريبٍ؛ فهي ترى أن العناصر السيكولوجية ليس لها إلا دخلٌ جُزئيٌّ في الأثر الشعريِّ؛ وفي دفاعٍ لها عن المنهج السيكولوجيِّ ألحقته بكتابها وجعلت عنوانه « النقد النفسيُّ والتقاليد الرِّوائيَّة » ردَّت على ما يُبديه « إ . إ . ستول » وغيره من اعتراضات على التحليل النفسيِّ؛ فذهبت تُقرِّر في اعتدالٍ أننا لا نستطيع أن نلغي - ويجب أن لا نلغي - الوعي السيكولوجيَّ الذي جاد علينا به عصرنا؛ وأننا يجب أن نستغل كل « إمكانيات عقولنا » لتذوق الشعر؛ وأن الإشراقات السيكولوجية؛ مثلها مثل أي شيءٍ يُتحفنا به ستول أو غيره من النُّقَّاد: عناصر قيِّمة يتركَّب منها هذا الفهم الغنيُّ الخصيب .

ومن أقيم مبادئها في استعمالها المتروي لعلم النفس: كيفيَّة تناولها لما يسميه يونج أغلوطة « لا شيء إلا »؛ أي: الفكرة التي ترى أن القصيدة « ليست إلا » مثلاً يندرج تحت إحدى المقولات - وهو نوعٌ من التفكير يسمى اليوم أحياناً « التفكير المهادي » نسبة إلى المهاد Thalamus؛ وهو ذلك الجزء من الدماغ الذي يستطيع التمييزات الجافية فحسب - ؛ وتُصرُّ الآنسة بودكين على أن الشعر بدلاً من أن يكون « ليس إلا » طريقتها النفسية؛ هو هذه الطريقة؛ « وأيضاً » أشياء أُخرى كثيرة جدًّا تنضاف إليها .

وهي - على خلاف المُحلِّلين النفسيين المُحترفين الذين يعتمدون قدر طاقتهم على تواريخ القضية والمدونات الإكلينيكية - تعتمد على الاستبطان والتحليل

للأرجاع النفسية عندها ووصفها بأقصى ما لديها من قدرة؛ وتقول: « إن تحليلنا إنما هو للتجربة التي تنتقل لأنفسنا »؛ فهي تصف إحساسات عقلها عندما تقرأ الشعر؛ وما الصور التي تنبّهت لها؛ وأيّ مغزى أو أيّ توتر أحسّت؛ وما الخواطر التي تداعت واستُثيرت؛ ومتى وأين انعكست ذاتها؛ ومع أيِّ شيءٍ تلابست؛ بل وما الأحلام التي حلمت بها.

ولم تحاول أن تمنح هذه الاستبطانات مسحةً موضوعيَّةً؛ أو على الأقل أن تُوسِّع في قاعدتها إلا مرَّةً واحدةً في حديثها عن « الملاَّح القديم »؛ ففي هذا الموطن انتحلت منهج « إ. أ. رتشاردز » الذي وصفه في كتابه « النقد التطبيقي » - وهو منهج المختبر التجريبيِّ نفسه -؛ وذلك أنه أعطى القُرَّاء قصائد؛ وسجَّل رَدَّ الفعل المباشر عند كُلٍّ منهم؛ وقد أدخلت الآنسة بودكين تعديلاً على طريقة رتشاردز حين عرَّفت القُرَّاء بالقصيدة وصاحبها؛ وطلبت إليهم أن لا يفضوا إليها إلا بمدى الاستجابة العاطفية التي هي ثمرة « التأمل المستغرق أو التأمل الحال » - هي التداعي الحُر عند جالتون -؛ ولم تتطلب منهم تقديراً للقصيدة نفسها؛ ومع أن المادة التي حصلت عليها انتهت إلى سلسلة من الأسئلة اللبيقة الموجهة إلى القارئ؛ فإنها أعلنت في مقدمة كتابها أنها تخلَّت آسفةً عن هذه المحاولة « لأنها وجدت أنه من غير العمليِّ أن تستحوذ من أولئك الذين لهم بالأديب على أيِّ جهدٍ مُركَّزٍ مُستطيلٍ تتطلبه منهم »؛ ومع ذلك فإنها أقرَّت « أن العمل العميق المتزايد في دراسة التجربة الشعرية عند الأفراد؛ لابُدَّ من أن يحل في النهاية محل كثير

من المناهج الواسعة في البحث ».

وقد استمدت الآنسة بودكين من كُلِّ اتجاهٍ نفسيٍّ أمكنها الإفادة منه ؛ إلى جانب اعتمادها الرئيسيِّ على مبادئ يونج ؛ وأخذها سيكولوجية جالتون ورتشاردز التجريبية معدلة ؛ ولفرويد عندها يدٌ طُولى أيضاً ؛ لا حيث ينفق في النظرة هو ويونج فحسب ؛ فهي تثير التساؤل حول قول فرويد « إن النزعات الأوديبية تقع في كُلٍّ بالإثم أثناء الحُلم » ؛ ولكنها تقبل القول بأن « نوعاً من الإخفاق في العلاقة بالأبوين » يُثير مثل ذلك الشعور في الحُلم ؛ إلى حدٍّ أنه يمتزج بعوامل أخرى قد تكون فعّالة في الوقت نفسه ؛ وهي تقبل مبدأ فرويد عن الذات العُليا ؛ وتحاول أن تتوسط بين فرويد ويونج في اعتبار التأثير راجعاً في المقام الأول إلى الأبوين في عهد الطفولة أو إلى القبيلة ؛ محُاولةً شيئاً من التوفيق بين النظريتين ؛ وكذلك تقبل أيضاً - في شيءٍ من التحفُّظ أحياناً - هذه المبادئ الفرويدية المتنوعة بمشتملاتها ؛ مثل غريزة الموت أو مبدأ ثاناتوس ؛ والأنا ؛ والأنا غير العاقلة ؛ ومبد اللذّة ؛ وصورة الأب ؛ ومصطلحات تتدرج من الطيران في الأحلام حتى الحيّة والتفاحة في قصة هبوط آدم ؛ ممثلةً لأنواع من الرموز الجنسية .

وهي بالإضافة إلى ذلك مدينةٌ لعددٍ من تلامذة فرويد الذين تناولوا الأدب بالتحليل ؛ فتعتمد دراسة إرنست جونز لهاملت في قسطٍ كبيرٍ من بحثها ؛ وبخاصة تلك المخترعات الأساسية في التكوين السيكولوجيِّ للأدب مثل الانفصال والتحلُّل ؛ وتستعمل دراسة شارلس بودوان لفرايرن على

طريقة فرويدية معدلة في كتابه « التحليل النفسيّ وعلم الجمال » ؛ كما تستعمل الأنثروبولوجيا الفرويدية عند جيزا روهايم وآخرين ؛ وهي في الوقت نفسه تستمد من فروع نفسية أُخرى عدا مدرسة التحليل النفسيّ ؛ فتستعير من السيكولوجية الجشطالتية خلال أنثروبولوجيين أمثال جولدنفيزر اصطلاح « كُليّ مُتكامل » في وصفها الأنموذج الحضاريّ ؛ وهي تعرف كتاب كوهلر عن « عقلية القرود » ـ على الأقل ـ معرفةً مُباشرةً ؛ وتستعير منه مبدأ : وجود فترة من التوقف قبل الحسم في مشكلة .

وتستمد الآنسة بودكين إلى جانب هذه السيكولوجيا الانتقائية من الفلاسفة واللاهوتيين والأنثروبولوجيين والاجتماعيين ومن عددٍ من النُّقّاد الأدبيين المُحدثين ؛ ومنهم وليم إمبسون في الغموض ؛ و « ج . ولسون نايت » في عُطيل ؛ وجون لفنجستون لويس في دراسته الشاملة لكولردج .

مما يبعث على السُّخرية أن الآنسة بودكين وهي أحق الناس بتوسيع ملاحظ لويس عن مصادر الصور عند كولردج في المجال الوحيد الذي يمكن توسيعها فيه ـ أعني مجال التحليل النفسيّ ـ تأبى عامدةً أن تقوم بذلك ؛ وهي مثلها مثل لويس عارفة تماماً بالرمزية الجنسية الواضحة في الكهوف والجبال في قصيدة « قبلاي خان » .

ويعونٍ من هذه المجموعة الانتقائية من النظريات والمبادئ خلقت الآنسة بودكين نقداً أدبيّاً ولم تنتحل علماً ؛ وعلى الرَّغم من هذا الجهاز فإنها مولعة بالعشر ـ دارسة حسّاسة ـ ؛ وكتابها « النماذج العُليا في الشعر » يتميز بنفاذ

البصيرة في المبنى العاطفيّ لرواية الملك لير ؛ وبتفسيره ـ ولعله أول تفسيرٍ مُرضٍ في عصرنا ـ لما لشعر شللي من هيمنةٍ على قُرَّائه ؛ وبتحليله المُرهف النفَّاذ لفنية فرجينيا ولف ؛ وبكثير غير ذلك ؛ ولنقل كما يقول كنث بيرك : إنها في الدرجة الأولى لا تهتم بالنماذج من حيث هي ؛ وإنما تهتم بالشعر كما يبدو في النماذج .» .

.....

.....

٭ - المَنْهَجُ النَّفْسِيُّ
فِي الدِّرَاسَاتِ العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَة

تَجَلَّت مَبَادِىءُ وَرَكَائِزُ نَظَرِيَّةِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ فِي الدِّرَاسَاتِ العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ فِي كِتَابَاتِ جَمَاعَةِ الدِّيوَان - عَبْدُ الرَّحْمَن شُكْرِي ؛ وَالمَازِنِيُّ ؛ وَالعَقَّاد - ؛ وَيُعَدُّ عَبْدُ الرَّحْمَن شُكْرِي [١٨٨٦ - ١٩٥٨] مِن أَوَائِلِ مَن أَفَادُوا مِن نَظَرِيَّةِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ فِي دِرَاسَةِ الشِّعْرِ ؛ وَبَيْنَ يَدَيَّ الآنَ كِتَابٌ بِعُنْوَان « نَظَرَاتٌ فِي النَّفْسِ وَالحَيَاة » ؛ يَشْتَمِلُ عَلَى مَقَالاتِ الأُسْتَاذ شُكْرِي ؛ جَمَعَهَا الدُّكْتُور عَبْدُ الفَتَّاح الشَّطِّي ؛ وَهُوَ مِن مَنْشُورَاتِ الهَيْئَةِ المِصْرِيَّةِ العَامَّةِ لِلْكِتَاب ؛ نُشِرَ عَام ١٩٩٦ م ؛ وَهُوَ حَدِيثٌ عَن الأُدَبَاءِ وَالفَلاسِفَةِ الغَرْبِيين ؛ وَقَد تَجَلَّى فِي هَذِهِ المَقَالاتِ فَهْمُ عَبْدِ الرَّحْمَن شُكْرِي لآلِيَّاتِ النَّقْدِ النَّفْسِيِّ ؛ ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيم عَبْدُ القَادِرِ المَازِنِيُّ [١٨٩٠ - ١٩٤٩] ؛ فَدَبَّجَ مَقَالَةً فِي عَام ١٩١٤ م ؛ دَرَسَ فِيهَا شَخْصِيَّةَ ابْنِ الرُّومِيِّ الشَّاعِرِ مُعَوِّلاً عَلَى مِنْهَجِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ ؛ ثُمَّ بَرزَ هَذَا الاتِّجَاهُ فِي مُؤَلَّفَاتِ الأُسْتَاذ عَبَّاس مَحْمُود العَقَّاد [١٩٨٩ - ١٩٦٤] ؛ كَكِتَابِهِ عَن ابْنِ الرُّومِيِّ « ابْنُ الرُّومِيِّ : حَيَاتُهُ مِن شِعْرِهِ » ؛ وَكِتَابِهِ عَن أَبِي نُوَاس « أَبُو نُوَاس : دِرَاسَةٌ فِي التَّحْلِيلِ النَّفْسَانِيِّ وَالنَّقْدِ التَّارِيخِيِّ ».

وَكَذَلِكَ فَإِنَّكَ تَرَى أَثَرَ هَذَا المَنْهَجِ مُتَمَثِّلاً فِي كِتَابَاتِ « جَمَاعَةُ الأُمَنَاء »

وَالَّتِى أَسَّسَهَا الأُسْتَاذ أَمِين الخُولِى [١٨٩٥ ـ ١٩٦٦ م] ؛ وَوَضَعَ لَهَا مَنْهَجاً يَسِيرُ عَلَى خُطَى مَبَادِئِ عِلْمِ النَّفْسِ ؛ مِن أَجْلِ البَحْثِ عَن أَسْرَارِ التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ ؛ وَكَذَلِكَ كَانَت تَجْرِبَةُ الأُسْتَاذ مُحَمَّد خَلَفُ الله أَحْمَد فِى كِتَابِهِ « مِنَ الوجْهَةِ النَّفْسِيَّةِ فِى دِرَاسَةِ الأَدَبِ وَنَقْدِهِ » ؛ ثُمَّ جَاءَ الدُّكْتُور مُصْطَفَى سُويف بِكِتَابِهِ « الأُسُسُ الفَنِيَّةُ لِلإِبْدَاعِ الفَنِىِّ فِى الشِّعْر » ؛ وَالدُّكْتُور مُحَمَّد النُّوَيْهِى فِى : « نَفْسِيَّةُ أَبِى نُوَاس » ؛ « شخصيَّة بَشَّار » ؛ « ثَقَافَةُ النَّاقِدِ الأَدبِىّ » ؛ ثُمَّ الدُّكْتُور عِزُّ الدِّين إِسْمَاعِيل : حَيْثُ نَشَرَ فِى سَنَةِ ١٩٦٢ م كِتَابَهُ « قَضَايَا الإِنْسَانِ فِى الأَدَبِ المَسْرَحِىِّ المُعَاصِر » ؛ ثُمَّ أَتْبَعَهُ فِى سَنَةِ ١٩٦٣ م بِكِتَابِهِ « التَّفْسِيرُ النَّفْسِىُّ لِلأَدَب » .

.....

۞ـ دِرَاسَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ:

۞ـ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر

(١٣٢٧ ـ ١٤١٨ هـ = ١٩٠٩ـ ١٩٩٧)

مَوَاقِفُهُ وَنَظْرَتُهُ إِلَى الحَيَاة

فِى ضَوْءِ مَنْهَجِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِىِّ

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

.....

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

.....

كَثِيراً مَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ تَحْكِيمَ الرُّؤْيَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ وَتَرْكَهَا كَى تَقُومَ بِدَوْرِهَا فِى الاسْتِقْرَاءِ وَالسَّبْرِ وَتَقْدِيمِ النَّتَائِجِ وَالتَّصَوُّرَاتِ هُوَ أَمْرٌ بَدْهِىٌّ مُسَلَّمٌ بِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ يُعَدُّ سُلُوكاً مُنْكَراً مَذْمُوماً إِذَا مَا أُنِيطَ المَوْضُوعُ وَتَعَلَّقَ بِعَالِمٍ جَلِيلٍ لَهُ مَكَانَتُهُ وَمَنْزِلَتُهُ فِى نُفُوسِ أَهْلِ العِلْمِ وَالفِكْرِ ؛ حَيْثُ يَقْصِدُهُ النَّقْدُ الأَدَبِىُّ ؛ فَيُنَاقِشُ وَيُحَلِّلُ بِلا مَانِعٍ أَو رَقِيبٍ ؛ لا يَلْتَفِتُ لِغَيْرِ رَكَائِزِ النَّظَرِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ وَأُسُسِ المَنْهَجِ التَّأْوِيلِىِّ .

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَالصِّرَاعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَصْحَابِ العُقُولِ الَّتِى تَعِيشُ فِى كُهُوفِ الفَهْمِ الحَجَرِىِّ الَّذِى يُقَدِّسُ الذَّوَاتَ كَمَا يُقَدِّسُ الأَفْكَارَ ؛ هُوَ صِرَاعٌ قَدِيمٌ قِدَمَ هَذِهِ الآرَاءِ المَأْفُونَةِ ؛ إِنَّنَا لَنُقَدِّرُ هَؤُلاءِ العُظَمَاءِ أَكْثَرَ مِن تَقْدِيرِ هَذِهِ الفِئَةِ لَهُم ؛ وَلَكِنَّنَا دَائِماً نُؤْثِرُ النَّظْرَةَ الَّتِى تَنْأَى عَنِ الإِفْرَاطِ وَالمُغَالاةِ ؛ أَو التَّفْرِيطِ وَاللامُبَالاةِ .

.....

مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر كَمَا أَعْرِفُهُ ؛ هُوَ رَجُلٌ يَمْتَلِيءُ عِلْماً وَفَهْماً وَذَكَاءً ؛ يَعْتَدُّ بِنَفْسِهِ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الاعْتِدَادِ ؛ فِيهِ انْدِفَاعٌ وَشَرَاسَةٌ وَقَسْوَةٌ يُمَازِجُهَا اللِّينُ فِى بَعْضِ الأَحَايِينِ ؛ يَرَى الصِّدْقَ وَالنُّبْلَ وَالوُضُوحَ مِن صِفَاتِ الرَّجُلِ ؛ وَيَرَى الكَذِبَ وَالوَضَاعَةَ وَالنِّفَاقَ مِن المَلامِحِ وَالقَسَمَاتِ

الَّتِى تُمَثِّلُ الطَّبِيعَةَ النَّفْسِيَّةَ لِلأُنْثَى ؛ يُنْكِرُ الحَيَاةَ الثَّقَافِيَّةَ المُعَاصِرَةَ ؛ وَيَحْتَقِرُ الأَلْقَابَ العِلْمِيَّةَ وَالدَّرَجَاتِ الجَامِعِيَّةَ ؛ وَيَرَى فِيهَا دَلِيلاً مِن دَلائِلِ فَسَادِ المَيْدَانِ الفِكْرِيِّ .

.....

❁ ـ المَرْأَةُ كَمَا يَرَاهَا مَحْمُود شَاكِر

فِى كَلِمَةٍ مُوجَزَةٍ بِمَقَالٍ مِن مَقَالاتِهِ ؛ كَتَبَ تَحْتَ عُنْوَان « المَرْأَةُ وَالرَّجُل » :

« لَشَدَّ مَا اجْتَرَأَت المَرْأَةُ فِى هَذَا العَصْر !! ؛ وَإِذَا أَخَذَت المَرْأَةُ أَسْلِحَتَهَا : مِنَ الزِّينَةِ وَالتَّطْرِيَةِ وَالجَمَالِ وَالفِتْنَةِ ؛ وَجَيَّشَت غَرَائِزَهَا : مِنَ الحَذَرِ وَالحِيلَةِ وَالضَّعْفِ وَالإِغْرَاءِ ـ لَم يَبْقَ لِلرَّجُلِ إِلاَّ أَن يَسْتَقْتِلَ أَو يَفِر .

وَقَد أَقَامَت (وَزَارَةُ الشُّؤونِ الاجْتِمَاعِيَّةِ) مُنَاظَرَةً بَينَ الأُسْتَاذ (مُحَمَّد فَرِيد أَبُو حَدِيد) وَالسَّيِّدَةِ (زَاهِيَة مَرْزُوق) ؛ وَكَانَ غَرَضُهَا هُوَ (كَيْفَ نَنْهَضُ بِالأُسْرَة ؟) .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ السَّيِّدَةَ الكَرِيمَةَ قَد اعْتَقَدَت فِى قَلْبِهَا مَعْنَى (حُرِيَّةُ المَرْأَة) بِالإِصْرَارِ وَالتَّعَصُّبِ ؛ فَأَخَذَت تَنْتَزِعُ رُجُولَةَ الرَّجُلِ شَيْئاً فَشَيْئاً !! ؛ حَتَّى لَيُخَيَّلَ لِسَامِعِهَا أَنَّهَا مَخْلُوقٌ وَحْشِيٌّ مُنْطَلِقٌ مِن كُلِّ قُيُودِ النُّبْل !! .

... ؛ وَأَنَا لا أُرِيدُ الآنَ أَن أُدَافِعَ عَن الرَّجُلِ ... ؛ كَلاَّ يَا سَيِّدَتِى !! ؛ إِنَّ المَرْأَةَ

هِيَ تَجْنِي أَكْثَرَ الذَّنْبِ فِيمَا نَعْلَمُ ؛ ثُمَّ تَتَنَصَّلُ !! ؛ وَهِيَ كُلُّ الأَنَانِيَةِ !! » .(١) .

هَذِهِ الكَلِمَةُ الَّتِي تُوَضِّحُ رَأْيَ مَحْمُود شَاكِر فِي المَرْأَةِ ؛ كُتِبَت فِي سَنَةِ ١٩٤٠ م ؛ وَبَقِيَ هَذَا هُوَ رَأْيُهُ طُوَالَ حَيَاتِهِ ؛ فَيَا تُرَى؟!!! ؛ مَا هِيَ الأَسْبَابُ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى الإِيمَانِ بِهَذَا الرَّأْيِ؟!!! ؛ البَحْثُ فِي ذَلِكَ يُوجِبُ عَلَيْنَا أن نَنْظُرَ فِي عَلاقَتِهِ بِالمَرْأَةِ قَبْلَ هَذَا التَّارِيخ :

حِينَمَا أَخْرَجَ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر كِتَابَهُ « المُتَنَبِّي » احْتَفَى بِهِ العُلَمَاءُ وَالأُدَبَاءُ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ وَالمَهْجَرِ الأَمْرِيكِيِّ ؛ وَكَتَبَ الأَفَاضِلُ فِي تَقْرِيظِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ؛ وَبَادَرَ صَدِيقُهُ النَّابِغَةُ الأَدِيبُ الكَبِير الأُسْتَاذ مُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ ؛ فَكَتَبَ مَقَالاً بِعُنْوَان « المُقْتَطَف ... وَالمُتَنَبِّي » ؛ قَالَ فِيهِ :

« المقتطف شيخ مجلاّتنا ؛ كُلهُنَّ أولاده وأحفاده ؛ وهو كالجدِّ الأكبر: زمنٌ يجتمع ؛ وتاريخٌ يتراكم ؛ وانفرادٌ لا يُلحق ؛ وعلمٌ يزيد على العلم بأنه في الذّات التي تفرض إجلالها فرضاً ؛ وتجب لها الحُرمة وجُوباً ؛ ويتضاعف منها الاستحقاق ؛ فيتضاعف لها الحق. .

وهل الجدُّ إلا أبوة فيها أبوة أخرى ؟!!! ؛ وهل هو إلا عرشٌ حيٌّ درجاته الجيل تحت الجيل ؟!!! ؛ وهل هو إلا امتدادٌ مسافاته العصر فوق العصر ؟!!!

.(١) ـ « جَمْهَرَةُ المَقَالات » ؛ [جـ١/٦٣ ـ ٦٤] ؛ عُنْوَانُ المَقَال : « أَسْوَاقُ النَّخَاسَة » نُشِرَ فِي مَجَلَّةِ الرِّسَالَة ؛ العَدَد : ٣٤١ ؛ عَام١٩٤٠ م .

والمقتطف يكبر ولا يهرم ؛ ويتقدم في الزمن تقدم المخترعات ماضية بـالنواميس إلى النواميس ؛ مقيـدة بالمبـدأ إلى الغايـة ؛ وهو كالعقـل المُنفـرد بعبقريته : واجبه الأول أن يكون دائماً الأول ؛ فلقد أُنشئ هذا المقتطف وما في المجلاَّت العربية ما يُغني عنه ؛ ثم طوى في الدهر سبعة وثمانين مُجلَّداً أقامها سبعة وثمانين دليلاً على أن ليس ما يُغني عنه ؛ ثم أَسَفَّت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ؛ وتحوَّلت مجلاَّتٌ كثيرةٌ إلى مثل الراقصات والمُغَنِّيات والمُمثلات !! ؛ وبقيَ هو على وفائه لمبدئه العلميِّ والسمو فيه والسمو به ؛ كأنما أُخِذَ عليه في العلم والأدب ميثاقٌ كميثاق النبيين في الدِّين والفضيلة ؛ فبين يديه الواجب لا الغرض ؛ وهمُّهُ الإبداع بقوى العقل لا الاحتيال بها ؛ وهديه الحقيقة الثابتة في الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ؛ وطريقه في كل ذلك طريق الفيلسوف ؛ من هدوء نفسه لا من أحوال الدهر ؛ فهو ماضٍ على اليقين ؛ نافذٌ إلى الثقة ؛ مُتنقِّلٌ في منزلةٍ منزلةٍ من يقينه إلى ثقته ؛ ومن ثقته إلى يقينه .

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعددٍ ضخمٍ أفرده للمتنبي (١) ؛ ولئن كانت الأندية والمجلاَّت قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ؛ فما أحسب إلا أن رُوح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف !!.

ولست أغلو إذا قُلت : إن هذه الرُّوح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرَّةً

---

(١) ـ كتاب « المتنبي » للصديق محمود محمد شاكر [الرَّافِعِيُّ] .

أخرى ؛ فاعتزلت المشهورين من الكُتَّاب والأدباء ؛ ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مُدَّة كتابته هذا البحث النفيس الذي أخرجه المقتطف في زهاء ستين ومائة صفحة ؛ تدُلُّهُ في تفكيره ؛ وتوحي إليه في استنباطه ؛ وتُنَبِّهُهُ في شعوره ؛ وتُبصِّره أشياء كانت خافية ؛ وكان الصدق فيها ؛ ليرد بها على أشياء كانت معروفة ؛ وكان فيها الكذب ؛ ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التي جاءت من تلك النفس ذاتها ؛ لا الحياة التي جاءت من نفوس أعدائها وحُسَّادها .

ولقد كان أول ما خطر لي بعد أن مضيت في قراءة هذا العدد أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه : إنه كتبَ تاريخ المتنبي ولم ينقله ؛ ثم لم أكد أُمعن في القراءة حتى خُيِّلَ إليَّ أنه قد وضع لشعر المتنبي بعد تفسير الشُّرَّاح المُتقدِّمين والمُتأخِّرين تفسيراً جديداً من المتنبي نفسه ؛ وما الكلمة الجديدة في تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الكلمة التي نشرها المقتطف اليوم .

إن هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهي ؛ فإن الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يفرغ ؛ وقد كان نفساً عظيمةً خلقها الله كما أراد ؛ وخلق لها مادَّتها العظيمة على غير ما أرادت ؛ فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتد في الزمن !!.

وكان الرَّجُلُ مطوياً على سِرٍّ ألقي الغموض فيه من أول تاريخه ؛ وهو سِرُّ نفس ؛ وسِرُّ شعره ؛ وسِرُّ قُوَّته ؛ وبهذا السر كان المتنبي كالملك المغصوب الذي يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً ؛ فهو يتقي السيف بالحذر والتلفُّف والغموض ؛ ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل !!.

ومن هذا السِّرِّ بدأ كاتب المقتطف ؛ فجاء بحثه يتحدَّر في نسقٍ عجيبٍ!! ؛ مُتسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادةٌ ونُمُوٌّ وشباب ؛ وعرض بين ذلك شعر أبي الطيِّب عرضاً خَيَّلَ إليَّ أن هذا الشعر قد قيل مرَّةً أُخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها ؛ وبذلك انكشف السِّرُّ الذي كان مادة التهويل في ذلك الشعر الفخم ؛ إذ كانت في واعية الرَّجُل دولة أضخم دولة ؛ عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعراً أضخم شعر ؛ وجاءت مُبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة في صورة من صور الإمكان اللُّغويِّ .

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي : سِرُّ حُبِّهِ ؛ فقال : إنه كان يحب خولة أُخت الأمير سيف الدولة ؛ وكتب في ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ؛ وكأنها لم تُرضهِ ؛ فقال : إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل في خمسين وجهاً من المقتطف ؛ وهذا الباب من غرائب هذا البحث !! ؛ فليس من أحدٍ في الدنيا المكتوبة ـ أي التاريخ ـ يعلم هذا السر أو يظنه !! ؛ والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي ؛ ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا إثباتاً في خبرٍ جديدٍ يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره ؛ فهذا حسبك إعجاباً يُذكر !! ؛ وهذا حسبه فوزاً يُعد !!.

ولعمري لو كنت أنا في مكان المتنبي من سيف الدولة لقُلت إن المؤلف قد صدق ؛ فهناك موضعٌ لابُدَّ أن يبحث في القلب الشاعر الذي وضعت له الدنيا حكمتها ؛ وطوت فيه القوة سِرَّها ؛ وبثَّ فيه الجمال وحيه ؛ وأصغر

هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك ؛ ولكن الحبيبة أكبر منها كلها .)) .(١).

وكُلُّ هَذَا الثَّنَاءِ العَطِرِ الضَّخْمِ لا يَشْغَلُنِى فِى مِثْلِ هَذَا المَقَام ؛ نَعَم لَهُ دِلالَتُهُ وَقِيمَتُهُ ؛ وَلَكِنَّهَا لَيْسَت الدِّلالَةُ الَّتِى أُرِيدُهَا هَاهُنَا ؛ وَإِلَيْكَ مَا وَقَعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا يَمَسُّ طِلْبَتِى:

حِينَمَا أَخْرَجَ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر كِتَابَهُ ((الْمُتَنَبِّى)) فِى عَام ١٩٣٦ م رَأَيْنَا هَذِهِ الأَبْيَاتِ فِى صَدْرِهِ وَفِى طَلِيعَتِهِ فِى مَوْضِعِ صَفْحَةِ الإِهْدَاء:

ذَكَرْتُكِ بَيْنَ ثَنَايَا السُّطُورِ
وَأَضْمَرْتُ قَلْبِى بَيْنَ الكَلِمْ
وَلَسْتُ أَبُوحُ بِمَا قَد كَتَمْتُ
وَلَوْ حَزَّ فِى النَّفْسِ حَدُّ الأَلَمْ
تُمَزِّقُنِى مَا حَيِيتُ الْمُنَى .....
..... ؛ فَأَرْقَعُ مَا مَزَّقَت بِالظُّلَمْ
فَكَم كَتَمَ اللَّيْلُ مِن سِرِّنَا ... ؛
وَفِى اللَّيْلِ أَسْرَارُ مَن قَد كَتَمْ

(١) ـ ((وَحْيُ القَلَم)) ؛ [جـ ٢ / ٣٣١ ـ ٣٣٣] ؛ دار الكُتُب العلميَّة بلُبنان ؛ الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

تَشَابَهَ فِي كَتْمِ مَا نَسْتَسِرُّ .... ؛

سَوَادُ الدُّجَى ؛ وَسَوَادُ القَلَمْ

محمود محمد شاكر

.....

مَن هَذِهِ الَّتِي أَهْدَى لَهَا رَائِعَتَهُ « الْمُتَنَبِّي » ؟!!... ؛ مَا شَأْنُهَا ؟!!... ؛ مَا أَمْرُهَا ؟!! ... ؛ مَا حِكَايَتُهَا ؟!!... ؛ مَا هِيَ طَبِيعَةُ قِصَّةِ الحُبِّ الَّتِي عَاشَهَا الفَارِسُ الأَدِيبُ مَعَهَا؟!!... ؛ لا نَدْرِي !!... ؛ غَايَةُ الأَمْرِ ؛ وَمُنْتَهَى مَا نَعْلَمُ أَنَّ الأَدِيبَ الشَّاب : عَاشَ قِصَّةَ حُبٍّ ـ وَهِيَ قِصَّتُهُ اليَتِيمَةُ ـ مَعَ فَتَاةٍ لَم يَشَأْ التَّارِيخُ أَن يَذْكُرَ عَنهَا أَيَّ شَيْءٍ !!... ؛ دَارَت أَحْدَاثُ هَذِهِ القِصَّةِ فِيمَا قَبل ١٩٣٦م ؛ فَإِنَّهُ أَصْدَرَ « الْمُتَنَبِّي » فِي هَذَا العَام ؛ وَكَانَ حِينَهَا فِي السَّابِعَةِ وَالعِشْرِينَ مِن عُمُرِه .

وَيمُكْنِنِي أَن أَتَخَيَّلَ كَيْفَ كَانَت طَرِيقَةُ هَذَا الشَّابِّ فِي حُبِّهِ !! ؛ إِنَّهُ شَابٌّ نَشَأَ فِي بَيْتِ عِلْمٍ وَدِين ؛ وَرُزِقَ عِلْماً وَفَهْماً بَرَّزَاهُ بَينَ أَبْنَاءِ جِيلِهِ ؛ وَدَفَعَا جِيلَ الشُّيُوخِ إِلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ نَظْرَةَ إِجْلالٍ وَإِكْبَارٍ ؛ وَفُطِرَت نَفْسُهُ عَلَى السُّمُوِّ الأَخْلاقِيِّ وَالصَّفَاءِ الرُّوحِيِّ ؛ وَهُوَ دَائِماً وَأَبَداً مَا يَبْحَثُ عَن الخَيْرِ وَالصِّدْقِ وَالجَمَال ؛ فَإِذَا ظَنَّ أَنَّ هَذِهِ المَنَاقِبَ قَد تَجَسَّدَت فِي حَبِيبَتِهِ ـ فَهُوَ العِشْقُ المَلائِكِيُّ وَالإِخْلاصُ الَّذِي لا يُدَانِيهِ فِي أُسْلُوبِ مُمَارَسَتِهِ أَيُّ أُسْلُوبٍ أَرْضِي مَهْمَا أُوتِيَ صَاحِبُهُ مِن قُوَّةِ الحِسِّ وَدِقَّةِ الشُّعُورِ !! ؛ يمُكْنِنِي أَن أَتَخَيَّلَ هَذَا الشَّابَّ النَّبِيلَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي رِحَابِ مَكْتَبَتِهِ العَامِرَةِ بَينَ كُتُبِهِ وَأَسْفَارِهِ ؛

جَسَدُهُ هَاهُنَا ؛ وَرُوحُهُ تُحَلِّقُ فِى سَمَاوَاتِ العِشْقِ العُذْرِىِّ الجَمِيل !! ؛ يَرْسُمُ خَيَالُهُ صُورَةً لِحَبِيبَتِهِ لَيْسَ بِطَاقَةِ بَشَرِىٍّ أن يَأْتِى بِمِثْلِهَا !! ؛ لأَنَّهُ لَم يَكُن بَينَ جَنَبَاتِ العَالَمِ فِى هَذِهِ اللَّحْظَةِ مَن يُبْصِرُ مَن يَهْوَاهَا كَمَا يَنْظُرُ هَذَا لِصَاحِبَتِهِ الَّتِى جَاءَت إِلَيْهِ كَهَدِيَّةٍ مِنَ القَدَر !! .

.....

لَم يَكُن مَحْمُود شَاكِر يَعْلَمُ مَا هُوَ مُخَبَّأٌ فِى ضَمِيرِ الأَيَّام !! ؛ كَانَ يَعِيشُ فِى عَالَمِهِ مَعَ حَبِيبَتِهِ بِكَيَانِهِ وَجَوَانِحِهِ وَأَرْكَانِهِ وَوُجْدَانِهِ وَرُوحِهِ وَفُؤَادِهِ وَقَلْبِهِ وَمَشَاعِرِهِ !! ؛ بَيْنَمَا كَانَ الزَّمَنُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فِى أَسَىً !! ؛ ثُمَّ يُخَاطِبُهُ بِقَوْلِهِ:

مَا أَنْتَ أَوَّلُ سَارٍ غَرَّهُ قَمَرٌ
وَرَائِدٌ أَعْجَبَتْهُ خُضْرَةُ الدِّمَنِ !!

وَتَأْتِى المُفَاجَأَة !! ؛ بَل تَأْتِى المَأْسَاة !!... ؛ فَفِى العَاشِرِ مِنَ الشَّهْرِ السَّادِسِ المِيلادِىِّ مِن سَنَةِ ١٩٤٠ م ؛ كَتَبَ مَحْمُود شَاكِر هَذِهِ المَقَالاتِ الغَرِيبَةِ بِمَجَلَّةِ « الرِّسَالَة » !! :

.....

.....

٣٠

إلى أين ؟!!! (١)

- ١ -

جلست وصاحبى تحت جُنْحٍ من الليل كأنه بازٌ أسودٌ قد طوى أُفقاً من السَّماء فى كهفٍ من جناحه !! ؛ وطمس هذا الليل الدامس ذلك الشعاع الذي لا يزال يبرق به وجه صاحبى كلما سكن ظاهره واطمأن !! ؛ وبقيت نفسه من وراء ذلك السُّكُون الوديع تتوقد بأفكارها المشتعلة !! ؛ وترسل لهيبها يتلألأ على مُحَيَّاه ويتموَّج !! ؛ وكان إحساسنا بمعنى الغارة الجويَّة يُثير النفس !! ؛ ثم يجثم عليها متثاقلاً بوطأته !! ؛ فلا هو يجعلنا نثور فيخف ما نجد من ثقله ؛ ولا هو يتركنا نهدأ !! .

وبَقِىَ صاحبى صامتاً لا يتكلَّم !! ؛ ولكنى كنت أكاد أجد الألفاظ والمعانى وهى تعترك فى داخله وتتشاجر !! ؛ أما إنى ما رأيته - أو قُل : ما أحسسته - كاليوم !! ؛ لقد كان كالعاصفة من اللهيب مكفوفة فى محيطها تدور وتتراكض !! ؛ وكان هو هذا المحيط !! ؛ لقد رحمته حتى كدت مرَّات أقوم إليه أضع يدى على رأسه !! ؛ أقول : ذلك مما يخفض عنه بعض ما يغتلى فيه من

---

(١) - ((جَمْهَرَةُ المَقَالات)) ؛ [جـ١/١٧٤ - ١٨٠] ؛ نُشِرَ فِى مَجَلَّةِ الرِّسَالَة ؛ العَدَد : ٣٦٢ ؛ عَام ١٩٤٠ م .

سعير الفكر !! ؛ ولكنى كنت أهاب أن أُشعره أنى قد نفذت إلى بعض أسراره التى يريد كتمانها !! ؛ فسكتُّ معه ساعةً أحتال فى خواطرى لفضِّ هذه الأغلاق التى يضربها على ضمير نفسه !! ؛ فلست أشك أن بعض الحديث إذا اشتكى خفّف وأراح .

لم تكُن لى حيلة معه !! ؛ ولكن طول الصمت بينى وبينه فى ظل هذا الليل الأسود كان هو مفتاح هذه الأقفال الكثيرة ؛ وكان الحجاب الذى أسدله دُجى الليل هو الحيلة التى جعلته يقلق ويتململ فى مجلسه يريد أن يستكتمنى وهذا الليل سِراً من القدر !! .

ثم سكت سكتةً ظننت معها أن أنفاسه قد أبت عليه أن يتنفّس بها !! ؛ لقد كان يجُاهد نفسه : كان هو يأبى أن يتكلّم ؛ وكان الذى يجده فى صدره من الضيق يأبى عليه إلا أن يتكلّم !! ؛ كان نزاعاً هائلاً بين قوتين متحاربتين صارمتين عنيدتين مُتكافئتين !! ؛ لقد أثبته ذلك حتى كاد يتمزّق !! ؛ إنّى لأحُسُّ ؛ بل أسمع صوت التمزيق الذى يحُدثه فى نفسه هذا الصراع المخيف الرائع بين إلحاح هاتين القوتين فى تنازعهما !! ؛ ومضت الدقائق وأنا أعدها ساعات من عجلة النفس إلى تخفيف العذاب عن هذا الصديق البائس المحُطّم !! ؛ والذى يأبى عليه عناده إلا أن يتجلّد .

ولكنه ما لبث أن شقّ كثافة هذا الصمت المُبهم بكلمةٍ ضربت فيه : لست أدرى !! ؛ لست أدرى !! .

لقد سمعت لكلماته فى أُذنى صليلاً كما يَصِلُّ الحجر الصلد على ضربة

معول من الحديد الصلب !! ؛ لقد بغتنى بصليلها حتى نسيت أفكارى فيه مُنْذُ أول الليل !! ؛ ولكنى سُرعان ما اجتمعت لحديثه وأردت أن أحتال للتخفيف عنه ما استطعت ؛ فقُلتُ وكأنى أعلم خِبْءَ ما يُشير إليه :

كُلُّنا ليس يدرى !! ؛ وهذه هى الحياة !! ؛ إنك لا تستطيع أن تعرف الحقيقة حتى تخوض إليها الباطل خوضاً !! ؛ إن الشك هو أعظم أعمال النفس الإنسانية ؛ فإذا ما ابتُلىَ به الإنسان ؛ فهو بين نهايتين : بين أن يهتدى فيلحق بالذروة فيستوى على عرش من عروش الحكمة ؛ وبين أن يضل ويتزايل فيتدَهْدَى على هذه الصخور الفكرية العاتية فيتحطَّم !! ؛ وأىُّ ذلك كان ؛ فالمسألة كُلُّها قدرٌ محتومٌ يا صديقى !! ... ؛ رُفعت الأقلام وجفَّت الكُتُب !!.

لقد رأيت شرارتين تتطايران من عينيه فى جوف هذا الظلام ؛ ولكأنى اقتدحت بكلماتى من النار التى تكمُن فى تلك الصخرة الفكرية المُلملمة التى انطوت عليها ضلوع هذا الصديق المسكين !! .

ثم رأيته يرتد مرَّةً أُخرى إلى صمته وصراعه !! ؛ ولكنى كنت أشعر به وهو يلين ويتخشَّع من كل ناحية !! ؛ لقد كان هذا الصديق قاسياً عنيفاً !! ؛ ولكنه كان رقيقاً أيضاً ؛ وكان صبوراً ؛ ولكنه ربما استكان للجزع !! ؛ وكان مستوحشاً آبداً !! ؛ ولكنه ربما ألف وطاوع وانقاد وكأنه لم يجمح مـرَّة !! ؛ وكان راسخاً شامخاً وطيد الإيمان ؛ ولكنى كُنْتُ أنفذ إليه أحياناً فأجد الزلزلة التى فى قلبه قد جعلته يتزعزع ويتطامن ويضطرب بعضه فى بعض اضطراب الموج فى تيَّاره !! .

لست أدرى !! ؛ ولكنى أريد أن أُحدِّثك ؛ أريد أن أنبذ إليك من القول لتشركنى فى بعض الفكر .

ثم سكت وسكن ؛ ولكنه أقبل علىَّ وقد جمع أطراف نفسه المُبعثرة ؛ يقول : كانا صغيرين ؛ وكانت أيامهما الصغيرة لا تدرك معنى النظرات التى تلتقى فتتعانق ؛ فتتعقد عقدة لا تُحل !! ؛ وهكذا نسيهما الزمن فى معبده الآمن !! ؛ ثم انتبه يوماً ؛ فزفر بينهما زفرة واحدة فتفرَّقا !! ؛ لم يُدركا يومئذٍ شيئاً من معانى الفراق المُهلكة التى تمحق النفس بالتأمُّل واللهفة والحنين ؛ بل نظرا ؛ ثم تودادعا ؛ ثم افترقا ؛ ثم نسيا !! ؛ أو هكذا كان !! ؛ ولكنه لم يكُن فى الحقيقة نسياناً ؛ بل كان عملاً من أعمال القدر الغامضة ؛ كان تعبئة للأحداث العظيمة التى تتهيَّأ فتصنع النفس الإنسانية صنعة جديدة !! ؛ لقد عرفت ذلك فيما بعد ؛ وتسحَّبت حواشى الحياة بينهما ؛ حتى رقَّت أيامهما الأولى ؛ ثم جعلت ترق حتى استحالت أحلاماً من الذكرى المُبهمة ترف على القلب رفيف النسمات !! : لا ترى ؛ بل تحس ؛ ولا تمسك ؛ ولكنها تلقى عطرها فى القلب وتمضى !! .

نعم ؛ لقد نامت العواطف الناضرة الصغيرة فى مهد النسيان ؛ ولكنها كانت تنمو أيضاً فى جَوِّ هذا المهد .

ومشى الزمن بينهما يُقيم سدوداً وأسواراً من السنين وأحداثها !! ؛ وكما كبرا وامتدَّا من أيَّام العُمُر ؛ كبرت السماء التى تُظللهما وترامت آفاقها ؛ واستحالت الأيام الصغيرة الأولى أشباحاً ضامرةً لا تكاد تبين من دِقَّتها

وخفائها !! .

ثم فجأهما القدر!! ؛ فتلاقيا بعد دهر طويل كما يتلاقى نجمان فى ظلمة الليل يتناظران لمحة وشعاعاً من بعيدٍ لبعيدٍ !! ؛ هكذا عرفت !! .

لقد كان هو يحس فى بعض أيامه قبل ذلك اللقاء : أن الفلك قد دار دورته فى القدر ؛ وأن القُوَّة المُسخَّرة قد قذفت به فى نظام من الجذب جديد ؛ فلم يكد حتى لمح له شعاعها من بعيد يليح إليه بأضوائه وكأنما يقول : أقبل !!... ؛ هلم إلىّ !!... ؛ هأنذا !!... ؛ هأنذا !!.

ولم يلبث أن أتمَّ هذا الفلك دورته ؛ فإذا هما يتناسمان فى جَوٍّ عَطِرٍ تنفح من أردانه أنفاس الأيام الصغيرة الأولى !! ؛ أيام الطفولة التى تنمو فيها عواطف القلب وتتفتّح ؛ كما تنمو الزهرة فى أكمامها تحت السَّحَرِ فى مهد الفجر بين روح وشعاع وندى !! .

واجتمعا!!... ؛ فإذا هى غادة مضيئة تزهر !! ؛ لكأن الزمن اختطفها كل هذا الدهر وتسلّل بها فى بعض مصانعه العجيبة !! ؛ وجعل يجهد جهده بأنامله النابغة الدقيقة ؛ فهو يجلوها ويُصقلها ؛ حتى إذا فرغ من فَنِّهِ الذى احتفى لها به ؛ رَدَّهَا إليه ينبوعاً من النُّور الضاحك المَرِح يترقرق لعينيه مُمثَّلاً فى صورتها!!... ؛ لقد شبَّت الصغيرة !! ؛ ولكن شبابها كان رِقَّةً وحناناً فى أُنوثتها !! ؛ واستوت فكان استواؤها دقَّة فى فَنٍّ من جمالها !! ؛ ونمت نُمواً وضَّاحاً !! ؛ وكأنما كان يغذوها نور الكواكب ويُرضعها روح الزهر !! ؛ لقد وجدها وهى تضوع وتتلألأ من جميع نواحيها !! ؛ لقد كان يُخيِّل إليه أن

النسيم من حولها يطوف بها مُتعبِّداً خاشعاً ؛ ثم يسعى إليه حاملاً نفحةً من نفحات الجنَّة !! ؛ فكان يحس دائماً أن جوَّها ينتقل إليه فينفذ إلى قلبه ؛ فيقعد هناك يُتمتم ؛ يُحدِّثه بأخبارها ؛ أو يصف له منها ما يوعب هذا القلب الحزين افتتاناً ولوعةً وحنيناً !! .

لقد شبَّت الصغيرة !!... ؛ فَنَضَت عنها كل مطارف الطفولة ؛ وتجلَّت جلوة العروس فى زينة من الصبى والشباب !! ؛ لقد خلعت كل قديمها ؛ ولكن شيئاً واحداً بقىَ كما هو ؛ لا !! ؛ بل بقىَ أقوى مما كان وأصفى !! ؛ تلك هى روحها !! ؛ الرُّوح القويَّة الآسرة المُتسلِّطة !! ؛ تغيَّر كل شىء إلا عيونها التى تَشُفُّ عن هذه الرُّوح التى لا تتغيَّر !! ؛ فالنظرة الباسمة الخاطفة التى كانت تُخضِع بها تمرُّد ذلك الصبىِّ العارم الصغير ؛ هى هى النظرة الباسمة الخاطفة التى هجمت منه على الرَّجُل ؛ فأضاء وميضها له الطريق !! ؛ وحبسته بأمرها وسُلطانها على هذا الطريق نفسه وفى وقت معاً !! .

ثم نَحَّى صاحبى بصره إلى قطع من الليل جاثم من عن يمينه !! ؛ وأطال النظر فى جوفه !! ؛ ثم خُيِّلَ إلىَّ أنه قد جعل يصغى إلى همس الليل !! ؛ ويتسمَّع وسوسته الخافتة إلى رمال الصحراء !! ؛ وبَقِىَ زماناً لا يكاد يتحرَّك !! ثم انتفض فى مكانه انتفاضة خفيفة !! ؛ ما رأيتها ولكن رعدتها جرت فى دمى وأوصالى قشعريرة عرفتها !! .

ثم عاد إلىَّ يتنهَّد ويقول : هكذا هى !!... ؛ أو هكذا كانت !!... ؛ أما هو؟!!... ؛ وارتعشت الكلمات فى نبراته وعلى شفتيه !! ؛ فأمسك وسكت !!

وكأنه عزم ألا يُتم ما بدأ من حديثه عن الرَّجُل !! ؛ فخفت أن ينقطع عنِّى دون خبره !! ؛ وأردت أن أستفزّه من حيث أعلم كيف أستنبط نبع حديثه ؛ فعجلت إليه أقول : أما هو يا صاحبى !! ؛ فقد كان مجنوناً !! ؛ تنشئ له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التى لا حقيقة لها فى حقيقتها هى !! ؛ و !!... ؛ فانقضَّ علىَّ بصوته يقول : كلا!! ؛ كلا!! ؛ لا تقل هذا !! ؛ ليس الأمر كذلك !! لا تعجل عليه !! ؛ إنك لا تعرفه !! ؛ ولو عرفته فما أظنك تُحسن فهم حياته التى يُعايش بها الناس !! ؛ سأحدِّثك عنه ؛ لقد علمت أنك تريد أن تحملنى على ذلك !! ؛ ولا بأس إذن ؛ لا أقول لك إنى فهمته ؛ وأستطعت أن أكشف لنفسى عن سِرِّ طبيعته !! ؛ كلا !! ؛ بل أقول لك إنى لأُحُسُّ بكُلِّ ما يعتلج فى قلبه من آلامه !! ؛ وكأنها عندى هى كل آلامى !! .

إنه رَجُلٌ قد امتلأ حكمةً من طول ما جرَّب !! ؛ ومن عُنف ما لقىَ من الأحداث التى نقضت بناء حياته مرَّةً بعد مرة !! ؛ نعم !! ؛ إنه لملء رجولته تجربة !! ؛ ولكن !!... ؛ ولكنى سأصفه لك على كل حال ؛ سأحاول أن أُعبِّر لك عن حقيقة معرفتى به ؛ نعم !! ؛ هو إنسانٌ غامضٌ مُبهمٌ مُحيِّر!! ؛ إذا صحبته رأيت من نقائضه التى تجتمع لك من أعماله وظواهره ما يلتوى بفكرك فيه من هنا إلى هناك !! ؛ حتى تجد وكأنما أنت تمشى منه فى غمضٍ من الأرض مُنكرٌ قد درست صُواه !! ؛ وعفت رسومه !! ؛ وجُهِلَت معالمه !! ؛ لا تهتدي فيه أبداً إلى شيءٍ تستطيع به أن تقول : هذا هو !! ؛ هذه هى الفكرة !! ... هذا هو الطريق !!.

سكت صاحبى قليلاً وقد طرح فكره فى مذاهبه !! ؛ ثم عاد يقول : فلنعُد إلى حديثنا إذن ؛ لقد حملتنى على أن أذهب بك بعيداً !!... ؛ كذلك كانت هى كما وصفتها لك !! ؛ بل أروع مما وصفتها !! ؛ حين التقيا على غير موعد يتوقعه أحدهما !!... ؛ أما هو فكان يومئذٍ رَجُلاً ضرباً متوقداً ثائراً عنيفاً !! ؛ لا يزال يتمزع من جميع نواحيه كأن فى تجاليد شخصه روح وحش شارد لا يألف الحياة ولا هى تألفه !! ؛ كان فكرة شامخة عاتية عضلة تأبى أن تتهضم لأحد أو تستذل !! ؛ كان كالبركان فى عنفوان فورته تتقلع به صواعقه وزلازله !! ؛ وهكذا كنت أبداً أعرفه !! ؛ ولكنه كان مع كل ذلك يحب أن ينطوى على هذه العواصف التى تتقصف برعودها بين جنبيه !! ؛ ومن أجل ذلك كنت أجد فى عينيه أحياناً بارقاً ساطعاً يتدارك ويتلهب !! ؛ حتى يجعل نظراته كأنها سياط من الأشعة يتضرَّم اللهب على عذباتها!!... ؛ لا تعجب !! ؛ فأشهد لقد خُيِّلَ لى مراراً أن نظرته هذه إنما تكوى من يتعرض لها أو من يجلده بها !! ؛ حتى لأخشى أن تكون تترك فيه من آثارها أخاديد تتنفض كسلع النار على الجسد !! .

لا تعجل !! ؛ ولا تشطط !! ؛ لقد تعلم أنه كان ـ مع كل هذا الذى وصفت لك ـ إنساناً وديعاً رقيقاً ؛ كان قلبه خلاصة صافية ممثلة من الحنان والشفقة !! ؛ ولكنه أُصيبَ بأحداث كثيرة جعلته ظنوناً حزيناً !! ؛ فهو لذلك يضن بما فى قلبه أن يطِّلِع على حقيقته الكاملة أحدٌ من الناس !! ؛ لم أر فيمن رأيت من الناس من هو أبعد منه مذهباً فى الاحتراس والحذر !! ؛ ومع

ذلك أيضاً ؛ فلو أنك رأيته فى بعض ساعاته لظننت أنه رَجُلٌ غُمْرٌ يختدعه عن نفسه كل أحد !! .

ولكنه ليس كذلك !! ؛ نعم !! ؛ لقد كان هشّاً أحياناً بين يدى من يتناوله ؛ فإذا أُخِذَ بالاعتناف والقسر ؛ انقلب الذى فيه ضارياً لا يُطيق ولا يُطاق !! .

هكذا كان أول ما تلاقيا !!... .

ثم صمت صاحبى !! ؛ وَخُيِّلَ إلىَّ أنه يضحك !! ؛ لقد كان يخافت من ضحكه كأنما هو يسخر !! ؛ ورجع إلىَّ بعد قليل فواصل حديثه :

كيف قُلْتَ فى نعته ؟!! ؛ كان مجنوناً تنشئ له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التى لا حقيقة لها فى حقيقتها هى!!... ؛ نعم !! ؛ ربما كان ذلك صحيحاً من بعض وجوهه ؛ ولكنى على يقين من أنك لا تكاد تعرف وجه الحقِّ فى تأويل هذا الوصف !! ؛ لا بأس !! ؛ ومع ذلك فأىُّ هذا الناس ليس مجنوناً على الحقيقة من بعض نواحيه ؟!! ؛ إنك لو جهدت فتتبّعت تاريخ الإنسانية كله لم يخلص لك من أصحاب العقل الكامل إلا أفذاذ قلائل !! ؛ ومع ذلك ؛ فليس أحد من هؤلاء الأفذاذ قد نجا من قذف الناس إياه بالجنون !! ؛ ألا فخبِّرنى أىُّ الأنبياء ـ وهم فضائل الإنسانية الكاملة ـ بَرِىءَ أن يقول فيه أهله وعشيرته : « إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ » أو « سَاحِر » أو « مجنون » ؟!!

إن من أعظم حقائق الحياة الدُّنيا أن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة

العقل !! ؛أى أنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه !! ؛ و !!... .

وصدع السُّكُون صوت صفير الغارة الجوية ؛ فانتزع صاحبى !! ؛ثم قال :

ـ أليس هذا هو صوت جنون سُكَّـان العالم ؟!!... ؛ أليس كذلك ؟!!. ﴿ .

﴿لها تتمة﴾

.....

٤٣

إلى أين ؟!!

- ٢ - (١)

.....

قال صاحبى بعد قليلٍ من سكتة صفير الإنذار بالغارة الجويَّة :

الآن وقد صم صدى هذا النذير البغيض ؛ ومات صوت البومة الدميمة التى قامت تنعق على الموضع الخراب من عقل هذا العالم !! ؛ فأسرعت الأيدى وتناهضت الأقدام !! ؛ وخفَّت الأحياء ليطمروا أشلاء النهار التى كانت مبعثرة فى طرقهم وبيوتهم على معركة الليل البهيم !! ؛ إنهم يدفنون هذه الأشلاء الوهاجة خشية أن تراها عيون العافية من سباع الجو المنقضة بأنياب كرجوم الشياطين !! ؛ آهٍ يا صديقى !! ؛ ما أقبح هذا وأفجره !! ؛ ولكن دعنى من هذا !! ؛ فالآن أعود إليك :

لقد مثَّلتُ لك بعض صورتها هى وبعض صورته عند أول اللقاء ؛ لم أكشف لك بعد عن حقيقة النفسين وهما تعملان بأسباب من القدر ؛ إن هذه

---

(١) - ((جَمْهَرَةُ المَقَالات)) ؛ [جـ ١/١٨١ - ١٨٦] ؛ نُشِرَ فِى مَجَلَّةِ الرِّسَالَة ؛ العَدَد : ٣٦٣ ؛ عَام ١٩٤٠ م .

الأسباب التى لا تدرى متى أولها ؛ قد أخذت تلتوى عليهما فيما يستقبلان من أيامهما ؛ وثمة بدأ الإشكال !! ؛ وتراكبت العُقد الجديدة على تلك العقدة القديمة التى التبست عليهما فى الطفولة !! ؛ فلست أدرى ؟!! ؛ ولا هما أيضاً يدريان ؟!!... : إلى أين المصير ؟!!

لمحها ولمحته فى يوم اللقاء الأول ؛ فوقفا طويلاً ينظران !! ؛ وشخص البصر !! ؛ وكفَّت العين لا تطرف !! ؛ وكأن العين قد أرسلت إلى العين رُسَلاً من أشعتها لتبحث فى أعماقها عن معانيها الحائرة التى لم تستقر بعد على قرار مؤمن !! تتبين فيه كلتاهما صورة كلماتها القلبية التى تنبض فى موج الدم !! ؛ أما هو ؟!! ؛ فقد أخذه ما يأخذ الغريق المُشفى على هاوية من الهلاك الرطب الندىّ !! ؛ ثم يفتح عينيه ؛ فإذا هو ملقى على الشاطئ قد انتشلته من فزع الردى نجاة برحمة من روح الله !! ؛ ولكنه لا يدرى من الذى رَدَّهُ إلى الحياة بعد مُلابسة الموت ؟!! ؛ ولا كيف كان ؟!! ؛ ولا أين هو ؟!! ؛ ولا أىّ مكان هذا ؟!!

وأما هى !! ؛ فقد أنكرته بادئ اللحظة !! ؛ ثم انكشف لعينيها الحجاب الكثيف الذى أرخاه الدهر الماضى بين أيامها وأيامه !! .

لقد عرفته وأثبتته معرفة ؛ فأقبلت عليه تندفع بقوة الرَّدِّ المُتفلِّت من شدِّ عشرين عاماً كانت تجاذبها دونه : أنت؟!! أنت ؟!!أين كُنْت ؟!!

آه !! ؛ لقد نسىَ المسكين عندئذٍ أين كان ؟!!... ؛ إنه هنا !!... .

أليس هذا كافياً ؟!! ؛ أليس هذا هو كل شىء ؟!!... ؛ أما الماضى ؟!!... ؛ أما

الحياة التى عملت فى بنيانه أعواماً طوالاً كلها جهد وإرهاق ؟!!... ؛ كل ذلك ذهب وباد وامّحى !! ؛ وكأن اليد التى تمحو ما تشاء وتُثبت فى تاريخ الإنسان قد أمرَّت صفحتها على رقعة أيامه الماضية ؛ فغسلتها وطهَّرتها من سوادها !! ؛ وردَّت إليه وإليها صحيفة أيامه بيضاء نقية قد تهيأت أن يُنمنم فيها القدر تاريخه الجديد !!... ؛ أجل !! ؛ كان هذا هو الإنذار الأول من القدر لهذا المسكين أنه سينسى معها كل تجاربه فى الحياة !! ؛ وأنها هى التى ستكتب له هذا التاريخ الجديد من القدر خيره وشرَّه !! .

ومضت الأيام الأولى بعد هذا اللقاء البغت على ذكرى حاضرة تصارع وحوش الماضى التى وطئت بأقدامها عهود الصغر وملاعب الطفولة فطمست معالمها ومحت بعض آياتها !! .

جعلت هى تتكلَّم ؛ وكأنها ذاكرة التاريخ الواعية التى لا تكاد تُفلت شيئاً إلا أحصت دقيقه وجليله !! ؛ حدَّثته وذكَّرته وأعادت عليه زخرف الصبا ووشيه من نسج حديثها !! ؛ أما هو؟!! ؛ فبقىَ صامتاً يُنصت لها خاشعاً ضارعاً يسمع صدى الماضى الذى يتكلم فى سراديب النفس العميقة الممتدة الذاهبة بأساليبها الغامضة فى أقصى غيب الحياة !!.

كيف تَدُبُّ الحياة فى أشياء الطبيعة التى تُخيِّل للناس أوهامهم أنها موات؟!! كيف تستيقظ الأرواح النائمة فى غارٍ مُظلمٍ قد أطبقت على منافذه صخورٌ صُمٌّ من جبال الزمن ؟!!

كيف تستقبل النفس التى أحرقها الظمأ المُتضرِّم شؤبوباً من الغيث يهمى

عليها بارداً عذباً زُلالاً سائغاً يترقرق ؟!!

كيف ؟!! ؛ وكيف ؟!!

لقد عرف هو كيف يكون ذلك كله حين تكلّمت روحها فى ثنايا روحه المتغضنة بأحزانها !! ؛ وحين أخذت تُناجيه بالذكرى!!... ؛ ويتحدّر فى صوتها ذلك اللحن الخالد الذى يتحدّر مع الغيث من السماء يناجى الأرض الظامئة المُقشعرّة المجُدبة !! ؛ فكذلك تهتز وتربو على مَـدّ أنغامه التى تفجر فى ذرات الثرى كل ينابيع الحياة !! ؛ واستجاشت هذه الساحرة الجميلة التى خرجت عليه من لفائف الغيب المُحجّب تلك النفس المُصمّمة العنيدة !! ؛ فمازالت حتى انقشعت الغمامة الغبيّة التى كانت تُحيط بنفسه عُمراً من قبل !! ؛ إنه الساعة يسمع ويرى ويحُس ؛ ويتغلغل فى الحياة ببأس شديد !! ؛ لا !! ؛ بل كان فى أول أمره هذا مضطرباً حائراً يدور بقُوّته حيث دارت به على غير هدى ولا صراط !! ؛ كان ربما خلا فاستوحش فارتاع !! ؛ فيحتمل كل أعباء الهمّ الذى يجده فى نفسه !! ؛ فيخرج يضرب فى البيداء المُقفرة البيضاء فى مَدّ البصر !! ؛ حيث لا يرى إلا صفاء السماء وبحر الرمل الساكن فى مهاد الأرض !!... ؛ حيث لا يسمع إلا حنين الرياح ونجوى أشواقها الأزليّة فى المَهْمَه القَذَف !! ؛ يمشى !! ؛ ثم يمشى حيث يتصرف به القدر الغالب !! ؛ وهو لا يسمع مع ذلك إلا أنغام صوتها من حوله يتردّد : أنت !! ؛ أنت !! ؛ أين كُنت ؟!!.

اشتعل القلب !! ؛ وفارت الرُّوح !! ؛ فانطلق بعد الحيرة والضلال فى

طريقٍ سوىٍّ ؛ مُؤيَّداً بهذه الرُّوح القويَّة التى سيطرت على كل روحه بالحُبِّ والحنان !! ؛ ومضى يعمل لها وبأسبابها نافذاً مُقدماً لا يمل !! ؛ ولكن سمعه لم يزل على حالةٍ من الإصغاء ثابتة !! ؛ كأنها إغماء أخذه كما تأخذ غمية الوحى إذا نزل فاشتد فاستبان !! ؛ ثـم تنحـدر رنَّـات صـوتها إلى قلبـه !! ؛ فتجرى فى أنهار الحياة المُتدفِّقة فى جُثمانه بدمه ؛ فيُرجِّـع الدم ألحانها ترجيعاً موسيقيًّاً هفَّـافاً آتياً من أغوار القدر العميقة !! ؛ نعم !! ؛ إنه لا يزال يسمع فى مخارم نفسه ومهاويها صدىً يتردَّد :

أنت !! أنت !! أين كنت ؟!!

فتُجيبها الرُّوح من أعماقها : أنا هُنا !! أنا هُنا !! أيتها العزيز !!

هكذا بدأ بدؤه وقد نام كل ما فيه وخضع لسلطانها الذى لا ينتهى ولا يفتر !! ؛ ثم دَبَّـت فى روحه اليقظة الجديدة !! ؛ فتجدَّدت النَّفس المُتغضِّنة وَرَقَّ شبابها !! ؛ واستجمَّت قُواها الشاردة بعد فترة كإغفاءة النائم فى أنفاس الفجر الندىِّ المُتروِّح بعطر الرياض النَّضِرة !! .

ولكنه عاد بعدئذٍ برجولته يتوحَّش !! ؛ فارتد إليه حذره الوحشىُّ يتوجَّس خيفة !! ؛ وأخذه بذلك الرُّعب من كل مكان !!... ؛ أين أنا ؟!! ... ؛ وكيف كان هذا ؟!!... ؛ ولم خضعت ؟!!... ؛ وإلى أين أسير ؟!!.

كل هذه أسئلة جعل صداها يتردَّد فى نفسه !! ؛ ثم يُلقيها على الدهر الأصم !! : فلا يجد جوابها جميعاً ولا تأويلها !! ؛ ويومئذٍ جعل يصول صيال الوحش يريد أن يجد الغيل المُفرد الذى يفرض فيه سلطانه على جوِّه

وغابه !! .

ولكن وارحمتا له !! ؛ لقد حقَّ ما قلت يا صديقى !! : المسألة كلها قدر محتوم !!... رُفعت الأقلام وجفَّت الكُتُب !!.

أرأيت إلى ما وصف لك من أول ما تلاقيا !! ؛ أرأيت إلى ذلك الوحش الآبد الحَذِرِ الذى لا يألف الحياة ولا هى تألفه ؟!! ؛ أرأيت إلى تلك الفكرة الباذخة العَضِلَة التى تأبى أن تذل أو تتهضَّم ؟!! ؛ أرأيت إلى البُركان المُتقلِّع فى عنفوان فورته ؟!!.

كل ذلك قد استحال بين يديها ؛ وتحت أشعة عينيها ؛ وفى مسِّ أنفاسها : شيئاً غير هذا كله !! ؛ فكل ما توحَّش منه فهو عندها يألف وادعاً !! ؛ يلوذ بها خاشعاً مُتضرِّعاً !! ؛ وكل ما بذخ وسما وتعضَّل فهو يتطامن لها ويرق ويتليَّن !! ؛ وكل ما تقصَّف منه وفار وغلى فهو ينساب إليها صبابةً وحنيناً ولوعةً !! .

وعندئذٍ سكت صاحبى بغتةً كأن لسانه قد عقد عقداً على ألفاظه !! ؛ ثم تنهَّد واحدةً كأنما انهدَّ بها رُكْنٌ من جبله القائم فى ضمير نفسه !! ؛ ورمى بصره فى هذا الرُّكام المُتكاثف بعضه على بعض من ظلام الليل !! .

لم أُرد أن أستثيره من هدأته التى يستريح إليها بعد هذا الجهد الهائل الذى كان يتدفَّق به فى حديثه !! ؛ لقد كان يُعانى من هذا الحديث أشد مما يُعانى الهارب السائر فى وحشة الليل الصامت فى غول الصحراء وهو هائم على وجهه تطارده من ورائه شياطين العذاب التى تريد أن تنتشطه إليها

بخطاطيف هائلة من الرُّعب والفزع !! .

كنت أرِقُّ له وآسى عليه !! ؛ ويمنعنى من الحديث معه مخافتى أن يكون ذلك مما يصرفه عن بعض الفكر الذى يتعذَّب به وبوساوسه وخطراته !! ؛ نعم !! ؛ إنه عذابٌ عقلىٌّ أليم !! ؛ ولكنه على ذلك مما يُعطى النفس بعض راحتها من عذاب الشَّكّ والقلق والحيرة !! ؛ والحياة كلها صروف متعاقبة يُراد بها السمو بالنفس على وجهٍ من وجوه الألم !! ؛ والألم وحده هو الذى يستطيع أن يصقل النفس الإنسانية صقلاً رائعاً !! ؛ وبذلك يَرُدُّ إليها حقيقة الإيمان المُشرقة بالاطمئنان والتسليم !! ؛ إنه حائرٌ يشُكُّ فى حقيقة ما يقع عليه فكره !! ؛ ولكن هذا الألم الذى يُصارعه صراعاً عنيفاً لا رحمة فيه !! ؛ وهو نفسه الرحمة المهداة إليه !! ؛ ليؤمن بعد ذلك إيماناً لا يداخله شىءٌ من الشَّكّ أن قلبه لم يخطئ ؛ وأن أفكاره القلقة هى التى تُخطىء !! ؛ وأنه ينبغى أن تُقيِّد أفكار العقل الحائر بأغلال متينة من أفكار القلب المؤمن .

وتضرَّبت فى همسات الليل أفكارى فيه !! ؛ وجعلت أستعيد فى نفسى كل ما قاله لأرى من تحته المعانى التى تتهارب وتختفى بطبيعتها فى ظل الألفاظ اللُّغويَّة المحدودة بمعانيها !! .

كنت حائراً فى فهم هذا الصديق الذى يُحدِّثنى عنه صديقه ؟!! ؛ وما صديقه إلا هو !! ؛ وكنت ألمح هذا الجبل وهو يتخلَّع من أعضاءه التى ينهض عليها ثابتاً قَارًّا مُتسامياً !! ؛ يهزأ بالتلال القصيرة التى تطمح إليه بأبصارها !! وجالت فى نفسى أفكارٌ وأسئلةٌ لا جواب لها ؟!! ؛ يا رب !! ؛ أهكذا يضمحلُّ

الرَّجُل ؟!!

وارتفع صوتى بهذا السؤال غير متعمد لذلك !! ؛ فما هو إلا أن هبَّ صاحبى من غفوة الفكر التى غشيته !! ؛ فابتدرنى يقول :

نعم !! ؛ هكذا يضمحلُّ الرَّجُل !! ؛ وما تريد أنت إلى ذلك ؟!! ؛ إنك دائماً تفجؤنى بتمثال يتكلم بأفكارى التى أتكلم بها فى غيب نفسى !! ؛ أىُّ شىء هو الرَّجُل ؟!!... ؛ هل تستطيع أنت أو من سواك أن يُقرِّر للعقل حقيقة الرَّجُل؟!! ؛ وأن يتهد لفكرته أصلاً لا يزول ؟!! ؛ فإن يخرج عنهما أو عن أحدهما انتفى فى العقل أن يكون رَجُلاً حَقَّ رَجُل؟!!... ؛ هذا هو الغرور الذى يتهاوى فيه الناس ماداموا ناساً يبغى بعضهم على بعض !!... ؛ فطرة رُكِّبَت فى سِرِّ طبائعهم !!.

إن هذا ليس اضمحلالاً وضعفاً بالمعنى الذى تتوهم !! ؛ إنه ليس من قوة فى الطبيعة إلا وفوقها قوة تحكمها وتُصرِّفُها ؛ وخضوع قوة لقوة أعضل منها ليس يعرف ضعفاً فيمن يخضع ؛ وإنما هو القانون الطبيعىُّ الذى يستقيم به نظام العالم ؛ إنه لا يُقال للدوحة الفينانة العظيمة : أيتها المسكينة !! ؛ لماذا تخضعين لسلطان الفصل الذى تساقط به أوراقك ؟!! ؛ أو لماذا هذا الحنين الدائب إلى قطرات من الغيث ؛ وهذا الجبل أمامك يسفح عليه ماء السيل ثم ينقطع أعواماً فلا يظمأ إليه فيحن كمثل حنينك إلى قطرات من الماء انقطعت بضعة أشهرٍ؟!!

هذه طبيعة الدوحة !! ؛ فإذا انقلبت طبيعتها إلى غير هذا الناموس قتلها

الظمأ وتركها حطباً يابساً لمن يستوقد !! .

آهٍ أيُّها الصديق !! ؛ إنك لن تعرف الحقيقة حتى تستشعر قوة الآلام المُلتهبة التى تترك الرَّجُل يتزايل على الشوق والوجد واللوعة كما يتزايل جبلٌ من الفولاذ قد تجوَّفته نارٌ مُتضرِّمةٌ من لهب جهنم !!... .

أبغى قليلاً من الماء ؛ ثم أُحدِّثك كيف اضمحلَّ الرَّجُل ؟!!. ﴾ .

﴿لها تتمة﴾

.....

٣

إلى أين ؟!!

ـ ٣ ـ(١)

.....

أخذ صاحبى كأس الماء فى يده ؛ وجعل يرشقها ببصره رشقاً حديداً يُلمح لمحاً تحت حواشى الليل !! ؛ وكنت أرى وهج مُقلتيه يكاد يتطاير تطاير الشرار بينهما وبين الكأس !! .

وأدام نظره طويلاً إلى الماء وهو يَقَرُّ شيئاً بعد شىء ويسكُن !! ؛ فكأنى به كان يغمس نظراته المُلتهبة فى برد الماء ؛ ليبترد من وقدة العاطفة التى تضطرم فى داخله !! .

وبعد فترةٍ عَبَّ من كأسه عَبَّ الظمآن استحرَّ على كبده العطشى !! ؛ ثم فرغ !! ؛ فوجَّه إلىَّ وقد برق وجهه !! ؛ أو هكذا تخيَّلت !! ؛ ثم قال:

آه !!... ؛ ما كان أبصر ذلك الأعرابىَّ الظريف الذى عطش وضلَّ عن الماء فى بيدائه ؛ فلما رمى به السير فأفضى إلى بئر عميقة عادية قد بعد ماؤها ؛

---

(١) ـ ((جَمْهَرَةُ المَقَالات)) ؛ [جـ ١/١٨٧ ـ ١٩٢] ؛ نُشِرَ فِى مَجَلَّةِ الرِّسَالَة ؛ العَدَد : ٣٦٤ ؛ عَام ١٩٤٠ م .

أجهد أن ينزف بدلوه من بعض مائها حتى بُلغ به وكاد يُهلكه غؤور الماء !! ؛ ويعد لأيٍ ما استطاع أن ينزح من مائها ما يرويه ؛ حتى إذا شرب وارتوى وأطفأ غُلَّة الظمأ ؛ حمل تلك الدلو بين يديه ينظر إليها ويُقلِّبها كأنها بَنِىٌّ من صغار بنيه يُرقصه ويداعبه ويقول :

أىُّ دلاةٍ نهل دلاتى ؟!!
قاتلتى وملؤها حياتى !!
كأنها قَلْتٌ من القلاتِ !!

فانظر كيف يفرح الرَّجُل بأديم جاس غليظ مُتغضِّن موات؟!!... ؛ إنه يحُبُّه !! ؛ ويحرص عليه !! ؛ وَيَرِقُّ له !! ؛ ويُدلِّلُهُ دلالاً كأنه طفل يطفله ويرعاه !! ؛ وما ذاك إلا أنها أداة يتخذها ليُطفئ بها الغُلَّة التى يؤرثها حَرُّ الظمأ !! ؛ لو هو فقدها فى مجاز البيداء المجدبة الظامئة : فقد معها القُدرة على الحياة !! ؛ ومع كل ذلك فما هى إلا أديم أصم !! ؛ وأداة لا خير فيها إذا لم يكن كل الخير من قوة الساعد التى تمتد فى رشاء يتطوح بين أرجاء البئر !! ؛ ما أبلغه من أعرابىٍّ ؛ لولا نقل حديثه من الدلو إلى المرأة !!

« قاتلتى !!... ؛ وملؤها حياتى !! »

إنها المرأة يا سيِّدى !! ؛ هى وحدها التى تستطيع أن تكون القاتلة المُحيية فى وقت واحد !! ؛ إن كل ما فيها هو حياة محِبِّها !! ؛ وكل ما يكون منها ـ إذا أرادت ـ هو سبب من أسباب سلب هذه الحياة سلباً جبَّاراً لا رحمة معه ولا

هوادة فيه !! .

إن المرأة الحبيبة هى النبع الصافى النَّمير الذى يرى المُحِبُّ الصادق فى كُلِّ قطرة منه حياة تتلألأ فى روحه بالمُنى !! ؛ فإذا أرسلت هذه الحبيبة فى دمه قطرة واحدة من مائها ـ أى من حُبِّها ـ أطفأت هذه الواحدة كل النيران المُلتاعة التى تُجَفِّف بحرِّها ماءَ حياته !! ؛ فإذا منعت عنه غيثها جعلت كل أفكاره وأحلامه وأمانيه تحتطب من الحياة ما تؤرِّث به تلك النار المبيدة التى لا تنفخ نفخها على شىءٍ إلا جعلته رماداً أغبر !! ؛ ويومئذٍ تتحول الحياة فيه إلى خمود بليد !! ؛ أو إلى حماقة مجنونة !! ؛ كما يعترض الرماد للريح العاصف تطير به فى كُلِّ وجهٍ حتى يتفرَّق !!... .

ثم سكت صاحبى !!... ؛ وَخُيِّلَ إلىَّ أن غمامة سوداء داجية من ذكرى أحزانه وآلامه قد أظلَّت عليه وتدانت أهدابها !! ؛ فهو يرفع يمينه إلى جبهته ؛ ثم يُمِرُّها إلى ناصيته ؛ إلى يافوخه يضغط عليه ؛ ويتنفس خلال ذلك أنفاساً جاهدة ينتزعها انتزاعاً من أقصى منابع الحياة فى قرارة نفسه !!... ؛ ما أقسى الذِّكرى إذا ضربت فى القلب بفأسها تحطمُ وتدمِّر وتنقضُ بناء الأيَّام الماضية !!.

إن غُبَار هذا الهدم ليرتفع ويثور حتى يملأ الجو النفسىَّ بما يضجر ويخنق من ترابها ؛ وما أضعف الرَّجُل إذا أخذت الذكرى تُلِحُّ عليه إلحاح الكبرياء !! تتحدى الإنسانية والرُّجُولة بأوهن الفكر !! .

الذِّكرى !!... ؛ هذا شىءٌ مُخِيفٌ مُفزِعٌ !!... ؛ إنها الشبح الذى يَدُبُّ من

بين القبور المهجورة التى تناثرت فيها أشلاء الموتى !! ؛ إنها تقتل بالرُّعب !! ... ؛ فإذا أتت المُحِبَّ ذكرى حبيبه ؟!! ؛ فذاك شبحٌ هائلٌ يقتله بالرُّعب والحنين معاً !!.

أقول لنفسى :

أيُّها الصديق البائس !! :

لماذا لا تعرف طريقك إلى النسيان؟!!

لماذا تقف فى مقبرة أفكارك دائماً فترتاع وتتألم؟!!

لماذا لا تحاول أن تسخر من الحياة التى سخرت منك ؟!!

لماذا أنت حائرٌ أيها الصديق ؟!!

وبقيت أتداول الهاجس من أفكارى فيه !! ؛ حتى شُغِلتُ به عنه !! ؛ ثم جاءنى صوته من بعيد كأنه كان يتكلم فى بعض أحلامي تحت النوم !!... : اسمع!!... ؛ اسمع يا صديقى !!... : لقد كُنتُ أُفكِّر فى بعض ما شغلنى عن تمام حديثى قبلُ !! ؛ لقد سألتنى وساءلت نفسك :

أهكذا يضحكُ الرَّجُل ؟!!

أما إنى لا أستطيعُ أن أضعَ لك اللغة وضعاً جديداً حتى أُعبِّر لك عن كل خالجة من خوالج النفس الإنسانية حين تضطرب فتهتز فتطير هزاتها على مساقها ومجراها ؛ ثم تتشعب فتنتشر فتعمَل عَمَل الجيش المحارب فى هدم صفوف العدو وتفريقها وبَعْثرة قواها المحتشدِة للقاء احتشادَ البُنيان

المرصوص بعضه على بعض !!.

نعم !! ؛ لن أستطيع ذلك !! ؛ ولكنى سأصف لك بعض الصفة ؛ واستشعر أنت كيف يعمل ذلك فى هدم الرَّجُل ويُسرع فى تدمير رجولته أمام أنوثة طاغية تتحدى وتأخذ سلاحها الذى تتحدى به من رجولة عواطف المُحِبّ الذى يَرى أن تعاونَ القلبين بالحُبِّ ؛ وصبابة النفس إلى النفس الأخرى : هو تمام رجولته ... ؛ وتمام أنوثتها .

كان لقاؤهما تجديداً غريباً فى قديم نفسه !!... ؛ لقد استطاعت هذه الساحرة الجميلة الفتَّانة ـ كما وصفت لك ـ أن تمحو ماضيه كله !! ؛ وأن تُمزِّق صُحُفَ أيامه المهملة التى كان القَدَر يكتب فيها تاريخه الأول !! .

مزَّقت هذه الساحرة تلك الصُّحُف !! ؛ وألقت بها فى النار التى أشعلتها فى قلبه بالحُب !! .

بدأ يحيا بها وبسحرها حياة رائعة فاتنة من أحلام الحُب !! ؛ وجعلت هى!!... ؛ وجعلت هى!!... ؛ آهٍ يا صديقى!!... ؛ هذا كثيرٌ كثير !! ؛ إن ذكرى ذلك كله تؤلمنى !!... ؛ إنها تُعذِّبنى !!... ؛ إنها تَخُزُّ قلبى بمثل السِّنان الحديد يقع وخزاً متتابعاً شديداً يتفجَّر فى نزعه بالدم !!... ؛ كيف أستطيع أن أقول لك الآن ما الذى كانت هى تفعل؟!! ؛ وماذا أقول لك ؟!! ؛ آه !!... ؛ إن أنوثتها !!.. ؛ بل رقتها !!.. ؛ بل حنانها !!.. ؛ بل رحمتها !!.. ؛ بل إخلاصها !! ... ؛ بل حُبُّها !!... ؛ كيف يكون هذا ؟!!... ؛ بل ذلك الصوت المُنغَّم الرَّوِىُّ الممتلئ !!... ؛ صوت الحنين المُتعذِّب !!... ؛ صوت القدر الآتى من بعيد

بأفراح السعادة !!... ؛ صوتها !!... ؛ صوتها !!... ؛ ذلك الصوت المُعبِّر عن نفسها بألحان تتجاوب وتسرى وتموج فى كُلِّ غيبٍ من غُيُوب نفسه المُتراحبة !!.

إنَّ كُلَّ هذه العواطف التى يُرسلها إليه صوتها وهى تتكلَّم كانت تعُبُّ فيها عُبابها !! ؛ حتى يجد الأمواج النفسيَّة تتقاذفه فى فرحٍ بعد فرح !! ؛ ومن سعادةٍ إلى سعادة !! ؛ ومن حُلمٍ إلى حُلم !! ؛ كأنه ماض إلى جنَّة الخُلد فى زورق من اللذات الطاهرة الجميلة !! ؛ تحف به الملائكة تغنى لقلبه أناشيد المجد والخُلُود !! .

إنه سوف يسمو بروحه إلى ذلك الجو الذى يُعطِّره النُّبْل !! ؛ ويفيئه الحُب !! ؛ ويندّيه الحنان !! ؛ وتضيئه هى بسُنَّتها المُشرقة !! ؛ وتسبح فيه النجوى أنغاماً حُرَّةً تهيم وتتعانق !! .

جعلت أيامه معها تتهدل ثمارها الناضجة المغرية !! ؛ وجعل يقتطف منها حيث أراد !! ؛ وجعلت هى تغذوه كل يوم غذاءً جديداً هنيئاً يملأ روحه قُوَّةً وشباباً وعزماً !! ؛ وجعل إحساسه بسحرها وفتنتها يغلو به فى إيمانه بعبقرية أنوثتها الكاملة الجديدة !! .

أجل !!... ؛ إنها أرسلت فى دمه الحياة الجديدة !! ؛ الحياة التى تجُدِّد فكره فى أشياء الدنيا !! ؛ وتستفزه إلى فرض سلطانه على هذه الأشياء !! .

وكانت هى تُنشئ لعينيه فى كل يوم !! ؛ بل فى كل ساعة : دنيا مائجة من فنِّها البليغ الذى يُعبِّر عن ضميره تعبيراً بليغاً كبلاغة أنوثتها !! ؛ فانبثقت

فى عينيه وفى قلبه ينابيع متفجرة من الأحلام الرقيقة والأمانى الطائرة !! ؛ تلك الأمانى التى تتنهّد دائماً على قلبه بأنفاس الفجر !! .

امتلأت عيناه الحائرتان بأحلام الشباب !!... ؛ وانبعثت القوة المتلهبة بالرغبة !! ؛ فهو ينظر !! ؛ ثم يندفع إلى أمانيه يريد أن يختطف من السعادة السانحة سنوح الصيد المستطرد قبل أن تسبقه إليها أنياب الشقاء والألم والبؤس فتفترس منها وتنهش !! .

إنه يُريد أن يظفر بسعادته ليتمتّع بالحياة بعض المتاع !! ؛ ولكن يا صديقى؟!! ... ؛ إن هذه الغريزة المتحكمة فى الإنسان وفى أعماله ـ غريزة التمتع بالحياة ـ ؛ هى التى تذهب بالإنسان فى القدر مذهباً بعيداً !!... ؛ إنها هى التى تجعل الحياة لعينى كل حيٍّ !! ؛ ولكنها هى هى نفسها التى تُعمى المُحِبَّ !! ؛ فلا يُبصر تلك القوة السحيقة التى فغرت له أشداقها وأحدّت أنيابها !! ؛ فلا يزال ـ إلا أن يعصم الله ـ يتهاوى فيها ما اندفع به إليها هـواه !! .

ولكن كيف كان يملك صاحبى إرادته فى البصر ؟!! ؛ إنها كانت تعمل أبداً ـ وهو لا يستطيع أن يُدرك ـ على أن تبقى حبيبة أحلامه ولو قتلته !! ؛ نعم !! ؛ إن بعض ضحكها كان يصفق بدلالها كأن أمواج شبابها تتلاطم فيه وتزخر !! ؛ شبابها !!... ؛ شباب امرأة جميلة مُتكبِّرة مُعجبة !!... ؛ شباب أنثى تُحِب ؛ وتريد أن تبقى أبداً محبوبة يهيم فى أوديتها المسحورة من يُحِبُّها !! ؛ ومع ذلك فقد كان يجد لما يلقاه منها فرحاً فى نفسه !! ؛ ونشوةً فى روحه !! ؛

وعربدةً فى دمه !! ؛ كان كالسَّكران بحُبِّها لا يستطيع شيئاً ولا يملك إلا أن يخضع لذلك السلطان المرح الظافر المبتسم !! ؛ السلطان العنيف الذى يقبض على رُوح المُحِبِّ بحنانٍ طاغٍ من رُوح من يُحِب !! .

وعلى ذلك فإن هذا الرَّجُل المسكين ـ على عُنفه وصلابته وفحولته ـ لم يجد بُدّاً من أن يُسلم لها قياد عواطفه التى تصبو صبواتها إلى أناملها الرخيصة السَّاحرة !! .

كيف يقاوم الرَّجُل الحُبُّ ـ مهما استصعب والتوى ـ امرأة مقدسة يحِبُّها ؛ فهو يتصبَّب بروحه فى رُوحها ؟!!!

استسلم لها !! ؛ ولكنه كان يشعر بعد هذا الاستسلام أن ليس فى هذه الدنيا شىء يستطيع أن يقهر إرادته ؛ أو أن يحول بينه وبين ما يرمى إليه من أغراضه وإن بَعُدَت !! .

كان معنى خضوعه لها أنه يستطيع إذن أن يخْضع الأشياء كلها لسلطانها !! ... ؛ ما أعجب هذا الحُب !! ؛ أرأيت إلى ذلك الضِّرْسِ الفولاذىِّ الصليب المُتكبِّر من الجبل الإنسانىِّ فى صاحبى ذاك ؟!!... ؛ لقد كان يُرَى وهو يَذِلُّ لهذه الساحرة أيامه ولياليه خاشعاً مستكيناً كأنه يهودىٌّ منبوذٌ فقيرٌ فى غُربةٍ مُتوحِّشةٍ !!.

ولكن لا تخطىء معنى الذُّل فى فحوى حديثى !! ؛ أعرفه صورة أخرى من الكبرياء المأسورة فى سجن امرأة محبوبة !! .

إن إحساسه بحُبِّه لها كان ضرباً من فنِّ الرُّوح العاشقة !! .

لم يكُن يراها امرأة مجردة يحُبُّها بحرارة القلب المُلتهب بالرغبة أو بالحُب .

كلا !! ؛ كلا !! ؛ لقد كان يجدها أحياناً فى أوهام عواطفه ومدّها أُمّاً !! ؛ فهو يريد من أُمومتها المحبوبة أن تُمهِّد له فى قلبها تلك العاطفة الوتيرة الليِّنة من الحُنوّ والعطف !! .

وهو يراها مرَّةً أختاً يلتمس فى مسِّ يديها ؛ وفى نبرات صوتها : تلك العاطفة الساكنة ذات الأفياء والظلال !! ؛ عاطفة الأُخت التى تُضحِّى فى سبيل أخيها المنكوب !! .

ثم يرقى بها إحساسه !! : فينظرها أخاً مُخلصاً يشُدُّ أزره إذا انطبقت عليه قُحَمُ العيش ومتالف الحياة !! .

ثم إذا هى تارةً أخرى روح من الأُبوَّة المُسدَّدة الحازمة المصممة البليغة !! ... ؛ لا تزال تجد الرَّجُل مهما أناف به العُمُرُ وشمخ : ذلك الطفل العابس الغرير الطيَّاش !! .

وهى مع ذلك كله الصديق الذى يحُامى عنه إذا تعادت عليه الدنيا بأسرها !! ؛ الصديق الذى تبقى صداقته تطوف عليه تحرسه وترعاه !! .

أتدرى بعد هذا إلى أين تنتهى به هذه الألوان المختلفة من إحساسه بها ؟!! لقد تنتهى فى بعض ساعاته معها أن يراها أُستاذه !! ؛ فهو كأنما يجلس بين يديها ليأخذ عنها روائع الحكمة !! ؛ ويسألها عن سِرِّ الأبدية المُحجَّب بالغيب !! ؛ ويلقى عندها كل أفكاره المُعقَّدة فى الحياة !! ؛ يلتمس عند حكمتها الخالدة حَلَّ ما تعقَّد !! ؛ وأن تمنح أفكاره ذلك الهدوء الفلسفىَّ الذى

تُسبغه الحكمة العالية على سدنتها وحُفّاظها !! .

ثم سكن صاحبى !! ؛ وغشيته فترة الحديث إذا تطاول به وامتدّ !! ؛ ولكنه ما لبث أن أقبل عليّ يندفع !! :

انظر !!... ؛ انظر الآن كيف يضمحلُّ الرَّجُل !!.

هذا هو فى مَدِّ عواطفه وهى تفور وتثور بأمواجها فى الحُبِّ العنيف المُتلاطم !! ؛ ثم إذا هى تطير عن أحلامه وتنفر من مجثمها السِّحرىِّ !!... ؛ وإذا هو مُنفردٌ لا يدرى كيف كان هذا ؟!!... ؛ ولمَ ؟!!... ؛ ومن أين ؟!!... ؛ وإلى أين ؟!!

إنها ذهبت !!... ؛ وتركت الدُّنيا التى أنشأتها له مُشرقةً زاهيةً ناضرة ؟!!... فإذا هى تُطفأ !!... ؛ وتخبو !!... ؛ وتذبل !!.

إنَّ قُوَّة رُجُولته قد ذهبت تطلبها عند قبور الذِّكرى !!.

فكيف لا يضمحلُّ الرَّجُل ؟!!... ؛ كيف لا يضمحلُّ ؟!!

محمود محمد شاكر ﴿.

انتهت المقالات الموسومة بـ :

﴿ إِلَى أَيْـنَ ؟!! ﴾

.....

أَرَأَيْتَ مَا تَنْطَوِى عَلَيْهِ هَـذِهِ المَقَالات ؟!!... ؛ أَتَأَمَّلْتَهَا جَيِّداً ؛ وَاسْتَقْرَأْتَ مَا تَحْمِلُهُ هَذِهِ السُّطُورُ الشَّدِيدَةُ الحُزْنِ وَالمَرَارَةِ ؟!!... ؛ يَا رَفِيقِى !!... ؛ إِنَّمَا يَحْكِى الكَاتِبُ عَنْ نَفْسِهِ !!... ؛ وَلَكِنَّهُ لا يُصَرِّحُ ؛ وَلا يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ وَيُلَوِّحُ ... ؛ لأَنَّهُ يَرَى أَنَّ فِى ذَلِكَ مَا يَجْرَحُ كِبْرِيَاءَ الرَّجُلِ الَّذِى يَرَى لِنَفْسِهِ كَرَامَةً وَعِزَّةً !!.

أَلا قَاتَلَ اللهُ الهَوَى كَيْفَ يَقْتُلُ ؟!!
؛ وَكَيْفَ بِأَكْبَادِ المُحِبِّينَ يَفْعَلُ ؟!!
فَـلا تَعْـذِلَنِّى فِى هَـوَاىَ ؛ فَإِنَّنِى
أَرَى سَوْرَةَ الأَبْطَالِ فِى الحُبِّ تَبْطُلُ !!

لَيْسَ مِن شَكٍّ عِنْدِى فِى كَوْنِ الأَدِيبِ الشَّابِّ مَحْمُود شَاكِر هُوَ البَطَلُ الحَقِيقِيُّ لِهَذِهِ القِصَّةِ التَّرَاجِيدِيَّةِ !! ؛ بَل لا إِخَالُ أَحَداً مِن أَهْلِ الفَهْمِ اليَقِظِ يَجْهَلُ مِثْلَ هَذَا الأَمْرِ بَعْدَ وُقُوفِهِ عَلَى هَذِهِ المَقَالاتِ وَتَأَمُّلِ مَا بِهَا مِن دَلائِلٍ تُؤَكِّدُ صِحَّةَ هَذَا الرَّأْىِ الَّذِى نُصَرِّحُ بِهِ الآن .

وَقَد وَقَفْتُ عَلَى دَلِيلٍ يَعْصِفُ بِكُلِّ حُجَّةٍ تُنْكِرُ هَذَا الَّذِى ذَهَبْنَا إِلَيْهِ ؛ فَقَد كَتَبَ الدُّكْتُور عَادِل سُلَيْمَان جَمَال - وَهُوَ مِن تَلامِذَةِ الأُسْتَاذ شَاكِر ؛ وَكَانَ لَهُ بِهِ اخْتِصَاصٌ تَام - فِى المُقَدِّمَةِ الَّتِى كَتَبَهَا لِدِيوَانِ الأُسْتَاذ شَاكِر « اعْصِفِى يَا رِيَاح وَقَصَائِدُ أُخْرَى » مَا نَصُّهُ :

﴿ ثُمَّ ثَلَّثْنَا بِقَصِيدَةِ (لا تَعُودِي) ؛ وَأَنَا أَظُنُّ ظَنًّا أَشْبَهُ بِاليَقِينِ أَنَّهَا نُظِمَت بَيْنَ سَنَةِ ١٩٣٦ و١٩٤٥ ؛ فَالمُلاحَظُ أَنَّ جَمِيعَ القَصَائِدِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَمَّا أَحَسَّ بِهِ الأُسْتَاذُ مِن خِيَانَةِ المَرْأَةِ تَقَعُ بَيْنَ هَذِهِ السَّنَوَات ؛ وَحِينَ تُنْشَرُ المَقَالاتُ ـ أي (جَمْهَرَةُ المَقَالات) ـ ؛ سَيَرَى القَارِئُ ثَلاثَ مَقَالاتٍ نُشِرَت فِي مَجَلَّةِ الرِّسَالَةِ سَنَةِ ١٩٤٠ بِعُنْوَان (إِلَى أَيْن؟!!) ؛ وَفِيهَا وَصْفٌ بَالِغٌ لِمَرَارَةِ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ وَمَا تَرَكَت فِي نَفْسِهِ مِن أَلَمٍ وَحِيرَةٍ وَشَكٍّ وَعَذَاب !!. ﴾. أهـ (١) .

ثُمَّ قَالَ فِي [صـ : ٦٠] :

﴿ كَتَبَ الأُسْتَاذ شَاكِر ثَلاثَ مَقَالاتٍ مُتَتَابِعَةٍ بِعُنْوَان (إِلَى أَيْن؟!!) فِي مَجَلَّةِ الرِّسَالَةِ سَنَةِ ١٩٤٠ ؛ أَدَارَ فِي هَذِهِ المَقَالاتِ حِوَارًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبٍ لَهُ عَن صَدِيقٍ ؛ وَلا تَكَاد تَمْضِي فِي قِرَاءَةِ المَقَالاتِ ؛ حَتَّى تُدْرِكَ أَنَّ (الصَّدِيق) الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ الأُسْتَاذ شَاكِر : هُوَ الأُسْتَاذ شَاكِر نَفْسُهُ وَلا أَحَدٌ سِوَاه !! . ﴾ .أهـ .

ثُمَّ قَالَ فِي [صـ : ٦١ ـ ٦٢] :

﴿ وَأُرَجِّحُ أَنَّ عَلاقَةَ الحُبِّ هَذِهِ نَشَأَت سَنَةَ ١٩٣٤ أو أَوَائِلَ ١٩٣٥ ؛ فَأَوَّلُ مَقْطُوعَةٍ نَشَرَهَا لِلدِّلالَةِ عَن هَذِهِ العَلاقَةِ كَانَت فِي مَجَلَّةِ (المُقْتَطَف) عَدَدِ يَنَايِر ١٩٣٦ ؛ وَعُنْوَانُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا قَد مَضَت وَانْتَهَت ؛ فَهُوَ سَمَّاهَا (نَفْثَةٌ

---

(١) ـ [صـ : ٦] ؛ طَبْعَة : مَطْبَعَةُ المَدَنِيِّ ؛ المُؤَسَّسَةُ السُّعُودِيَّةُ بِمِصْر = دَارُ المَدَنِيِّ بِجُدَّة ؛ الطَّبْعَةُ الأُولَى : ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١ م .

قَدِيمَةٌ) ؛ وَرَغْمَ هَذَا (القِدَم) فَلا يَزَالُ يَذْكُرُهَا وَلا يَزَالُ يَأْلَمُ !! ؛ وَسَوْفَ نَرَى مِن خِلالِ شِعْرِهِ كُلِّهِ : أَنَّهُ بِقَدْرِ مَا ثَارَ وَتَمَرَّدَ عَلَى هَذِهِ الحَبِيبَةِ القَاسِيَةِ ؛ فَمَا بَرِحَ يَرْسُفُ فِي قُيُودِ هَذَا الحُبِّ أَسِيراً عَانِياً !!.

يَقُولُ فِي (نَفْثَةٌ قَدِيمَةٌ) :

ذَكَرْتُكِ بَيْنَ ثَنَايَا السُّطُورِ
وَأَضْمَرْتُ قَلْبِي بَيْنَ الكَلِمْ
وَلَسْتُ أَبُوحُ بِمَا قَد كَتَمْتُ
وَلَوْ حَزَّ فِي النَّفْسِ حَدُّ الأَلَمْ
تُمَزِّقُنِي مَا حَيِيتُ المُنَى .....
..... ؛ فَأَرْقَعُ مَا مَزَّقَت بِالظُّلَمْ
فَكَم كَتَمَ اللَّيْلُ مِن سِرِّنَا ... ؛
وَفِي اللَّيْلِ أَسْرَارُ مَن قَد كَتَمْ
تَشَابَهَ فِي كَتْمِ مَا نَسْتَسِرُّ .... ؛
سَوَادُ الدُّجَى ؛ وَسَوَادُ القَلَمْ » اهـ .

.....

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ !!... ؛ فَقَد قَهَرَ مَحْمُود شَاكِر فِي قِصَّةِ حُبِّهِ هَذِهِ قَهْراً لَيْسَ وَرَاءَهُ مِن سَبِيل !!... ؛ فَاضَت نَفْسُهُ بِكُلِّ آيَاتِ الشَّجَنِ وَالحُزْنِ وَالحَسْرَةِ !!... ؛ شَعَرَ بِانْكِسَارِ نَفْسِهِ وَضَيَاعِهَا !!... ؛ تَلاشَت إِرَادَتُهُ !!... ؛ خَارَت قُوَاهُ إِلَى الذُّرْوَةِ وَالغَايَةِ !!... ؛ فَأَخَذَ يُخَاطِبُهَا فِي ذُلٍّ وَضَرَاعَةٍ

بِقَوْلِهِ:

اذْكُرِي قَلْبِي؛ فَقَدْ يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِي
أَنَا غُصْنٌ فِي رِيَاضِ الدَّهْرِ ظَمْآنُ الصَّعِيدِ
صَوَّحَتْنِي غُلَّةُ الوَجْدِ وَأَجَّت فِي بُرُودِي
وَمَشَت نَاراً عَلَى أَنْوَارِ زَهْرِي وَوُرُودِي
فَهِيَ أَلْقَاءٌ عَلَى أَرْضِيَ آثَارُ وَقُودِ!!

فَاذْكُرِي قَلْبِي؛ فَقَدْ يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِي

أَنَا غُصْنٌ كَخَيَالِ السَّيْفِ فِي وَهْمِ الطَّرِيدِ
نَاحِلُ الشَّخْصِ؛ قَضِيفُ العُودِ؛ خُمْصَانُ الغُمُودِ (١).
لَوَّحَتْنِي وَقْدَةُ الشَّمْسِ عَلَى وَجْهِي وَجِيدِي
كَم شُعَاعٍ غَارَ فِي قَلْبِيَ كَالسَّهْمِ السَّدِيدِ
عَبَّ فِي مَائِي!! فَغَاضَ المَاءُ كَالحُبِّ الشَّرُودِ

فَاذْكُرِي قَلْبِي؛ فَقَدْ يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِي

أَنَا غُصْنٌ شَاخِصُ الطَّرْفِ إِلَى رِيٍّ بَعِيدِ
أَسَرَابٌ هُوَ أَم مَاءٌ ؟! فَيَا وَيْحَ جُدُودِي

---

(١) ـ القَضِيف: الدَّقِيقُ العَظْم؛ القَلِيلُ اللَّحْم؛ فَهُوَ نَحِيفُ الجَسَد؛ والخُمْصَان: الضَّامِر
و ـ الغُمُود: جَمْعُ غِمْد؛ أي غِمْدُ السَّيْف.

أَثْبَتَتْنِى ؛ حَيْثُ أَشْتَاقُ إِلَى المَاءِ البَرُودِ(١)
هِيَ أَشْوَاقٌ مِنَ المَوْتِ كَأَشْوَاقِ الحَسُودِ
تَرَكَتْنِى مُوقَدَ الغُلَّةِ كَالصَّبِّ الحَقُودِ

فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى

أَنَا غُصْنٌ حَائِرُ الأَحْلامِ كَالنَّائِى الشَّرِيدِ
غُرْبَةُ الرُّوحِ تَهَاوَت بِى إِلَى أَرْضِ الجُحُودِ
قَذَفَتْنِى هِمَّةُ الأَحْرَارِ فِى ذُلِّ العَبِيدِ
الصَّدَى ؛ وَالجَدْبُ ؛ وَالغُرْبَةُ !! سَجْنِى وَقُيُودِى
مَزَّقَت نُضْرَةَ أَيَّامِى بِأَنْيَابِ الخُمُودِ !!

فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى

أَنَا غُصْنٌ يُفْزِعُ الفَجْرَ بِلَيْلٍ مِن رُكُودِ
يَتَلَقَّى مَوْلِدَ الشَّمْسِ بِأَحْزَانٍ هُجُودِ
لَو بَكَى عُودٌ مِنَ الوَحْشَةِ فِى ذُلِّ الوجُودِ
لأَذَابَت شَخْصِىَ الآلامُ كَالدَّمْعِ البَدِيدِ
أَنْكَرَتْنِى الشَّمْسُ وَالفَجْرُ وَدُولاتُ العُهُودِ

فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى

---

(١) - أَثْبَتَتْنِى جِرَاحِى : اشْتَدَّت إِلَى الغَايَةِ ؛ فَأَعْجَزَتْنِى عَنِ الحِرَاك.

أَنَا غُصْنٌ فَارَقَتْهُ الطَّيْرُ رَبَّاتُ العُقُودِ
مُسْكِرَاتُ الزَّهْرِ وَالنُّورِ بِأَلْحَانِ النَّشِيدِ
نَغَمٌ ؛ هَمْسٌ !! كَهَمْسِ الغَيْثِ لِلرَّوْضِ المَجُودِ
وَشَبَابٌ ضَاحِكُ النُّورِ بِتَرْجِيعٍ فَرِيدِ
وَأَنَا !! الحَسْرَةُ وَالأَنَّاتُ لَحْنِى وَنَشِيدِى
فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَدْ يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى
غُصُنٌ عَارٍ !! ؛ وَأَغْصَانُكِ فِى بُرْدٍ جَدِيدِ
قَدْ كَسَاكِ الرِّىُّ وَالنِّعْمَةُ مِن وَشْىِ البُرُودِ
وَتَحَلَّى عُودُكِ الرَّيَّانُ نُوَّارَ الخُدُودِ
فَإِذَا النَّشْوَةُ هَزَّتْكِ بِأَنْفَاسِى ؛ فَمِيدِى
وَإِذَا غَنَّاكِ سَاقِى الطَّيْرِ لَحْنِى أَو قَصِيدِى
فَاذْكُرِى قَلْبِى ؛ فَقَد يَنْضُرُ مِن ذِكْرَاكِ عُودِى

.....

وَلَكِنَّهَا لا تَرِقُّ وَلا تَلِينِ !! ؛ فَقَد كَانَت تَنْظُرُ إِلَى الأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ مَحْضُ تَجْرِبَةٍ مَا أَقْنَعَتْهَا ؛ فَمَرَّرَتْهَا وَتَرَكَتْهَا !! ؛ لَم تَعْبَأْ بِالأَمْرِ وَكَأَنَّهُ مَا كَان !! ؛ وَأَمَّا هُوَ فَقَد سُلِبَ عَقْلُهُ وَضَلَّت رُوحُهُ فَهُوَ يَحْيَا بَيْنَ الإِنْكَارِ وَالإِيمَان ؛ الإِيمَانُ بِأَنَّهَا قَد هَجَرَت !! ؛ وَإِنْكَارُ هَذَا الإِيمَانِ اللَّعِين !! ؛ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى نَفْسِهِ وَقَد اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ أَنَّهَا رَاحِلَةٌ لا مَحَالَة !! ؛ بَل هِيَ قَد رَحَلَت بِلا حُزْنٍ أَو أَسَفٍ

وَخَلَّتْهُ وَحِيداً !! ؛ وَقَالَت لَهُ : عَالِج جِرَاحَكَ يَا فَتَى !! ؛ وَلَكِن كَيْف ؟!! ؛ وَأنَّى يَكُونُ ذَلِك ؟!! ؛ إِنَّهَا جِرَاحٌ تُعْجِزُ أَرْبَابَ الطِّبِّ وَصَنَادِيدَهُ !! ؛ إِنَّهَا أَدْوَاءٌ لَيْسَ فِى طَاقَةِ بَشَرِىٍّ أن يَظْفَرَ لَهَا بِدَوَاءٍ نَاجِعٍ !! ؛ الكَرَامَةُ الَّتِى أُهِينَت !! ؛ الإِرَادَةُ الَّتِى رَضَخَت وَذَلَّت !! ؛ وَالمَشَاعِرُ الَّتِى دَاسَتْهَا أَقْدَامُ مَن سَكَنَت حِصْنَ الفُؤَادِ الَّذِى كَانَ بِالأَمْسِ كَالجُلْمُودِ الَّذِى لا يَتَحَرَّكُ وَلا يَتَخَشَّعُ مِن فَرْطِ الكِبْرِيَاء !!.

بَلَى!! ؛ كُنتَ فِى قَلْبِى سِرَاجاً يُضِيئُهُ
.... ؛ فَيَفْتَرُّ عَن أَنْوَارِهِ كُلُّ جَانِبِ
وَكُنْتَ حَيَاةً لِلحَيَاةِ تُمِدُّهَا......
.... ؛ بَأَفْرَاحِهَا فِى عَابِسَاتِ المَصَائِبِ
وَكُنْتَ لِىَ البَرَّ الوَدِيعَ إِذَا غَلَت......
بَأَمْوَاجِهَا .... ؛ وَادَّافَعَت بِالمَنَاكِبِ
وَكُنْتَ نَسِيماً وَاللَّظَى يَنْشِفُ اللَّظَى
.... ؛ وَيَتْرُكُ ظِلَّ الدَّوْحِ ظِلَّ اللَّوَاهِبِ
وَكُنْتَ مَلاذِى وَالشُّؤُونُ كَأَنَّهَا......
.... ؛ مِن الدَّمْعِ يُنْبُوعٌ يَجِيشُ بِغَارِبِ
وَكُنْتَ إِذَا مَا العَيْنُ مَدَّت هُيَامَهَا.....
إِلَيْكَ......... ؛ تَلَقَّتْهَا أَحَنُّ التَّرَائِبِ

وَكُنْتِ كَأَنْفَاسِ الرِّيَاضِ ؛ عَبِيرُهَا....

.... ؛ عَلَى الفَاقِدِ المَحْزُونِ فَرْحَةُ آيِبِ

بَلَى كُنْتِ ؛ كُنْتِ السِّحْرَ تَبْدُو صُدُورُهُ

مِنَ الخَيْرِ تُخْفِي مِنْهُ شَرَّ العَوَاقِبِ

أَرَى الحَيَّةَ الرَّقْطَاءَ أَجْمَلَ مَنْظَراً......

...... ؛ وَأَلْيَنَ مَسَّاً مِن ثُدِيٍّ الكَوَاعِبِ

إِذَا مَا تَرَاءَتْهَا العُيُونُ بَرِيئَةً..........

مِنَ الخَوْفِ..... ؛ خَالَتْهَا دُعَابَةَ لاعِبِ

تَدَانَى إِلَى اللاَّهِي دُنُوَّ مُقَارِبٍ.......

فَيَدْنُو........ ؛ وَيُدْنِي كَفَّهُ كَالمُلاعِبِ

أَلا ارْفَعْ يَداً ؛ وَاذْهَبْ بِنَفْسِكَ رَهْبَةً

.... ؛ فَمِن حُسْنِهَا نَابٌ شَدِيدُ المَعَاطِبِ

بَلَى كُنْتِ ؛ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ.....

.... ؛ وَإِذ أَتَرَدَّى مِن سَوَادِ الغَيَاهِبِ

وَأُخْرَى عَلَى عَيْنِ البَصِيرَةِ خَيَّلَت

.... ؛ لِنَفْسِي هُدَاهَا بِالأَمَانِي الكَوَاذِبِ

أُرَى مِن تَكَاذِيبِ الخَيَالِ كَأَنَّنِي

... ؛ إِلَى جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ أَحْدُو رَكَائِبِي

أُغَنِّى لآمَالِى لأَبْلُغَ غَايَتِى..........

.... ؛ وَأُدْرِكَ لَذَّاتِى ؛ وَأَجْنِى مَطَالِبِى

وَمَا ذَاكَ إِلاَّ رَاحَةُ القَلْبِ بِالهَوَى

وَبِالودُّ فِى عَيْشٍ شَدِيدِ المَتَاعِبِ

وَأَن أَرِدَ المَاءَ الزُّلالَ ـ وَلَم أَرِد.........

وَقَد عِشْتُ دَهْراً ـ غَيْرَ رَنْقِ المَشَارِبِ

أَلا فَاعْلَمِى أَنّى ظَمِئْتُ ؛ وَأَنّنِى.......

... ؛ تَجَنّبْتُ جَهْدِى المَاءَ جَمَّ الشَّوَائِبِ

فَجِئْتُكِ ظَمْآناً يَمُوتُ بِغُلَّةٍ..........

فَأَغْرَيْتِ بِى الغُلاّتِ مِن كُلِّ جَانِبِ

لَقَد كُنْتُ خِلْواً أَنْتَحِى حَيْثُ أَشْتَهِى

.... ؛ وَأَرْضَى وَآبَى ؛ مُقْدِماً غَيْرَ هَائِبِ

تُسَهِّلُ لِى الصَّعْبَ الأَبِىَّ عَزِيمَتِى......

..... ؛ وَيَكْفُلُ لِى صِدْقِى قَضَاءَ مَآرِبِى

وَأَرْمِى بِنَفْسِى فِى المَهَالِكِ بَاسِماً......

.... ؛ لأَنْفُذَ مِنْهَا بَاسِماً غَيْرَ خَائِبِ

فَوَاحَزَنَاً ؛ أَضْلَلْتُ عَزْمِى وَهِمَّتِى......

... ؛ وَأَيْتَمْتُ أَفْكَارِى ؛ وَضَيَّعْتُ وَاجِبِى

تَخَشَّعْتُ تَحْتَ الحُبِّ وَالوَجْدِ وَالجَوَى
وَطُولِ اضْطِرَابِى فِى الهُمُومِ الغَوَالِبِ
أَذَلَّ شَبَابِى الحُبُّ حَتَّى رَأَيْتَنِى.........
.... ؛ أَمُرُّ بِأَتْرَابِى مُرُورَ المُجَانِبِ
وَأَحْسُدُهُم مِمَّا لَقِيتُ ؛ وَإِنَّنِى.........
.... ؛ لأَخْشَى عَلَيْهِم مِحْنَتِى وَتَجَارِبِى

❁❁❁❁❁

رَغْمَ حِدَّةِ المَوْقِفِ وَشَرَاسَتِهِ !!... ؛ المَوْقِفُ الَّذِى مَا مَرَّ أَبَدَاً عَلَى الأَدِيبِ الشَّاب !!... ؛ أن يُحِبَّ بِهَذِهِ القُوَّةِ الرَّهِيبَةِ !!... ؛ ثُمَّ يُنْبَذُ بِهَذَا الأُسْلُوبِ المُتَكَبِّرِ النَّاظِرِ إِلَى الأَدِيبِ بِعَيْنِ الاسْتِخْفَافِ وَالاحْتِقَار !!... ؛ رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ حَاوَلَ مَحْمُود شَاكِر جَاهِدَاً أَن يُوصِلَ إِلَى فَتَاتِهِ الحَسْنَاء : كَيْفَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا !! ... ؛ كَيْفَ يَعْشَقُهَا !!... ؛ مَاذَا تُمَثِّلُ لَهُ !!... ؛ إِنَّهَا فِى مَرْتَبَةِ القَدَاسَةِ عِنْدَهُ !! ... ؛ تِلْكَ المَرْتَبَةُ الَّتِى مَا بَعْدَهَا مِن مَحِلٍّ يُرْتَقَى !!... ؛ وَمَعَ كُلِّ ذَلِك ؟!!... ؛ مَا تَغَيَّرَ الأَمْر !!... ؛ بَل كَانَت زِيَادَةُ الرَّجَاءِ سَبَبَاً فِى زِيَادَةِ دَرَجَةِ الاسْتِخْفَافِ وَالهُزْءِ !!... ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِأَثَرِ انْعِكَاسِ ذَلِكَ عَلَى الأَدِيبِ الشَّامِخِ المُهَاب ؟!! ... ؛ الَّذِى نَظَرَت إِلَيْهِ كَافَّةُ الأَوْسَاطِ الأَدَبِيَّةِ فِى العَالَمِ العَرَبِىِّ ؛ بَل وَفِى المَهْجَرِ الأَمْرِيكِىِّ ـ نَظْرَةَ احْتِرَامٍ بَالِغٍ وَتَقْدِيرٍ عَظِيمٍ ؟!!... ؛ مَا هُوَ ظَنُّكَ بِهِ وَالحَالَةُ هَذِهِ ؟!!... : شَعُرَ بِغِيَابِ ذَاتِهِ !!... ؛ وَأَنَّهُ رَغْمَ مَا قَد صَنَعَ فِى مَيْدَانِهِ

بَيْنَ أَعْلامِ الرِّجَالِ لا يَسْوِى دِينَاراً وَلا دِرْهَماً وَلا دَانِقاً !!... ؛ وَكَذَلِكَ نُفُوسُ الأَحْرَارِ النُّبَلاءِ حِينَ تُهْتَضَمُ وَتُوقِنُ بِأَنَّهَا هِيَ مَن صَنَعَت ذَلِكَ وَوَطَّأَت لَهُ وَمَهَّدَت إِلَيْهِ !!... ؛ وَكَانَ الشُّعُورُ الرَّهِيب ؟!!... : بِالانْكِسَار !!.

.....

وَفِى حَوْمَةِ الصِّرَاعِ العَنِيف !!... ؛ وَفِى ظِلِّ كَآبَاتِ اليَأْسِ وَالقُنُوط !!... : انْتَصَرَ الشَّيْطَانُ فِى هَذِهِ المَعْرَكَة !!... ؛ قَطَعَ الأَدِيبُ شُرْيَانَ يَدِهِ !!... ؛ أَخَذَ يَقْتَرِبُ مِن المَوْتِ رُوَيْداً رُوَيْداً !!... ؛ وَهَكَذَا اسْتَسْلَمَ الأَدِيبُ المُؤْمِنُ وَالكَاتِبُ صَاحِبُ القَنَاةِ الَّتِى لا تَلِين !!... : اسْتَسْلَمَ لِنِدَاءِ الشَّيْطَانِ ؛ فَكَفَرَ بِرَحْمَةِ اللهِ فِى سَاعَةٍ مِن سَاعَاتِ غِيَابِ النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ بِالإِيمَان !!... ؛ ثُمَّ أَخَذَت رُوحُهُ تَتَّجِهُ إِلَى جَهَنَّم !!... ؛ وَفِى لَحْظَةٍ مَا كَانَت تُنْتَظَر ؟!!... : جَاءَت صَرْخَةٌ مُدَوِّيَةٌ ؟!!... ؛ رَأَتْهُ صَاحِبَتُهَا وَهُوَ فِى هَذِهِ السَّاعَةِ المَأْسَاوِيَّةِ !!... ؛ فَأَلْهِمَت طَلَبَ الغَوْثِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ !!... ؛ أَلْهَمَهَا الرَّحْمَنُ سُبْحَانَهُ بِلُطْفِهِ كَى تُحْفَظَ حَيَاةُ الأَدِيبِ المُؤْمِنِ الَّذِى امْتَلأَ قَلْبُهُ قُرْآناً وَسُنَّةً وَحُبّاً لِشَرْعِ اللهِ ـ جَلَّ شَأْنُهُ ـ ؛ وَجَاءَ النَّاسُ يُهْرَعُونَ مِن كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْب !!... ؛ وَأُنْقِذَ الفَتَى !! ... ؛ وَلَكِن ؟!!...

تَبْقَى ثَمَرَةُ التَّجْرِبَةِ فِى نَفْسِهِ بِكُلِّ تَوَابِعِهَا !!... : حَالَةُ الخُضُوعِ وَالذُّلِّ الَّتِى عَاشَهَا فِى إِبَّانِ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ !!... ؛ مُعَانَاتُهُ الدَّائِمَةُ المُسْتَمِرَّةُ مِن جَرَّاءِ تَخَلِّيهِ فِى لَحْظَةِ اليَأْسِ اللَّعِينَةِ عَن عَقِيدَتِهِ !!... ؛ وَعَن إِرَادَتِهِ !!... ؛ ثُمَّ مَا أَحْدَثَهُ

الأَثَرُ النَّاتِجُ عَنْ نَشْرِ حَادِثَةِ انْتِحَارِهِ فِى جَرِيدَةٍ عَظِيمَةِ الانْتِشَارِ بِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ !!... ؛ وَوُصُولِ الخَبَرِ إِلَى كَافَّةِ الأَوْسَاطِ الأَدَبِيَّةِ بِمِصْرَ وَبِخَارِجِ مِصْرَ !!... ؛ مَا أَحْدَثَهُ هَذَا الأَمْرُ بِنَفْسِهِ مِن اشْتِعَالِ جُذْوَةِ المَرَارَةِ وَالحُزْنِ وَالحَسْرَةِ !!... ؛ وُضِعَ فِى مَوْقِفٍ جَلَل !!... ؛ الأَدِيبُ النِّحْرِيرُ المِغْوَارُ الَّذِى صَرَعَ الصَّنَادِيدَ مِن خُصُومِهِ بِقَلَمِهِ وَلِسَانِهِ !!... : يُحَاوِلُ قَتْلَ نَفْسِهِ مِن أَجْلِ فَتَاةٍ أَحَبَّهَا فَقَابَلَت حُبَّهُ بِالسُّخْرِيَةِ !!... ؛ وَوَاجَهَت عِشْقَهُ بِالهُزْءِ وَالاحْتِقَار !!... ؛ وَهَكَذَا عَاشَ مَحْمُود شَاكِر بَيْنَ هَذَا المُثَلَّثِ المُفْزِع :

« الذُّل !!..... الانْتِحَار !!..... الشَّفَقَة !! »

❁❁❁❁❁ ❁❁❁❁❁ ❁❁❁❁❁

« المَصَائِبُ حِينَمَا تَأْتِى لا تَأْتِى فُرَادَى !!
بَل تَهْجُمُ كَسَرَايَا الجَيْشِ وكَتَائِبِهِ »

نِزَار شَاهِين

❁❁❁❁❁ ❁❁❁❁❁ ❁❁❁❁❁

.....

وَصَلَ الخَبَرُ إِلَى صَدِيقِهِ الفَاضِلِ البَارِّ الكَرِيم ؛ طَارَ الخَبَرُ إِلَى مَوْطِنِ أَدِيبِ العَرَبِيَّةِ الأُسْتَاذ مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيُّ !!.

يَقُول مُحَمَّد سَعِيد العُرْيَان فِي كِتَابِهِ :

﴿ حَيَاة الرَّافِعِيُّ ﴾

- [٢٨٠ - ٢٨٢] -

﴿

ثُمَّ وقعت حادثةٌ اهتزّت لها نفسُ الرّافعيِّ اهتزازاً عنيفاً ونقلتهُ من حالٍ إلى حال !!.

جلستُ يوماً إليهِ نتحدّث من أحاديثنا ؛ فقال :

« إنَّ صديقنا الأستاذ (م) لم يكتُب إلينا من زمان !! ؛ ليْتَ شِعْرِي ما منعهُ عنّا ؟!! ؛ إن بي قلقاً عليهِ ؟!! ؛ وفي نفسي أن أراهُ أو أعرف من خبره !! . » .

وفي صبيحة اليوم التالي طالعتنا الأهرام بخبرٍ غامض !! :

« ... أنّ شابّاً من الأدباء ؛ هو ابن شيخ كبير من شُيُوخ الأزهر : قد حاول الانتحار بقطع شُريان في يده !! » .

وقرأ الرافعيُّ الخبر ؛ فاربدَّ وجهه !! ؛ وانفعلت نفسهُ !! ؛ وقال :

« اقرأ !! ؛ إنّهُ هو » .

قُلْتُ : من تعني ؟!!

قَالَ: «صديقُنا (م) !! ؛ لقد غلبهُ شيطانهُ على دينهِ آخر الأمر !! ... ؛ غَفَرَ اللهُ لهُ !! »).

فجزعتُ !! ؛ وطارت نفسي !! ؛ وقُلتُ لهُ وأكادُ أُغَصُّ بريقي: (م) ؟!! ؛ إنَّكَ لتتوهَّم !! ؛ وإنَّك مما تُفكِّرُ في شأنهِ ليُخيَّلُ إليك !! ؛ إنَّ لصديقنا ديناً !! ؛ وإنَّ فيه تحرُّجاً وخشية !! ؛ وما أراهُ في أيِّ أحوالهِ يُقدم على مثل هذه الجريمة !!.

ولكن الرافعيَّ لم يلتفت إلى ما أقُول !! ؛ وأخذ يُحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشَّيْطَان !!.

ثُمَّ مَدَّ يدهُ إلى مكتبهِ ؛ فكتب رسالة إلى (م): يسأل عن حالهِ وخبرهِ ويرجُو لهُ العافية في دينهِ ودُنياه ؛ ثُمَّ يطلبُ إليهِ أن يصف لهُ ما كان منهُ وما حملهُ عليهِ وما آلَ إليهِ أمرهُ !! ؛ ولم ينس مع كُلِّ أُولئك !! ؛ ومع ما تفيضُ بهِ نفسهُ من الحُزْنِ والألم أن يرجُوه الدِّقَّة في وصف المرحلة التي كان فيها بين الحياةِ والموت !! ؛ فإنها المرحلة التي لا يُحْسِن أن يصفها إِلاَّ من أحَسَّ بها !!.

.....

وصديقنا ـ والكلام للأُستاذ محمد سعيد ـ الأُستاذ (م): أديبٌ واسع المعرفة ؛ لهُ دينٌ ومُروءة ؛ وفيهِ تحرُّجٌ وخشية ؛ وقد نشأ في بيتٍ لهُ ماضٍ في الدعوة إلى الإسلام والدِّفاع عنه والذَّوْدِ عن حُرُماته ؛ وهو شابٌّ

عزب؛ بعيد الخيال؛ دقيق الحِس؛ مُرهف الأعصاب؛ وعلى أنَّهُ يعيشُ فى ظِلٍّ وارفٍ ونعمةٍ سابغةٍ؛ فإنه من سِعَةِ خياله وَدِقَّةِ حِسِّهِ وَحِدَّةِ أعصابِهِ مُتشائم النظرة !!؛ لا تراهُ إلاَّ رأيتَ فى وجهه وعلى طرفِ لسانهِ معنىً دفيناً من معانى الألم !!؛ وما يرى نفسهُ فى أكثر أحوالهِ إلاَّ غريباً فى هذا العالم وبين هذا النَّاس !!؛ فإنَّ لهُ من خياله دُنيا غير دُنيا النَّاس !!؛ وعالماً غير هذا العالم !!؛ يتمثَّلُ فيه المثل الأعلى الذى أعياهُ أن يبلغهُ على هذه الأرض !!؛ وكان بينهُ وبين الرافعىِّ وُدٌّ؛ ولهُ فى نفسهِ مكان؛ فكان لهُ سِرَّهُ ونجواه مُنْذُ كان فتىً يافعاً لم يبلُغ العشرين؛ وكان الرافعىُّ يعتدُّ بصداقتهِ؛ وَيُقِرُّ لهُ؛ ويُعْجبُ بدينهِ وتقواه؛ ويتوقَّع لهُ مُستقبلاً مجيداً بين المُجاهدين من أهل الأدبِ ودُعاة الإسلام.

فلمَّا بلغ الرَّافعىُّ نبأ شُرُوعهِ فى الانتحار !!؛ جَزِعَ!!؛ وتطيَّرَ !!؛ وضاقت نفسهُ !!؛ ونالهُ من الهَمِّ مالم ينلهُ لحادثةٍ مما لقىَ من دُنياه !!؛ فمن أجل هذه الحادثة أنشأ مقالات «الانتحار».

ولم يكُن الرَّافعىُّ يعلم من أحوالِ صاحبنا ما دفعهُ إلى هذه المُحاولة الطائشة !!؛ فأخذ يتكهَّن وينتحل الأسباب ليبنى عليها الحديث والقصَّة؛ فما جاء جواب الأستاذ (م) إلاَّ بعد المقالة الثالثة؛ فأخذ من هذا الجواب مادَّة الجُزء الرَّابع من هذه المقالات؛ وجعلَ الحديث فى هذا الجُزء على لسانِ « أبى مُحمَّد البصرىِّ »؛ وهو يعنى به الأستاذ (م)؛ فهو هو؛ وكلامه كلامه فى جُملته ومعناه؛ لم يُغيِّر منهُ الرافعىُّ إلاَّ قليلاً من قليل؛ فما يَدُلُّ

على حالةِ صاحبنا إلاّ المقالةُ الرّابعة من هذه المقالات السّت ؛ أمّا ما عداها مما سبق أو لحق ؛ فهي قصص مُفتعلة من وحي هذه الحادثة في نفسهِ . ﷺ .أهـ .

.....

ـ المَقَالَةُ الرَّابِعَة:

الانتحــار

ـ ﴿ ٤ ﴾ ـ

قال المُسيِّب بن رافع :

وَمَدَّ الإمام عينه وقد رُفِعَ له شخص من المجلس ؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلَّع إلى عجيبةٍ كالحقِّ إذا بطل !! ؛ والصدق إذا كذب !! ؛ ثم رَدَّ بصره عليَّ كأنه يُعَجِّبُنِي من عجبه !! ؛ ثم سجا طرفه كأنما أنكر رأى عينيه فهو يلتمس رأى قلبه !! .

وتبيَّنت فى وجهه انقباضاً خَيَّلَ إلىَّ أن الشيطان جاءه بهذا الرَّجُل يُفحمه به يُريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمَّس فى دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لا غنى عنه فى إنشاء قصَّة كُفر !! .

هذا هو ضيفنا : أبو محمد البصرىُّ !! ؛ يتخوَّض الناس ليجىء فيحدثنا حديثه فى قتل نفسه والإثم بريِّه !! ؛ فلو قيل لى : إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً

وأقذاراً ؛ لكان هذا كهذا فى تعاظمه وإنكاره والعجب منه !! ؛ فأبو محمد من الرجال الحُمْسِ الذين لو كفر أحدهم ثم قيل : « إنه كفر » لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعتها !! ؛ كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تألّى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون ؛ فلا يبقى فى أرض ولا سماء ؛ ولا تناله يد الله !! .

إن فى لفظ الكُفر مع ذاك ؛ وفى لفظ الجنون مع هذا ؛ شيئاً من نفاق العقل وتأدُّبه فى أداء المعنى الأخرق الذى لا يشبهه جُنُون ولا كُفْر !! .

ونعوذ بالله من خذلانه !! ؛ فلقد يكون الرجل المؤمن فى تشدُّده وإيغاله فى الدين كالذى يصنع حبلاً يفتله فتلاً شديداً فيُمِرُّهُ على طاق بعد طاق ليكون أشد له وأقوى ؛ ثم يجاذبه الشيطان حبله ؛ فإذا هو كان فى الوهن مثل العنكبوت اتخذت بيتاً فى سقف حدّاد ؛ فرأته يصب الحديد المصهور يجعله سلسلة حلقة فى حلقة ، فذهبت تحكيه وترسل من لعابها خيطاً فى خيط تزعمه سلسلة !! .

إن مع كل مؤمن شيطانه يتربص به ، فلهذا ينبغى للمؤمن أن يكون فى كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ، فهو أبداً مُحترسٌ مُتهيئٌ مُتجدِّدُ الحواس مرهفها يستقبل بها الدنيا جديدة على نفسه بين الفترة والفترة ، ومن هذا حكمة أن يؤذن المؤذن وأن تقام الصلاة مراراً فى اليوم ، فكلما بدأ وقت قال المؤمن : الآن أبدأ إيمانى أطهر ما كان وأقوى .

وقال الإمام : هيه يا أبا محمد !!

فقال البصرىُّ وقد رأى الكراهة فى وجه الإمام: لا يُفزعنّك أيُّها الشيخ !! ؛ فإن الله تعالى قد يجعل ما يُحِبُّهُ هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغة فتجرى على ألفاظنا ؛ وقد نُسمّى النازلة تنزل بنا خساراً وهى ربح !! ؛ أو نقول مصيبة جاءت لتبديل الحياة، ولا تكون إلا طريقة تيسّرت لتبديل الفكر !! .

إنما لُغة القدر فى شىء هى حقيقة هذا الشىء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأين من حادثةٍ لا تصيب امرأ فى نفسه إلا لتقع بها الحرب بين هذه النفس وبين غرائزها، فتكون أعمال الطبيعة المعادية أسباباً فى أعمال العقل المنتصر !! .

وكثير من هذا البلاء الذى يقضى على الإنسان، لا يكون إلا وسائل من القدر يرد بها الإنسان إلى عالم فكره الخاص به ؛ فإن هذه الدنيا عالم واحد لكل من فيها، ولكن دائرة الفكر والنفس هى لصاحبها عالمه وحده .

والسعيد من قَرَّ فى عالمه هذا ؛ واستطاع أن يحكم فيه كالملك فى مملكته ؛ نافذ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقىُّ من لا يزال ضائعاً بين عوالم الناس، ينظر إلى هذا الغنىِّ، وإلى ذاك المجدود، وإلى ذلك المُوفَّق ؛ وهو فى كل هذا كالأجنبىِّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله !! ؛ إذ كل شىء يصبح أجنبيّاً عن الإنسان مادام هو أجنبيّاً عن نفسه !! .

لقد كنت ضالاً عن نفسى وعالمها ؛ فكنت فى هذه الدنيا أستشعر شعور اللص، أشياؤه هى أشياء الناس جميعاً !! ؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعينى شاعرٍ مُتحبّبٍ كَلِفٍ، وهى تنظر إليه بعينى مُقاتلٍ مُتربّصٍ حَذِرٍ !! .

كنت والله إن ضقت بالناس أو وسعتهم ؛ رأيت فى ذلك معنىً من ضيق اللص وسعته ؛ هو على أىِّ حاليه لا ينظر فى أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلل فى خشية وحذر !! .

وكنت نَزِقاً !! ؛ حديد الطبع !! ؛ سريع البادرة !! ؛ ومن فقد عالم نفسه وكان فى مثل اللص الذى ذكرت ؛ فإن هذه الطباع تكون هى أسلحته يدفع بها أو يعتدى !! .

وما قط تمكّن إنسان من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرفه ؛ إلا كان راضياً عن كل شىءٍ ؛ إذ يتصل من كل شىء بجهته السامية لا غيرها ، حتى فى اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها .

وقد يكون عدوك فى بعض الأمور عيناً لك فى رؤية نفسك ؛ ففيه بركة هذه الحاسة ونعمتها !! .

ولو نحن كنا مسلمين إسلام نَبِيِّنَا ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ ، وإسلام المقتدين به من أصحابه ؛ لأدركنا سِرَّ الكمال الإنسانىِّ ، وهو أن يَقَرَّ الإنسان فى عالم نفسه ؛ ويجعل باطنه كباطن كل شىءٍ إلهىٍّ ؛ ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمر به إلى جهة الكمال ، المرتفع به من أجل كماله عن دوافع غيره ؛ فنظر الإنسان إلى نقص غيره هو أول نقصه !! .

والمُؤمن كالغُصن ؛ إن أثمر فتلك ثمار نفسه ، وإن عطل لم يشحذ ولم يحسد واستمرَّ يعمل بقانونه .

ولقد نشأت فى مغرس كريم، على صورة من الحياة تشبه صورة الثمرة الحلوة، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومرتبتها ما تتعين به من حلاوة ونكهة ومذاق، فلما عقلت وعرفت الناس بعد فجاريتهم وخالطتهم؛ رأيتنى منهم كالتفاحة ملقاة فى البصل !! ؛ وكانت التفاحة حمقاء فزادت حمقاً !! ؛ وكانت جديدة فزادت جِدَّة، وظنت أن الحكمة قد مُسِخَت فى الدنيا وبُدِّلَت إذ خُلِقَت البصلة بعد أن خُلِقَت التفاحة !! ؛ وما علمت الخرقاء أن الكمال فى هذه الحياة مجموع نقائص !! ؛ وأن للجمال وجهين:

أحدهما الذى اسمه القُبح ؛ لا يُعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لو أدركت ما يريد الناس من معناها ومعنى التفاحة ؛ لسمَّت نفسها هى التفاحة !! ؛ وقالت عن هذه أنها هى البصلة !! .

ولَمَّا رأت تفاحتى أنها عاجزة أن تجعل الشجر كُلَّهُ فى مثل مرتبتها ومغرسها ؛ قالت: إن الأمر أكبر من طبيعتى !! ؛ ومادام سِرُّ الكون مُغلقاً فلا تعريف له إلا أنه سِرٌّ مُغلق، وليبق كل شئ فى طبيعة نفسه ؛ فعلى هذا يصلح كل شىء ولو فى نفسه وحدها .

قال أبو محمد: ولكن بقيت وحشة الدنيا وجفوتها !! ؛ إذ لم أكن اهتديت إلى عالمى، ولا تأكدت عقيدتى بنفسى ؛ فكان كل ما حولى منبجساً فى روحى بِشرِّه !! ؛ وكانت الدنيا بهذا كالمتطابقة فى رأيى على معنى واحد، وزادنى أنى كُنتُ رَجُلاً عَزَبَاً مُتعففاً ؛ وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة

بفراغ العقل من الذكاء !! ؛ هذا هو العقل البليد، وتلك هى الرُّجُولة البليدة !! .

والمرأة تضاعف معنى الحياة فى النفس، فلا جَرْمَ كان الخلاء منها مضاعفة لمعنى الموت ؛ علم هذا من علم وجهله من جهل، فكنت أعيش من الكون فى فراغٍ ميِّتٍ !! ؛ وكنت أحس فى كل ما حولى وحشة عقلية تُشعرنى أن الدنيا غير تامة !! ؛ وكيف تتم فى عينى دنيا أراها غير الدنيا التى فى قلبى ؟!!

وعرفت أن كل يوم يمضى على الرَّجُل العزب المُتعفِّف لا يمضى حتى يُهيِّئ فيه مرض يوم آخر !! ؛ ومن هذه الأيام المريضة المتهالكة تُعِدُّ الحياة انتقامها من هذا الحيِّ الذي نقض آيتها وافتأت عليها وجعل نفسه كالإله لا زوجة له ولا صاحبة !! .

وأيم الله إن الشيطان لا يفرح بالرَّجُل الزانى وبالمرأة الزانية ما يفرح بالرَّجُل العزب وبالمرأة العزباء !! ؛ لأنه فى ذينك رذيلة فى أسلوبها، أما فى هذين فالشيطان رذيلة فى أسلوب فضيلة !! ؛ هناك يُلِمُّ الشيطان ويمضى، وهنا يأتى الشَّيطان ويُقيم !! .

وقد عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح ؛ وليتنى كنت جاهلاً مغلقاً عقله وكان قلبى مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم !! .

ومضت أيامى يضرب بعضها فى بعض، ويُمرض بعضها بعضاً ؛ حتى انتهت منتهاها ؛ وجاء اليوم المدنف الهالك الذى سيموت !! .

أصبحت فقُلتُ لنفسى : كم تعيشين ويحك فى أحكام جسد مختل لا تصدق أحكامه ؟!! ؛ وما أنت معه فى طبيعتك ولا هو معك فى طبيعته !! ؛ ففيم اجتماعكما إلا على بلائى ونكدى ؟!!

لم تصطلحا قط على واجب ولا لذّة !! ؛ ولا حلال ولا حرام !! ؛ فأنتما عدوّان لا همّ لكليهما إلا إفساد المسرّة التى تعرض للآخر !! .

وما أدرى بمن يسخر الشيطان منكما ؟!!

فالعابد الذى يُوَسْوِسُ باللذّات يتمنّى اقترافها كالفاجر الذى يواقعها ويقتحمها !! .

ويحك يا نفس !! ؛ إنى رأيت هذه الدنيا الخرقاء لم تُقدّم لى إلا رغيفاً !! ؛ وقالت : املأ بهذا بطنك ! ؛ وعقلك ! ؛ وعينيك ! ؛ وأذنيك ! ؛ ومشاعرك !! .

آه !! ؛ آه !! ؛ ممكن واحد معه أربع مستحيلات !! ؛ إن هذا لا يُلْبُثنى أن يذهب منّى بالأربعة التى تُمسكنى على الحياة : الأمل ، والعقل ، والإيمان ، والصبر !! .

لقد استوى فى هذه الكآبة صغير همّى وكبيره !! ؛ وما أُرانى إلا قد أشرفت على الهلكة التى لا باقية لها !! ؛ فإن وجهى الُمتكلّح الُمتقبّض يَدُلُّ منّى على أعصاب محتضرة نهكتها أمراضها ووساوسها !! ؛ وإنما وجه الإنسان فى قطوبه أو تهلّله هو وجهه ووجه دُنياه تَعْبَسُ أو تبتسم !! .

وتالله لقد عجزت عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضة الواهنة !! ؛ فإن حُبَالَة الصيد ـ صيد الوحش ـ لا تكون من خيط الإبرة !! ؛ وأُرانى

أصبحت كإنسانٍ حجرىٍّ ليس فى طبيعته الالتواء إلى يمين الحياة ويسارها !! ؛ ويُخَيَّلُ إلىَّ من صلابتى أنى الأسد !! ؛ ولكنى أسد من حجر !! ؛ لا تفرض قُوَّته الفرار منه على أحد !! .

قال أبو محمد :

ورأيت نفسى فى هذا الحوار كالميتة !! ؛ لا تجيب ولا تعترض ولا تنكر !! وكنت أظنُّها تراودنى على الحياة أو تردُّنى عن غوايتى !! ؛ فملأنى سكونها جزعاً !! ؛ وأيقنت أن الشيطان بينى وبينها !! ؛ وأنه أخذ بمنافذها !! ؛ فأردت الصلاة ؛ فثقلت عنها !! ؛ ورأيتنى لا أصلح لها !! ؛ بل خُيِّلَ إلىَّ أنى إذا قمت إلى الصلاة فإنما قمت لأتهزَّأ بالصلاة !! .

وجعل الشيطان يأخذنى عن عقلى ويردُّنى إليه !! ؛ ثم يأخذنى ويردُّنى !! حتى توهَّمت أنى جُننت !! ؛ وكأنما كان يريد اللعين بقية إيمانى يجُاذبنى فيها وأُجاذبه !! ؛ فلم ألبث أن مسَّنى خَبَالٌ !! ؛ وألقيت هذه البقيَّة فى يديه !! .

ثم أفقت إفاقةً سريعةً ؛ فرأيت (المُصحف) يرقبنى قريب ؛ فعُذت به ؛ وعطفت عليه ؛ وقلت له : امنع الضربة عن قلبى !! .

بَيْدَ أنى أحسست أنه خصمى فى موقفى لا ظهيرى !! ؛ كأنى جعلته مُصحفاً عند زنديق !! ؛ فكان كل إيمانى الذى بقىَ لى فى تلك اللحظة أنى ضعُفت عن حمل المُصحف كما ثقلت عن الصلاة !! ؛ فبقى الطاهر طاهراً والنَّجِسُ نجَساً !! .

ولم تكُن نفسى فىَّ ولا كُنت فيها !! ؛ فرأيت الدنيا على وجهٍ لا أدرى ما

هو !! ؛ غير أنه هو ما يمكن أن يكون معقولاً من تخاليط مجنون تركه عقله من ساعة : بقايا شعور ضعيف !! ؛ وبقايا فهم مريض !! ؛ تتصاغر فيهما الدنيا !! ؛ ويتحاقر بهما العقل !! .

فلما انتهيت إلى هذا لم أعقل ما عملت !! ؛ وكانت المُوسِىُّ قد أصابت من يدى عِرقاً ناشزاً مُنْتَبِراً !! ؛ ففار الدم !! ؛ وانفجرت منه مثل الينبوع ضرب عنه الصخر فانشق فانبثق !!

وتحقَّقت حينئذٍ أنه الموت !! ؛ فنظرت !! ؛ فرأيت !!

📖📖📖📖📖

قال المُسيَّب راوى القصة :

وتجهَّم وجه الرَّجُل !! ؛ فأطرق وسكت !! ؛ وكان على وجهه شَفَقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتة عندما قال : « فنظرت فرأيت » !! .

وارتج المسجد بصيحة واحدة : فرأيت ماذا ؟!! ؛ رأيت ماذا ؟!!

وبعثت الصحية أبا محمد !! ؛ فقال : رأيت ثلاثة وجوه أشرفت من المُصحف تنظر إلىَّ كالعاتبة !! ؛ وكان أوسطها كالقمر الطالع !! ؛ لو تمثَّلت آيات الجنَّة كُلُّها وجهاً لكانته فى نُضرته وبشاشته !! ؛ وغمغمت الوجوه الثلاثة بكلمات لم أسمع منها شيئاً !! ؛ ولكن نظرها إلىَّ كان يُؤدِّى لى معانيها !! ؛ وكأنها تقول : « أكذلك المُؤْمِن ؟!! » !!

ثم غابت !! ؛ وتخلَّت عنِّى !! ؛ وبرزت ثلاثة وجوه أخرى !! ؛ كأنها نقائض تلك !! ؛ وأعوذ بالله من أوسطها !! ؛ لو تمثَّلت آيات الجحيم كُلُّها وجهاً لكانته

فى نُكره وهوله !! ؛ وَخُيِّلَ إلىَّ أن الوجه الأصغر منها وجه سُورة من سُور المصحف !! ؛ ففكرت !! ؛ فوقع لى مما قام فى نفسى من اللعنة أنها :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ !! ﴾

[المَسَد : ١]

وطمس الظلام هذه الرُّؤيا !! ؛ وتغيَّمت الدنيا !! ؛ فأيقنت أن آثامى قد أقبلت علىَّ ظلمة بعد ظلمة !! ؛ والتمع شىء أحمر !! ؛ فنظرت !! ؛ فإذا الدم يتخايل فى عينى كأنه شُعَلٌ تتلوى !! ؛ فجزعت أشد الجزع !! ؛ وحسبتها طرائق ممتدة لروحى تذهب بها إلى الجحيم !! .

وماتت كل خواطرى بعد ذلك إلا فكرة واحدة بقيت حيَّة تأكل فى قلبى أكل النار !! ؛ وهى :

« كيف تجرَّأت فوضعت بينى وبين الله حُمقى ؟!! » .

ويقولون : إن أُختى قد رأتنى أَتشَحَّطُ فى دمى !! ؛ فصاحت !! ؛ وجاء الناس على صوتها !! ؛ وكان فيهم طبيب ؛ فبعد لأيٍ ما استطاع حبس الدم، واحتال حيلته حتى أَسَفَّ الجرح دواءً وَضَمَدَه ؛ فجعلت أثوب نَفَساً بعد نَفَس، وراجعت قليلاً قليلاً !! .

ثم طافت الحياة على عينىَّ ففتحتهما !! ؛ فإذا الأشياء تبدو لى وليس فيها حقائق ولا معان !! ؛ كأنها تتخلَّق جديدة تحت بصرى !! ؛ وكأنها خارجة

لساعتها من يد الله !! .

وتماثلت شيئاً بعد ساعات ؛ فأحسست أن نفسي قد رجعت إلىَّ ساخرة منِّي تقول :

« كيف رأيت عمل العقل أيُّها العاقل ؟!! »

وبدأت الحياة تتجدَّد ؛ فأقسمت بيني وبين نفسي أن أُجدِّد إيماني بالله ، ولم أكد أفعل حتى أحسست أن قوة الوجود كلها مستقرة في رُوحي !! وَخُيِّلَ إلىَّ أني أنا وحدي القويُّ على هذه الأرض قوة جبالها وصخورها !! على حين كان جسمي مُمدَّداً كالميِّت لا يتماسك من الضعف !! .

فأيقنت حينئذٍ ما لم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قط في الحياة ولم يأتني به علم ولا فكر ؛ أيقنت أنها معجزة الإيمان الجديد الغض !! ؛ المتصل بالله لتوِّه كإيمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة !! ؛ أو تعترضه خاطرة !! ؛ أو تُكدِّره ذرَّة واحدة من فكر أرضيٍّ دَنِس !! .

✿✿✿✿✿

قال المُسيِّب :

ثم جلس المُتحدِّث ، وكان الناس في آخر كلامه كأنما غادروا الدُّنيا ساعةً ورجعوا إليها على مثل حالته ومثل إيمانه !! .

فسكت الإمام ولم يتكلّم !! ؛ ليدع كل نفسٍ تُكلِّم صاحبها !! . .(١) .

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

(١) ـ ((وَحْيُ القَلَم)) ؛ [جـ ٢ / ٩٨ ـ ١٠٤] ؛ دار الكُتُب العلميَّة ؛ ط : ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠ م .

.....

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ الْمُعَانَاةَ لَم تَنْتَهِ !! ؛ وَلَئِن كَانَ الرَّافِعِيُّ هُوَ الشَّيْخُ الَّذِى كَانَ يُخَفِّفُ عَن صَدِيقِهِ الصَّغِيرِ بَعْضَ مَا يَجِد ؛ فَهَا هُوَ الرَّافِعِيُّ قَد مَاتَ (١٢٩٨ ـ ١٣٥٦ هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٣٧ م) !! ؛ فَعَظُمَت الْمِحْنَةُ!! ؛ وَعَادَت الْمَأْسَاةُ !! ؛ وَمَا مِن عَجَبٍ حِينَئِذٍ ؛ فَإِنَّ أَسْبَابَ الصَّبْرِ إِن زَالَت ؛ كَانَ زَوَالُهَا بِمَثَابَةِ الْمُصِيبَةِ الْجَدِيدَةِ ؛ وَبِزَوَالِهَا أَيْضاً يَكِرُّ الشُّعُورُ الْقَدِيمُ رَاجِعاً إِلَى مَحِلِّهِ وَمَوْضِعِهِ مِنَ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالنَّفْسِ !! ؛ فَيُصْبِحُ الْحُزْنُ أَضْعَافَ مَا قَد كَانَ عَلَيْهِ فِيمَا مَضَى !! .

وكَتَبَ شَاكِر فِى ((الرسالة)) يُجَسِّدُ مَأْسَاتَهُ الَّتِى بَلَغَت ذُرْوَتَهَا بِرَحِيلِ هَـذَا الصَّدِيقِ الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ الْوَفِيِّ الشَّرِيف !!... ؛ كَتَبَ يَقُول (١) :

﴿ رحمةُ الله عليك !! رحمةُ الله عليك !!

رحمة الله لقلبٍ حزينٍ !! وكبدٍ مصدُوعة !!

لم أفقدك أيُّها الحبيب !! ؛ ولكنِّى فقَدتُ قَلْبى !! .

كُنتَ لى أملاً أستمسِكُ به كُلَّما تقطَّعَتْ آمالى فى الحياة !! .

كُنتَ راحة قلبى كُلَّما اضطرب القلبُ فى العناء !! .

كُنتَ اليُنْبُوع الرَّوِىَّ كُلَّما ظَمِئَ القلبُ وأحرقه الصَّدَى !! .

---

(١) ـ العَدَد : ٢٠٢/٤٦ ـ ٤٨.

كُنتَ فجراً يتبلَّج نُورُهُ فى قَلْبى وتتنفَّس نسماته !! :

فوَجدتُ قلبى !!... ؛ إذ وجدت عَلاقتى بك !!.

لم أفقدكَ أيُّها الحبيب !!... ؛ ولكنى فقدتُ قلبى !!.

جزعى عليك يُمسك لسانى أن يقول !!... ؛ ويُرسل دمعى ليتكلَّم !!.

والأحزان تجدُ الدمعَ الذى تذوب فيه لتهونَ وتضَّاءَل !!.

ولكنَّ أحزانى عليك تجد الدَّمعَ الذى تروَى مِنْهُ لتنمو وتَنْتَشِر !!.

ليس فى قلبى مكانٌ لم يرفَّ عليه حُبِّى لكَ وهوَاىَ فيك !!.

فليس فى القلب مكانٌ لم يحرقه حُزنى فيك !!... ؛ وجَزَعى عليك !!.

هذه دُمُوعى تُتَرجِم عن أحـزان قلبى !!.

ولكنَّها دُمُـوعٌ لا تُحْسِنُ تَتَكَلَّم !!.

عشتُ بنفسٍ مُجْدِبةٍ قد انصرفَ عنها الخصب !!... :

ثم رحمَ الله نفسى بزهرتين تَرِفَّان نَضرةً ورواء !!... :

كُنتُ أجدُ فى أنفسهما ثروة الروضة المُمْرِعة !! ؛ فلا أحُسُّ فقر الجدْب !!

... :

أما إحداهما !!... ؛ فقد قطفتها حقيقةُ الحياة !!... :

وأما الأخرى !!... ؛ فانتزعتها حقيقةُ الموت !!... :

ويقيت نفسى مُجْدبة !!... ؛ تستشعرُ ذُلَّ الفقر !!.

تحت الثرى !!... ؛ عليك رحمة الله التى وَسِعَت كُلَّ شىء !!.

وفوق الثرى !!... ؛ علىَّ أحزان قلبى التى ضاقت بكُلِّ شىء !!.

تحت الثرى !!... ؛تَتَجَدَّدُ عليكَ أفراحُ الجَنَّة !!.
وفوق الثرى !!... ؛تتقادمُ عليَّ أحزان الأرض !!.
تحت الثرى !!... ؛تتراءى لرُوحِك كُلُّ حقائق الخلود !!.
وفوق الثرى !!... ؛تتحققُ فى قلبى كلُّ معانى الموت !!.
لم أفقِدْكَ أيُّها الحبيب !!... ؛ولكنِّى فقدت قَلْبى !!.
حَضَرَ أجلُك !!... ؛فحضرتنى هُمُومى وآلامى !!.
فبين ضُلُوعى مأتمٌ قد اجتمعت فيه أحزانى للبُكاء !!.
وفى رُوحى جنازةٌ قد تهيَّأت لتَسير !!.
وعواطفى تُشيِّعُ الميِّت الحبيب مُطرقةً صامتة !!.
والجنازة كُلُّها فى دمى !!... ؛فى طريقها إلى القبر !!.
وفى القلب !!... ؛فى القلب تُحفَر القبور العزيزة التى لا تُنْسَى !!.
فى القلب يجد الحبيب رُوحَ الحياة وقد فرغ من الحياة !!.
وتجد الرُّوح أحبابها وقد نأى جُثْمَانُها !!.

فى قلبى تجد الملائكة مكاناً طهَّرته الأحزان من رجس اللذَّات !!.
وتجِدُ أجنحتها الرُّوح الذى تُهفهف عليه وتتحفَّى به !!.
هُنا !!... ؛فى القلب !!... ؛تتنزَّل رحمة الله على أحبابى وأحزانى !!.
ففى القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تَفْنى !!.
وفى القلب تُحفَرُ القبور العزيزة التى لا تُنْسى !!.

لم تُبْقِ لي بَعدَكَ أيها الحبيب إلاَّ الشوق إلى لقائك !!.

فقدتُكَ وَحْدِي !!... ؛ إذ فقدك الناس جميعاً !!.

سَمَا بكَ فرحُك بالله !!... ؛ وقعدت بي أحزاني عليك !!.

لقد وجدتَ الأُنْسَ في جوارِ رَبِّك !!... ؛ فوجدتُ الوحشة في جوار النَّاس !!.

لم أفقدك أيُّها الحبيب !!... ؛ ولكنِّي فقدت قلبي !!.

لم تُبق لي بَعدَكَ إلا الشَّوق إلى لقائك !!.

رحمة الله عليك !!... ؛ رحمة الله عليك !!. ﴾.

.....

أَلَم أَقُل لَكَ ؟!! ؛ أَلَم أُخبِرْكَ بِأَنَّ أَحْزَانَ المُصِيبَةِ القَدِيمَةِ تَتَجَدَّدُ مَعَ مَجِيءِ البَلاءِ الآنِيِّ المُحْدَثِ ؟!! ؛ المَشْهَدُ المَاضِي يُجَسِّدُ آلامَ الأَدِيبِ الشَّابِّ وَحُزْنَهُ عَلَى صَدِيقِهِ العَظِيم ؛ وَفِي حَوْمَةِ هَذَا الأَلَمِ ؛ وَفِي إِبَّانِ هَذَا الحُزْنِ ـ تَهْجُمُ الذِّكْرَى القَدِيمَةُ !! ؛ ذِكْرَى الحُبِّ الَّذِي قَد كَانَ !! :

﴿ أَمَّا إِحْدَاهُمَا !!... ؛ فَقَد قَطَفَتْهَا حَقِيقَةُ الحَيَاةِ !!. ﴾ .

.....

ثُمَّ يَكْتُبُ بَعْدَ ذَلِكَ أَيْضاً فِى مُنَاجَاةِ الرَّافِعِىِّ !!... ؛ يَكْتُبُ تَحْتَ وَطْأَةِ الشُّعُورِ بِمَرَارَةِ الفَقْدِ !!.

يَكْتُبُ فِى « الرِّسالة » ؛ فَيَقُول (١).:

أَيُّهَا العَزِيز !!

« فى القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تَفْنَى !! .

وفى القَلبِ تُحْفَرُ القبورُ العزيزة التى لا تُنسى !! . » .

هكذا قُلْتُ وعواطفى تُشيّع الميّت الحبيب مُطرقةً صامتةً !! .

واليوم !!... ؛ ماذا أقول؟!!

أما إنك لتعلم ـ أيُّها الحبيب ـ أن الذى بينى وبينك دُنيا تمشى الأحزان فى أرجائها نائحة باكية !!... ؛ لستُ أكفر بأنعم الله علىّ أو عليك !!... ؛ كلا !! ... ؛ كلا !!... ؛ لقد ذهبتَ إلى ربِّك راضياً مرضيّاً فرحاً بلقائه !! ؛ مُؤمناً بما زيَّن فى قلبك من الإيمان !!... ؛ وبقيتُ أنا لأبحث عن أحبابى بعدك !!... ؛ لأفقِد لذَّة المعرفة التى يفيض فيضها من الصداقة والحُب !! ... ؛ لأتلدَّدَ هاهُنا وهاهُنا حائراً أنظر بمن أثق ؟!!... ؛ لأجدَ حَرَّةَ القلب !! ... ؛

---

(١) ـ العَدَدُ : ٣٥٨/٥١ـ٥٥

وكَمد الرُّوح !! ... ؛ وألمَ الفكر !!... : من حُبِّى وصداقتى!!... ؛ لأسير فى أوديةٍ من الأحزان بعيدة !!... : أمشى وحدى !!... ؛ وأبكى وحدى !!... ؛ وأتألَّم وحدى !!... ؛ لا أجدُ من أنفُضُ إليه سِرَّ أحزانى !!.

ذهبتَ !!... ؛ وبقيتُ !!... ؛ لأتعلَّم كيف أُنافق بصداقتى بعضَ النفاق !! ... ؛ لأنهم يريدون ذلك !!... ؛ لأُجيد مهنة الكذب على القلب !!... ؛ لأنهم يُجيدُون ذلك !!... ؛ لأتعلَّم كيف أنظر فى عيونهم بعينين لئيمتين يلتبس فى شُعاعهما الحُبُّ والبُغض !!... ؛ لأنه هو الشعاع الذى يتعاملون به فى مَوَدَّاتهم !!... ؛ لأُفنِى بقائى فى معانيهم المتوحشة !!... ؛ إذ كانوا هكذا يتعايشون !!... ؛ لأُحطِّم بيدى بُنيان الله الذى أمرنا بحياطته !!... ؛ وأتعبَّد معهم للأوثان البغيضة الدَّميمة التى أنشأتها أيديهم المُدنَّسة القذرة !!... ؛ لأجنِى الثمار المُرَّة التى لا تحلو أبداً !!... ؛ ولكنهم يقولون لى : هذا ثَمَرٌ حُلْوٌ !! ؛ فلماذا لا تأكل كما يأكل الناس ؟!!

ذهبتَ أيُّها الحبيب !!... ؛ وبقيتُ !!... ؛ فى الحياة التى أوَّلُها لذَّةٌ !! ... ؛ وآخرها لذْعٌ كأحرِّ ما يكون الجمر حين يتوهَّج !!.

بقيتُ للحياة التى تريد أن تسلبَ القلبَ براءةَ الطفولة !!... ؛ لتملأه إثماً وخداعاً وشهوةً !!.

بقيتُ على الحياة فى الأرض التى تميد وترجف وتحتدم من تحتى !! ... ؛ لأنها تُنكر الإيمان الذى يَمُدُّ بسببٍ إلى السَّماء !!... ؛ بقيتُ بقاءَ حبَّة القمح فى رمال الصحراء المُجدبة لا أجد مائى ولا تُربتى !!... ؛ ولا من يزرَعُنى !!.

شدَّ ما اختلفت علىَّ أحداث الحياة من بعدِكَ أيُّها الحبيب !!.

كُنتُ أشكو إليك ما ألاقى من ظمأ الرُّوح الهائمة ؛ وهى تطوف بحسراتها على ينابيع الحياة لا تنتهى ولا تستطيع أن تَرِد !!.

كُنتُ أبثُّك أحزانى وهى جالسةٌ تُوقِد النَّارَ على نفسى !! ؛ وتُؤرِّثها بأفكارى القلقة التى لا تهدأ ولا تنقطع !! .

كُنتُ أشكو إليك آلامَ الشَّوْكِ الذى تُنبِتُهُ فى قلبى الشُّكوك العاملة الناصبة التى جعلتْ همَّها تعذيبى بالحيرة والخوف والحرمان !!... ؛ والحقيقة المؤلمة أيضاً !!.

كُنتُ أجدكَ حين ينبغى أن أجدَك !!... ؛ لأقول لك ما يجب علىَّ أن أقُول !!.

شدَّ ما اختلفتْ علىَّ أحداثُ الحياة من بعدك أيُّها الحبيب !!.

وها أنذا أُريد أن أجدَ بعدكَ من أضعُ فى يديه الرفيقتين هذه الجروح الدامية النابضة التى أُسمِّيها قلبى !!.

أُريد أن أضع أفكارى التائهة فى بيداءِ الظُّنُون المُقفرة !! ؛ بحيثُ تجدُ مَن يتولَّى أمر إرشادها إلى رَوضَة اليقين النَّاضرة !! .

أُريد أن أجدَ مَلْجئ المؤمن حين تُطارِدُنى من الظنِّ صعاليكه الكافرة !! .

أُريد أن أعرف لذَّة الصداقة والحُبِّ حين لا أجدُ من الحياة إلاَّ آلام صداقتى وحُبِّى !! .

أُريد !!... ؛ أُريد !!.

أُريدُ مَنْ أقول له : ها أنذا بعذابى !!... ؛ وضَعفى !!... ؛ وخُضُوعى!!... : فيقول : وها أنذا بصبرى !!... ؛ وقُوَّتى !!... ؛ وحُبِّى لك !!.

أُريد من أقولُ له : هذه جُرُوحى التى تَنْفُثُ الدَّمَ لا ترقأ ولا تستريحُ ولا تبرأ إلاَّ على وعيٍ من دَمِها !!... ؛ فيقول لى : وهذا طِبِّى الذى يحسمُ هذا الدَّمَ لتستريحَ وتبرأ من ألم النَّزيف !!... ؛ يا بُنىَّ... !!

« يا بُنىَّ... !! » ... ؛ هذه طفولتى ؛ أُريد من يحنو علىَّ بها حنو الأم على صغيرها الذى هو كل أشواقها الرقيقة من قلبٍ نبيلٍ رقيق !!.

« يا بُنىَّ... !! » ... ؛ هذه طفولتى ؛ أُريد من يمسح بها أحزانى التى حيَّرت بصرى !!... ؛ لأعرف من بعد طريق رُجُولتى التى تريد أن تعمل !! ؛ وأن تسير !! ؛ وأن تصل إلى سِرِّ أشواقها البعيدة الجميلة !! .

« يا بُنىَّ... !! » ... ؛ هذه طفولتى ؛ أُريد من يعرف أنِّى طفلٌ وديعٌ حين أؤوب من كدِّى وكدحى !!... ؛ فيتلقانى بين ذراعيه إلى قلبه لأشعر بحنانٍ من الرُّوح يُطفئ غُلَّتى!!... ؛ ويُرسل فى أعصابى رَيَّها من الحُب !!... ؛ الحُبُّ الذى هو فجر الحياة !!... ؛ بنعومته !!... ؛ ورقَّته !!... ؛ وطُهره !!.

الحُبُّ الذى يَرُدُّ القلب الظامئ زهرة تتفتح فى جَوٍّ من النُّور والنَّدى والشَّباب !!.

« يا بُنىَّ... !! » ... ؛ من يقولها لى يضع فى نبض أحرفها نبض الحُب !! .

أين أنت أيُّها الحبيب ؟!!!

كُنتَ أخى !!... ؛ وصديقى !!... ؛ ومن أستودعه سِرَّ قلبى المُعذَّب فى

تَنُّور الحياة المتوحشة !!... ؛ التى يضطرم جوُّها بالصمت المتوهج والوحدة المُستعرة !!.

كُنتَ أخى !!... ؛ وصديقى !!... ؛ وأنا أبيد كما تبيد الأيّام والليالى فى كهوف الحياة الدُّنيا !!.

كُنتَ أخى !!... ؛ وصديقى!!... ؛ وعواطفى تزأر وتجأر فى باطنى كأنها وحشٌ جريحٌ مُتألّمٌ ثائرٌ لا يرى من جُرحه لينتقم !!... ؛ فالآن وقد جدَّدت الدُّنيا أساليب تعذيبى عذاباً ضعفاً من الآلام !!... ؛ الآن وقد أوجدتنى الحياة ما أُريده !!... ؛ ثم وضعت بينى وبينه سَدّاً يصف ما وراءه من أشواقى !!... ؛ ويقف دونى فلا أنفذ منه !!... ؛ الآن وأنا أشتعل وأتفانى من جميع نواحىَّ !! ... ؛ الآن وأنا أتوثّب فى قُيُودٍ مُرخاةٍ تمنحنى الحركة !!... ؛ وتمنعنى دون الغاية !!... ؛ الآن وأنا أُمزّقُ جَوَّ حياتى !!... ؛ بزئيرى !!... ؛ وأنيابى !!... ؛ ومخالبى !!... ؛ وأحرقه !!... ؛ بوجدى !!... ؛ ولوعتى !!... ؛ واشتياقى !!.

الآن أين أنت أيُّها الحبيب؟!!... ؛ يا أخى !!... ؛ وصديقى !!.

انظر إلىَّ أيُّها الحبيب من وراء هذه الأسوار المنيعة التى تفصل بين الحياة والموت !!... ؛ الأسوار التى تمشى إليها الحياة كُلُّها ساعة بعد ساعة دائبة لا تقف !!... ؛ فإذا بلغتها ابتلعتها من حيث لا تشعر ولا تتوقّعُ !!.

انظر إلىَّ أيُّها الحبيب !!... ؛ وتكلّم بكلامٍ من شُعاعٍ مُضىءٍ حتى يُفهمُنى حقيقتى الحيَّة !!... ؛ ويُضئ لعينى هذه الظُّلمات التى تعتبرك بين يدىَّ فى مَدٍّ

عينى !!.

انظر إلىَّ أيها الحبيب !!... ؛ واسكُبْ فى قلبى وروعى حقيقة الإيمان الحىِّ الذى لا يموت !!.

انظر إلىَّ !!... ؛ واصحبْنِى !!... ؛ فأنا الذى لا يُصاحبُ الأحياء من الناس !! ... ؛ لأنهم لا يعرفون معنى الحياة إلا فائدة تلد فائدة ؛ كما يلد بعضهم بعضاً فى مشيمة من الكُره والعنت وآلام المخاض وأمشاجٍ من الدم يشخب من حولها ويتضرَّجُ ويقبحُ بعضه فى بعض !!.

ولكن؟!!... ؛ ولكن مَا أكذب النَّفس على النفس!!... ؛ أنت هُناك بحقيقتك الخالدة التى تحيا بأمر الله فى جَوِّ السماء !!... ؛ وأنا هُنا بحقيقتى الفانية التى تموت يوماً بعد يومٍ بأمر الله فى جَوِّ هذه الأرض !!... ؛ أنت هُناك !!... ؛ وأنا هُنا !!... ؛ وبينهما البرزخ الذى لا تجوزه الرُّوح إلا بعد أن تتطهَّر من أدران هذا الدَّم المُتجسِّد فى أجلاد الإنسان !!.

أنت هُناك !!... ؛ وأنا هُنا !!... ؛ فكيف أنخلعُ من ثورتى التى أنا بها هُنا ؟!! كيف أنخلع من جسدى ؟!!

ومع ذلك ؟!!...

« ففى القلب تعيشُ الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تفنى !!

وفى القلب !!... ؛ تحُفَر القُبُور العزيزة التى لا تُنسى !!

لم أفقدكِ ـ أيُّها الحبيب ـ !!... ؛ ولكنى فقدتُ نفسى !!.)) .

.....

ظَلَّ مَحْمُود شَاكِر يَبْكِي عَلَى الرَّافِعِيّ ؛ شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الوَفِيّ ؛ نَعَم ؛ وَلَكِنَّهُ ظَلَّ أَيْضاً يَبْكِي هَذَا الحُبَّ الشَّدِيدَ العَتِيّ !! ؛ الحُبُّ الَّذِي حَطَمَهُ !! ؛ وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مَازَالَ يَذْكُرُهُ !! .

﴿ أُرِيدُ أن أعْرِفَ لَذَّةَ الصَّدَاقَةِ وَالحُبِّ حِينَ لا أجِدُ مِنَ الحَيَاةِ إلاَّ آلاَمَ صَدَاقَتِي وَحُبِّي !! .﴾ .

وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ :

﴿ « يَا بُنَيَّ ... !! » ... ؛ هذه طفولتي ؛ أُريد من يعرف أنّي طفلٌ وديعٌ حين أؤوب من كدِّي وكدحي !!... ؛ فيتلقاني بين ذراعيه إلى قلبه لأشعر بحنانٍ من الرُّوح يُطفئ غُلّتي!!... ؛ ويُرسل في أعصابي ريَّها من الحُب !! . الحُبُّ الذي هو فجر الحياة !!... ؛ بنعومته !!... ؛ ورقّته !!... ؛ وطُهره !!.﴾ .

وَمَضَت أَيَّامٌ !! ؛ وَشُهُورٌ !! ؛ وَسَنَوَات !! ؛ وَلَكِنَّهَا مَا تَزَالُ هُنَا !! ؛ فِي قَلْبِهِ وَفُؤَادِهِ !! ؛ مَازَالَ يَذْكُرُهَا !! ؛ إِنَّهَا الحُبُّ الوَحِيدُ اليَتِيم !! ؛ مَا أَحَبَّ سِوَاهَا !! ؛ وَهُوَ يُؤْمِنُ إِيمَانَاً شَدِيداً بِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَن الحُبِّ بَعْدَهَا !! ؛ وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَذْهَبُ وَيَجِيءُ ثُمَّ لا يَفْتَأُ يَذْكُرُهَا !! ؛ هَا نَحْنُ فِي نُوفَمْبر مِن عَامِ ١٩٣٨م ؛ مَرَّت شُهُورٌ طَوِيلَةٌ !! ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّنَا نَرَاهُ يَكْتُبُ هَذِهِ الكَلِمَات !! :

لِمَـاذَا ؟!!... ؛ لِمَـاذَا ؟!!

إِنَّ قَلْبِي الَّذِي يَتَصَدَّعُ الآنَ هُوَ قَلْبِي الَّذِي أَحَبَّهَـا مِن قَبْل !!

لَقَـد عِشْتُ لَهَا كَالـدَّوْحَةِ النَّاضِرَةِ مِن أَفْيَائِهَا ظِلٌّ رَطْبٌ نَـدِيٌّ يَرْوِي ظَمَأَ النَّفْسِ الصَّادِيَة !!

هَكَـذَا كُنْـتُ أُحِسُّ !!

أَنَا بِقُوَّتِي كُنْتُ أَلِينُ لَهَـا كَأَنِّي نَغمَةٌ عَاطِفَةٌ تَحِـنُّ إِلَيْهَـا حَنِينَ الطِّفْـلِ !!

هَكَـذَا كُنْتُ أُحِـب !!

وَأَنَا بِكِبْرِيَـاءِ رُجُولَتِـي كُنتُ أَخْشَعُ لِرِقَّـةِ أُنُوثَتِهَـا خُشُوعَ الـزَّهْـرَةِ المُتَفَتِّحَةِ فِي مَعْبَدِ الفَجْـر !!

هَكَـذَا كُنتُ أَفْـرَحُ !!

وَلَكِنَّهَـا المَرْأَةُ !!... ؛ فِي طَبِيعَتِهَـا إِنْكَـارُ الرَّجُلِ إِذَا عَرِفَت أَنَّهُ لَهَـا !! ؛ وَأَنَّهُ

أحبَّهَا !! ؛ وَأَنَّهُ بِهَا يَفْرَحُ !!

إِنَّ قَلْبِى يَتَصَدَّعُ الآنَ فِى يَدَيْهَا !! ؛ لأَنَّهُ أَظَلَّهَا ؛ وَحَنَّ إِلَيْهَا ؛ وَخَشَعَ لَهَا !!... ؛ لأَنَّهُ أَحبَّهَا !!

فَلِمَاذَا أَحْبَبْتُهَا ؟!!... ؛ لِمَاذَا ؟!! ؛ لِمَاذَا ؟!! . ﴾. (١).

.....

وَتَمْضِى أَيَّامٌ بَعْدَ كِتَابَتِهِ لِهَذِهِ الكَلِمَاتِ وَنَشْرِهَا عَلَى المَلأِ بِمَجَلَّةِ العُصُورِ ؛ وَإِذ بِنَا نَرَاهُ فِى التَّاسِعِ مِن شَهْرِ دِيسَمْبِر ١٩٣٨م وَقَد أَحْزَنَ أَهْلَ العِلْمِ وَالأَدَبِ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ البَاكِيَةِ :

﴿

أَنَا وَحْدِى !!

تَحْتَ الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ الَّتِى تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا ؛ وَكَأَنَّهَا لُعَابٌ مِنَ النَّارِ الجَامِحَةِ المُتَسَعِّرَةِ !!

وَعَلَى الرِّمَالِ المُلْتَهِبَةِ الَّتِى تَزْخَرُ حَرَارَتُهَا ؛ وَكَأَنَّهَا بَحْرٌ مِنَ السَّعِيرِ تَتَلاطَمُ فِيهِ أَمْوَاجُ اللَّهَبِ !!

وَبَيْنَهُمَا !!... ؛ بَيْنَهُمَا يَتَهَاوَى سَمُومٌ مِنَ الرِّيَاحِ العَاصِفَةِ ؛ وَكَأَنَّهَا أَنْفَاسُ الشَّيَاطِينِ المَخْلُوقَةِ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ !!

(١) ـ ((جَمْهَرَةُ المَقَالات)) ؛ [جـ ٢/ ٨٠٨] ؛ وَهُوَ مَنْشُورٌ بِمَجَلَّةِ العُصُورِ : العَدَدُ الأَوَّلُ : ١٩ نُوفَمْبِر ١٩٣٨م .

أَنَا وَحْدِى !!... ؛ أَمُدُّ الطَّرْفَ إِلَى الآفَاقِ الْمُتَرَامِيَةِ ؛ ذَاهِلاً عَنْ آلامِ الظَّمَا ؛ لأَرَى السَّرَابَ الْمُتَخَايِلَ كَأَنَّهُ ذَوْبُ الدُّرِّ وَاللُّؤْلُؤِ !!

أَنَا وَحْدِى !!... ؛ أَرَى الجِبَالَ البَعِيدَةَ الشَّامِخَةَ ؛ عَلَى هَامَاتِهَا عَمَائِمُ الشَّيْبِ تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ ؛ وكَأَنَّهَا ذَوَائِبٌ مِن دُخَان !!

أَنَا وَحْدِى !!... ؛ حَيْثُ تَلْبِسُنِى النَّار !! ؛ حَيْثُ أَطَأُ النَّار !! ؛ حَيْثُ أَتَنَفَّسُ مِن نَار !! ؛ حَيْثُ أَسْمَعُ حَثِيثَهَا !! ؛ وَأَرَى آثَارَهَا !!... ؛ أَنَا وَحْدِى !!

أَيَّتُهَا الشَّمْسُ الْمُحْرِقَة !! ؛ أَيَّتُهَا الرِّمَالُ الْمُلْتَهِبَة !! ؛ أَيَّتُهَا الرِّيَاحُ الْمُنْدَلِعَة !! أَيُّهَا السَّرَاب !! ؛ أَيَّتُهَا الجِبَال !!... ؛ أَنَا وَحْدِى مَعَكُنَّ أَحْيَى لأَحْتَرِق !! ؛ وَأَحْتَرِقُ لِتَحْيَى النَّفْسُ الَّتِى تَنْشُدُ الخُلُود !!

الصَّدِيق !!... ؛ الصَّاحِب !!... ؛ الأَخ !!... ؛ كُلُّهُم !!... ؛ كُلُّهُم وَدَّعَنِى لأَنَّهُ لا يُطِيق !!... ؛ وَأَنْتِ أَيْضاً أَيَّتُهَا الحَبِيبَةُ !!

إِذَن ؟!!... ؛ فَأَيْنَ أَجِدُ الرَّاحَةَ مِن وَقُودِ النَّار ؟!!. ✂ . (١) .

.....

وَهَكَذَا !! ؛ هَكَذَا عَاشَ الأَدِيبُ الشَّاعِرُ يَبْكِى عَلَى حُبِّهِ الضَّائِعِ حِيناً مِنَ الدَّهْرِ !! ؛ ظَلَّ يَبْكِى لأَنَّهُ ظَلَّ لا يُصَدِّقُ !! ؛ لا يُصَدِّقُ أَنَّ عِشْقَهُ قَد مَات !! ؛ وَأَنَّ الهَوَى قَد هَوَى !! ؛ كَصَخْرَةٍ كَانَت تَسْكُنُ بِقِمَّةِ الجَبَلِ تَنْظُرُ إِلَى العَالَمِ

---

(١) ـ ((جَمْهَرَةُ المَقَالات)) ؛ [جـ ٢/ ٨١٤] ؛ وَهُوَ مَنْشُورٌ بِمَجَلَّةِ العُصُور : العَدَدُ الثَّانِى : ٩ دِيسَمْبِر ١٩٣٨م .

مِن عَلٍ ؛ وبَينَ غَمْضَةِ عَينٍ وَانتِبَاهَتِهَا انْحَدَرَت إِلَى هُوَّةٍ سَحِيقَةٍ !! .

ثُمَّ كَانَ اليَقِينُ الَّذِى يَعْقُبُ الشَّكَّ الَّذِى يَظَلُّ فِى عِرَاكٍ دَائِمٍ يَرُومُ الوُصُولَ إِلَى الحَقِيقَةِ المَجْهُولَةِ !! ؛ لَقَد آمَنَ بِأَنَّهُ قَد عَاشَ قِصَّةً مِنَ الخِدَاعِ وَالنِّفَاقِ وَالكَذِبِ !! ؛ ثُمَّ عَادَ فِى النِّهَايَةِ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الأَبيَات :

جَنَت عَلَىَّ اللَّيَالِى غَيْرُ ظَالِمَةٍ

إِنِّى لأَهْلٌ لِمَا أَلْقَاهُ مِن زَمَنِى

فَمَا لَمَحْتُ مِن الآمَالِ بَارِقَةً

إِلاَّ بَنَيْتُ عَلَى أَجْوَازِهَا سَكَنِى

وَمَا رَأَيْتُ مِن الأَخْطَارِ عَادِيَةً

إِلاَّ تَقَحَّمْتُ مَا تَجْتَازُ مِن فِتَنٍ !! (١) .

(١) ـ مِن شِعْرِ الدُّكَاتِرَةِ زَكِى مُبَارَك ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ .

وَفِى حَوْمَةِ اليَأْسِ !! ؛ وَفِى ظِلٍّ صِرَاعٍ بَيْنَ الشُّعُورِ بِالوُجُودِ المُنْهَدِمِ الضَّائِعِ !! ؛ وَالإِيمَانِ بِعَظَمَةِ الذَّاتِ وَقُوَّتِهَا وَشُمُوخِهَا ـ انْتَصَرَت إِرَادَةُ الأَدِيبِ وَآمَنَت بِكُنْهِهَا ؛ فَكَانَت النَّتِيجَةُ الحَتْمِيَّةُ ؟!!... : أَن يُنْكِرَ هَذِهِ الفَتَاةَ !! بَل أَبْغَضَهَا وَكَرِهَهَا !! ؛ بَل سَخِرَ مِنْهَا وَاحْتَقَرَهَا !! ؛ وَصَوَّرَت مُخَيِّلَتُهُ أَنَّهَا سَتَعُود !! ؛ فَغَضِبَ !! ؛ وَنَفَرَ !! ؛ وَصَدَعَ بِكَلِمَتِهِ الأَخِيرَةِ !! :

« لا تَعُودِى !! »

لا تَعُودِى !!

أحرقَ الشَّكُّ وُجُودى !!... ؛ لا تَعُودِى

اذهبى ماشئِت أنَّى شئتِ فى دُنيا الخلودِ

واتركى النَّار التى أوقدتِها تقضمُ عُودى

هى بردٌ وسلامٌ يتلظَّى فى بُرُودى

فاسعدى فى شِقوة الرُّوح ولكن !!... ؛ لا تَعُودِى !!

أنت والأقدارُ ؟!! ؛ كم قاسيتُ منهنَّ ومنكِ

هى تأتى بيقينٍ خائنٍ !!... ؛ فى إثرِ شكٍّ

ثُمَّ أنت الشَّكُّ فى إثرِ يقينٍ لم يخنكِ

وأنا سائلُك الحيرانُ ؟!! ؛ عنهنَّ وعنكِ

فأجيبى واذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُودِى !!

اللَّظَى زادى !! فهل ينفعنى زادٌ مُميتُ ؟!
اللَّظَى روحُكِ؟ أم رُوحى سعيرٌ مُستميتُ ؟!
كلَّما مرَّت به النسمةُ من وجدى حَيِيتُ
أهى تُحيينى إذا مرَّت بنارى أم تُميتُ ؟.

خبِّرينى ؛ واذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُودِى !!

أنا كالنَّار تَغَشَّاها من الموت رمادُ
أحديثٌ منكِ يُحْيينى أم الصمتُ المُعادُ ؟
أم نسيمُ الحُبِّ ؟ أم هجرُكِ؟ أم هذا البِعادُ ؟
أأنا حىٌّ ولا أدرى أم الحىُّ الجمادُ ؟

خبِّرينى واذهبى إن شئتِ ؛ لَكِن !!... ؛ لا تَعُودِى !!

هذه الرِّيبةُ فى رُوحىَ من سرِّ حياتى
بَعثت وَجْدِى فدبَّ الشوقُ منها فى رُفاتى
فَجَّرَت أغْمَضَ ما أخفيتُ فى جَوْفِ صفَاتى
فإذا وَرْدُكِ نجواىَ وأشواكى شكاتى

اسمعيها ؛ واذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُودِى !!

أنت ! ؛ ما أنت سوى شكِّىَ فى طول حنينى
كلُّ ما فيك من الأوهام حقٌّ فى يقينى
المُنَى والوجدُ والصَّبوةُ نبعٌ من ظُنُونى
أنتِ إيمانىَ ؛ بل كُفرىَ ؛ بل أنتِ جُنُونى

أنتِ لا أنتِ ؛ اذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُودِى !!

ماسمائى؟ ؛ هى إظلامٌ ورعدٌ وبُروقُ
لا أرى نجمى ولا فيها غُرُوبٌ أو شُرُوقُ
صَخَبٌ يهدِمُ بُنْيانى ؛ ورعبٌ ؛ وخُفوقُ
ووميضٌ هو فى رُوحى حريقٌ وفُتُوقُ

اشهدى ؛ ثم اذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُودِى !!

ثم ما أرْضىَ ؟ زلزالٌ وجدبٌ وصُدُوعُ
ظمأ يغتالُ آمالى ؛ وأشواقٌ تَلوعُ
هذه الأوهامُ من حولىَ أطيافٌ تَروعُ
أينَ ؟ لا أينَ ؛ ضلالٌ ؛ بل خِداعٌ ؛ بل هُلُوعُ

أقبلى ثم اذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُودِى !!

حَيْرتى فيكِ وفى نفسىَ من طولِ انتظارى
حَيْرةُ الذرَّةِ فى الرِّيح بمجهولِ القفَارِ
تشتكى للَّيل ما تلقاهُ من شمس النَّهارِ
لا كؤوسُ الغَيْثِ تسقيها ولا الموتُ يُوارى

اذهبى ثم اذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُودِى !!

أنا فى العُزلة لا آنسُ إلا بارتيابى
الأفاعى الصُّمُّ والوحشُ الضوارى من صِحابى
فى دمى تشتفُّ أو تنهش رُوحى وإهابى

فتـعـالَى ؛ واسـألى كـيـف رأتنى؟... ؛ لا تَـهابى
اسمعيها ؛ واذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَـعُـودِى !!

كيف لا تأنسُ فى الرِّيبة بنتُ الظُّلُّماتِ؟
مُهْجتى !! ؛ أُمُّ الخصام المُرِّ مهدُ النَّزواتِ
خُـلِقَت لليأس والبأس وطَىُّ الحسَراتِ
وارتـكابِ الفرَح النَّشوان فوقَ العَبَرَاتِ
لا أُبَالى !! ؛ فاذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُـودِى !!

ما دمائى؟! ؛ هى أشواقىَ من جُرحى تفـيـضُ
شُـعَـلٌ ذابـت مـن اللـذَّات أو وَجْدٌ غوَيضُ
ليتها تبقى كما تـبـقـى الأمانـى لا تـغـيضُ
حَبَّبَ الشـكُّ إلـى قـلـبـىَ إيـمانٌ بـغَيـضُ
أنتِ جُرحى !! ؛ فاذهبى إن شئتِ ؛ لَكِن !!... ؛ لا تَـعُـودِى !!

قد صحبتُ اللَّيلَ ؛ والليلُ اكتئابٌ وارتياعُ
ظُـلُماتُ الصمتِ لا ينفـذُ فـيهـنَّ شُعاعُ
حسرةٌ تُطوى على أُخرى وَهَمٌّ وضَـيـاعُ
وأحاديثُ لـهـا فـى النَّـفـس هَدٌّ ونِـزاعُ
أنْصتى ثم اذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَـعُـودِى !!

قلـتُ : يا نجمىَ ! هذا الليلُ فاسطَعْ وأعِنِّى
إهْـدِنـى !! ؛ هـذى فـلاةٌ ودليلٌ ضلَّ عنِّى

كـلُّ ما أخـشـاه أو أرجـوه قد أفلت منِّى
اهدنى أو لا لقد ضعتُ؛ فغِبْ يا نجمُ! إنِّى
لا أبَالى فاذهبى إن شئتِ!!... ؛ لكن لا تَعُـودِى!!

أنـت يا نجمىَ كالذكـرى عـذابٌ وارتياحُ
ظَفَرٌ يـخبـو وقـد ضـرَّم آمالى الطِّماحُ
لكمـا فـى النَّفـس أضواءٌ تُدَمِّيها الجراحُ
هـكـذا السُّعدُ إذا مـا لامَهُ نَحْسٌ مُتاحُ
أنتِ نجمى!! ؛ فاذهبى إن شئتِ!!... ؛ لكن لا تَعُـودِى!!

سـاعةٌ فرَّتْ إلى الذكرى!! ؛ إلى غيرِ مآبِ
تتجلَّى كالخُلُود الغضُّ فى بَرْقِ الشَّبابِ
سـعَّـرَت للرَّاحلِ المُنبتِّ هَمِّى وطِلابى
فَهْىَ تـختـالُ لتُضْرينىَ من خلفِ حجابِ
مزَّقيه!! ؛ واذهبى إن شئتِ!!... ؛ لكن لا تَعُـودِى!!

هَلَكَ الماضى!! ؛ أما تهلـكُ ذكراه فتفنى؟
أهُـوَ مـالُ الحـىِّ فى دُنـياه يحويهِ لِيغْنى؟!
أم ثمارُ العُمر قد أنضجها الشـوقُ لِتُجْنى؟!
أم هو الشُّحُّ الـذى لَـوَّعَ أرواحـاً وأضْنى؟!
لستُ أدرى!! ؛ فاذهبى إن شئتِ!!... ؛ لكن لا تَعُـودِى!!

هـذه الساعـاتُ تنسابُ كأن لم تَكُنِ

هى كالحيَّات غابَت فى كهوف الزَّمنِ
رُقيَةُ الذِّكرى أطارت حيَّةً من وسَنِ
فأرثنى القَـلْبَ نَشْـوانَ بِسُمٍّ الفِـتَنِ

فتنةَ الماضى !! ؛ اذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُـودِى !!

أهِـى الجـنُّ تـجـلَّت لى أراهـا وتَـرانـى؟!
وسوست لى الشكَّ فى صمتك عَنِّى كى أُعانى؟!
أسمـعُ النَّـبْـأَةَ تـأتـينى بغيـبٍ كـالبيَـانِ؟!
فَهْىَ حَقٌّ ملءُ أسمـاعى ؛ وحقٌّ فـى عيـانـى؟!

أصْدُقِينى !! ؛ واذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُـودِى !!

أمِنَ الإنسِ تغارُ الجِنُّ ؟أم كيف أقولُ؟!
أهْىَ منهنَّ التى تَخْـتِلُ عقلـى وتَغولُ؟!
هـذه الأشباحُ فى شَكِّىَ تبدو وتَزولُ؟!
كُلَّما آمنتُ !! ؛ لاريبَ ؛ أتى الريبُ يجولُ؟!

فبِالى الجنُّ !! ؛ اذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُـودِى !!

ذِكْرى تلكَ التى تُخفِى عذابى واحتراقى
هىَ أدرى منكِ لا شكَّ !! ؛ ولكنى أُلاقـى
اسـأليها السِّلْمَ فـالسِّلـمُ نـجاةٌ من فُواقِ
واذكـرا أنِّى علـى حربِكـمـا لستُ بباقِ

ذكِّريها !! ؛ واذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُـودِى !!

لا تـعـودى !!......... ؛ أحـرقَ الـشكُّ وُجُـودى
لا تعودى اذهبى ما شئتِ أنَّى شئتِ فى دنيا الخلودِ
واتـــركـى النـــارَ الـتى أوقـدِتـها تقِضمُ عُودى
هــى بــردٌ وســلامٌ يـتـلـظَّى !!.... ؛ فــى بُـرُودى
فاسعَدى فى شِقْوةِ الرُّوحِ ولكن !!... ؛ لا تَعُـودِى !!
أنا !! ؛ لاكُنْـتُ ولا كان قصيدى أو نشيدى
لـوعةٌ تُمْـلِـى على الأكوان آلامَ الـعَبـيـدِ
أنا فـى الـرِّقِّ أُعَانـى ثـورةَ الحُـرِّ الـعنيدِ
أتـحـدَّاكِ ولكـنِّى ذليـلٌ فـــى قُيـُـودى !
لا تَرِقِّى !! ؛ واذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُـودِى !!
نَفَثاتُ السِّحْرِ تَنسابُ الأفاعى فى رُقـاهـا
هي بنـتُ اللَّيـلِ والأوهـام لكنى أراهـا
كُـلَّـما نـازعتُهـا السَّيْرَ رَمتْنى فى خُطاها
نفثاتُ السِّحْرِ ما يفعلُ فى رُوحى صَداها ؟!
أُنفثيها !! ؛ واذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُـودِى !!
هــذه الــزَّهــرةُ من نُضْرتِها نفحُ الجَمالِ
الشَّـذى والحُسْنُ حُرَّاسٌ على سرِّ الجَمالِ
أذبَلتْها زفـزةٌ منِّـى !! ؛ ولـكـن لا أبالى
فأنا النَّـارُ ؛ وكالـنَّارِ ارْتِيَـابى واشتـعـالى

لا أبَالى !! ؛ فاذهبى إن شئتِ !!... ؛ لكن لا تَعُـودِى !!

لا تَعُـودِى !! ؛ لا تَعُـودِى !! ؛ لا تَعُـودِى !!

ثُمَّ ازْدَادَ بُغْضُهُ لَهَا وَاحتِقَارُهُ إِيَّاهَا !!... ؛ وَرَآهَا كَذَرَّةٍ لا تَسْوِى خَرْدَلَة !! ... ؛ وَأَنَّهَا مَحْضُ كَيانٍ كَرِيهٍ عَفِنٍ !!... ؛ فَكَانَت هَـذِهِ القَصِيدَة ... ؛ وَالَّتِى عَبَّرَ بِهَا عَن نَظْرَتِهِ الأَخِيرَةِ لِتِلْكَ التَّجْرِبَة :

حَبَبْتُكِ ؛ وَالأَوْهَامُ فِكْرِى وَحُجَّتِى.......

...... ؛ تُؤَلِّبُ بَعْضِى فى هَوَاكِ عَلَى بَعْضِى

إِذَا مَا نَقَضْتُ الرَّأْىَ بِالرَّأْىِ ؛ رَدَّنِى.......

.... ؛ إِلَى خَطَرَاتِ الوَهْمِ مَضٌّ عَلَى مَضٌّ

أُصَارِعُ أَهْوَالاً مِنَ الغَيْظِ وَالرِّضَى........

...... ؛ وَمَا يَتَوَلَّى الغَيْظَ فَوْقَ الَّذِى يُرْضِى

عَجِبْتُ لِمَن رَاضَ النِّسَاءَ وَرُضْنَهُ........

.... ؛ وَيَقْضِينَ مِن إِيلامِهِ دُونَ مَا يَقْضِى

وَيَرْمِينَهُ بِالسَّهْمِ لَيسَ بِضَائِرٍ............

.. ؛ وَيَرْمِى بِمَا يَحْمِى الجُفُونَ عَنِ الغُمْضِ

فَكَيْفَ بِـهِ قَد ذَلَّ وَهُوَ مُكَرَّمٌ......... !!؟

وَأَغْضَى ؛ وَلَو قَـد نَاصَـبَ الـدَّهْرَ لَم يُغْضِ

كَفَى بِكَ ذُلاً أن تَبِيتَ عَلَى جَوَىً........
وَتُصْبِحَ فِي ذِكْرَى ؛ وَتُمْسِي عَلَى رَمْضِ
كَأَنَّكَ لَم تُخلَق لِدُنْيَا تَجُوبُهَا....... ؟!!
..... ؛ وَمَا أَضْيَقَ الدُّنْيَا مِنَ الحِدَقِ المُرْضِ
فَهُنَّ اللَّوَاتِي زِدْنَ فِي العَيْشِ لَذَّةً.........
.... ؛ فَأَقْصَيْنَ لَذَّاتٍ مِنَ الفَرَحِ المَحْضِ
شَكَكْتُ ؛ وَقَد تُنْجِي مِنَ الشَّرِّ رِيبَةٌ.......
.... ؛ وَتُبْدِلُ مُسْوَدَّ الحُظُوظِ بِمُبْيَضِّ
لَقَد كُنْتُ أَمْضِي طَائِعاً غَيْرَ جَامِحٍ......!!
.. ؛ وَأَرْضَى بِإِطْرَاقِي عَلَى الرَّيْبِ أو غَضِّ
وَيَفْضَحُنِي فِيكِ اقْتِحَامِي وَغَيْرَتِي........
... ؛ وَطَرْفِي ؛ وَمَا جَسَّ الأَطِبَّاءُ مِن نَبْضِي
وَيَأْكُلُ قَلْبِي مَا أُكَتِّمُ رَاضِياً...........!!
... ؛ فَمَا بَكَتِ العَيْنُ الشَّبَابَ الَّذِي يَمْضِي
وَأَنْتِ ؛ لَعَمْرِي فِي سُرُورٍ وَغِبْطَةٍ......!!
.... ؛ يَسُرُّكِ بَسْطِي فِي الحَوَادِثِ أو قَبْضِي
أَأُنْثَى وَوَحْشٌ ؟!!...... ؛ جَلَّ خَالِقُ خَلْقِهِ
؛ وَسُبْحَانَ كَاسِي الوَحْشِ مِن رَوْنَقٍ غَضٍّ

وَأَعْجَبُ مِنْهُ لَذَّتِي وَمَسَرَّتِي..........

.. ؛ عَلَى حِينِ نَهْشِي فِي المَخَالِبِ أَو نَفْضِي

فَيَا سُوءَ مَا أَبْقَيْتِ فِي الدَّمِ مِن لَظَىً.....!!

وَفِي الفِكْرِ مِن كَلْمٍ ؛ وَفِي القَلْبِ مِن عَضٍّ

أَخَافُكِ فِي سِرِّي ؛ وَجَهْرِي ؛ وَمَشْهَدِي

لَدَيْكِ ؛ وَغَيْبِي...... ؛ خَوْفَ أَرْقَطَ مُنْقَضٍّ

لَقَد كُنْتِ أَحْلامِي إِذَا اللَّيْلُ ضَمَّنِي.......

..... ؛ وَكُنْتِ إِذَا مَا الفَجْرُ أَيْقَظَنِي رَوْضِي

يُنَاجِيكِ طَيْرٌ فِي الضُّلُوعِ بِلَحْنِهِ........ ؛

لَقَد عَاشَ فِي سِحْرٍ ؛ وَقَد عِشْتِ فِي خَفْضِ

وَكُنْتِ عَلَى وَرْدِ الخَمَائِلِ زِينَةً !!.........

...... ؛ وَكَانَ بَشِيرَ الفَجْرِ فِي الفَنَنِ الغَضِّ

فَأَصْبَحْتِ لا خَيْرًا فَيُرْجَى...... ؛ وَلا لَقَىً

فَيُلْقَى.... ؛ وَلَسْتِ مِن سَمَائِي وَلا أَرْضِي

تَصَامَمْتِ عَن قَلْبِي وَرُمْتِ مَسَاءَتِي!! ....

.. ؛ وَتَنْتَظِرِينَ الحُبَّ؟!!... ؛ انْتَظِرِي بُغْضِي

✿✿✿✿✿

ثُمَّ هَدَأَت نَفْسُهُ ؛ وَاطْمَأَنَّت رُوحُهُ ؛ وَسَكَنَ إِلَى نَفْسِهِ ؛ وَمَعَ سُكُونِهِ اسْتَقَرَّت عِنْدَهُ هَذِهِ الحَقِيقَة؟!!... : أَنَّهُ خُلِقَ لِلْقَلَم !! ؛ وَلِلْقَلَمِ وَحْدَهُ !! ؛ وَأَمَّا الحُبُّ فَلا !! ؛ يَكْفِيكَ مِنَ القِلادَةِ مَا أَحَاطَ بِالعُنُق !!

أَشَابَ القَلْبُ أم كَرِهَ الشَّبَابَا
وَبَانَ الأُنْسُ أم نَسِيَ الإِيَابَا
وَغَالَبَنِي الأَسَى أم غَالَبَتْنِي
حَيَاةٌ تَجْعَلُ الفَوْزَ اغْتِصَابَا
أَتَغْصِبُنِي الدُّمُوعُ الصَّبْرَ حَتَّى
.... ؛ أَرَى الدُّنْيَا أَنِينًا وَانْتِحَابَا
وَيُبْدِلُنِي الزَّمَانُ مِنَ التَّصَابِي
وَمِن طَرَبِي وُجُومًا وَاكْتِئَابَا
وَأَسْأَمُ لَذَّةَ الدُّنْيَا وَلَمَّا........
...... ؛ أَذُق مِن لَذَّةٍ إِلاَّ حَبَابَا
فَأَزْجُرُ لَذَّتِي زَجْرَ اليَتَامَى
.. ؛ إِذَا مَا الدَّهْرُ أَمَّ بِهِم ذِئَابَا
أَفِي وَهَجِ الشَّبَابِ أَعُودُ هِمًّا
يَذُودُ بِضَعْفِهِ النُّوَبَ الصِّعَابَا

وَأَطْرِقُ لِلْحَوَادِثِ مُسْتَكِيناً
كَجَانِي الشَّرِّ يَنْتَظِرُ العِقَابَا
وَأُصْبِحُ فِي يَدِ الدُّنْيَا أَسِيراً
إِذَا رَامَ الفَكَاكَ وَهَى وَخَابَا
كَمَا عَلِقَ الحِبَالَةَ ذُو جَنَاحٍ
وَلَمْ يَنْفَعْهُ أَن صَحِبَ السَّحَابَا
فَصَفَّقَ ثُمَّ رَنَّقَ ثُمَّ أَعْيَى......
...... ؛ يَحِنُّ لِدَارِهِ جَوّاً وَغَابَا
أَمِنْ عَدْلِ الحَوَادِثِ أَن أُضَرَّى
.... ؛ لأَطْعَمَ إِثْرَ لَذَّتِهِنَّ صَابَا
وَأَن أَسْتَقْبِلَ الغَدَ مُسْتَرِيباً.. ؛
فَيُقْبِلَ....... ؛ لا أَفَادَ وَلا أَثَابَا
وَأَحْمِلَ مِن بَنَاتِ الهَمِّ قَلْباً
إِذَا نَهْنَهْتُهُ..... ؛ زَادَ اضْطِرَابَا
جَزَاكِ اللهُ مِن دُنْيَا خَتُولٍ
غَدَوْتِ القَلْبَ شَكّاً وَارْتِيَابَا
أَتَنْهَانِي عَنِ الجَزَعِ اللَّيَالِي
وَمَا تَنْفَكُّ تَتْرُكُنِي مُصَابَا

فَتَسْلُبُنِى الأَحِبَّةَ عَن عَيَانٍ
وَتَمْنَحُنِى بِذِكْرَاهُم عَذَابَا
وَتَسْأَلُنِى اخْتِدَاعاً: أَيْنَ بَانُوا
وَمَن يُجْرِم تَوَقَّحَ أو تَغَابِى
سَلِى مَا شِئْتِ وَاسْتَمِعِى شَكَاتِى
كَمِثْلِ الدَّمْعِ تَنْسَكِبُ انْسِكَابَا
أَعَذْلٌ مِنْكِ أن أَجَّجْتِ قَلْبِى
فَلَوْلا الصَّبْرُ يُمْسِكُهُ لَذَابَا
فَصَارَعْتُ الشُّجُونَ وَصَارَعَتْنِى
إِلَى أن فُزْتُ بِالبُقْيَا غِلابَا
فَإِنَّ الدَّهْرَ يُنْصِفُ مَن تَأَبَّى
وَيَمْنَعُ يَائِساً مِن أن يُجَابَا
وَمَن يُعْطَى التَّجَلُّدَ لِلرَّزَايَا
تَيَقَّنَ أن يُصِيبَ وَأَن يُصَابَا
وَسَائِلَةٍ بِظَهْرِ الغَيْبِ عَنِّى
وَعَن جَلَلٍ مِنَ الأَحْدَاثِ نَابَا
تُذَكِّرُنِى الأَحِبَّةَ يَوْمَ وَلَّوْا
فَزَادَ الدَّمْعُ وَالجَزَعُ انْتِيَابَا

أَحَافِظَتِى ؛ فَدَيْتُكِ مِن صَدِيقٍ
يُسَائِلُ مَن مَضَى عَنِّى وَآبَا
هِىَ الدُّنيَا تُفَرِّقُ سَاكِنِيهَا
وَفِى الذِّكْرَى تَزِيدُهُمُ اقْتِرَابَا
أَلا لا تَعْجَبِى لِى مِن نَحِيبِى
فَإِنَّ أَمَامَنَا العَجَبَ العُجَابَا

✿✿✿✿✿

غَابَ وَقْعُ الذِّكْرَى الَّتِى كَانَت !! ؛ ثُمَّ أَخَذَت دَعَائِمُ رُؤْيَةٍ جَدِيدَةٍ تَنْشَأُ وَتَتَكَوَّنُ ؟!!... : المَرْأَةُ !! ؛ وَحَقِيقَتُهَا !!

● لَشَدَّ مَا اجْتَرَأَت المَرْأَةُ فِى هَذَا العَصْرِ !! ؛ وَإِذَا أَخَذَت المَرْأَةُ أَسْلِحَتَهَا : مِنَ الزِّينَةِ وَالتَّطْرِيَةِ وَالجَمَالِ وَالفِتْنَةِ ؛ وَجَيَّشَت غَرَائِزَهَا : مِنَ الحَذَرِ وَالحِيلَةِ وَالضَّعْفِ وَالإِغْرَاءِ ـ لَم يَبْقَ لِلرَّجُلِ إِلاَّ أَن يَسْتَقْتِلَ أَو يَفِر .

وَقَد أَقَامَت (وَزَارَةُ الشُّؤونِ الاجْتِمَاعِيَّةِ) مُنَاظَرَةً بَينَ الأُستَاذ (مُحَمَّد فَرِيد أَبُو حَدِيد) وَالسَّيِّدَة (زَاهِيَة مَرْزُوق) ؛ وَكَانَ غَرَضُهَا هُوَ (كَيْفَ نَنْهَضُ بِالأُسْرَة ؟) .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ السَّيِّدَةَ الكَرِيمَةَ قَد اعْتَقَدَت فِى قَلْبِهَا مَعْنَى (حُرِّيَّةُ المَرْأَة) بِالإِصْرَارِ وَالتَّعَصُّبِ ؛ فَأَخَذَت تَنْتَزِعُ رُجُولَةَ الرَّجُلِ شَيْئًا فَشَيْئًا !! ؛ حَتَّى لَيُخَيَّلَ لِسَامِعِيهَا أَنَّهَا مَخْلُوقٌ وَحْشِىٌّ مُنْطَلِقٌ مِن كُلِّ قُيُودِ النُّبْل !! .

... ؛ وَأَنَا لا أُرِيدُ الآنَ أن أُدَافِعَ عَن الرَّجُلِ ... ؛ كَلاَّ يَا سَيِّدَتِى !! ؛ إِنَّ المَرْأَةَ هِىَ تَجْنِى أَكْثَرَ الذَّنْبِ فِيمَا نَعْلَمُ ؛ ثُمَّ تَتَنَصَّلُ !! ؛ وَهِىَ كُلُّ الأَنَانِيَةِ !! »(١) .

.....

وَفِى سَاعَةٍ مِن سَاعَاتِ تَذَكُّرِ أَيَّامِ طَلَبِ العِلْمِ وَالسَّعْىِ فِى تَحْصِيلِهِ ؛ يَتَجَسَّدُ أَمَامَهُ هَذَا المَشْهَدُ !! ؛ وَهُوَ مَشْهَدٌ عَبَّرَ عَنْهُ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ :

«

بعض الذكرى

كان ذلك مُنْذُ عشرين سنة !! ؛ وكنت فتىً لا يملُّ الدؤوب والسَّعى !! ؛ وكانت أول مرَّةٍ أدخل فيها بيت ذلك الشيخ الضئيل البدن المعروق اللحم ؛ الذى ينظر إليك أبداً كالمُتعجِّب !!.

وكان الذى سعى بى إليه حُبٌّ قد ملأ قلبى له !! ؛ وإجلالٌ قد أخذ علىَّ العهد أن أفى لهذا الشيخ ما حييت !! : وفاء الذكرى !! ؛ ووفاء العلم !! ؛ ووفاء الاقتداء !! .

وَكُنْتُ يومئذٍ قد حضرت بعض دروسه فى مسجد البرقوقىّ ؛ وقرأت عليه شيئاً من كتاب أبى العبَّاس المُبرِّد ؛ وكان يَعُدُّنى كبعض ولده لسابق معرفته بأبى ـ رحمهما الله ـ .

وَكُنْتُ يومئذٍ سقيم الجسم ؛ خفيف اللحم ؛ نحيل التجاليد ؛ ثائر

---

(١) ـ ((جَمْهَرَةُ المَقَالات)) ؛ [جـ ١/٦٣ ـ ٦٤] .

الشعر!! ؛ فإذا لقيته ؛ فربما كان يقول لى :

« كأنك آيبٌ من سفرٍ بعيدٍ أيُّها الفتى ؟!! »

فَكُنْتُ أفهم عنه ؛ فإذا انقلبت إلى الدار عدوت إلى المرآة لأرى ماذا حمل الشيخ على مقالته التى لم يزل يقولها لى ويدى على يده أو فى يده ؟!! ؛ فما أرى سوى وجهٍ شاحبٍ ضامرٍ!! ؛ وعينين غائرتين كأنهما تنظران إلى شىءٍ بعيدٍ فى جوف وادٍ سحيقٍ عميق !! ؛ فأقول لنفسى : هذا جهد التحصيل وكَدُّ النفس فى قراءة هذه الأسفار القديمة التى تباعدت معانيها وتقادمت عهودها .

طرقت بابه فى ذلك اليوم على غير ميعاد ؛ ففتح لى صغيرٌ من حفدته ؛ وقادنى إلى غُرفة الشيخ ؛ فإذا هو جالسٌ على حَشِيَّةٍ على بساطٍ كالحٍ من تقادُم الأيَّام!! ؛ وعلى يمينه خزانة كُتُبٍ مطويَّةٍ فى جوف الجدار ؛ وأمامه صينيَّة صفراء من نحاس فيها أداة القهوة ؛ وعلى يساره كُتُبٌ مركومةٌ ؛ وفى يُمناه قلمٌ يكتب .

فلمَّا سَمِعَ حِسِّى ؛ رفع إلىَّ بصره ؛ وسكن !! ؛ وظلَّ كذلك ساعةً وأنا بين يديه يأخذنى ما قَرُبَ وما بَعُدَ من هيبته !! ؛ وجعل ينظر إلىَّ فأطال النظر ؛ ثم لم يلبث أن قال بصوتٍ خافتٍ ما كُنْتُ لأتبيَّنه لولا أنى عرفت الذى يقول وكُنْتُ أحفظه ؛ وهى هذه الأبيات من شعر بعض الأعراب :

رَأَت نِضْوَ أَسْفَارٍ ؛ أُمَيْمَةُ ؛ شَاحِبَاً
عَلَى نِضْوِ أَسْفَارٍ ؛ فَجُنَّ جُنُونُهَا

فَقَالَت: مِن أيِّ النَّاسِ أَنتَ؟ وَمَن تَكُن؟

. ؛ فَإِنَّكَ رَاعِي صِرْمَةٍ لا يَزِينُهَا!!

فَقُلْتُ لَهَا: لَيسَ الشُّحُوبُ عَلَى الفَتَى

بِعَارٍ !! ؛ وَلا خَيْرُ الرِّجَالِ سَمِينُهَا !!

.... ؛ عَلَيكِ بِرَاعِي ثُلَّةٍ مُسْلَحِبَّةٍ

؛ يَرُوحُ عَلَيْهَا مَحْضُهَا وَحَقِينُهَا

سَمِينُ الضَّوَاحِي ؛ لَم تُؤَرِّقْهُ لَيْلَةً

ـ وَأَنْعَمَ ـ أَبْكَارُ الهُمُومِ وَعُونُهَا

وكان الشيخ حسن التقسيم للشعر حين يقرؤه ؛ فيقف حيث ينبغى الوقوف ؛ ويمضى حيث تتصل المعانى ؛ فإذا سمعت الشعر وهو يقرؤه فهمته على ما فيه من غريبٍ أو غموضٍ أو تقديمٍ أو تأخيرٍ أو اعتراض !! ؛ فكأنه يُمَثِّلُهُ لك تمثيلاً لا تحتاج بعده إلى شرحٍ أو توقيف !! ؛ وكان فى صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والاقتدار !! ؛ وفى نبراته حين يُنْشِدُ الشعر معنى الفهم للذى يتلوه عليك ؛ فلا تكاد تخطئ المعانى التى ينطوى عليها ؛ لأنها عندئذٍ ممثلة لك فى صوته ؛ والصوت الإنسانيُّ هو وحده القادر على الإبانة عن المعانى الخفيَّة المُستكنَّة فى طوايا النفوس أو فى أحاديث النفوس .

وَرُبَّ رَجُلٍ أو امرأةٍ تسمع كلامه أو كلامها وأنت لا تعرف عن أحدهما شيئاً ؛ فيُخيَّل إليك وأنت تسمع أنك قد نفذت على نبرات هذا الصوت إلى

أعمق الأعماق المدفونة فى هذه النفس الإنسانية التى تُحادثك ؛ وهذا شئٌ لا يكون إلا فى ذوى النفوس الصادقة الصافية البريئة من حشو الحياة وسفسافها ؛ وهذه النفوس وحدها هى القادرة على أن تجعل الصوت بمجرده لُغَةً مُبِينَةً عن أغمض المعانى التى تعجز لغات البشر عن حملها وأدائها !! .

وأنت محُتاجٌ حين تسمع « لُغة الصوت » أن تكون يقظ النفس ؛ حىّ الإحساس ؛ نفّاذاً إلى المعانى المُتلفّعة بالغموض ؛ حَسَنَ التيقُّظ للنبرات التى تَدُلُّ على ضمير اللفظ ؛ سريع الخاطر فى إدراك هذا الموج المُتلاحق من الحركات المختلفة .

فإذا كان الذى تسمعه كلاماً يُتلى أو يُنْشَدُ كالشِّعْرِ مثلاً ؛ وكان الذى ينشده قد عاش ساعةً فى معانيه حتى تلبَّس بها ؛ ونطق لسانه مُعبِّراً عن لسانها وعن لسان قائلها الأول : كان عليك أن تكون ليِّناً ؛ طيِّعاً ؛ سريع التبدُّل ؛ جرئَ النفس فى غمرات العواطف : حتى يُتاح أن تعيش أنت نفسك فى هذه المعانى ساعة تُتلى عليك : وعندئذٍ تغشاك غمرةٌ لذيذةٌ تَدُبُّ فى غضون نفسك !! ؛ فتحسّ كأنك تُبعث بعثاً جديداً فى حياةٍ جديدةٍ حافلةٍ بالصُّور التى قلّما يُدركها العقل إلا مُشوّهةً مشيّأةً متخالفة التركيب ؛ فلا يزال يجهد فى تلفيق أجزائها حتى لا يبقى من أصولها الحيّة الصريحة الصادقة شئٌ البتّة .

فإن استطعت يوماً أن تجد فى نفسك أنك مُستطيعٌ أن تكون على هذه الصفة ؛ فقد فهمت الشعر ونفذت إلى أغواره ؛ وإن عجزت عن بيان ما فيه .

وفى الناس ناس ؛ وقليلٌ ما هُم !! ؛ قد أجادوا « لُغة الصوت » إجادةً بارعةً ؛ وإن كانوا فى أكثر الأحيان لا يُدركون أنهم يُحسنون منها شيئاً !! ؛ وذلك لطول ما انطووا على أنفسهم حتى غمروها فى بحـر النسيان .

وربما سمعت أحدهم وهو يتكلّم ؛ فما يكاد ينطق حرفاً أو حرفين حتى تحس كأن كل معانى نفسه تتسرّب فى نفسك واضحةً بيِّنة ؛ وأنك قد عرفت منها ما يكاد يُخفيه عن الناس جميعاً ؛ لأنه مُتكبِّرٌ !! ؛ أو قانطٌ !! ؛ أو هيَّابٌ جزوع !! .

وهذا الضرب من الناس هم أشدُّ خلق الله حرصاً على إخفاء آلامهم ؛ وأبعدهم رغبةً فى الاستمتاع بالعذاب الذى يُقاسونه ؛ لأنهم يظنون أنهم بذلك قد حازوا النصر على آلامهم ؛ وعلى الناس أيضاً ؛ إذ استطاعوا أن يُواروا عنهم خِبْءَ ما فى نفوسهم الحزينة المُعذَّبة .

.....

لمَّا سمعت الشيخ ـ رحمه الله ـ يُنشد تلك الأبيات : تمثَّلت لعينى تلك المأساة الخالدة بين الرَّجُل الصادق والمرأة التى أحبَّها ؛ وكانت تطمع أن يكون لها كما خيَّلت لها أوهامها ؛ وأن يأتيها بتحقيق أحلامها ـ أى أحلام حواء مُنْذُ كانت حواء ؛ على اختلاف العصور وتباين الحضارات ـ ؛ فهذا أعرابىٌّ مُحِبٌّ لصاحبته « أُميمة » التى ذكرها فى شعره ؛ فدارت به الأيام فى فيافى الحياة مُلتمساً ما يُحقِّق به أمانى هذه المرأة المحبوبة ؛ ثم عاد إليها وقد أذابت

البيد منه ما أذابت بظمئها وشمسها وجوعها ومخاوفها !! .

فلمَّا رأته شاحباً مهزولاً رَثّاً !! ؛ أسوأ حالاً مما عهدته !! : أنكرته وقد أثبتته معرفةً !! ؛ فَجُنَّ جُنُونها لأنها مُحِبَّةٌ قد أخطأت فى الرَّجُلِ الذى تُحِبُّ كُلَّ ما كانت تُؤمِّله !! ؛ وخانها ما كانت تتمثّله فى أحلامها من صِحَّةٍ وشبابٍ وأناقةٍ وجمال !! ؛ وما أسرع ما تتنكّر المرأة إذا خاب ظنُّها وتبدَّدت أحلامها ؛ وفاجأتها الحقيقة العارية بالشيء الذي يُخالف ما كانت تتوهَّم !! .

كانت المفاجأة صارخة فى نفس أُميمة !! ؛ فلم تلبث أن غلبتها تلك الطبيعة المُتقلِّبة الغدّارة التى طال عهد المرأة بها !! ؛ فأظهرت كأنها لا تعرفه ولم تلقه ساعةً من دهرٍ !! ؛ وجرى على لسانها ذلك الحديث الذى يرويه لنا المُحِبُّ !! :

فقالت : من أيِّ الناس أنت ؟!!

ولم تقف عند هذا !! ؛ فأبدت الفزع منه لئلا يخونها ما فى حنايا ضلوعها فيظهر على لسانها !! ؛ فعادت تقول : ومن تكُن ؟!!

ولكن أنّى للمرأة الضعيفة التى زلزلت المفاجأة بُنيانها أن تكتم حقيقة نفسها ؟!!

لقد كانت مُنْذُ هُنيهَةٍ تسأله سؤال الجاهل : من هو ؟!! ؛ ومن يكون؟!!

فإذا بها تنهار من شِدَّة ما تُعانى من اهتزاز كيانها !! ؛ فتقول له مقالة الناقد الساخر !! ؛ مُحاولةً أن تُبدى عن احتقارها وازدرائها لما ترى !! ؛ فزوت عنه وجهها وهى تقول : لو كنت راعى إبل لكنت خليقاً أن تنكر النفوسُ

والأعينُ ما ترى من حقارتك وبذاذتك !! ؛ فكيف ترجو أيُّها المُحِبُّ المغرور أن تكون حسناً فى عين من تحب ؟!! ؛ وأن تكون زيناً لامرأةٍ أحبَّتك ؟!!

وهكذا المرأة !! ؛ إلا من عصم الله !! .

فَهِمَ الشاعر المُحِبُّ مرمى كلامها !! ؛ فأنف لنفسه !! ؛ فانطلق يسخر منها بعد أن تكشَّف له ضمير المرأة الغادرة !! .

فقال لها : ليس الشُّحُوب على الفتى بعار !! ؛ ولا خير الرجال سمينها !! وإذا كان شُحُوبى قد ساءك وآذاك حتى أنكرت منِّى ما تعرفين !! ؛ فنعم ؛ ولك العُتْبَى علىَّ !! ؛ عليك بمن يزينك !! ؛ اطلبى لنفسك راعى غنم قد اطمأنت به وبها الحياة ؛ فعاش خافضاً وادعاً لا همَّ له إلا بطنه !! ؛ حتى امتلأ وتضلَّع وغدا سميناً بَضًّا جميلاً كأحسن ما تأملين !! ؛ فأنتن أيتُها النسوة إنما تحببن من الرجال الزينة وحدها !! ؛ كأنكن إنما تتخذن الرِّجال حُلِيًّا لا أصحاباً ولا أزواجاً !! ؛ وهكذا المرأة !! ؛ هى لضعفها تؤثر لحياتها كل ظاهرٍ يَدُلُّ على القُوَّة ؛ فهى تؤثر البدن القوىَّ على البدن الضعيف ؛ وتؤثر اليُسْرَ على الخصاصة ؛ وتؤثر القناعة على الطموح ؛ وإن كان قلبها يؤثر بالحُبِّ ذلك الضعيف الفقير الطمَّاح الذى أضرَّ به الكدح !! ؛ ولكن قلب المرأة هو آخر ما تهتم له إذا جاءها بمن لا ترضاه لحياتها !! ؛ فالمرأة مفتونةٌ بكُلِّ ما يدُلُّ على القوة الظاهرة !! ؛ ولا تكاد تُبالى شيئاً بالقُوة المُستكنَّة ؛ كالعلم والعقل والجهاد والصبر !! ؛ لأنها تريد أن تحيا حياةً مُطمئنَّةً محفوفةً بما يحسدها عليه النِّسَاء سواها ؛ لا أن تحيا مُجاهدةً فى عذاب حبيبٍ مُجاهد !! .

وَمُنْذُ سمعت الشيخ يُنشد تلك الأبيات : وقفت على كلمة فى هذا الشعر لا أزال أعجب لها !! ؛ وهى :

« أبْـكَارُ الـهُـمُومِ وَعُونُـهَا » !!

« أبْـكَارُ الـهُـمُومِ » !! يالها من كلمةٍ عبقريَّةٍ !! ؛ إنَّ مزيَّة هؤلاء الأعراب البُدَاة على سائر من نطق بالعربيَّة : هى هذه الجرأة العجيبة التى تنقَضُّ على اللغة فتنفضها نفضاً !! ؛ وتختار من ألفاظها كلمة تضعها حيث تشاء !! ؛ فلا تراها تقلق فى مكانها أو تضطرب !! ؛ وهـم بـذلك يختـصرون المعانى كلها فى كلمة واحدة يخبأون فيها أحلامهم وخيالهم وأحاسيسهم وأسرار قلوبهم !! ؛ كما خبَّأ هذا الأعرابىُّ كل ما كان فى نفسه فى(أبْـكَار) ؛ وَدَلَّ بها على المعانى التى كانت تـضطرم فـى قلبـه حتـى أضـنته ومسحت وجهه بالشحوب !! وعرقت لحمة بالهُزال !! ؛ وصيَّـرتهُ إنساناً مُنكراً فى عين من يُحِب !! .

فهذا الأعرابىُّ الجرىء ؛ والمُحِبُّ المُزْدَرَى !! ؛ السـاخر المُستخفُّ عندئـذٍ بالناس وبالنساء وبالحياة !! ؛ قد أراد أن يُعلم « أُميمته » الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأً غضَّاً ناضراً ناعماً لم تُؤرقه هموم النفس ولم يضر به الكدح فى بوادى الأحلام والآلام والآمال ؛ فإنَّـهُ غَـنِىٌّ عنهـا ؛ وعن سـائر نـساء العالمين !! ؛ وأن أمثالها لَسْنَ له بِهَمٍّ !! ؛ وأن له من حاجات نفسه وهمومها « أبكاراً » كأبكار النساء ؛ و « عوناً » كعونها !! ؛ فهو راضٍ بها وبما يلقى فى سبيلها من أرَقٍ وسُهاد !! .

وأراد أن يُعلمها أنه لا يأسى على ما فاته من بكرٍ ولا عوان ؛ فإن للنفس الشاعرة هموماً « أبكاراً » لم تمسسها يدٌ ولا فكرٌ ولا حُلمٌ !! ؛ تجد النفس المُحبّة فيها ما يجد المُحِبُّ فى العذراء الحييَّة العصيَّة من فتنة وجمال ونضرة وشباب ؛ ولا يزال يداورها ويحاورها !! ؛ ويشقى بالسعى فى طِلابها شقاءً لذيذاً له فى القلب نشوة أو سُعار !! .

وهى « أبكار » لا تزال عذراء على وجه الدهر !! ؛ لا تُغيِّرُ منها الأيَّام شيئاً !! ؛ ولا تُنيل الطالب المُحِبَّ إلا متاع الحُبِّ المُجرَّد من شهوات الأبدان ؛ بل هى تغتذى بالأبدان ؛ فتُضنيها وتُنهكها لتبقى هى أبداً أبكاراً !! .

وللنفس أيضاً هُمُوماً « عون » قد أصاب الناس منها ما أصابوا ؛ ولكن بقيت منها للنفوس الشاعرة بقيَّة فاتنة بما فيها من دلال وكبرياء وقدرة على الامتناع عند الإمكان ؛ ونُبْلٍ فى الخضوع والتسليم عند العجز ؛ فهى تُداور صاحبها وتُحاورهُ حتى تُشقيه شقاءً لذيذاً ؛ ثم تُنيله ما يشاء حتى يرضى .

ولقد عجبت للشيخ يومئذٍ وهو يُكرِّر :

« لَـم تُـؤَرِّقْـهُ لَيْلَـةً ؛ـ وَأَنْعَـمَ ـ أَبْكَـارُ الـهُـمُـومِ وَعُـونُـهَـا »!!

فقد كان فى صوته ما جعلنى أنسى أنّى لم أزل واقفاً أُنصت لدبيب هذه الحياة فى جَوِّ الغُرفة !! ؛ ثم خرجت من عنده ولا يزال صدى صوته يُرَدِّدُ فى نفسى تلك الكلمات المصورة المُبدعة :

«أَبْكَارُ الهُمُومِ وَعُونُهَا»!!

محمود محمد شاكر ١٣٠٠ هـ .

كَتَبَ الأَدِيبُ مَحْمُود شَاكِر هَذَا المَقَالَ فِي نُوفَمْبر مِن عَامِ ١٩٤٦ م بِمَجَلَّةِ الرِّسَالَةِ ؛ بِالعَدَدِ « ٦٩٦ » ؛ أي بَعْدَ مُرُورِ أَكْثَرِ مِن عَشْرِ سَنَوَاتٍ عَلَى قِصَّةِ حُبِّهِ الخَائِبَةِ !! ؛ وَهَاهُنَا أَمْرٌ لابُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَيْهِ :

لَم يَتَذَكَّر مَحْمُود شَاكِر هَذِهِ القِصَّةَ ؛ إِذ كَانَ شَبَحُهُ مُتَجَسِّدًا فِي خَيَالِهِ وَذَاكِرَتِهِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الآنِيَّةِ !! ؛ كَلاَّ !! ؛ بَل لأَنَّهُ تَذَكَّرَ مَا يُنَاطُ بِأَمْرِ المَرْأَةِ فِي هَذَا اللِّقَاء !! ؛ غَدْرُهَا !! ؛ وَحَقَارَتُهَا !! ؛ وَضِعَةُ نَفْسِهَا !! ؛ وَكَانَ المَدْخَلُ الَّذِي جَعَلَ قَلَمَهُ يَسِيلُ وَيَكْتُبُ عَنِ المَرْأَةِ يَكْمُنُ فِي هَذِهِ الأَبْيَات :

رَأَت نِضْوَ أَسْفَارٍ ؛ أُمَيْمَةُ ؛ شَاحِبًا
عَلَى نِضْوِ أَسْفَارٍ ؛ فَجُنَّ جُنُونُهَا
فَقَالَت : مِن أَيِّ النَّاسِ أَنتَ؟ وَمَن تَكُن؟
. ؛ فَإِنَّكَ رَاعِي صِرْمَةٍ لا يَزِينُهَا!!
فَقُلْتُ لَهَا : لَيْسَ الشُّحُوبُ عَلَى الفَتَى
بِعَارٍ !! ؛ وَلا خَيْرُ الرِّجَالِ سَمِينُهَا !!
.... ؛ عَلَيْكِ بِرَاعِي ثُلَّةٍ مُسْلَحِبَّةٍ
؛ يَرُوحُ عَلَيْهَا مَحْضُهَا وَحَقِينُهَا

سَمِينُ الضَّـوَاحِى ؛ لَـم تُـؤَرِّقْهُ لَيْـلَـةً
ـ وَأَنْـعَـمَـ أَبْكَـارُ الـهُـمُـومِ وَعُـونُـهَـا

كَانَت هَذِهِ الأَبْيَاتُ بِمَثَابَةِ نُقْطَةِ الانْطِلاقِ لِكُلِّ مَا جَاءَ بَعْدَ ذَلِك:

« لَمّا سمعت الشيخ ـ رحمه الله ـ يُنشد تلك الأبيات: تمثَّلت لعينى تلك المأساة الخالدة بين الرَّجُل الصادق والمرأة التى أحبَّها؛ وكانت تطمع أن يكون لها كما خيَّلت لها أوهامها؛ وأن يأتيها بتحقيق أحلامها ـ أى أحلام حواء مُنْذُ كانت حواء؛ على اختلاف العصور وتباين الحضارات ـ. ».

فَهُوَ فِى قَوْلِهِ:

« تمثَّلت لعينى تلك المأساة الخالدة بين الرَّجُل الصادق والمرأة التى أحبَّها !! » .

فَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الشَّاعِرِ وَحَبِيبَتِهِ أُمَيْمَة؛ هَذَا فِى ظَاهِرِ الأَمْرِ؛ بَيْنَمَا الَّذِى تَمَثَّلَ لِعَيْنَيْهِ حَقِيقَةً هُوَ الأَدِيبُ الشَّاعِرُ مَحْمُود شَاكِر وَحَبِيبَتُهُ المَجْهُولَةُ !! .

ثُمَّ يَقُول:

« وما أسرع ما تتنكَّر المرأة إذا خاب ظنُّها وتبدَّدت أحلامها؛ وفاجأتها الحقيقة العارية بالشيء الذي يخُالف ما كانت تتوهَّم !! » .

هَذِهِ إِشَارَةٌ صَرِيحَةٌ إِلَى قِصَّتِهِ الَّتِى وَقَعَت لَهُ وَوَقَعَ فِى حَبَائِلِهَا !!؛ إِنَّهُ يَصِفُ المَرْأَةَ الَّتِى عَرِفَهَا؛ وَيَحْكُمُ عَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ جَاحِدَةٍ وَيُصَوِّرُهَا مِن خِلالِهَا !! .

« فلم تلبث أن غلبتها تلك الطبيعة المُتقلِّبة الغدَّارة التى طال عهد المرأة

بها !! .﴾ .

ثُمَّ يَقُول:

﴿ فَهِمَ الشاعر المُحِبُّ مرمى كلامها !! ؛ فأنف لنفسه !! ؛ فانطلق يسخر منها بعد أن تكشَّف له ضمير المرأة الغادرة !! .

فقال لها : ليس الشُّحُوب على الفتى بعار !! ؛ ولا خير الرجال سمينها !! وإذا كان شُحُوبي قد ساءك وآذاك حتى أنكرت منِّي ما تعرفين !! ؛ فنعم ؛ ولك العُتْبَى عليَّ !! ؛ عليك بمن يزينك !! ؛ اطلبي لنفسك راعي غنم قد اطمأنت به وبها الحياة ؛ فعاش خافضاً وادعاً لا همَّ له إلا بطنه !! ؛ حتى امتلأ وتضلَّع وغدا سميناً بَضّاً جميلاً كأحسن ما تأملين !! ؛ فأنتن أيتُها النسوة إنما تحببن من الرجال الزينة وحدها !! ؛ كأنكن إنما تتخذن الرِّجال حُلِيّاً لا أصحاباً ولا أزواجاً !! ؛ وهكذا المرأة !! ؛ هي لضعفها تؤثر لحياتها كل ظاهرٍ يَدُلُّ على القُوَّة ؛ فهي تؤثر البدن القويَّ على البدن الضعيف ؛ وتؤثر اليُسْرَ على الخصاصة ؛ وتؤثر القناعة على الطموح ؛ وإن كان قلبها يؤثر بالحُبِّ ذلك الضعيف الفقير الطمَّاح الذي أضرَّ به الكدح !! ؛ ولكن قلب المرأة هو آخر ما تهتم له إذا جاءها بمن لا ترضاه لحياتها !! ؛ فالمرأة مفتونةٌ بكُلِّ ما يدُلُّ على القوة الظاهرة !! ؛ ولا تكاد تُبالي شيئاً بالقُوة المُستكنَّة ؛ كالعلم والعقل والجهاد والصبر !! ؛ لأنها تريد أن تحيا حياةً مُطمئنَّةً محفوفةً بما يحسدها عليه النِّسَاء سواها ؛ لا أن تحيا مُجاهدةً في عذاب حبيبٍ مُجاهد !! .﴾ .

﴿ فهذا الأعرابىُّ الجرىء ؛ والمُحِبُّ المُزْدَرَى !! ؛ الساخر المُستخفُّ عندئذٍ بالناس وبالنساء وبالحياة !! ؛ قد أراد أن يُعلم « أميمته » الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأً غضًّا ناضراً ناعماً لم تُؤرقه هموم النفس ولم يضر به الكدح فى بوادى الأحلام والآلام والآمال ؛ فإنَّهُ غَنِىٌّ عنها ؛ وعن سائر نساء العالمين !! ؛ وأن أمثالها لَسْنَ له بِهَمٍّ !! ؛ وأن له من حاجات نفسه وهمومها « أبكاراً » كأبكار النساء ؛ و « عوناً » كعونها !! ؛ فهو راضٍ بها وبما يلقى فى سبيلها من أرَقٍ وسُهاد !! ﴾ .

وَكُلُّ هَـذَا الَّذِى سَطَّرَهُ صَاحِبُنَا ؛ إِنَّمَا هُوَ مَحْضُ تَبْرِيرٍ لِمَوْقِفِهِ الَّذِى قَدْ كَـان !! ؛ إِنَّـهُ يُحَاوِلُ أن يَعِيشَ بِخَيَالِهِ حَالَـةَ الرَّجُلِ الطَّمُوحِ ذِى الآمَالِ العِرَاضِ الَّذِى أَبْغَضَ حَبِيبَتَهُ بَعْدَ أن عَرِفَ حَقِيقَتَهَا !! ؛ إِنَّ مَحْمُود شَاكِرٍ يُرِيدُ أن يُوهِمَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ مَن تَرَكَ حَبِيبَتَهُ بِلا تَفْكِيرٍ أو تَرَدُّدٍ بُعَيْدَ أن خَبِرَ بَاطِنَهَا !! ؛ وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لأَنَّهُ كَانَ مَا يَزَالُ يُعَانِى مِن ذِكْرَى القَهْرِ وَالذُّلِ الَّذِى تَعَرَّضَ لَهُ فِى إِبَّانِ مِحْنَتِهِ الَّتِى كَانَت !! ؛ إِنَّهَا مُحَاوَلَةٌ مِن مُحَاوَلاتِ التَّنَكُّرِ لِمَا يَمُورُ بِالبَاطِنِ النَّفْسِىِّ لِذَاتِهِ الإِنْسَانِيَّةِ !! ؛ وَهُوَ أُسْلُوبٌ مِن أَسَالِيبِ التَّعْوِيض !! ؛ كَالفَارِسِ الَّذِى أَقْدَمَ عَلَى مُوَاجَهَةِ خَصْمِهِ وَهُوَ يَرَى أَنَّ الهَزِيمَةَ كَالعَار ؛ فَلَمَّا هُزِمَ حَاوَلَ أن يَقْهَرَ شُعُورَهُ بِالخِزْىِ وَالخِذْلانِ بِأن أَخَذَ فِى نَسْجِ شِعْرٍ يَرَى أَنَّ البُطُولَةَ إِنَّمَا تَكْمُنُ فِى مَحْضِ الشَّجَاعَةِ وَالمُوَاجَهَةِ وَتَأْنَفُ مِنَ مَوْقِفِ التَّهَيُّبِ وَالتَّرَدُّدِ ؛ وَأَمَّا مَجِيءُ النَّصْرِ أو حُلُولُ الهَزِيمَةِ ؛ فَذَاكَ أَمْرٌ قَدَرِىٌّ ؛ إِذ لَو هُزِمَ الشُّجَاعُ المِقْدَامُ لَمَا كَانَ فِى ذَلِكَ مَا يَدْعُو إِلَى انتِقَاصِهِ أو التَّحْقِيرِ مِن أَمْرِهِ ؛

طَالَمَا أَنَّهُ أَقْدَمَ وَمَا تَأَخَّرَ أو تَوَانَى !! .

وَإِن كُنْتُ أَرَى أَنَّ هَذَا المِثَالَ هُوَ قِيَاسٌ مَعَ الفَارِقِ ؛ إِذ الشُّجَاعُ المَهْزُومُ يُعَدُّ بَطَلاً بِلا رَيْبٍ مَادَامَ أَنَّهُ قَد صَمَدَ لِلنِّهَايَةِ وَمَا فَرَّ أو استَسْلَمَ ؛ بَيْنَمَا مَحْمُود شَاكِر هُوَ الَّذِى عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلذُّلِ وَالمَهَانَةِ !! ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَنَ انْكِسَارَهُ بُعَيْدَ أن هَجَرَتْهُ حَبِيبَتُهُ وَلَم يَصْبِر عَلَى قَدَرِهِ !! ؛ وَلَو أَنَّهَا تَرَكَتْهُ مُرْغَمَةً لَمُرِّرَ أَمْرُهُ فِيمَا فَعَلَ بِنَفْسِهِ !! ؛ وَلَكِنَّهَا صَرَّحَت بِالبُغْضِ وَأَعْلَنَتْهُ غَيْرُ عَابِئَةٍ بِصَاحِبِهَا المُخْلِصِ الوَفِيِّ !! ؛ فَكَانَ مِنَ الوَاجِبِ عَلَيْهِ أَن يُبَادِلَهَا بُغْضاً بِبُغْضٍ ؛ وَازْدِرَاءً بِإِزْدِرَاء ؛ وَأَن يَكْفُرَ بِهَا كَمَا كَفَرَت بِهِ !! ؛ وَلَكِنَّهُ أَظْهَرَ دُمُوعَهُ !! ؛ وَصَرَّحَ بِجَزَعِهِ !! ؛ وَأَنَّهُ مَا نَسِيَ مَا قَد كَانَ !! ؛ بَل مَا حَاوَلَ أَن يَتَنَاسَى !! ؛ بَيْنَمَا هِيَ قَد جَعَلَت الأَمْرَ تَحْتَ أَقْدَامِهَا !!... ؛ إِنَّهُ مَوْقِفٌ رَهِيبٌ !! ؛ أَن يَكُونَ الفَتَى قَد عَاشَ عُمْرَهُ كُلَّهُ وَهُوَ مَضْرِبُ المَثَلِ فِى العِزَّةِ وَالنَّخْوَةِ وَالكِبْرِيَاء ؛ ثُمَّ هَكَذَا !! ؛ وَبَين غَمْضَةِ عَينٍ وَانْتِبَاهَتِهَا !!... : يُصْبِحُ أُضْحُوكَةً !! ؛ وَمَصْدَراً مِن مَصَادِرِ الشَّفَقَةِ وَالعَطْفِ !! ؛ كَيْفَ لَم يَنْظُر إِلَى مَكَانَتِهِ ؟!! ؛ وَأَيْنَ ذَهَبَت قُوَّتُهُ ؟!! ؛ تَبّاً لِلْحُبِّ إِذَا كَانَت هَذِهِ هِيَ مَغَبَّتُهُ؟!! ؛ وَقُبْحاً لِلْهَوَى إِن كَانَت تِلْكَ هِيَ عَاقِبَتُه؟!! ؛ أَيَهْدِمُ الرَّجُلُ شَأْنَهُ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ؟!! ؛ أَيْنَ الإِرَادَة ؟!! ؛ أَيْنَ الصَّبْرِ؟!! ؛ أَيْنَ؟!! ؛ وَأَيْنَ؟!! ؛ وَأَيْن؟!! .

.....

عَن عُبَيْدِ النَّعالىّ - غُلام أبى الهُذَيْل - ؛ قال : انصرفتُ من جنازةٍ من مسجد الرِّضىّ فى وقت الهاجرة ؛ فلمَّا دخلت سكك البصرة ؛ اشتد علىَّ

الحرُّ ؛ فتوخَّيتُ سكَّةً ظليلةً ؛ فاضطجعت على باب دار ؛ فسمعت ترنُّماً يجذب القلب !! ؛ فطرقت الباب واستسقيتُ ماءً ؛ فإذا فتىً اجتهرنى جماله !! إلاَّ أن أثر العِلَّة والسُّقم عليه بَيِّنٌ ؛ فأدخلنى إلى خيشٍ نظيفٍ وفرشٍ سرىٍّ ؛ فلمَّا اطمأننتُ ؛ خرج الفتى ومعه وصيفةٌ معها طستٌ وماءٌ ومنديل ؛ فغسلت رجلى وأخذت ردائى ونعلى وانصرفتْ ؛ فلبثتُ يسيراً ؛ فإذا جاريةٌ أُخرى وقد جاءت بطستٍ وماءٍ ؛ فقُلتُ : قد غسلت يدى !! ؛ فقالت : إنما غسلت رجليك !! ؛ فاغسل الآن يديك للغداء ؛ وإذا الفتى قد أقبل ضاحكاً ليُؤنسنى ؛ وأنا أعرف العَبْرَة فى عينيه !! ؛ وَأُتِىَ بالطعام فأقبل يأكل ؛ وهو فى ذلك يُبسطنى .

فلما انقضى أكلنا ؛ أُتينا بشرابٍ ؛ فشرب قَدَحَاً وشربتُ آخر ؛ ثُمَّ زَفَرَ زَفْرَةً ظننت أن أعضاءه قد نُقِضَت !! ؛ وقال لى : يا أخى !! ؛ إن لى نديماً ؛ فقُم بنا إليه !! ؛ فقُمتُ ؛ وتقدَّمنى ؛ ودخل مجلساً ؛ فإذا قبرٌ عليه ثوبٌ أخضر ؛ وفى البيت رمل مصبوب !! ؛ فقعد على الرَّمْل ؛ وطرح لى مُصلَّى ؛ فقُلت : واللهِ لا قعدتُ إلاَّ كما تقعد !! ؛ وأقبل يُرَدِّدُ العَبَرَات ؛ ثم شرب كأساً وشربتُ ؛ وأنشأ يقول :

أَطَأُ التُّرَابَ ؛ وَأَنتَ رَهْنُ حُفَيْرَةٍ
هَالَتْ يَدَاىَ عَلَى صَدَاكَ تُرَابَهَا
إِنِّى لأَعْذِرُ مَنْ مَشَى إِن لَم أَطَأ
بِجُفُونِ عَيْنِى مَا حَيِيتُ جَنَابَهَا

لَو أنَّ جَمْرَ جَوَانِحِى مُتَلَبِّسٌ
بِالنَّارِ أَطْفَأَ حَرُّهَا وأذابَهَا

ثم أَكَبَّ على القبر مَغشيّاً عليه !! ؛ فجاءه غُلامٌ بماءٍ ؛ فصبَّهُ على وجهه ؛ فأفاق ؛ فشرب ؛ ثم أنشأ يقول:

اليَوْمَ ثَابَ لِىَ السُّرُورُ لأنَّنِى
أيْقَنْتُ أنِّى عَاجِلاً بِكَ لاحِقُ
فَغَدَاً أُقَاسِمُكَ البِلَى ؛ وَيَسُوقُنِى
طَوْعَاً إِلَيْكَ ؛ مِنَ المَنِيَّةِ ؛ سَائِقُ

ثم قال لى: قد وجبت حقّى عليك ؛ فاحضر غداً جنازتى !! ؛ قُلْتُ: يُطيلُ الله عُمُرَكَ !! ؛ قال: إنِّى ميِّتٌ لا محالة . !! .

فدعوت له بالبقاء ؛ فقال: لقد عققتنى !! ؛ ألا قُلت:

جَاوِر خَلِيلَكَ مُسْعَدَاً فِى رَمْسِهِ
كَيمَا يَنَالُكَ فِى البِلَى مَا نَالَهُ !!

فانصرفت ؛ وطالت علىَّ ليلتي !! ؛ وغدوت ؛ فإذا هو قد مات !! .

....

فَانْظُر !! ؛ وَتَأمَّل شَأنَ صَاحِبِ هَذِهِ القِصَّةِ الحَزِينَةِ العَجِيبَةِ الرَّائِعَةِ !! ؛ فَبَطَلُهَا عَاشِقٌ مِن أَعْظَمِ العَشَّاقِ !! ؛ وَحَبِيبَتُهُ الَّتِى عَشِقَهَا عَاشَت تُبَادِلُهُ عِشْقَاً طَاهِرَاً بِعِشْقٍ بَرِىءٍ ؛ ثُمَّ قَضَت نَحْبَهَا وَهِىَ عَلَى إِخْلاصِهَا ؛ فَبَنَى لَهَا قَبْرَاً فِى

دَارِهِ كَى تَكُونَ قَرِيبَةً مِنْهُ ؛ وَلَيْس بِمُلامٍ فِى ذَلِك ؛ ثُمَّ غَفَلَ عَن نَفْسِهِ وَعَنِ الحَيَاةِ بَعْدَ مَوْتِهَا حَتَّى أَضْحَى كَمَن غَابَ عَنْهُ عَقْلُهُ !! ؛ وَلَيْس بِمُلامٍ فِى ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَم يَزَل بِنَفْسِهِ ؛ حَتَّى أَزْهَقَهَا !! ؛ ثُمَّ أَزْهَقَهَا !! ؛ وَلَيْس بِمُلامٍ فِى ذَلِك !!... ؛ وَلا تَحْسَبَنَّ أَنَّهُ أَزْهَقَ رُوحَهُ بِقَتْلِ نَفْسِهِ !! ؛ كَلاَّ !! ؛ بَل مَازَالَ دَاءُ العِشْقِ يَفْتِكُ بِهِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حَتَّى أَذْبَلَهُ وَهَيَّأَهُ لِلْمَوْتِ الَّذِى يَتَمَنَّاه !! ؛ وَلَقَد حَدَّثَ صَاحِبَهُ بِأَنَّهُ سَيَمُوتُ غَدًا ؛ لأَنَّ المَوْتَ إِذا صَارَ قَابَ قَوْسَينِ أَو أَدْنَى مِنَ الفَتَى تَقَدَّمَت بَينَ يَدَيْهِ أَطْيَافٌ وَعَلامَاتٌ تُنْذِرُ بِمَجِيئِهِ أَو تُبَشِّرُ بِحُلُولِهِ !!.

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَالَّذِى يَعْنِينَا هُنَا هُوَ وَجْهُ الاخْتِلافِ وَعِلَّةُ التَّمَايُزِ وَالتَّفْضِيلِ بَينَ مَحْمُودِ شَاكِر وَبَطَلِ هَذِهِ القِصَّةِ ؛ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ؛ فَأَقُول : بَطَلُ هَذِهِ القِصَّةِ شَابٌّ وَفِىٌّ نَبِيلٌ ؛ مَاتَت حَبِيبَتُهُ الَّتِى أَعْطَتْهُ مِنَ الحُبِّ وَالصِّدْقِ وَالإِخْلاصِ مَا أَحَلَّهَا عِنْدَهُ فِى مَنْزِلَةِ القَدَاسَةِ ؛ فَلَمَّا رَحَلَت عَنِ الحَيَاةِ وَدُنْيَا النَّاسِ ؛ عَاشَ الفَتَى فِى ظِلِّ الذِّكْرَى وَفِى رِحَابِ المَاضِى الَّذِى قَضَاهُ مَعَهَا ؛ حَتَّى لَحِقَ بِهَا !! ؛ فَهُوَ بِمِيزَانِنَا : رَجُلٌ طَاهِرٌ ؛ امْتَلأَ إِخْلاصًا وَطُهْرًا وَجَمَالاً ؛ بَيْنَمَا شَاكِر : رَجُلٌ خَانَهُ الحُبُّ ؛ فَمَا وَاجَهَ الغَدْرَ بِمَا يَسْتَوْجِبُهُ عِنْدَ أُولِى العِزَّةِ وَالنَّخْوَةِ وَالكَرَامَةِ وَالكِبْرِيَاءِ !! ؛ بَل رَضِىَ بِالذُّلِّ وَانْصَاعَ لَهُ ؛ وَتَجَلَّى ذَلِكَ يَوْمَ أَن حَاوَلَ قَتْلَ نَفْسِهِ فِى لَحْظَةٍ تَلاشَت فِيهَا كُلُّ مُقَوِّمَاتِ الرُّجُولَةِ !! ؛ فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِى هُوَّةٍ سَحِيقَةٍ ؛ وَعَظُمَت المَأْسَاةُ بَعْدَ أَن شَاعَ خَبَرُ انْتِحَارِهِ ؛ وَجَعَلَ مِن نَفْسِهِ حِكَايَةً مِن حِكَايَاتِ الهُزْءِ وَالسُّخْرِيَةِ لَدَى الأَعِزَّاءِ وَالأَذِلاَّءِ عَلَى سَوَاء !! ؛ فَشَتَّانَ شَتَّان !!.

۞۞۞۞۞

وبَعْدُ: مَا هُوَ الدَّافِعُ الَّذِي حَمَلَ مَحْمُود شَاكِر عَلَى أن يَصْنَعَ بِنَفْسِهِ كُلَّ هَذَا الَّذِي صَنَع ؟!!

الـرَّأيُ الَّذِي أرَاه ؛ بَل وَلا أقْبَلُ سِوَاه : أنَّ النَّظْرَةَ إلَى المَرْأةِ المَعْشُوقَةِ تَتَمَثَّلُ عِنْدَ الرِّجَالِ بِأكْثَرِ مِن صُورَةٍ ؛ وَتَقَعُ عِنْدَ الرَّجُلِ عَلَى وَجْهٍ مِن أرْبَعَةِ أوْجُهٍ :

ـ الأوَّلُ : وَهِيَ نَظْرَةُ الأدِيبِ عَبَّاس مَحْمُود العَقَّاد ﴿١٣٠٦ ـ ١٣٨٣ هـ = ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م﴾ إلَى المَرْأة ؛ كَانَ العَقَّادُ شَابًّا وَسِيمًا جَسِيمًا ؛ مَلامِحُهُ وَقَسَمَاتُهُ تَدُلُّ عَلَى كِبْرِيَاءِهِ وَاعْتِدَادِهِ بِنَفْسِهِ ؛ وَكَذَلِكَ كَانَت نَفْسِيَّتُهُ ؛ وَكَانَ وُجْدَانُهُ ؛ وَأحْدَاثُ حَيَاتِهِ تُصَوِّرُ ذَلِكَ بِجَلاءٍ لَيْسَ وَرَاءَهُ مِن سَبِيلٍ ؛ وَمَا لُقِّبَ بِـ « الجَبَّار » مِن فَرَاغ ؛ لَقَد أحَبَّ « مَي زِيَادَة » ؛ وَكَانَت يَوْمَهَا هِيَ الأدِيبَةُ الشَّابَّةُ الوَسِيمَةُ ؛ بَل البَدِيعَةُ الحُسْنِ ؛ وَكَانَت بَيْنَهُمَا أشْيَاء ؛ وَلَكِنَّهُ عَلِمَ فِي النِّهَايَةِ أنَّهَا تُعْجَبُ بِهِ ؛ وَشَتَّانَ مَا بَينَ الحُبِّ وَالإعْجَاب !! ؛ فَعَالَجَ الأمْرَ بِهُدُوءٍ شَدِيدٍ ؛ وَبَقِيَت الصَّدَاقَةُ بَيْنَهُمَا ؛ وَقَابَلَهَا وَانْفَرَدَ بِهَا مَرَّاتٍ كَثِيرَةً ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَد كَانَ يَعْرِفُ مَعْنَى التَّجَلُّدِ ؛ فَمَا دَنَّسَ نَفْسَهُ بِأوْحَالِ التَّذَلُّلِ وَالتَّضَرُّعِ وَالجَزَع ؛ وَكَذَلِكَ كَانَ حَالُهُ وَشَأنُهُ مَعَ الفَتَاةِ اللُّبْنَانِيَّةِ الَّتِي ألْهَمَتْهُ رِوَايَتَهُ الشَّهِيرَة « سَارَة » .

ـ الثَّانِي : وَهِيَ نَظْرَةُ الأدِيبِ زَكِي مُبَارَك ﴿١٣٠٨ ـ ١٣٧١ هـ = ١٨٩١ ـ ١٩٥٢م﴾ إلَى المَرْأةِ ؛ كَانَ شَابًّا وَسِيمًا إلَى الغَايَةِ ؛ قَوِيَّ البِنْيَةِ ؛ عَزِيزَ

النَّفْسِ ؛ حُرّاً جَرِيئاً مِقْدَاماً ؛ يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ نَظْرَةَ إِكْبَارٍ وَإِعْجَابٍ !! ؛ حَتَّى لَقَد وَصَفَهُ بَعْضُهُم بِالنَّرْجِسِيَّةِ !! ؛ عَرِفَ أَكْثَرَ مِنَ امْرَأَةٍ ؛ وَأَحَبَّ أَكْثَرَ مِن مَرَّةٍ ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَبْتَسِمُ دَائِماً عُقَيْبَ نِهَايَةِ كُلِّ قِصَّةٍ مِن قَصَصِ الغَرَامِ الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا !!.

ـ الثَّالِث : وَهِيَ نَظْرَةُ الأَدِيب مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ [١٢٩٨ ـ ١٣٥٦هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٣٧م] إِلَى المَرْأَةِ ؛ كَانَ الرَّافِعِيُّ عَلَى جَانِبٍ مِنَ الوَسَامَةِ وَاعْتِدَالِ الخِلْقَةِ ؛ يَعْتَدُّ بِنَفْسِهِ ؛ وَلَكِن دُونَ إِفْرَاطٍ فِي الأَمْرِ ؛ وَكَانَ مَعْرُوفاً بِخُلُقِهِ الحَسَنِ ؛ وَبِأَنَّهُ مِن أَهْلِ الأَمَانَةِ وَالدِّيَانَةِ ؛ أَحَبَّ حَتَّى عَشِقَ وَهَامَ بِحَبِيبَتِهِ ؛ وَكَتَبَ فِي ذَلِكَ مَا لَم يَكْتُبْهُ أَدِيبٌ مِن أُدَبَاءِ العَرَبِيَّةِ !!... : ((حَدِيثُ القَمَر)) ؛ ((السَّحَابُ الأَحْمَر)) ؛ ((رَسَائِلُ الأَحْزَان)) ؛ ((أَوْرَاقُ الوَرْد)) !! ؛ وَعَادَ فِي النِّهَايَةِ صَامِتاً حَزِيناً !! ؛ كَانَ شَرِيفاً نَبِيلاً فِي حُبِّهِ ؛ وَكَانَ رَجُلاً جَلِيلاً وَقُوراً فِي حُزْنِهِ ؛ فَهُوَ مَعَ الحُبِّ قَد كَانَ صَاحِبَ القَلْبِ الطَّاهِرِ النَّقِيِّ ؛ وَفِي خَاتِمَةِ الرِّوَايَةِ كَانَ صَاحِبَ العَقْلِ الدَّيِّنِ الحَكِيم !!... ؛ وَكَذَلِكَ الرِّجَال !! ؛ فَرَحْمَةُ اللهِ عَلَى الرَّافِعِيِّ !! ؛ وَمَن لَنَا بِمِثْلِ الرَّافِعِيِّ !!.

ـ الرَّابِعُ : وَهِيَ نَظْرَةُ الأَدِيبِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر [١٣٢٧ ـ ١٤١٨ هـ = ١٩٠٩ ـ ١٩٩٧م] إِلَى المَرْأَةِ ؛ لَم يَكُن عَلَى جَانِبٍ مِنَ الحُسْنِ وَالوَسَامَةِ فِي كَثِيرٍ أَو قَلِيلٍ !! ؛ وَعَرِفَ ذَلِكَ مِن نَفْسِهِ : فَانْصَرَفَ إِلَى العِلْمِ وَمَا حَاوَلَ السَّيْرَ عَلَى دَرْبِ العِشْقِ وَالهَوَى حَتَّى قَارَبَ الثَّلاثِين !! ؛ ثُمَّ خَرَجَت عَلَيْهِ فَتَاةٌ مِن دُونِ انْتِظَار ؛ كَانَت مِنَ الحُسْنِ وَالجَمَالِ بِمَكَان !! ؛ فَشُغِلَ عَن نَفْسِهِ

وَرُوحِهِ !! ؛ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا إِقْبَالَ الطِّفْلِ الوَدِيعِ عَلَى أُمِّهِ مِن بَعْدِ طُولِ غِيَابٍ وَتَرَقُّبٍ !! ؛ كَانَ النَّابِهَ الذَّكِىَّ الفَطِنِ ؛ وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ فِى العِشْقِ بِحَكِيم !! ؛ فَلَمْ يَنْتَبِه إِلَى الأَمْر !! ؛ أَقْبَلَت عَلَيْهِ الفَتَاةُ فِى بَدْءِ القِصَّةِ !! ؛ ثُمَّ عَزَفَت عَنْهُ نَفْسُهَا !! ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهَا رَأَتْهُ كَاللُّعْبَةِ الصَّغِيرَةِ تُحَرِّكُهَا كَيْفَ تَشَاءُ وَحَيْثُمَا تُرِيدُ !! ؛ وَالنِّسَاءُ تَنْبِذُ مِثْلَ هَذَا وَإِن كَانَ مُغْرَمًا عَاشِقًا ؛ لَم يَدْرِ بِأَنَّ الأَمْرَ فِى بِدَايَتِهِ كَانَ مَحْضَ إِعْجَابٍ بِالأَدِيبِ الشَّاب !! ؛ وَالإِعْجَابُ بَينَ الشَّابِّ وَالفَتَاةِ قَد يَتَحَوَّلُ إِلَى حُبٍّ ؛ وَقَد يَبْقَى فِى مَوْضِعِهِ وَمَكَانِهِ لا يَسْفُلُ وَلا يَعْلُو ؛ وَرُبَّمَا انْحَدَرَ فَأَضْحَى اسْتِخْفَافًا وَهُزْءًا وَسُخْرِيَةً !! ؛ وَكَذَلِكَ كَان !! ؛ وَهُوَ الَّذِى جَرَّ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ !! ؛ فَتَبًّا لِمَن تَرَكَ عَقْلَهُ لِلرِّيَاحِ تُحَرِّكُهُ إِلَى أَىِّ اتِّجَاهٍ أَرَادَت !!.

وَهَذِهِ !!... ؛ هِىَ كُلُّ الحِكَايَةِ !!.

✿✿✿✿✿

تِلْكَ كَانَت الدَّلالَةُ الخَفِيَّةُ لِرَأْيِ الأَدِيبِ الأُسْتَاذ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر لِلْمَرْأَةِ ؛ لَم يَكُن رَأْيَاً نَاتِجَاً عَن رُؤْيَةٍ تَأَمُّلِيَّةٍ لِعَدَدٍ عَظِيمٍ مِنَ النَّمَاذِج ؛ أَيَّدَتْهَا مَقُولاتُ العُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَالشُّعَرَاء ؛ وَوَافَقَتْهَا آرَاءُ أَصْحَابِ التَّجَارِبِ فِى مَيْدَانِ العِشْقِ وَسَاحَةِ النِّسَاء ـ بَل كَانَ رَأْيَاً صَنَعَتْهُ تَجْرِبَةٌ يَتِيمَةٌ لا يُعْتَدُّ بِهَا فِى مَقَامِ الحُكْمِ وَالفَصْلِ فِى قَضِيَّةِ المَرْأَةِ !!.

وَأَيْضَاً:

كَانَ مَحْمُود شَاكِر أَدِيبَاً شَرِسَاً غَضُوبَاً مُتَجَهِّمَاً !! ؛ لا يُهَادِنُ وَلا يُوَادِعُ وَلا يَرْحَمُ خَصْمَهُ أَو يُشْفِقُ عَلَيْهِ فِى بَعْضِ الأَحَايِين !! ؛ لا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مَن يُسَاجِلُهُ وَيُنَازِلُهُ مِن أَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ العِلْمِيَّةِ الرَّفِيعَةِ !!... ؛ وَعِلَّةُ ذَلِكَ عِنْدِى ؛ إِنَّمَا تَرْجِعُ إِلَى تَارِيخٍ بَعِيدٍ ؛ إِنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى عَهْدِ الشَّبَابِ الأَوَّلِ ؛ يَوْمَ أَن كَانَ مِن أَبْنَاءِ الجَامِعَةِ ثُمَّ تَرَكَهَا وَاعْتَزَلَ النَّاسَ وَالحَيَاة !! ؛ نَعَم ؛ لَقَد تَرَكَ الجَامِعَةَ وَهُوَ يُؤْمِنُ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ الجَامِعِيُّونَ وَالأَكَادِيمِيُّون ؛ وَلَقَد صَنَعَ الكَثِيرَ بِلا رَيْبٍ ؛ وَلَكِنَّهُ أَيْقَنَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقِيمَةِ الدَّرَجَةِ العِلْمِيَّةِ الجَامِعِيَّةِ فِى الحَيَاةِ الثَّقَافِيَّةِ المُعَاصِرَة !! ؛ وَقَد وَلَّدَ عَنْهُ هَذَا اليَقِينُ شُعُورَاً بِالغَضَبِ الشَّدِيدِ مِن هَذَا المِقْيَاسِ الَّذِى تُقَاسُ بِهِ قِيمَةُ الأَدِيبِ فِى بِلادِنَا !! ؛ فَكَانَ إِذَا مَا وَاجَهَ أَكَادِيمِيَّاً أَعَدَّ كَافَّةَ أَسْلِحَتِهِ رَغْبَةً فِى قَهْرِهِ وَإِذْلالِهِ !! ؛ كَى يُثْبِتَ

لِلنَّاسِ فَسَادَ المِيزَانِ الَّذِى تُوزَنُ بِهِ الأُمُور !! ؛ وَقَد تَجَلَّى أُسْلُوبَهُ هَذَا بِصُورَةٍ رَهِيبَةٍ فِى مَعْرَكَتِهِ مَعَ الكَاتِب « لِوِيس عَوَض » ؛

.....

ـ نَمَاذِجٌ مِن صُورِ المَعْرَكَة :

وَهَذِهِ نَمَاذِجٌ مِمَّا كَتَبَهُ مَحْمُود شَاكِر مِن خِلالِ كِتَابِهِ ﴿ أَبَاطِيل وَأَسْمَار ﴾ ـ وَهُوَ الكِتَابُ الَّذِى ضَمَّ كَافَّةَ مَقَالاتِهِ بِصَدَدِ هَذِهِ المَعْرَكَة ـ :

قَالَ فِى [ص : ٧] :

﴿ وبعد ؛ فقد قضيتُ دهراً أحملُ القلم وأكتبُ ؛ ولكنّي ظللتُ أكره أن أنشر على الناس شيئاً قد قرأوه من قبل فى صحيفةٍ أو مجلّةٍ ؛ حتى إذا كان ما كتبته فى مجلّة الرّسالة مُنْذُ يوم الخميس ٢٢ رجب سنة ١٣٨٤ : وجدت إلحاحاً شديداً على جمع ما نُشِرَ وإخراجه فى كتابٍ ؛ وكانت حُجَّةُ أصحابنا قاهرةً لِحُجَّتي ؛ ومُزيلةً لما أصررت عليه من إلغي !! ؛ وعسى أن أكون أخطات الطريق حين ألِفْتُ مَا أَلِفْتُ !! ؛ وخفت أن أكون كتمتُ علماً يسّره اللهُ لي عن طالب علمٍ !! ؛ ففى كُلِّ يومٍ ينشأ فى الناس طالبُ علمٍ لم يدرك زمانه ما كتبتُ ؛ وعسيرٌ عليه أن يلتمسه مع تفرُّقه فى الصُّحُف والمجلاّت !! ؛ فمن أجل ذلك لم أجد بُدّاً من الاستجابة لأصحابنا ؛ راضياً عنهم ؛ لائماً لنفسي مُعتذراً عمّا فرط منّي !! ؛ مُستعيناً بحول الله وقُوّته على تحقيق ظنّهم فِىَّ ؛ بارئاً إليه ـ سُبْحَانَهُ ـ من كُلِّ حولٍ وقُوّةٍ .

وقد بدأتُ أكتبُ هذه الكلمات بعد عُزْلَةٍ ارتضيتها لنفسي مُنْذُ سنين ؛ لأني خشيت أن لا أقوم بحَقِّ القلم عليَّ ؛ وبحَقِّ الناس عليه ؛ فُوجئتُ بأشياء كنت أراها هيِّنةً لا خطر لها ؛ فاستبان لي بعد قليلٍ من مُذاكرة أصحابي أن الأمر أهول مما ظننت !! ؛ فمن أجل ذلك فارقتُ عُـزلتي ؛ وبدأت حريصاً على أن لا أخون حقَّ القلم عليَّ ولا حقَّ الناس عليه ؛ ونعم : لم أكُن غافلاً عمَّا يجري من حولي ؛ بل كنت مصروفاً عن مُتابعة بعض الحوادث والنوابت ؛ وعن تعليقها بأسبابها ؛ وعن إتباعها بنتائجها ؛ إذ كُنْتُ امرءاً ملُولاً !! ؛ وهو مما قضى الله أن أكونهُ ؛ يُسرع إليَّ الملل ؛ فأطرح شيئاً كثيراً أعلم عن أصحابه من السُّخف ما أعلم ؛ فلا أقرأه ولا أُلقي إليه بالاً ؛ فمن ذلك ما كان يكتبه « أجاكس عوض » الذي كان يُعرف فيما غَبَرَ باسم : لويس عوض !! .) .

.....

وَقَالَ فِي [ص : ٩] :

(... ؛ وَقَنِعْتُ بما سرَّى عنِّي الهموم من هذيانه ووسوسته واختلاطه ـ أي لويس عوض ـ ؛ وأنزلت أقواله وأحقاده حيث نزل ؛ إذ كان يؤمئذٍ شيئاً مغموراً لا يُؤبه له !! .

فرغتُ من المُقدِّمة ـ أي مُقَدِّمة دِيوان « بُلُوتُولاند وقصائد أُخرى » للويس عوض ـ وأنا أعُدُّها تُحفةً من التُّحف !! ؛ لا ستخراجها الضحك من قبضة التقطيب والعبوس !! ؛ فلمَّا أفضيت الى ما سمَّاه « من شعر الخاصة »

وجدتنى قد ظفرت بما فوق المُنى بترياقٍ للهمِّ عجيب !! ؛ فمن يومئذٍ خَفَّ أجاكس عوض على قلبى جِدًّا !! ؛ ورأيته ذخيرةً تُصان !! ؛ وطُرفةً عزيزةً لا تُمتهن !! ؛ كُنَّا إذا ما اجتمع شمل الإخوان ؛ وأطبقت علينا سحابةٌ من الكدر ؛ أو ضُرِبَت علينا أسْدَادٌ من الكرب و الحزن : استخرجنا الكتاب من مخبئه ؛ فنقضى أوقاتاً فى قراءته ؛ وإذا المجلس قد انقلب مسرحاً لا مكان فيه للهموم والأحزان !! ؛ لا شئ سوى الضحك !! ؛ ثم الضحك !! ؛ ثم الضحك !! ؛ ومحا الضحك كُلَّ ما فى الكتاب من سوء !! ؛ وصار اسم صاحبه بِمُجرَّد ذكره اسماً جالباً « للفرفشة » - كما تقول العامة فى مصر - !!.

هكذا كان بدء أمرِهِ !! ؛ ثم كان عجباً لى أن أرى اسمه فى بعض المجلاَّت والصُّحُف ؛ فربما هممت أن أقرأ له الشئ بعد الشئ لأُسرِّى الهمَّ عن نفسى ؛ فأضحك !! ؛ ولا أملك إلاَّ الضحك حين أراه يتقمَّص أحياناً قميصاً من الرزانة والجدِّ !! ؛ ويركب أحياناً أُخرى مركباً من التيه و التعالُم !! .

وانطوت السنون على ذلك ؛ حتى إذا كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ [١٦ سبتمبر ١٩٦٤] : أخذت عينى اسمه مقروناً باسم « رسالة الغُفران » فى الصحيفة الأدبية لجريدة الأهرام !! ؛ فأومضتْ عينى ؛ وَدَوَّمَت حَدَقَتُها فِى مِحْجِرِهَا « كَمَا دَوَّمَت فِى الأَرْضِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ » !! ؛ هكذا وجدتُ من فرط العجب !! ؛ وغلبنى الضَّحِك !! ؛ لولا صرامة شيخ المعرَّة ؛ فإنها كفَّتْنى ؛ ومضيتُ أقرأ ؛ فإذا هو قد جرَّنى وطاف بى فى أطلالٍ مُوحشةٍ خلَّفها الماضون من اليونان !! ؛ ولكنه على غير العهد به - كان ثقيلاً

جِدًّا !! ؛ وبارداً جِداًّ !! ؛ وخذلنى وأنا يؤمئذٍ من أحوج الناس إلى الترفيه عن نفسى ببعض الضحك !! .

وجاءت جُمعةٌ أخرى ـ فجاءنى بالغثاثة والغثيان فى صورة تلخيص لهوميروس فى أودسّاه !! ؛ فندمت حين خان العهد فى إضحاكى !! ؛ وعزمت على أن أُسقطه من حسابى !! ؛ فما الذى يحملنى على هذا البلاء الكريه ؟!! ؛ وقُلت لنفسى : مُفرِّج كروب ؛ عاد مجلبةً للغمِّ ؛ لا حاجة لنا فيه .﴾ .

.....

وَقَالَ فِي [ص : ١٠ ـ ١١] :

﴿ وأصبح الصَّباح ؛ وجاءت صحيفة الأهرام فى يوم الجمعة الثاني من رجب سنة ١٣٨٤ ـ فبينا أنا أُقلِّبُها ؛ خدعتني عيني ؛ وقرأت هذا العنوان : « على هامش الغُفران ... شيءٌ من التاريخ » ؛ وإلى جواره ما نصُّهُ ؛ مكتوباً بالخط النسخ ؛ محفوراً على الزِّنك ؛ مطبوعاً على الورق !! ؛ وسأنقله مضبوطاً كما نُشِرَ بخطئهِ !! :

صَلِيتُ جَمْرَةَ الهَجِيرِ نَهَارًا
ثُمَّ بَاتَت تَغُصُّ بِالصُّلْبَانِ

« سقط الزند » : فى وصف حلب

أَعُبَّادَ المَسِيحِ يَخَافُ صَحْبِي
وَنَحْنُ عَبِيدُ مَن خَلَقَ المَسِيحَا

« سقط الزند » : فى الحروب الصليبيَّة

... ؛ وَخَفَّ على قلبي جداً مرَّةً أخرى بعد الثقل !! ؛ وعاودتني ذكرى « بلوتولند وقصائد أخرى » !! ؛ وانفجر صدري بالضحك وأنا وحدي !! ؛ وألقيتُ الصحيفةَ ؛ وتركت نفسي على سجيَّتها غير محتشمٍ !! ؛ وإذا (أم فهرٍ) على رأسي تنظر إليَّ مُتعجِّبةً !! ؛ وتدعو لي بالسَّلامة !!... ؛ فكفكفتُ ما استشرى من ضحكي على عجلٍ مخافة أن تنظر إليَّ بغير العين التي ألفت أن تراني بها !! ؛ ولكني كُنْتُ امرءاً نَهِمَاً !! ؛ يأخذه للكلام المكتوب سُعَارٌ !! ؛ فتناولت الصحيفة ؛ وبدأت أقرأ سطراً بعد سطرٍ ؛ وكان الضحك يشُقُّ عن حلقي ؛ ويُباعد بين فكَّيَّ !! ؛ حتى فُوجئت بشيءٍ أمسك عليَّ ضحكي ؛ وكظمه فى بُلْعُومي !! ؛ شيءٌ سمعت حِسَّ دبيبه من تحت الألفاظ !! ؛ فجعلت أستسمعه ؟!! ؛ فإذا هو :

كَشِيشُ أَفْعَى أَجْمَعَت لِعَضٍّ !!
فَهْي تَحُكُّ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ !!

وإذا أسودُ سالخٌ ـ وهو أقتل ما يكون من الحيَّات ـ !! ؛ يمشي بين الألفاظ فيُسمع لجلده حفيفٌ !! ؛ ولأنيابه جَرْشٌ !! ؛ فمازلت أنحدر مع الأسطر والصوت يعلو ؛ يخالطه فحيحٌ !! ؛ ثم ضُبَاحٌ !! ؛ ثم صَفِيرٌ ؛ ثم نُبَاحٌ ـ وكلها من أصوات الأفاعي ـ !!.

فألقيت الصحيفة مقتاً لهذا الصوت البغيض الذي انبعث فبدَّد

لذَّتي وَغَتَّ بيد بشاعته حُلْقُوم ضحكي ـ غَتَّ حلقه : خنقه وعصره عصراً شديداً ـ !! ؛ وفرَّج اللهُ عنِّي ما لقيت من الكرب بصلاة الجُمعة !! ؛ وغرق كُلُّ سُخْفٍ فى بحر النسيان !! .

فلمَّا جاء أصحابنا مع العشىِّ ؛ ودرج بنا الحديث مدرجه فى فنونٍ من السَّمَرِ ـ عرض ذكر ما نشرته صحيفة الأهرام ؛ فذكرت ما كان منِّى فى صباح اليوم ؛ وفُوجئت أشدَّ مُفاجأةٍ !! ؛ وكاد يصعقنى أنى لم أجد أحداً من إخواننا وقف على هذا العبث الشنيع الذى أحدثه هذا « الشَّرْلَتَان المُثَقَّف » فى شعر شيخ المعرة ؟!! ؛ ولكنى انطلقت أضحك !! ؛ وحاولت أن لا أُخلى مجلس السمر من « الفرفشة » ؛ وقُمت أبحث عن « بلوتولند وقصائد أخرى » ؛ فلما لم أجده ولم أجد عند أحدٍ حلاً لهذا اللغز المُضحك ... ؛ ضاق صدرى !! ؛ وعُدت أقرأ مقاله فى « الأهرام » لَمْحاً وَخَطْفاً ؛ وبدأت أكشف لهم عمَّا جاء فيه من الهذيان والوسوسة وسوء الأدب !! ؛ وعندئذٍ أقبل علىَّ إخوانى يحثُّوننى على الكتابة ؛ فقُلتُ لهم يومئذٍ : إنى لا أدرى عاقلاً يُؤخذ من قوله ويُرَدُّ عليه !! ؛ إنه شرلتانٌ يُضحكنى ؛ لا مُفكِّرٌ يُحرِّكُنى !! ؛ وكرهت أن أسرد الصوم عن الكتابة ثلاثة عشر عاماً ؛ ثم أجعل فطورى على بصلةٍ خبيثة الرائحة !! ؛ وأصررت على مُوالاة الصيام ؛ وتطوع الأخ الأُستاذ « عبده بدوى » أن يتولَّى هو كتابة بعض ما وقفنا عليه من عُرَرِه ـ أى مساويه ومثالبه ـ ؛ ففعل مشكوراً مُوفَّقاً .

كاد الأمر يقف عند هذا الحدِّ ؛ و لكنِّى سمعت يومئذٍ أشياء حملتنى على

تقصّى أخبار هذا الذى كان عندى مُفرّجاً للكروب ماسحاً للهموم !! ؛ فجاءنى ما أذهلنى !! ؛ وعلمت أنه قد انتهى إلى أن يكون «مُستشاراً ثقافيًّا» لمؤسسة الأهرام !! ؛ وأنه قد صار له شأنٌ وسُلطانٌ !! ؛ وأنه قد استوى على كُرسىِّ الأُستاذيّة فى أوساط الصحافة !! ؛ وأن له أشياعاً استغرّهم من كُتّاب وشُعراء - كان بعضهم قليل المعرفة ؛ وكان بعضهم حائر الطريق ؛ وكان بعضُهم مُستشعِرَ ذِلّةٍ بانتسابه إلى ثقافة (قديمة) أو (رجعيّة مُتخلّفة) .﴾ .

.....

وَقَالَ فِى [ص : ١٣] :

﴿ وإذا كان الإغريقُ القُدماء ؛ وعلى رأسهم «أخيل» صاحب حرب «طروادة» قد اتخذوا الهُولَةَ الإغريقيَّ «أجاكس بن تلامون». وكُلُّ كريه المنظر مما يهولك ويُفزعك فهو هُولَةٌ - ؛ اتخذوه ثوراً يُدير لهم رَحَى الحرب أو ساقية الوَغَى - فإنَّ الجاسوس البريطانىَّ المُحترف «كرستوفر سكيف» ؛ و «أصحاب الخلوة المنشودة تحت أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج» ؛ و «طواغيت برنستون» ؛ وما أدراك ما برنستون !! ؛ و الحيّات المُترهّبَة فى السراديب المُظلمة وراء أديرة «التبشير» ؛ وذئاب الخلاء التى تجُوس بين مخارم الجبال لتنقضَّ بفتكها على ديار العرب والمسلمين : كل هؤلاء قد تطوّعوا - بغفلتهم وسوء اختيارهم - فأخذمونى «أجاكس عوض» !! ؛ على تفاهته !! ؛ واختلاط سماديره !! ؛ لكى يُدير لى رَحَى الأحاديث ؛ فأستنبطَ

لأهلى وعشيرتى وأبناء أبى وأمّى : أَبَاطِيلَ وَأَسْمَاراً ؛ فيهَا بَيَانٌ لِمَا خَفِىَ عليهم من مَكْرِ عَدُوٍّ شديد المكر !! ؛ يكمُن وهو يتربّص بهم الدوائر !! ؛ حتى يُزيلَ عن الأرض سُلطانهم المُرتقبَ المخُوفَ !! ؛ ويحرق عليهم « طروادة الحديثة » ويُدمِّرها تدميراً ؛ وينال بمخالبه قلب « الملك ميداس » الذى استنقذَ كلمة « العُرُوبَة » من فم كُلِّ « أجاكس » صليبىٍّ أفّاقٍ شديد الضغن والحفيظة على الإسلام وأهله !!.

فللأغبياء الذين لم يُحسنوا اختيار الدُّمَى من الناس الشُّكر !! ؛ وللدُّمَى التى ذكرتها فى كلماتى ولمُمثّلها فى هذه الكلمات « أجاكس عوض » فضلٌ يُذكر ولا يُنكر !! ؛ فإن ساءها من « الأباطيل والأسمار » شئٌ ؛ فإثم ذلك مُعلّقٌ فى أعناق من اتخذوهم دُمَىً تتحرّك بلا عقلٍ ولا إرادةٍ !! ؛ ولا يستحق الرثاء من تعرّض للبلاء !! ؛ والسعيد من وُعِظَ بغيره ؛ ورحم الله شيخ المعرّة ؛ كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول لبنى إسرائيل :

يَا آلَ يَعْقُوبَ مَا تَوْرَاتُكُم نَبَأ
مِن وَرْيِ زَنْدٍ ؛ وَلَكِن وَرْىُ أَكْبَادِ !!

ـ ورى الأكباد : القيحُ الذى يفريها من الحقد والضغينة .. ».

.....

وَقَالَ فِى [ص : ١٦١] :

« مرّةً أخرى ؛ ثم مرّةً أخرى ؛ ثم مرّةً أخرى ـ أُحِبُّ أن يعلم من لم يكن يعلم : أني امرؤٌ لا تُرهبه بوارق الوعيد ؛ ولا تثنيه لوائح التهديد ؛ ولا تهُوله

ألفاظٌ محفوظةٌ تلوكها الأقلام الذاهلة ؛ وتمضغعها الأفواه المُتلمِّظة !! ؛ وأني مُـذ خِفْتُ الله وحده : لم أطوِ قلباً على مخافة أحدٍ من عباده ؛ وأني مُذ فرغت من أن أشرك بالله أحداً : لم تُرعِبْني كلمةٌ أُوصَـفُ بها سوى الشرك بالله ؛ وكُلُّ صفةٍ بعد هذه فمصيرها عندي ما قال زيادٌ فى خطبته البتراء : « أن أجعلها دَبَرَ أذنى وتحت قدمي » ؛ إلا أن أكون مُبطلاً فى قولٍ أو فعلٍ ؛ فعندئذٍ أؤوب إلى الحَقِّ صاغراً خاضع العُنُقِ !! ؛ لا تأخذني دُون ذلك عِزَّةٌ بالإثم ؛ ولا يمنعني منه حياءٌ أو كِبْرٌ ؛ أن أُقِرَّ علانيةً بخطإٍ كان مِنِّي ؛ أو زللٍ تردَّيت فيه .

وأستغفر الله وأتوب إليه - إذ ألجاني من ألجاني إلى أن أصف للناس نفسي بما لا ينبغي للمرء أن يعتاده من التمدُّح ؛ فإنه يُوشك أن يكون باباً من الأبواب الخفيَّة إلى النِّفاق !!.

وخبر ذلك : أني ظللتُ أكتب « للرِّسالة » ثمانية أسابيع ؛ كتبت فيها ثماني مقالات ؛ وألزمت نفسي مقالة الحَقِّ بلا جمجمةٍ أو دِهَانٍ فيما أقول ؛ ولزمت طريق الإبانة عن حقائق ما أكتب عنه بلا رغبةٍ فى ثناءٍ من أحدٍ ؛ ولا رهبةٍ من مَلْمَةٍ تجئ من خلقٍ ؛ ولا خشية إفكٍ أُرمي به أنا منه برئٌ .

ثم فُوجئتُ بشيءٍ غريبٍ جداًّ لم يكُن مثله يخطر لي ببالٍ !! ؛ ولولا ما أجد من تَبِعَةِ هذا القلم ؛ ومن شعورٍ بحَقِّ قارئ « الرِّسالة » عليَّ - لما شغلته به ؛ وكان من حَقِّ القارئ عليَّ أن لا أُخليه من مُتابعة ما يُقال عمَّا أكتب فى « الرسالة » ؛ إذا كان قائله قد استودعه مكاناً غير مجلَّة « الرسالة » ؛

وذلك أني رأيت الزميل «محمد مندور» قد أنشأ كلمات حول شيءٍ سمَّاه: «معاركنا الأدبيَّة»؛ ألقى بعضها فى الإذاعة؛ ثم نشرها فى مجلة «روز اليُوسف».﴾ .

.....

وَقَالَ فِى [ص: ١٩٧]:

﴿ لاأدرى ما الذي أصاب صحافتنا في هذه الفترة من تاريخنا ؟!! ؛ نعم؛ كُنْتُ كما قُلتُ فى المقالة الثامنة: أتابع زَحْفَ القُوى الشرِّيرة مُنْذُ عهدٍ قديمٍ؛ بلا غفلةٍ عن بوائق هذا الزَّحف !! ؛ ونعم؛ كان هذا الزَّحف يتشعَّبُ ويمُدُّ خطاطيفه إلى جميع وسائل النشر والإعلام - من كُتُبٍ؛ وصحافةٍ؛ وإذاعةٍ؛ وتليفزيون؛ ولكنه كان - فيما أظُنُّ - يعتمد على التدسُّس الخفيِّ الذي لا يكاد يُعلن عن نفسه إلا فى الخطرة بعد الخطرة؛ وكان حَذِرًا لا يُعالن بكشف اللثام عن معارف وجهه؛ بل كان إذا انكشف اللثام مرَّةً دَلَّسَ على الناس بشيءٍ من الألفاظ والأعمال؛ كـ: «حُريَّة الرأى»؛ و«حُريَّة النشر»؛ و«إتاحة الفُرصة للمُخالفين أن يُعبِّرُوا عن آرائهم» !!.

بَيْدَ أنى رأيته فى هذه الفترة يرتكب خلاف ما اعتاده بالأمس !! ؛ وأدع التلويح إلى التصريح: وذلك أنى أنبأتُ قُرَّاء «الرسالة» فى المقالة التاسعة: أن الدكتور «محمد مندور» نشر كلمةً فى مجلة «روز اليُوسف»؛ تناولنى فيها بما لم أكُن أظُنُّ أنه يليق بمثله أن يفعله !! ؛ وأنى كتبت إلى مجلة «روز اليُوسف» كلمةً مُختصرةً: أرُدُّ عليه قالة السُّوء التى قالها عنِّى؛ لتُنشر حيث

نشر كلامه ؛ وكنت على يقينٍ أن مجلة « روز اليوسف » سوف تنشر الكلمة حيث نشر الدكتور مندور كلمته ؛ وذلك لأن هذا النشر حقٌّ طبيعيٌّ ؛ وحقٌّ قانونيٌّ ـ درجت عليه كُلُّ الصحافة مُنْذُ كانت ؛ بلا اعتبارٍ لأيِّ شيءٍ سوى هذا الحق ؛ والكلمة التى كتبتها لهذه المجلّة لا تخرج عن حَدِّ التوضيح لما أساء الدكتور فيه القالة عنِّى ؛ ولم أتجاوز فيها القدر الذي يخُصُّنى مما جاء فى كلمته ؛ فلم أُناقشة رأياً ؛ ولا تحاملت عليه فى عتابٍ أو لومٍ ؛ ففوجئتُ بإغفال هذه المجلّة فى الأسبوعين الماضيين لما هو حَقٌّ مُعترفٌ به عند الناس جميعاً !! . » .

.....

وَقَالَ فِى [ص : ٣١٣ ـ ٣١٤] ؛ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَن زَمِيلِهِ القَدِيمِ فِى الجَامِعَةِ المِصْرِيَّةِ الدُّكْتُور مُحَمَّد مَنْدُور ؛ إِذ كَانَا مَعَاً وَبِسَنَةٍ وَاحِدَةٍ قَبلَ أن يَتْرُكَ مَحْمُود شَاكِر الجَامِعَةَ وَهُوَ لَمَّا يَزَل فِى السَّنَةِ الأُولَى بِكُلِّيَةِ الآدَاب ؛ وَهَا هُوَ مُحَمَّد مَنْدُور قَد أَصْبَحَ مِن أشْهَرِ أَسَاتِذَةِ الأَدَبِ الجَامِعِيينَ فِى مِصْر ؛ وَأَصْبَحَ يُلَقَّبُ بـ « شَيْخُ النُّقَّاد » :

« أربعون سنةٍ !! ؛ لقاءٌ مُفاجئٌ على غير ميعادٍ !! ؛ غُرباءُ جمعتهم الغُربةُ على طريقٍ !! ؛ نظر بعضهم فى وجوه بعضٍ من بعيدٍ وقريبٍ !! ؛ وَمَرَّ جسدٌ قريباً من جسدٍ !! ؛ وتحيَّةٌ يُلقيها أحدهم على بعضهم بلا بشاشةٍ !! ؛ ثم يمضى كأنه لا يُبالى !! ؛ ثم يلتفت من بعيدٍ ليجُسَّ هذا الجُثمانَ المُنتصبَ بنظرةٍ فاحصةٍ !! ؛ ثم يعودون مرَّةً أخرى ؛ فتلتقى الوجوه وتتقابل !! ؛ وتتصافح

النظرات بالطرف الخفىّ !! ؛ ثم يُعرض هذا !! ؛ ويمضى كُلُّ امرئٍ لِطِيَّتِهِ فى أرض الصمت !! ؛ ثم يعودون مرَّةً ثالثةً !! ؛ فتُقبل الأشباح على الأشباح !! ؛ فتمتدُّ الايدى ؛ ولكنَّها باقيَةٌ فى مكانها مُسْدَلَةً لم تتحرَّك من موضعها !! ؛ وتُقبِلُ الخُطَى ؛ ولكِنَّها تتردَّدُ !! ؛ فيذهب هذا يميناً ويذهب هذا شمالاً !! .

وتنطوى الأيَّامُ يوماً بعد يومٍ ؛ وسُرعان ما تجلَّت عنهم هذه الغُربةُ الرَّاغبةُ المُعرضة !! ؛ وسُرعان ما تكشَّف الإعراض والإقبال عن صداقةٍ بلا مطمعٍ ؛ وعن مودَّةٍ صافيةٍ بلا كدرٍ ؛ واذا شبابٌ تستفزُّهُ جهالةُ الصِّبى وَغَرَارَةُ الطباع !! ؛ وألسنةٌ ثرثارةٌ لحداثة عهدها بالإبانه عمَّا فى سِرِّ قُلُوبها وَعُقُولها !! وغمراتٌ من الفرح تخوضها بجرأةٍ وبلا تردُّدٍ !! ؛ واختلافٌ واتفاقٌ !! ؛ ورضىً وغضبٌ !! ؛ وصوتٌ يعلو وصوتٌ يهمسُ !! ؛ وليلٌ ينساب فى نهارٍ ؛ ونهارٌ يشُقُّ سُدُول ليلٍ ؛ وآتٍ مُنقضٌّ ينفى الملالة عن ماضٍ مُنهزمٍ !! ؛ ورأىٌ مُتجهِّمٌ ينشَقُّ عن مرحٍ ضاحكٍ !! ؛ واندفاعٌ إلى غايةٍ كالسيل الجارف !! ؛ وارتدادٌ عنها كمثل لمحةِ البرقِ !! ؛ ووقارٌ بادٍ تهزُّه من تحته خِفَّةٌ كامنةٌ !! ؛ وطيشٌ طليقٌ يكُفُّ من غلوائه أدبٌ وحياءٌ !! .

يومئذٍ لقيت محمد مندور وسائر إخوانى وزُملائى أول ما لقيتهم مُنْذُ أربعين سنة فى حدائق قصر الزعفران ـ مقر الجامعة ـ ؛ وكُلُّنا غِرٌّ بادى الغَرَارَةِ ؛ وكُلُّنا دون العشرين .

ومضت الأيَّام ؛ وتصرَّمت الشُّهُور ؛ ومحت سنةٌ أُختها ؛ وبدأت معالم الطريق تبدو لِخُطانا من حيث لا ندرى ولا نحس... ؛ فلم أعرف عن أخى

((محمد مندور)) خبراً يُذكر إلاّ فى سنه ١٣٦١ [١٩٤٢ م] بعد أن عاد إلى بلادهِ وبلادى ؛ فالتقينا على صفحات مجلّة ((الرسالة)) فى ٢١ من ذى القعدة سنة ١٣٦١ [٣٠ نوفمبر ١٩٤٢] ـ حيث كتبتُ كلمةً بعنوان : ((الطريق إلى الحق)) ؛ أردت أن أفصل فيها بين معنى ((عثرت به)) و ((عثرت عليه)) ؛ وقُلتُ يومئذٍ :

((وأحِبُّ أن أُقَدِّم بين يدى كلامى بعض ما أعرفه عن مندور : فقد كُنَّا زميلين فى الجامعة .)) ﴾ .

.....

وَقَالَ فِى [ص : ٤٦٧] ـ إِذ كَانَ الأَمْرُ قَد صَدَرَ بِاعْتِقَالِهِ ـ :

﴿

ثُمَّ غُلِّقَت الأَبْوَاب !!

ثُمَّ غُلِّقَت الأَبْوَاب في الثالث من جُمادي الآخرة سنة ١٣٨٥ [٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٥] !! ؛ وأحاطت بيَ الأسوارُ !! ؛ وأظلمت الدُّنيا !! ؛ وسمعت !! ؛ ورأيت !! ؛ وفزعت !! ؛ وتقزّزت !! ؛ وكان ما كان !!

وَعَلِمْتُ حَتَّى مَا أُسَائِلُ وَاحِداً
عَن عِلْمِ وَاحِدَةٍ لِكَى أَزْدَادَهَا !!

وتسلّيتُ عن كُلِّ ما ألقي بقول شيخ المعرّة :

يَسُوسُونَ الحَيَاةَ بِغَيْرِ عَقْلٍ
فَيَنْفُذُ أَمْرُهُم وَيُقَالُ سَاسَهْ

فَأُفٍّ مِنَ الحَيَاةِ ! ؛ وَأُفٍّ مِنِّي !

وَمِن زَمَنٍ رِئَاسَتُهُ خَسَاسَهْ

محمود محمد شاكر . » اهـ .

.....

مَعَارِكُ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر الأَدَبِيَّة
الدَّوَافِعُ ـ المَضَامِين ـ النَّتَائِج

.....

بِقَلَمِ الدُّكْتُور: حِلْمِى مُحَمَّد القَاعُود

.....

تهدف هذه السطور إلى قراءة الخطوط العامة للمعارك الأدبية التى خاضها العلاّمة الأديب الراحل محمود محمد شاكر؛ بقصد فهم العناصر المُحرِّكة لها؛ والغايات التى تمخَّضت عنها؛ بوصفها حالة فكرية وأدبية ميَّزت أدبنا الحديث؛ وألقت بظلالها عليه؛ ومازال تأثيرها قائماً حتى اليوم؛ حيث يدخل إلى ساحتها العديد من الباحثين سعياً لاستخلاص بعض الدروس أو النتائج؛ ورغبةً فى استيعاب بعض القيم والدَّلالات .

وقد اشتهر محمود محمد شاكر بتحقيقاته وقرآءاته فى مجال التراث، وقد أخرج للمكتبة العربية الحديثة عدداً من الكتب الأمهات، فكانت عنواناً على وعيٍ فريدٍ ويقظٍ بالتراث، ومكنوناته، وأبعاده، وعلامة على دِقَّةٍ نادرةٍ فى العمل والإنجاز، ودليلاً إلى نمطٍ فذٍّ فى المهارة والإتقان، وعرف القُرَّاء فى العالم الإسلامىِّ عن طريقه تحقيقاً ومُراجعةً أجود قراءة لـ:

ـ تفسير الطَّبرىّ .

ـ طبقات فُحُول الشُّعراء لمحمد بن سلاَّم الجُمحىّ .

- جمهرة نسب قُريش للزُّبَيْر بن بكّار .
- الوحشيَّات لأبى تمّام .
- شرح أشعار الهُذليين لأبى سعيد السُّكَّرِىّ .
- دلائل الإعجاز ؛ و : أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجانىّ .

ولا ريب أن الرَّجُل - وقد عكف على قراءة التراث وتقديمه للناس - لم يتوقع له أحدٌ أو منه : أن يُشارك فى ضجيج الحياة الأدبية والثقافية !! ؛ إذ أن التحقيق من الأعمال الصعبة التى تتطلَّب صبراً وهُدوءاً واعتزالاً !! ؛ وكان الرَّجُل يملك الصبر والهدوء ؛ وقد اعتزل الناس والمجتمع والوظائف الرسمية مُنْذُ زمانٍ بعيدٍ ؛ ولكنه كان يملك إلى جانب ذلك موهبة الأديب والشاعر والباحث ؛ فقد كان كاتباً يُزوِّد الصُّحُف الأدبية ؛ مثل : « البلاغ » و « الرسالة » و « المقتطف » مُنْذُ الثلاثينات بمقالاته وآرائه ؛ بل إنه أنشأ مجلة باسم « العصور » - توقَّفت بعد وقت قصير - ؛ ثم إنه كان شاعراً من نمط مُتميِّز ؛ نشر بعض شعره فى الدوريات ، وحجب كثيراً منه فى أوراقه الخاصة ، وإن كان قد أظهر بعضه الآخر فى كتاب « القوس العذراء » ؛ مُحاكياً القصيدة الشهيرة للشاعر المخضرم الشمَّاخ بن ضرار - رَضِىَ اللهُ عَنْهُ - .

وشعر محمود شاكر بصفة عامة يُنبئ عن : حِسٍّ رهيف ؛ وتذوُّقٍ رفيع ؛ وتفاعُلٍ عظيمٍ مع اللُّغة ومفرداتها وصورها ومدلولاتها ، مع خصوصية يُدركها من له صلة بشعرنا العربىّ فى نماذجه الرَّفيعة .

ومحمود شاكر بعد ذلك باحث ؛ له منهج ؛ ويملك قدرة على فهم النص ، وإدراك مراميه ، وعلاقته الخفيّة ، واستنباط مفاهيمه وأفكاره البعيدة .

وكان كتابه « المُتنبِّى » الذى خصّصت له مجلة « المقتطف » عدداً خاصّاً احتفالاً بالذكرى الألفيّة للمُتنبِّى ؛ تقديراً من جانبها : للمؤلف محمود محمد شاكر ؛ ودليلاً عل قدرته المعرفية بوصفه باحثاً يملك الرُّؤية الناضجة ، والأداة الماهرة ، والمنهج المُتميِّز .

كان المتوقع من محمود محمد شاكر ـ وقد اشتهر بالتحقيق ، والتزم بمتطلباته من هدوء وصبر وعُزلة عن ضجيج الحياة الثقافية ـ أن يعزف عن الدخول فى الصراعات الأدبية والمعارك الفكرية ، التى تنشأ عادة بين المشتغلين بالنقد الأدبىّ والمتابعات الإبداعية فى صحف يومية أو دوريات أسبوعية أو شهرية أو نحوها ؛ ولكن الرَّجُل فاجأ الحقل الأدبىّ بمعركتين ضخمتين ـ كانا من أبرز معالم حياته الأدبية والفكرية ـ !! ؛ وتفرَّع عن كُلٍّ منهما ما يُمكن أن نُسمِّيه بـ : « معارك صغيرة » أو : « محاور فرعيّة للصراع » .

ومن المُفارقات : أن المعركتين كانتا بسبب شاعرين من أكبر شعراء العربية !! ؛ أولهما : المتنبى ؛ والآخر : المعرّى .

ومعركة المتنبى : كانت مع أستاذه طه حسين ، ولها ملابسات وأسباب تعود إلى جذور أبعد من صدور كتاب المتنبى ، وقد كان طرفاً فيها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عدد من الأدباء والكُتّاب ؛ مثل :

ـ سعيد الأفغانىّ .

ـ مصطفى صادق الرافعىّ .

ـ عبد الوهّاب عزّام .

ـ عبّاس محمود العقّاد .

أما معركة المعرّى : فكانت أوسع مجالاً ؛ حيث دخلها عدد من الأطراف بالنيابة عن الطرف الأصلىّ ؛ مثل :

ـ محمد مندور .

ـ محمد عودة .

ـ كُتّاب مجلة « روز اليوسف » اليساريّة .

ـ كُتّاب من « الأهرام » و « الجمهوريّة » .

ـ سامى داود .

ـ مُحيى الدّين محمد .

ـ غالى شُكرى .

وغيرهم ؛ فضلاً عن أطراف مؤيدة لشاكر ؛ وضمّت كُتّاب مجلّتى « الرسالة » و « الثقافة » ؛ من أمثال :

ـ عبده بدوى .

ـ عبّاس خضر .

ـ محمد جلال كشك .

ـ عامر بحيرى .

وغيرهم .

وكان لهذه المعركة أثرٌ واسع المدى ؛ بحُكم ظروف الفترة التى جرت فيها .

ولكن سؤالاً مُهِمّاً يطرح نفسه :

ـ لماذا اندفع شاكر إلى دخول معمعة الصراع ، وتحمّل مسئوليته الثقيلة وثمنه الباهظ ؟!!

يُمكن أن نُجمل الإجابة على السؤال السابق فى نقطتين أساسيتين :

ـ أولاهما : تتعلق بتكوين محمود محمد شاكر ؛ ونشأته .

ـ الثانية : تتعلّق بموقفٍ مبدئىٍّ من الحضارة الغربية وموقفها من الحضارة الإسلاميّة .

ـ بالنسبة للنُّقطة الأولى :

فإن طبيعة محمود محمد شاكر تعوّدت على الجديّة ؛ وما يصحبها من إتقان وإخلاص للعمل ؛ لذا فهو يرفض أن يرى شططاً فى الفكر ؛ أو غُلوّاً فى التفسير ؛ أو مُغالطة فى الوقائع والأحداث ؛ أو سطواً على الغير ؛ ويقف صامتاً !! ؛ بل لابُدّ من المواجهة أيّاً كانت النتائج والثمار .

وقد كانت المعركة الأولى والمعركة الثانية نموذجاً للشطط والغلو والمغالطة والسطو ؛ سواء كان المتهم طه حسين ، أو لويس عوض ، أو من انتسب إليهما .

إن طبيعة محمود محمد شاكر حادّة وصارمة ، ولا تعرف ما يُسمّى بالمواءمة أو المُلاينة أو الدوران حول الموضوع ؛ ولكنها تُؤثر المباشرة والحسم ؛ مع

شيء من الأوصاف العنيفة ؛ اعتقاداً منه أنه يضع الأمور في نصابها ، أو موضعها الصحيح .

لقد تفتّحت عينا الرَّجُل على ثورة في مصر ، ووجد أسرته تُشارك في هذه الثورة ، ورأى أن التضحيات هي الطريق لمواجهة الظُّلم والاستلاب ، وقد تأثر بهذه النشأة بلا ريب ، وإذا عرفنا أن أسرته ـ الجد ؛ والوالد ؛ والعم ؛ والأشِقّاء ـ سجَّلت لنفسها صفحات في سجل الشرف الوطنيِّ دفاعاً عن الإسلام والعربية ؛ فلن يكون هو بعيداً عن مُناخ التضحية والجهاد ؛ مما يعني أن كتاباته لابُدَّ أن تَصُبَّ في بحر الدفاع عن العقيدة واللُّغة ؛ أو تراث الأُمَّة بمعنى أشمل وأرحب .

يقول عن نفسه :

« وكان مما قدَّر الله أن أفتح عينيَّ على ثورة مصر ؛ وعلى دارٍ تموج بالثُّوَّار ؛ فعقلت من الأمر يومئذٍ ما عقلت ، ورأيت بعيني رجالاً ، وسمعت بأُذني آراء ، ورضيت بقلبي أو سخطت ، وأعانتني فطرتي بضربٍ من التمييز ؛ كان يَرُجُّ نفسي رَجّاً شديداً ؛ وأنا بَعْدُ في غضارة الصِّبا !! ؛ ولم أكد حتى انطلقت أجوب مجتمعاً يفور بالمتناقضات ، ويتشقّق بالصراع المُرِّ في ميادين مختلفة ؛ من الدين ، إلى العلم ، إلى الأدب ، إلى الفن ، إلى السياسة ، إلى السُّنَن الموروثة !! ؛ فخُضت محنة زماني ، في أول نشأتي ، بنفسٍ غَضَّةٍ مُجَرَّحَةٍ بالتجارب ، ومضت بي الأيام ، وأثخنتني التجارب !! ، وهلك رجال ، ونشأ رجال ؛ فرأيت ، وسمعت ، ورضيت ، وسخطت ؛ وعلمت من أسرار الصراع

مـالم أكـن أعلم ؛ فـصار حَقّـاً علـىَّ واجباً : أن لا أتلجلـج ، أو أحجـم ، أو أُجمجم ، أو أُدارى ؛ مادُمْتُ قد نصّبت نفسى للدفاع عن أُمّتى ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . ﴾ ... ؛ إلخ .

إذن ؛ فالرَّجُلُ له تكوينٌ ذاتىٌّ صقلته التجارب ؛ يدفعه دفعاً إلى مواجهة العدو الخفىِّ للأُمّة ؛ من خلال بعض القضايا والآراء التى تُنشر على الناس باسم هذا أو ذاك من الناس ؛ لا يُبالى بما وراء هذه المواجهة من آثار ونتائج .

وبالنسبة للنُّقطة الثانية :

فإن هيمنة الثقافة الغربيّة على الثقافة الإسلامية ؛ قد خلقت ما يُسمّى بـ : ((فساد الحياة الثقافيّـة)) طوال القرن العشرين !! ؛ وخاصة بعد أن تصدَّر أتباع الثقافة الغربية ميادين : التعليم ، والفكر ، والأدب ، والسياسة ، والاقتصاد .

لقد نبت صراعٌ عنيفٌ بين أنصار كل من الثقافتين : أسفر عن حالة الفصام ، وعن تدهور اللغة القومية ، وضعف الأدب ، والخلل فى شتّى نواحى الحياة الاجتماعية !! ؛ إنه صراعٌ بين حضارتين مختلفتين فى جذورهما أشد الاختلاف ؛ إحداهما كانت غافية فقامت تتمطّى وتطرد الفتور عن أعضائها ومفاصلها ؛ وأخراهما يقظة تهبُّ حَذِرَةً ، وتتأهب للسطو على الغافية بـ : البغى ، والعدوان ، والقوة ، والبطش ، والضراوة ، وحُبِّ الغلبة ، وبسط السُّلطان .

ولم يتعب محمود محمد شاكر من تكرار الحديث فى هذه النقطة ؛ فقد أشار إليه وتناوله فى أكثر من كتاب من كُتُبـه ؛ حيث نعى على الحياة الثقافية

فسادها وسطحيتها وضحالتها، وتسلُّط المُستبدِّين من خُدَّام الثقافة الغربية على مُقدَّرات الثقافة الإسلامية والعقل الإسلاميّ، ويمكن الرجوع إلى ما كتبه تحت عنوان:

لمحةٌ من فساد حياتنا الأدبيَّة

فى الجزء الأول من كتابه «المتنبى»؛ ليجد تفصيلاً وإسهاباً حول هذه النُّقطة يتناول جوانب الفساد، وخاصة ما كان على يد دنلوب: فى نظام التعليم، ونظام البعثات العلمية، والاستشراق، والفنون الأدبية ـ المسرح والقصة على وجه الخصوص ـ؛ حيث صار السطو والتقليد للغرب أمراً مألوفاً؛ ويُؤكِّد أنه مازال مُستمرّاً بقوة إلى يومنا هذا، وبالثرثرة واللجاجة فى الصُّحُف والمجلاَّت، صارت هذه الظاهرة مألوفة لا غُبار عليها، وزادها رُسُوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج، محفوفة بألفاظ مُبهمة مُغرية؛ تقبلها النُّفُوس بلا مُمانعة؛ وهى:

قضيَّة القديم والجديد

و:

التجديد وثقافة العصر

والنظر فى حقيقة هذه القضية؛ يُفضى إلى شيئين ظاهرين:

ـ ميلٌ ظاهرٌ إلى رفض القديم؛ والاستهانة به؛ دون أن يكون الرافض مُلِمّاً إلماماً بحقيقة هذا القديم.

ـ وميلٌ سافرٌ إلى الغُلوِّ فى شأن الجديد؛ دون أن يكون صاحبه مُتميِّزاً

فى نفسه تميُّزاً صحيحاً ؛ بأنه جدَّد جديداً نابعاً من نفسه ؛ وصادراً عن ثقافةٍ مُتكاملةٍ مُتماسكةٍ !! ؛ بل كل ما يُميِّزه أن الله قد يسَّر له الاطلاع على آدابٍ وَفُنُونٍ وأفكارٍ تَعِبَ أصحابها فى الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! ؛ وكفى الله المُؤمنين القِتَال !!.

لقد ألحَّت مسألة فساد الحياة الأدبية على قلم محمود محمد شاكر إلحاحاً شديداً، وتوقَّف عندها كثيراً فى كتابه ((أباطيل وأسمار)) ؛ بل إن آخر كُتُبه فى مجال التحقيق ـ وهو ((أسرار البلاغة)) ـ تضمَّن بياناً مُهِمَّاً حول فساد الحياة الأدبية وأبعاده وأسبابه ؛ تمنَّيت أن يقرأه المثقفون العرب المعاصرون !! ؛ وخاصة من يعملون فى حقل الدراسات الأدبية ؛ ليعرفوا مواطن الفساد ؛ كى يتجنَّبوها .

وأبرزها :

العبث بأصول ثقافتنا الإسلاميَّة ؛ والكذب عليها ؛ والاستهانة وقِلَّة المُبالاة ؛ والتحريض على تغيير التاريخ !!.

إنَّ أساتذتنا الكبار ـ كما يقول شاكر ـ استهانوا بما يقولون !! ؛ وتركوا ألسنتهم تطول وترعى فى مرتعٍ وخيم !! ؛ واستهانتهم هذه لم تقتصر جنايتها على العلم، أو الأدب، أو التاريخ، أو الدين !! ؛ بل جنت أيضاً على الحياة السياسيَّة التى جاءت بعد ثورة مصر سنة ١٩١٩م !! ؛ بل استشرت أيضاً حتى جنت على ما هو أعظم !! ؛ جنت على عامَّة الناس فى حياتهم اليومية وأعمالهم التى يُزاولونها بأيديهم وعقولهم ليكسبوا بها رزق أيَّامهم !!.

وكما نرى:

فإنَّ محمود محمد شاكر يقوم بدور المقاتل العنيد ضد الاستهانة بتراثنا، وضد فساد الحياة الأدبية والثقافية، وهو مُؤهَّلٌ لذلك، مُسلَّحٌ بالعلم والوعى والنشأة؛ ولا ريب أن الرَّجُلَ أدرك واجبه تجاه أُمَّته وفكرها وثقافتها؛ فواجه التيَّار الجارف الذى صنعته الحضارة الغازية المُهيمنة: بإيمانٍ راسخٍ؛ وعقيدةٍ ثابتةٍ؛ لا تعبأ بما تجلبه هذه المواجهة من مُضاعفات أو مُضايقات أو أزمات، وفى الوقت ذاته كان فاهماً لمعنى التجديد أو التقدُّم الحقيقىِّ الذى تصنعه الأُمَّة من خلال معرفتها بذاتها، ومعرفتها بما لدى الآخرين؛ لبناء المُستقبل المأمول؛ ومن ثَمَّ: فقد دخل إلى معاركه الأدبية: بقلبٍ جسور، وعقلٍ واعٍ، ومعرفةٍ عميقة؛ دُون أن يهتز قلمه أو تَزِلَّ قدمه؛ مع أنه واجه خُصُوماً يملكون شُهرةً أو هيمنةً تجعل من أىِّ طرفٍ يواجههم يتردَّد ألف مرَّةٍ قبل أن يَخُطَّ حرفاً واحداً ضدهم!!.

المعركة الأولى الرئيسية؛ التى ثارت بسبب المُتنبِّى: لها جذرٌ ـ أو جذور ـ أبعد من كتاب «المُتنبِّى» الذى ألَّفه محمود محمد شاكر ونشره فى عددٍ خاصٍّ من «المقتطف»؛ فالطرف الرئيسىُّ فى معركة المتنبى هو الدكتور طه حسين: أُستاذ شاكر فى كُلِّيَّة الآداب بالجامعة المصريَّة؛ وقد كان سبباً أن يترك التلميذ دراسته فى الكُلِّيَّة؛ لينصرف إلى التحصيل الذاتىِّ فى شتَّى فروع المعرفة؛ وعلى رأسها اللغة العربية وآدابها؛ وقد برع التلميذ فى التحصيل والاستيعاب إلى درجة المُعايشة الحيَّة للنُّصوص الأدبية

وعناصرها .

كان التلميذ بحُكم انتمائه إلى أُسرة خدمت اللغة والأدب والإسلام على صلةٍ وثيقةٍ بالشعر - وخاصة شعر الجاهليين، وشعر صدر الإسلام والدولة الأمويَّة - ؛ وقد سمع من أستاذه كلاماً يُشكِّك فى الشعر الجاهلىِّ ونسبته إلى الجاهليين !! ؛ فثار التلميذ !! ؛ وعارض أُستاذه فى هذا الرأى !! ؛ بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك حين رَدَّ رأى الأُستاذ إلى مصدره الأصلىِّ ؛ وهو المُستشرق مرجليوث ؛ حيث نقل الأستاذ عن مرجليوث مغالطته الخبيثة !! ؛ وردَّدها على طُلاَّبه فى كُلِّيَّة الآداب !! ؛ وكانت الجفوة بين الأستاذ والتلميذ !! ؛ وقد عرف التلميذ أن أُستاذه قد سطا سطواً مُجرَّداً على مقالة مرجليوث ؛ لأنه - أى التلميذ - قرأ هذه المقالة فى « مجلة الجمعية الملكية الآسيوية » تحت عنوان :

نشأة الشِّعْرِ العربىِّ

وتستغرق نحو اثنتين وثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وفيها يشُكُّ مرجليوث فى صِحَّة الشعر الجاهلىِّ !! ؛ ويراه شعراً إسلاميّاً وضعه الرُّواة المسلمون فى الإسلام !! ؛ ونسبوه إلى أهل الجاهلية !!.

وبعد تردُّدٍ واجه التلميذ أستاذه بما فى نفسه !! ؛ وبدأ حديثه أمام الطُّلاَّب عن هذا الأسلوب الذى سمَّاه الأستاذ : « منهجاً » !! ؛ وعن تطبيقه لهذا المنهج فى مُحاضراته !! ؛ وعن هذا الشك الذى اصطنعه !! ؛ ماهو ؟!! ؛ وكيف هو ؟!!

ويدأ يُدلِّلُ على أن الذى يقوله عن المنهج وعن الشَّكِّ غامضٌ !! ؛ وأنه مُخالفٌ لما يقوله ديكارت !! ؛ وأن تطبيق منهجه هذا قائمٌ على التسليم تسليماً لم يُداخله الشك ؛ بروايات فى الكتب هى فى ذاتها محفوفة بالشك !! ؛ وفُوجِئ الطُّلاَّب بكلام التلميذ للأستاذ !! ؛ وما كاد التلميذ يفرغ من كلامه حتى انتهره الأستاذ وأسكته !! ؛ وخرج الجميع من القاعة مُستنكرين غاضبين مما قاله زميلهم !! ؛ ثم أرسل الأستاذ يُنادى التلميذ : فعاتبه بالقسوة حيناً ؛ والرِّفق حيناً آخر ؛ والتلميذ صامتٌ لا يستطيع الرَّد !! ؛ ولم يستطع أن يُكاشفه بأن محاضراته مسلوخة من مقالة مرجليوث !! ؛ ولكنه كان على يقينٍ أن الأُستاذ يعلم أن تلميذه يعلم بهذه الحقيقة !! ؛ ومن يومها خرج التلميذ ! ؛ وَيَبِسَ الثَّرى بينه وبين الدكتور طه إلى غير رجعة !! .

كان شاكر قد اهتدى إلى منهج لفهم الشعر ـ وخاصة الشعر القديم ـ ؛ يقوم على التذوق والمُقارنة ـ بحُكم نشأته وسط بيئة أُسرية تُحِبُّ الأدب واللغة والإسلام ـ ؛ وهذا المنهج هو الذى دفعه للوقوف من محاضرات أستاذه موقفاً رافضاً ؛ فضلاً عن اطِّلاعه على مقالة مرجيلوث التى سبقت الإشارة إليها .

ومع أن شاكر يذكر جميلاً لأُستاذه : حين توسَّط له فى الدُّخُول إلى كُلِّيَّة الآداب ، وهو من طُلاَّب القسم العلمىِّ الذين لا يحِقُّ لهم الدراسة فى الآداب ؛ فإن ذلك لم يمنعه من مُناقشة أُستاذه ؛ وإذاعة سِرِّ مقالة مرجليوث بين الطُّلاَّب ، وكان يبلغ الأستاذ ما يذيعه التلميذ ، وكان الصراع غير متكافئ

بين الاثنين ؛ فترك التلميذ الجامعة ؛ ومصر جميعاً !! ؛ غير مُبَالٍ بإتمام دراسته الجامعية !! ؛ طالباً العُزلة حتى يتبيَّن وجه الحَقِّ فى قضية الشعر الجاهلىِّ بشعابها المختلفة .

وَمُنْذُ تاريخ صدور كتاب « فى الشِّعر الجاهلىِّ » للدكتور طه حسين ، حتى عام صدور كتاب « المُتنبِّى » لمحمود محمد شاكر ؛ فَهِمَ الأخير أن الأول تراجع عن أقواله وآرائه ، وإن لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتبَ !!.

وقد توهَّم شاكر أن الدكتور طه سوف يبدأ عهداً جديداً فى تفكيره ؛ وخاصة بعد أن كتب ما يُوحى بذلك فى « حديث الأربعاء » !! ؛ إلا أن صدور كتاب « المُتنبِّى » لشاكر أشعل حِدَّة الصراع !! ؛ فقد أصدر عبدالوهَّاب عزَّام بعد شهور من صدور كتاب « المتنبى » لشاكر كتابه « ذكرى أبى الطيِّب بعد ألف عام » ؛ وأصدر طه حسين كتابه « مع المُتنبِّى » .

ويتصور شاكر أن الرَّجُلين اغتصبا جهده الذى بذله فى كتابه !! ؛ وأثبت فيه من خلال منهجه :

- علويَّة المتنبى .
- ودحض دعوى ادعائه النُّبُوَّة .
- ورجَّح حُبَّهُ لخولة أُخت سيف الدولة .

وقد أفاض شاكر فى الحديث عن سطو عزَّام وطه على كتابه ، ووصف

كتابيهما بأنهما : حاشية على كتابه !! ؛ ويبدو أن الذى حَزَّ فى نفسه : هو إغفالهما لاسمه !! ؛ فلم يذكره أىٌّ منهما !! ؛ وإن كان الأول قد أشار إليه إشارةً خاطفةً بوصفه كاتب «المقتطف» .

عقب صدور كتاب « المتنبى » فى « المقتطف » : أثنى كثيرون على الكتاب وصاحبه !! ؛ منهم الشاعر الكبير أحمد مُحَرَّم .

كما سخر منه كثيرون ؛ من بينهم : الأستاذ على عبدالرازق ؛ والأستاذ محمد هاشم عطيَّة !! .

وكان مصطفى صادق الرافعىّ ـ أستاذ شاكر وصديقه الحميم ـ قد تبنَّى الكتابة عن الكتاب بالثناء والتقريظ ؛ ومما جاء فى كلام الرافعىِّ حوله :

« إن هذا المُتنبِّى لا يفرغ ولا ينتهى !! ؛ فإن الإعجاب بشعره لاينتهى ولا يفرغ !! .

وقد كان نفساً عظيمةً خلقها الله كما أراد !! ؛ وخلق لها مادَّتها العظيمة على غير ما أرادت !! ؛ فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتد فى الزمن !! ؛ وكان الرَّجُلُ مطويّاً على سِرّ ألقى الغموض فيه من أول تاريخه !! ؛ وهو : سِرُّ نفسه !! ؛ وسِرُّ شعره !! ؛ وسِرُّ قُوَّته !! .

وبهذا السِّرِّ كان المتنبى كالملك المغصوب !! ؛ الذى يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً !! ؛ فهو يتَّقى السيف بالحذر والتلفُّف والغموض !! ؛ ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل !! . » .

ويُضيفُ الرافعىُّ مادحاً للمؤلف :

« ومن هذا السِّرّ بدأ كاتب المقتطف ـ يقصد شاكر ـ !! ؛ فجاء بحثُهُ يتحدَّر فى نسقٍ عجيب !! ؛ مُتسلسلاً بالتاريخ ؛ كأنه ولادةٌ ونُموٌّ وشباب !! ؛ وعرض بين ذلك شعر أبى الطيِّب عرضاً خيِّل إلىَّ أن هذا الشعر قد قيل مرَّةً أُخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها !!... » .إلخ.

ومع اعتزار شاكر برأى أُستاذه وصديقه الرافعىّ ؛ فقد كان يطمع من العقّاد أن يكتب عن الكتاب ؛ ولكن العقّاد لزم الصمت بعد أن أهداه شاكر نسخة منه !! ؛ وتبدو المرارة واضحة لدى المؤلف من موقف العقّاد ؛ الذى كان نتيجة لعلاقة المؤلف بالرافعىّ ؛ ومعروف ما كان بين العقّاد والرافعىّ من سجالٍ هبط إلى دَرْكٍ سحيق !! ؛ استنكره شاكر فيما بينه وبين نفسه ؛ وتمنَّى ألا يحدث .

بَيْدَ أن الذى عكَّر صفو شاكر هو صدور كتابى عزَّام وطه دون أن يتناولاه بالاسم ـ كما سبقت الإشارة ـ !! ؛ وقد خصَّص فى كتابه عند طبعه [بعد ذلك] نحو خمس وعشرين صفحة فى السفر الأول يتحدَّث فيها عمَّا فعله عزَّام !! ؛ وعمَّا اقترفه من سطوٍ جرىءٍ !! ؛ وعدَّد كثيراً من المواضع التى كانت محِلاً للسَّطو !! ؛ وذكر ما جرى بينهما فى دار « الرسالة » من نقاش حول كتابه وكتاب عزَّام ... ؛ ثم يختم كلامه بفقرة يقول فيها :

« إنما عرضت مثلاً مما فى الكتاب ـ يقصد كتاب عزَّام ـ لا أكثر !! ؛ أما سائر ما أخذه الأستاذ عزَّام اجتراءً مجُرَّداً أو سطواً عُرياناً !! : فلم أتعرَّض له هُنا !! ؛ وقارئ كتابه وكتابى قادر على أن يراه ؛ كما رأى بعضه ذلك الشَّابُّ

العراقيُّ الذى لم يدخل جامعةً ولكنه ثقّف نفسه بالقراءة وهو جالس فى دُكّان صغيرٍ يبيع فيه الكتب !! : فكتب إلىَّ رسالةً يذكر فيها أكثر من ثلاثين موضعاً فى كتابى ؛ أخذها الأستاذ - يقصد عزَّام - ؛ فوزَّعها بالعدل والقسطاس على أبواب كتابه !! ؛ ورحم الله الشابَّ قاسم الرجب الكُتُبىّ !! ؛ فقد كان مثالاً لليقظة فى شباب وشيوخ كثير قد نامت عقولهم واسترخت تحت التخدير الثقافىِّ !! .)) .

وواضحٌ أن محمود محمد شاكر يعتز بما كتبه اعتزازاً شديداً ، ولعلَّ هذا هو السِّر وراء حِدَّتِهِ وغُلوِّه فى هذه الحِدَّة ، مع أنه يصف عزَّام بالخجل والحياء والأدب الجم !! ؛ ولا ريب أن عدم إشارة عزَّام إلى كتاب شاكر وجهده - وخاصة فى ترتيب قصائد ديوان المتنبى ؛ ودحض دعوى النُّبُوَّة - يُمثِّل قصوراً علميَّاً ما كان ينبغى لمثل عزَّام أن يقترفه !! ؛ وإن كان الرَّجُل صاحب جهد مشكور فى العديد من الميادين ، وقد أشار شاكر نفسه إلى جهد عزام المتميز فى ترجمة ((الشاهنامة)) والتعليق عليها .

ويبقى الصراع مع طه حسين لُبّ المسألة عند محمود محمد شاكر ؛ فالمواجهة بينهما قديمة مُنْذُ كان المؤلف طالباً وطه أُستاذاً ؛ ولأن الطالب يومئذٍ كان يشعر بالذُّل والعجز عن إفحام أستاذه ؛ فقد وجد الفرصة مواتيةً عندما أصدر الأُستاذ كتابه ((مع المتنبى)) ؛ فصوَّب إليه سهام النقد : بدءاً من المُدَّة التى قضاها فى تأليفه والتى لا تتعدَّى ثلاثة أشهر - وفقاً لرسالة من طه حُسين إلى توفيق الحكيم - ؛ وانتهاء بالمنهج والمعالجة .

أخذ شاكر يكتب فى « البلاغ » سلسلة مقالات بعنوان:

بينى وبين طه !!

جمعها فيما بعد فى الجُزء الثانى من كتابه « المتنبى » فى طبعته الثانية ؛ وفى هذه المقالات الثَّاريَّة : وَجَّهَ شاكر إلى أُستاذه أعنف التُّهم !! ؛ مثل : السطو!! ؛ والتلخيص !! ؛ وعدم البصر بالشعر !! ؛ والتكرار والثرثرة !! .

ويُبيِّن شاكر أنه حدَّد طريقه تحديداً كاملاً فى مواجهة الدكتور بثلاث حقائق ؛ هى :

- الحقيقة الأولى : أنه فى أكثر أعماله يسطو على أعمال الناس سطواً عُرياناً أحياناً ، أو سطواً مُتلفِّعاً بالتذاكى والاستعلاء والعُجب أحياناً أخرى !! .

- والحقيقة الثانية : أنه لا بصر له بالشعر ، ولا يُحسن تذوقه على الوجه الذى يُتيح للكاتب أن يستخرج دفائنه وبواطنه ، دون أن يقع فى التدليس والتلفيق !! .

- والحقيقة الثالثة : أن منطقه فى كلامه كله مُختل ، وأنه يستره بالتكرار والتَّرداد والثرثرة !! .

ويُركِّز شاكر فى مقالاته « بينى وبين طه » على عددٍ من النقاط التى أثارها طه حسين ، ويُقارن بين ما كتبه كُلٌّ منهما : ليُثبت لنفسه السبق فى قضايا عديدة ، ولطه السطو العُريان أو المُقنَّع !! .

ومن النِّقاط التى عالجها شاكر فى مقالاته :

ـ نسب المتنبى الذى شكَّ فيه الدكتور طه .

ـ وكذلك عُرُوبته .

ـ وعلاقته بالعلويين .

ـ وغُربته عن الكوفة .

ـ وانتسابه إلى القرمطيَّة .

وغيرها.

ويُلاحظ أن مسألة ((قرمطيَّة المُتنبِّى)) قد أثارها عبدالوهاب عزام فى كتابه أيضاً ، وقد توقف شاكر عندها طويلاً ليدحضها ، ويكشف تهافت المصدر الذى اعتمد عليه كُلٌّ من عزَّام وطه ؛ وهو ما قاله ((بلاشير)) فى ((دائرة المعارف الإسلاميَّة)) ، وفصَّله فيما بعد فى كتابه عن المتنبى .

ويرى شاكر : أنَّ قذف المتنبى بالقرمطية يقوم على التلفيق !! ؛ والتدليس !! وإفساد النُّصوص !! ؛ وإسقاطها وتجاهلها !! ؛ والتزيُّد فيها بالوهم الكاذب !! أو بإثبات بعضها على وجهٍ غير صحيح ولا أمين ولا ثقة !! ؛ فإن كان أمرها كذلك : فكُلٌّ ما يأتى منها وما يخرج وما يتفرَّع وما يتشعَّب : فهو تلفيقٌ ولغوٌ وعبثٌ وباطلٌ لا أصل له !! ؛ لأن الأصل الذى خرجت منه هو ذاك الأصل !! .

وكانت قضيَّة نُبوَّة المُتنبِّى أو ادعائه النبوة مثار معركة اشترك فيها طرف آخر ؛ وهو : الأستاذ سعيد الأفغانىّ ـ من دمشق ـ ؛ الذى لم يقتنع بنفى النبوة

عن المتنبى فى كتاب شاكر ؛ فكتب مقالتين فى مجلة « الرسالة » يرُدُّ فيهما ما ذهب إليه شاكر مُعتمداً على الأخبار الواردة فى كُتُبٍ موثوقة .

وقد رَدَّ عليه شاكر فى « الرسالة » ؛ وأخذ السجال الأدبىُّ مساراً بعيداً عن الحِدَّة التى رأيناها فيما كتبه شاكر عن عزَّام وطه ، وقد وصف ما كتبه الأفغانىٌّ فى « الرسالة » بأنه : اعتراضٌ ؛ وليس نقداً ؛ والاعتراض شُبهة ؛ والشُّبهة يُزيلها البيان ؛ أما النقد فأمر آخر لم يسوغ للأخ - يقصد الأفغانىّ - أن يظفر بالقُدرة عليه فيما كتب أهـ .

ومع أن كُلاًّ من الطرفين كان يتعصَّب لرأيه ويعتدُّ بنفسه ؛ فإن السجال كان غنيًّاً بالمعرفة والبحث والتنقيب ؛ وأثمر مجموعة من المقالات المُهمَّة حول قضية النُّبوة التى أُلصقت بالمتنبى ، وقد انتهت المقالات بانسحاب الأفغانىِّ ؛ حيث جاءت مقالته الأخيرة تطلب حكم القُرَّاء ضمناً :

وكلام كلينا معروض لمن أراد تثبُّتاً ؛ وصحف « الرسالة » أحوج إلى أن تُملأ بالحقائق والبرهان ، منها إلى الدعوى والانتقاص ؛ وإن القُرَّاء لا يخفى عليهم وجه الحق فى كلام اثنين ؛ وألا يصرفهم عنه نيلٌ من صاحبه !! ؛ ومُراوغةٌ فى الحطِّ منه !! ؛ وحرامٌ أن أقتل الوقت فى تتبُّع المزالق التى زَلَّ فيها صاحبنا !! . أهـ .

وإذا كانت معركة المتنبى قد بدت فى بعض جوانبها ذاتية وشخصية ، وكأنها تصفية حسابات بين كاتبٍ شاب أنَفٍ يَعْتَدُّ بنفسه ، وبين كاتبين كبيرين مشهورين ؛ فإن القضية العلمية ظلَّت مُهيمنة على مسار المناقشات ، ودارت

دائماً حول المتنبى، وأفادت المجتمع الأدبىَّ برُؤى جديدة وتحليلات أصيلة .

.....

بَيْدَ أن معركة المعرِّى كانت فى أغلب جوانبها قضية عامة ؛ تَمَسُّ كيان الأُمَّة وواقعها ومستقبلها، ومع أن الطرف المثير للمعركة لم يَرُد على ما وُجِّهَ إليه من نقد وتصويب، واستعلى على المواجهة العلمية والنقاش الفكرى ؛ إلا أن المعركة بدت فى زمانها ـ منتصف الستينيات ـ : معركة حضارية ؛ تخوضها الأصالة ضد استباحة الأُمَّة وهيمنة طلائع الثقافة الغربية على مُقدَّرات الثقافة العربيَّة .

ومن المُفارقات : أن هناك من فسَّر استعلاء لويس عوض ـ الطرف المثير للمعركة ـ على الرد والمواجهة والنقاش : بأنه يرى أن من ينقدونه ويصوبون أخطاءه وخطاياه أقل منه !! ؛ وليسوا فى قامته العلمية والفكرية !! ؛ حتى لو كان أبرزهم محمود محمد شاكر !! .

وقد حاول لويس أن يُوحى بأنه ليس فى معركة مع أحد !! ؛ ولكنه لم يجد مفرّاً إلا أن يرد ؛ ليس بالعلم والمنطق والحُجَّة ؛ ولكن بالسَّبِّ والتحريض والسُّخرية والتهكُّم فى كتابٍ ألَّفه خصيصاً لذلك بعنوان « المحاورات الجديدة » ؛ ويحمل عنواناً فرعيّاً هو : « دليل الرَّجُل الذكىِّ إلى الرجعية والتقدمية وغيرهما من المذاهب الفكرية »، وقد صوَّر فيه خصومه بصورة كاريكاتورية تُحقِّق السخرية منهم والتهكُّم عليهم من خلال أقنعة مسرحيَّة !! .

وقد بدأت المعركة مع لويس عوض عندما أخذ ينشر فى « الأهرام » مجموعة من المقالات تحت عنوان:

« على هامش الغفران »

ملأها بالخلط والتدليس والتزوير !! ؛ وكانت الطامة الكُبرى عندما نشر فى مُقدِّمة مقالاته بالأهرام بعض أبيات المَعرِّى بخط النُّسخ محفورة على الزنك خطأً على النحو التالى:

صليت جمرة الهجير نهاراً

ثم باتت تغص بالصُّلبانِ

« سقط الزند » فى وصف حلب .

أعبَّاد المسيح يخاف صحبى

ونحن عبيد من خلق المسيحا؟!!

« سقط الزند » فى الحُرُوب الصليبيَّة .

البيت الأول ليس صحيحاً كما أورده لويس عوض وشكّله !! .

والبيت الثانى صحيح ؛ ولكنه لم يرد فى الحروب الصليبية كما زعم لويس عوض !!.

وكان حَرِيّاً بالمجتمع الأدبىّ أن ينهض لِيَرُدَّ الرَّجُلَ عن شططه وغُلوِّه وتورُّطه فى التعصُّب الطائفىّ الذى بدأ مُستفزّاً لكل الناس العقلاء ؛ حتى الذين يتمتَّعون بالصبر الجميل والحلم إلى أقصى مدى !!.

لم تعُد القضية بحثاً أدبيّاً حول التأثير والتأثُّر بين الأدب العربىّ والآداب

الأوربيَّة !! ؛ ولكنها تجاوزت إلى محاولة فرض النموذج الغربىِّ وتأكيد هيمنته من خلال : تزوير التاريخ !! ؛ وخلط الأوراق !! ؛ والتدليس على الناس من خلال منهج قاصر ومعيب !! .

وقبل أن نُشير إلى بعض ما قاله محمود محمد شاكر ؛ فإن البيت الأول يأتى صحيحاً هكذا :

صليت جمرة الهجير نهاراً

ثم باتت تغص بالصليانِ

الفعل : تغص ؛ بمعنى : تمتلئ وتشرق .

والصليان - بالياء المثناة - : نبات ترعاه الإبل ، وتسيغه إذا كان رطباً ، وتشرق به - أى تُغَص - إذا كان يابساً .

إذ الصليان بالياء المثناة ، وليست الصلبان بالباء المفردة كما ذهب لويس.

أما البيت الثانى الذى ذكر لويس أنه ورد فى الحروب الصليبية ؛ فقد كان ضمن قصيدة للمعرِّى يمدح بها الشريف العلوىَّ بعد أن أرسل إلى أبى العلاء أبياتاً أولها :

بعادك أسهر الجفن القريحا !!

ودارك لا تنى إلا نزوحا !!

وإذا عرفنا أن المعرِّى مات قبل بداية الحروب الصليبية بنحو أربعين عاماً على الأقل !! ؛ فإن المسألة لدى لويس عوض تخرج عن مجال البحث العلمىِّ

المُجَرَّد ؛ إلى مجال آخر ليس علمياً وليس مجرَّداً !! ؛ هو مجال التعصُّب الطائفيِّ !! ؛ والدعاية الفجَّة لأعداء الأُمَّة !! .

أيضاً ؛ فإن لويس عوض قام بتفسير أحد الأبيات التى وردت فى قصيدة أبى العلاء النُّونيَّة يقول فيه :

فإذا الأرض وهى غبراء صارت

من دم الطعن وردة كالدِّهانِ

فقد جعل لويس الصفة وردة اسماً ، وفسَّرها على هواه !! ؛ حيث قال :

والمعرِّى نفسه ينسج على صورة الوردة فى سقط الزند ، ويجعلها فى الأرض لا فى السماء - يعنى كما فى سورة الرحمن ؛ وكما فى دانتى الذى أخذ عنهما الوردة السماويَّة « روزا مسكيتا » !! - .

فى حين أن المعرِّى يقُول :

إن الطعن والقتل قد استمر ؛ فسالت الدماء حتى غشت الأرض ؛ فصارت أرض الميدان بالدماء حمراء كالأديم الأحمر المشرق .

وهذه الأخطاء المقصودة وغيرها : تَدُلُّ على أن لويس عوض يفتقد أبسط مبادئ الأمانة العلميَّة !! ؛ ويفتقر إلى منهج البحث العلميِّ الدقيق !! ؛ وهو ما توقَّف عنده محمود محمد شاكر طويلاً ، وكشفه بوضوح عندما تبيَّن أن الرَّجُل لم يرجع فى كلامه عن أبى العلاء إلى مرجع أصيل واحد يتعلق بشعر أبى العلاء أو حياته ؛ أو تفسير القرآن الكريم أو الأسماء الواردة فى كلامه !! ؛ فوقع فى التخليط والتلفيق !! .

ويُستحسن أن ننقل هُنا ما قاله محمود محمد شاكر على طوله، حيث يُلخِّص أخطاء لويس عوض العلمية والفكرية؛ يقول:

« ... ؛ هذا الرجل الذى طلع علينا فى طيلسان وجلاجل !! ؛ قد ادَّعى منهجاً كمناهج الأساتذة الجامعيين، سلكه فى دراسة رسالة الغفران، وتاريخ شيخ المعرَّة !! ؛ فحاكمته إلى أوائل ما يعرف الطُّلاَّب الصغار عن المنهج !! : فاتضح أنه يجهل منهج الدراسات الأدبية جهلاً تامًّا !! ؛ وكان هذا حسبى وحسب صحيفة الأهرام ؛ ولكنى لم أقنع بذلك حتى أبرئ ذِمَّتى : فكشفت عن أكبر خطيئة لا تُغتفر لطالب صغير مبتدئ !! : وهى العجلة فى قراءة النُّصوص !! ؛ فأثبتُّ أنه نقل نصَّاً من كتاب واحد ؛ هو كتاب الدكتور طه حسين، لم يقرأه قط فى غير هذا الكتاب !! ؛ ومع ذلك فهو إنما قرأ أسطراً كالملهوف !! ؛ وترك ما بعدها من الأسطر !! ؛ وهى التى فيها نقد الدكتور طه لهذا النص نفسه !! وكان من الغثاثة والادِّعاء أنه استخرج من هذا النص الفاسد المستحيل المعنى !! : أحكاما ألقاها للناس كأنها حقيقة مفروغ منها !! ـ وهذا غشٌّ فاضحٌ وعبث !! .

وكان هذا حسبى وحسب صحيفة الأهرام ؛ ولكنى لم أقنع بذلك ؛ فأبرأت ذمَّتى أيضاً ببرهان قاطع على أن هذا الرَّجُل قد ادَّعى فى كلامه أنه قرأ كُتُباً بأعيانها !! ؛ وهو فى الحقيقة خطَّافٌ جرىء !! ؛ يتكئ على كتاب الدكتور طه وحده بلا بصر ولا فهم !! ؛ فمن أجل ذلك أخذته بادِّعائه ومخرقته !! : حتى اكشف للناس أنه لم يقرأ شيئاً مما ذكر من الكتب ولا

رآها !! ؛ ولا عرف ما هى !! ؛ ولا من أصحابها !! ؛ وصدقته فى ادعائه الكاذب ؛ ليكون ذلك أشنع له !! ؛ لأنه يكون عندئذٍ قد قرأ نصًّا لم يعرف معناه، ولم يعرف كيف يدرسه طالبٌ جامعيٌّ مُبتدئٌ ضعيف !! ؛ وكان هذا أيضاً حسبى وحسب صحيفة الأهرام ؛ ولكنى لم أقنع بذلك ؛ فأبرأت ذِمَّتى مرَّةً ثالثة : بالدلالة الحاسمة على أن هذا الذى كتب ما كتب عن شيخ المعرَّة لم يقرأ شيئاً من آثار شيخ المعرَّة !! ؛ وبخاصة شعر سقط الزند !! ؛ وهو الشعر الذى يتعلق بالخبر الذى ادَّعى مُتنفِّخاً أنه قرأه !! ؛ فهو لم يفهم إذن منه حرفاً على وجهٍ يليق بِمُبتدئٍ جامعيٌّ !! ؛ وكان هذا حسبى وحسب صحيفة الأهرام ؛ ولكنى لم أقنع بذلك حتى أبرأت ذِمَّتى مرَّةً رابعة : وذلك حيث زعم بمخرقته أنه جاء يُعرِّف الناس بحقيقة شيخ المعرة وحقيقة تاريخه !! : فذكر أكاذيب وأوهاماً لا أصل لها إلا فى خيالاته وسماديره !! ؛ فكشفت بلا ريبة عن أن هذا الدَّعِىَّ لم يقرأ كتاباً واحداً فى ترجمة شيخ المعرة !! ؛ ومع ذلك فهو يأتى بلا خجل ولا حياء فيذكر كذباً صُراحاً مُناقضاً للمعقول : من حياة الشيخ !! ؛ ومن حياة أُسرته !! ومن حياة أُمَّته التى عاش فيها !! ؛ وكان هذا هو حسبى وحسب صحيفة الأهرام ؛ ولكنى لم أقنع حتى أبرأت ذِمَّتى مرَّةً خامسة : بدلائل قاطعة على أن هذا الرَّجُلَ الذى يُدارس نصًّا عربيًّا من أعظم النصوص ؛ لا يملك أىَّ إحساسٍ أدبىٍّ بأىِّ نصٍّ يقرؤه !! ؛ ولو ظلَّ يكتب فى الأدب عشرات المُجلَّدات !! .

وكان هذا حسبى وحسب صحيفة الأهرام ؛ ولكنى لم أقنع بذلك ؛ حتى

أبرأت ذِمَّتى مرَّة سادسة : فبيَّنت جهل هذا الرجل وادعاءه ببرهان فاصل من نص كلامه هو فى صفة نفسه !! : إذ قال : إن إحساس لويس عوض باللغة العربية ضعيفٌ جدًّا !! ؛ وأجنبيٌّ جدًّا !! ؛ ومع ذلك فهو يعمد إلى النُّصوص الأدبية فى لغة العرب ؛ فيدرسها بمخرقة شنيعة !! ؛ وبلا حياء !! ؛ ولا يقنع بهذا!! ؛ بل ينتهى به ما أطبق عليه من الهوس والجرأة !! : فيعمد إلى آية من القرآن الكريم العظيم ؛ فيُفسِّرها بغباوةٍ وجهلٍ راسخٍ !! ؛ ثم لا يستحى !! ؛ فيدَّعى نسبة ذلك إلى كتب المُفسِّرين المسلمين مُوهماً أنه لا يفهم !! ؛ ويزعم أن الرجل الذى يدرسه قد جاء فى شعره بألفاظ هذه الآية ، بالمعنى الذى يُفسِّره هو !! .)) .أهـ .

ولا شكَّ أن هذا المُلخَّص لأخطاء لويس عوض وخطاياه : يكشف عن أهمية المعركة التى احتشد لها شاكر على مدى خمس وعشرين مقالة طويلة نُشِرَت فى مجلة ((الرسالة)) على مدى عامين ؛ وانتهت بإغلاقها مع معظم المجلاَّت التى كانت تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومىِّ آنئذٍ !! ؛ وانتهت أيضاً بإيداع الرجل السجن لأكثر من سنتين !! ؛ خرج بعدهما ليجمع هذه المقالات فى كتابه ((أباطيل وأسمار)) ؛ مُضيفاً إليها مقالة قصيرة ضمَّنها بعض أبيات المعرِّى الدالة على عُمق المحنة التى تعرَّض لها على المستوى الشخصىِّ ، وتتعرَّض لها الأُمَّة على المستوى الفكرىِّ والثقافىِّ والحضارىِّ ! .

وكما رأينا فى هذا المُلخَّص : فإن لويس عوض حين تجرَّأ على تناول

« رسالة الغُفران » ليزعم أن المعرّى قد تأثّر بالآداب الأوربية القديمة ؛ لم يستخدم منهجاً صحيحاً ، ولم يتسلّح بمعرفة جيدة ، ولم يدخل إلى الموضوع بتجرُّد الباحث المُنصف ؛ ولكنه كان مُقصِّراً فى العناصر كافة !! ؛ اللهم إلا تعصُّبه للحضارة الأوربية ومفرداتها العُنصرية !! .

ومن ثمَّ ؛ فقد امتدت المعركة لتتجاوز المعرّى إلى قضايا أخرى عديدة ، تخص الواقع الثقافىّ العربىّ المُعاصر ، أو بمعنى آخر : تخص الصراع القائم بين حضارة الأمّة المستباحة ، والحضارة الغازية القاهرة ؛ وهو ما ألحّ عليه شاكر فى مواضع عديدة - أشرنا إلى بعضها من قبل - ؛ وأكّد عليه فى مُقدِّمة الكتاب الذى حمل مقالاته فى الرسالة ؛ حيث قال :

« وقد سِرْتُ فى هذه الفصول المُتشعِّبة المعانى - يُشير إلى مقالات الكتاب - سيرة واحدة ؛ فضمَّنت جميعها باباً أو أبواباً من النظر إلى حقيقة الصراع الذى دار ، ولم يزل يدور : على أرضنا ! ؛ وفى عقولنا ! ؛ وفى ضمير أنفسنا ! ؛ وأشرت فى مواضع كثيرة إلى أن هذا الصراع : صراعٌ بين حضارتين مختلفتين فى جذورهما أشد الاختلاف !! : حضارة طال عليها الزمن فغفت غفوة آمن مستريح لا يُفزعه شىء ، وحضارة واتاها الزمن فهبَّت يقظة مُتلفِّتة جريئة لا تأمن أحداً ولا تطمئن إليه !! . » .

ثم أضاف بعد حديث عن بداية الصراع الحديث وطبيعته وأساليبه - الجيوش ؛ والتجارة ؛ والمُبشِّرين - :

« وأطبقت على رُقعة العالم العربيِّ والعالم الإسلاميِّ ضبابة كثيفة !! ؛ ووطئ عليها تاريخ يسحق القُوَى وينسفها نسفاً !! ؛ وكانت قصة طويلة متمادية !! ؛ تقطر دماً !! ؛ وغدراً !! ؛ وخيانةً !! ؛ وترشح مكراً !! ؛ وخُبثاً !! ؛ وخِسَّةً !! ؛ وفظاظةً !! . » .

ويستطرد محمود محمد شاكر فى بيان أن الثقافة والأدب والفكر من أخطر ميادين هذا الصراع، ويزيده خطورة أن الذين تولّوا كِبْرَهُ والذين ورثوهم من خلفهم رجالٌ مِنّا !! ؛ من بنى جلدتنا !! ؛ من أنفسنا !! ؛ ينطقون بلساننا !! وينظرون بأعيننا !! ؛ ويسيرون بيننا آمنين بميثاق الأُخوَّة !! : فى الأرض !! ؛ أو فى الدِّين !! ؛ أو فى اللغة !! ؛ أو فى الجنس !! .

وهكذا : يتبيَّن لنا أن المعركة تجاوزت مسألة تزوير أبيات المعرِّى ـ التى أشرنا إليها من قِبَلِ لويس عوض، وتعمُّده أن يُوظِّف هذا التزوير لإشباع ميله إلى التعصُّب، ورغبته فى الإعلاء من شأن العالم الصليبيِّ ـ ؛ وصارت القضيَّة الكُبرى هى الصراع بين الحضارتين :

الحضارة الغافية ـ حضارة الإسلام ـ ؛ والحضارة اليقظة الصليبية ؛ وتعدُّد أساليب الصراع وميادينه .

لقد وقف إلى جانب محمود محمد شاكر عدد كبير من الكُتَّاب، وخاصة فى مجلتى « الرسالة» و« الثقافة » ؛ وقد أسهموا فى كشف أخطاء لويس عوض وخطاياه .

ومن ناحية أخرى : فقد واجه لويس عملية كشف الأخطاء والخطايا

بطريق غير مباشر؛ عن طريق بعض أصدقائه وتلاميذه ـ ومعظمهم من اليساريين ـ؛ وقد تولوا الدفاع عنه، وتحويل المسألة إلى صراعٍ سياسى بين الرجعية والتقدمية !! ؛ أو بين أعداء النظام من الرجعيين ويُمثِّلهم شاكر ومن معه؛ ومؤيدى النظام من الاشتراكيين التقدميين !! .

وقد برز من هؤلاء كما سبقت الإشارة : محمد مندور، ومحمد عودة، ومُحيى الدِّين محمد، وغالى شكرى، وكُتَّاب مجلة «روز اليوسف»؛ وصحيفتى «الأهرام» و «الجمهورية».

وقام لويس عوض بعد أن سكنت العاصفة، وأُغلقت المجلاَّت، ودخل شاكر وآخرون السجن : بإعلان بهجته واحتفائه بما يُسمِّيه : معجزة !! ـ يقصد إغلاق المجلاَّت وسجن الخصوم ـ؛ ومُطالبة الكُتَّاب والفنَّانين والمفكرين بمقاتلة الرجعية وأفكارها، بعد أن اتهمهم بالتقصير، أو أنهم كانوا يعانون أزمة نفسية جماعية بلبلتهم وأخرجت زمامهم من أيديهم !! .

ثم إن لويس عوض أفرغ ما فى نفسه بالسَّبِّ والقذف فى هؤلاء الرجعيين من خلال كتابه «المحاورات الجديدة» ـ الذى سبقت الإشارة إليه ـ !! .

وللأسف فإنه لم يتخذ منهجاً علميّاً أو موضوعيّاً للرَّدِّ على أخطائه وخطاياه !! ؛ بل إنه تجاهلها تماماً !! ؛ وراح يسخر من الرجعيين والمُتمسِّكين بالتُّراث ويتهكَّم عليهم ويصورهم تصويراً كاريكاتيرياً بارداً !! ؛ وكان حرصه الأول فى كتابه على التحريض ضد هؤلاء الرجعيين؛ من عيِّنة

قوله :

« .. الميثاق :

(بيان أصدرته الحكومة وجعلته مشروعاً للعمل القوميّ)

نادى بالتقدُّمية ؛ والنظر إلى الأمام .

ومجلاَّت وزارة الثقافة - يقصد الرسالة والثقافة وغيرهما - : نادت بالرجعية وعبادة السَّلف .

الميثاق : نادى بمساواة المرأة بالرجل ؛ وبتحرير المرأة من أغلالها .

ومجلات وزارة الثقافة : نادت بانحطاط المرأة ؛ وبضرورة اعتقالها فى الحريم .

الميثاق : نادى بالاشتراكية العلمية .

ومجلات وزارة الثقافة : نادت بالاشتراكية البورقيبية.

الميثاق : مَجَّد رفاعة الطهطاوى ولطفى السيِّد ؛ وفلسفة الأخذ والعطاء مع الحضارات الأخرى .

ومجلات وزارة الثقافة : مجَّدت إغلاق النوافذ ؛ وتحسَّرت على انسلاخ مصر من الإمبراطورية العثمانية .

الميثاق : دعا لتنظيم الأسرة كجزء من برنامج التنمية .

ومجلات وزارة الثقافة : كافحت تنظيم الأسرة . » .إلخ . !! .

وعلى هذا النحو يمضى لويس عوض فى توجيه التُّهم إلى مجلات وزارة الثقافة والتحريض ضدها وضد من يحُرِّرُونها ممن يسميهم بالرجعيين ، دون

أن يشير أدنى إشارة إلى خطأ واحد أو خطيئة واحدة مما اقترفه فى كتابه « على هامش الغفران » !! ؛ فيرد أو يُعلِّل أو يُصحِّح !! .

لا شكّ أن قلم محمود محمد شاكر فى معركته الأولى « المتنبى » : قدَّم نُموذجاً للأديب الشابّ الذى يملك إلى جانب الأداة والثقافة : جرأة كبيرة فى الإعلان عن نفسه وعن منهجه ، ومواجهة الأطراف الأخرى بثقة وإصرار ، مهما بلغت هذه الأطراف من العلم أو المكانة أو المنزلة الاجتماعية ؛ وقد حقَّق فى هذه المعركة أكثر من هدف ؛ منها :

ـ أن المتنبى صار حديث الناس ، وأن ما يتعلق بشعره وحياته ـ وخاصة ما أُثير حول انتمائه العلوىّ ، وادعائه النبوة ، وانتسابه إلى القرامطة ـ صار موضع بحث ومحاورة ومساجلة ـ كما رأينا مثلاً فى مساجلته مع سعيد الأفغانىّ ـ ؛ وإذا كانت النزعة الذاتية قد بدت فى بعض جوانب معركة المتنبى ـ وخاصة مع طه حسين ـ ؛ فإنها اتسمَّت بالنزعة العلمية فى معظم جوانبها الأخرى .

أما معركة المعرِّى :

فكانت معركة العصر الأدبية والفكرية بلا جدال !! ؛ إذ أن الوقت الذى أُثيرت فيه المعركة كان يشير إلى عدم التكافؤ بين طرفى المعركة ؛ فالطرف الذى يمثله شاكر : كان مطلوباً من أطراف أخرى داخلية وخارجية ؛ وكان وصمه بالرجعية وعداء الاشتراكية وما أشبه مسألة فوقية تريدها السلطات المحليَّة والقوى الأجنبية فى آن .

أما الطرف الثانى الذى يمثله لويس عوض:

فهو الطرف المُدلَّل لدى السلطة، ولدى القوى الأجنبية جميعاً، فهو داعية للقضاء على هوية الأُمَّة ومواريثها؛ وداعية إلى اللحاق بالآخر الغربىّ وقيمه ومُثله؛ وقد عبَّر عن ذلك بوضوح لإخفاء بُعده فى سيرته الذاتية التى صدرت قُبَيْلَ وفاته بعنوان «أوراق العمر».

وقد أدى فى فترة الستينيات دوراً جيِّداً؛ كُوفِئَ عليه بتعيينه مستشاراً ثقافيًّا للأهرام، وهى أول مرَّة ينشأ فيها مثل ذلك المنصب الرفيع فى تلك الجريدة العريقة !!؛ فضلاً عن اكتسابه ما يُشبه الحصانة داخل الأهرام !!؛ وهيمنته على بقيَّة الصحف والمجلاَّت الحكومية !!.

أما الطرف الأول:

فقد كانت مكافأته السجن !!؛ وإغلاق المجلاَّت التى كانت تصدرها وزارة الثقافة !!؛ ومُحاصرة الأقلام التى كشفت الأخطاء والخطايا لدى لويس عوض !!.

بَيْدَ أن النتائج النهائية لهذه المعركة كانت بلا ريب فى صالح الطرف المهيض الجناح !!.

﴿ تَمَّ ﴾

هَكَذَا قَامَ هَذَا النَّاقِدُ بِتَحْلِيلِ قَضِيَّةِ المَعَارِكِ الأَدَبِيَّةِ فِي حَيَاةِ الأُسْتَاذ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر ؛ وَلَكِنَّنَا إِذَا ذَهَبْنَا إِلَى المَنْهَجِ النَّفْسِيِّ فِي النَّقْدِ الأَدَبِيِّ - لأَخْبَرَنَا بِأَنَّ هَذِهِ المَعَارِكَ مَا صَعَّدَ مِن حِدَّتِهَا وَقُوَّتِهَا سِوَى الشُّعُورِ النَّفْسِيِّ لَدَى مَحْمُود شَاكِر بِالدُّونِيَّةِ فِي وَسَطٍ ثَقَافِيٍّ لا يَعْتَرِفُ إِلاَّ بِأَصْحَابِ الشَّهَادَاتِ وَالدَّرَجَاتِ وَالأَلْقَابِ الجَامِعِيَّةِ ؛ فَشُعُورُهُ إِبَّانَ المَعَارِكِ وَالمُسَاجَلاتِ أَنَّهُ أَذَلَّ خَصْمَهُ ؛ مَا هُوَ سِوَى أُسْلُوبٍ تَعْوِيضِيٍّ لا شُعُورِيَّ !! .

✿✿✿✿✿

✿ - مِن رَوَائِعِ الأُسْتَاذ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر

.....

يَا ظَامِئَ العَيْنِ مِن جُوعٍ وَمِن ظَمَإٍ
مَاذَا بَقَاؤُكَ ؟! وَالإِخْلاصُ قَتَّالُ !
هَـذَا المُشَعَّثُ ذُو الأَحْلامِ... صُحْبَتُهُ
هَمٌّ ؛ وَخَوْفٌ ؛ وَحِرْمَانٌ ؛ وَإِقْلالُ
يَعِيشُ فِي الأَرْضِ جُثْمَانَاً وَنَاظِرَةً
وَرُوحُهُ لِلعَوَالِي الشُّمِّ تَحْتَالُ
قَدْ نَابَذَ الزَّمَنَ العَاتِي فَنَابَذَهُ
تَصَاوَلا ... وَكِلا القِرْنَيْنِ صَوَّالُ !
وَعَاشَ فِي وِحْدَةِ الرُّهْبَانِ مُعْتَزِلاً
لَهُ رَفِيقَانِ........ آلامٌ وَأَوْجَالُ
هَمَاهِمٌ ؛ وَمُنَى نَفْسٍ ؛ وَتَمْتَمَةٌ
وَلَوْعَةٌ ؛ كَبَنَاتِ السُّحْبِ تَنْثَالُ
مَا انْفَكَّ يُرْسِلُ مِنْ نَفْسٍ مُعَذَّبَةٍ
نَاراً تَوَجُّ... لَهَا فِي الجَوِّ إِشْعَالُ

لَهَا نَقِيضٌ ؛ وَتَـرْجِيـعٌ ؛ وَغَمْغَمَـةٌ
كَـأَنَّمَـا لاقَـتِ الأَبْـطَـالَ أَبْطَالُ
يُثِيرُ حَـوْلَـكَ ذُعْـراً لا يُنَهْنِهُـهُ
خَـوْفُ الحَيَـاةِ ؛ وَلا تَـنْـهَاهُ آمَـالُ
بَـيْنَـا تَـرَاهُ عَـلَيْهَا سَـاكِنَـاً.. قَـلِقَـاً
كَـأَنْ بِهِ رَبَضَت فِـى الأَرْضِ أَغْـلالُ
إِذَا السَّمَـاءُ قَـدْ انْـشَـقَّـت بِـصَاعِقَةٍ
رَعْدٌ ؛ وَبَـرْقٌ ؛ وَتَخْـطِيـفٌ ؛ وَإِذهَـالُ !

✪✪✪✪✪

✪ـ نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ التَّارِيخِيّ

.....

✪ يَتَكَوَّنُ التَّارِيخُ مِن وَقَائِعٍ حَدَثَت مَرَّةً وَاحِدَةً وَإِلَى الأَبَد ؛ بَيْنَمَا يَتَكَوَّنُ العِلْمُ مِن حَقَائِقٍ قَابِلَةٍ دَائِمَاً لأَن تَعُود ؛ وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ لأَنَّ التَّارِيخَ يَقُومُ عَلَى الزَّمَان ؛ وَأَوَّلُ خَاصِيَّةٍ مِن خَصَائِصِ الزَّمَانِ عَدَمُ قَابِلِيَّةِ الإِعَادَة ؛ لأَنَّ الصِّفَةَ الرَّئِيسِيَّةَ لِلزَّمَانِ هِيَ الاتِّجَاه ؛ وَالاتِّجَاهُ يَقْتَضِى السَّيْرَ قُدُمَاً دُونَ تَرَاجُعٍ أَو تَخَلُّفٍ أَو تِكْرَارٍ ؛ وَمُهِمَّةُ عِلْمِ التَّارِيخِ ـ أَو التَّأْرِيخ ـ أَن يَقُومَ بِوَظِيفَةٍ مُضَادَّةٍ لِفِعْلِ التَّارِيخِ أَلا وَهِيَ أَن يُحَاوِلَ أَن يَسْتَرِدَّ مَا كَانَ فِى الزَّمَانِ ؛ لا لِيَتَحَقَّقَ فِعْلِيَّاً فِى مَجْرَى الأَحْدَاثِ ؛ فَهَذَا مَا لَيْسَ فِى وُسْعِ أَىِّ كَائِنٍ مَن كَانَ أَن يَقُومَ بِهِ ؛ وَحَتَّى اللهُ نَفْسَهُ لا يَجْعَلُ شَيْئَاً قَد كَانَ يَتَكَرَّرُ هُوَ نَفْسَهُ مَرَّةً أُخْرَى ؛ كَمَا أَنَّهُ لا يَجْعَلُ شَيْئَاً كَانَ أَلاَّ يَكُونَ قَد كَان ؛ وَأَمَّا مُهِمَّةُ التَّأْرِيخِ فَهِيَ أَن يُحَاوِلَ

أن يَسْتَعِيدَ فِي الذِّهْنِ وبِطَرِيقَةٍ عَقْلِيَّةٍ صِرْفَةٍ مَا جَرَت عَلَيْهِ أَحْدَاثُ التَّارِيخِ فِي مَجْرَى الزَّمَانِ ؛ مُحَاوِلاً أن يَتَصَوَّرَ مَجْرَى هَذِهِ الأَحْدَاثِ وكَأَنَّهُ يَجْرِي فِي اطِّرَادٍ مُوَجَّهٍ .٥٩

« عَبْدُ الرَّحْمَن بَدَوِي »

.....

۞ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ التَّارِيخِيِّ

۞۞۞۞۞

﴿ الحَيَاةُ مُنْدَمِجَةٌ فِي التَّارِيخ
وَالحَيَاةُ إِبْدَاعُ التَّارِيخ . ﴾.

إنريك أندرسون إمبرت

.....

المَنْهَجُ التَّارِيخِيُّ هُوَ أَوَّلُ المَنَاهِجِ النَّقْدِيَّةِ فِي العَصْرِ الحَدِيث ؛ إِذ يَرْتَبِطُ بِالتَّطَوُّرِ الأَسَاسِيِّ لِلْفِكْرِ الإِنْسَانِيِّ ؛ وَانْتِقَالِهِ مِن مَرْحَلَةِ العُصُورِ الوُسْطَى إِلَى العَصْرِ الحَدِيثِ ؛ وَتَجَلَّى هَذَا التَّطَوُّرُ فِي بُرُوزِ الوَعْيِ التَّارِيخِيِّ بِصُورَةٍ عَبَّرَت عَن وُصُولِ هَذَا الوَعْيِ إِلَى دَرَجَةِ الذُّرْوَةِ وَالاخْتِمَار ؛ فَالمَنْهَجُ التَّارِيخِيُّ بِهَذَا الوَعْيِ الشُّمُولِيِّ المُتَكَامِلِ يُعَدُّ هُوَ العَلامَةُ الفَارِقَةُ وَالفَاصِلَةُ بَيْنَ العُصُورِ القَدِيمَةِ وَالعَصْرِ الحَدِيث .

وَالمَنْهَجُ التَّارِيخِيُّ : مَنْهَجٌ يَتَّخِذُ مِن حَوَادِثِ التَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ وَسِيلَةً لِتَفْسِيرِ الأَدَبِ وَتَعْلِيلِ ظَوَاهِرِهِ وَقَوَانِينِهِ ؛ سَوَاءٌ لأَدِيبٍ مِنَ الأُدَبَاءِ ؛ أَو فَنٍّ مِنَ الفُنُون ؛ أَو حِينَ يَتَصَدَّى لِدِرَاسَةِ التَّارِيخِ الأَدَبِيِّ عِنْدَ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ .

وَالمَنْهَجُ التَّارِيخِيُّ : هَوَ أَقْدَرُ المَنَاهِجِ الكِلاسِيكِيَّةِ عَلَى المُوَاجَهَةِ وَالصُّمُودِ

وَالتَّحَدِّى ؛ بَل وَلَيْسَ مِنَ الغَرِيبِ إِذَا ذَهَبْنَا إِلَى القَوْلِ بِأَنَّ عَدَداً مِنَ المَنَاهِجِ الحَدَاثِيَّةِ المُعَاصِرَةِ وَالسَّابِقَةِ قَد انْبَثَقَت مِنَ المَنْهَجِ التَّارِيخِىِّ ـ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ أَو غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ ـ ؛ إِذ تَوَلَّدَت رَكَائِزُهَا عَن طَرِيقِ مُهَاجَمَةِ هَذَا المَنْهَجِ بِصُورَةٍ نِسْبِيَّةٍ أَو كُلِّيَّةٍ .

.....

✪ ـ سانت بيف

[١٨٠٤ ـ ١٨٦٩ م]

سَانْت بِيف هُوَ النَّاقِدُ الَّذِى دَعَا : إِلَى الاهْتِمَامِ بِشَخْصِيَّةِ الأَدِيبِ ؛ وَسَبْرِ حَقِيقَتِهِ التَّارِيخِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ .

◆ أَخَذَ سَانْت بِيف يُقَسِّمُ الأُدَبَاءَ إِلَى طَبَقَاتٍ وَأَنْوَاعٍ ؛ وَجَعَلَ مُنْطَلَقَهُ فِى هَذَا التَّصْنِيفِ هُوَ مَا بَيْنَهُم مِن مَلَامِحَ وَصِفَاتٍ يَتَّفِقُونَ فِيهَا ... ؛ وَمِن هَذَا الاعْتِبَارِ ـ أَى كَوْنُ مَنْهَجِ سَانْت بِيف : هُوَ فِى صَمِيمِهِ مَنْهَجٌ عِلْمِىٌّ بَحْتٌ ؛ يُشْبِهُ مَنْهَجَ عُلَمَاءِ النَّبَاتِ فِى تَرْتِيبِهِم لِلنَّبَاتِ إِلَى أَنْوَاعٍ وَفَصَائِلَ ـ يُمْكِنُ تَسْمِيَةَ مَنْهَجِ هَذَا الرَّجُلِ بِـ : (التَّارِيخُ الطَّبِيعِىُّ لِلأَدَبِ) .

اتَّخَذَ سَانْت بِيف مِن سِيرَةِ الأَدِيبِ وَقِصَّةِ حَيَاتِهِ سَبِيلاً وَمَدْخَلاً لِفَهْمِ نِتَاجِهِ وَآثَارِهِ ؛ ثُمَّ نَقْدِهَا وَالحُكْمِ عَلَيْهَا ؛ إِلاَّ أَنَّ الأَثَرَ الأَدَبِىَّ لَم يَحْظَ عِنْدَهُ بِالاهْتِمَامِ وَالعِنَايَةِ ؛ وَاتَّجَهَ جُهْدُهُ إِلَى دِرَاسَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالعَصْرِ ؛ وَمَا أَحَاطَ بِهِمَا مِن أَحْدَاثٍ سِيَاسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ ؛ وَلَم يَجْعَل ذَلِكَ ذَرِيعَةً لِفَهْمِ العَمَلِ

الأَدَبِيِّ وَنَقْدِهِ وَالحُكْمِ عَلَيْهِ ؛ بَلِ اكْتَفَى وَاقْتَصَرَ عَلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا !! .

قَصَّرَ سَانْت بيف فِي هَذَا الجَانِبِ ؛ وَلَكِنَّهُ مِن جِهَةٍ أُخْرَى : قَامَ بِأَمْرٍ أَثَارَ الإِعْجَابَ وَالإِكْبَار - فَقَد جَاهَدَ مِن أَجْلِ التَّعَرُّفِ عَلَى مَا يَكْتَنِفُ حَيَاةَ الأَدِيبِ مِن ظُرُوفٍ شَدِيدَةِ الخُصُوصِيَّةِ ؛ فَأَتَى فِي هَذَا الصَّدَدِ بِمَا يُشْبِهُ الأَعَاجِيب !! ؛ بَل بِمَا يُشْبِهُ المُعْجِزَاتِ عِنْدَ أَهْلِ عَصْرِهِ !!.

ثُمَّ جَاءَ (تين) - [١٨٢٨ - ١٨٩٨ م] - : فَحَاوَلَ اسْتِثْمَارَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ اسْتِثْمَارًا يَقُومُ عَلَى (الجَبْرِيَّةُ الحَتْمِيَّة) ؛ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي تَتَّصِفُ بِهِ القَوَانِينُ الطَّبِيعِيَّةُ ؛ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّ الأَدِيبَ - أَيَّ كَاتِبٍ أَو أَدِيبٍ - يَخْضَعُ لا مَحَالَةَ لِهَذَا القَانُونِ الطَّبِيعِيِّ ؛ وَالَّذِي يَتَمَثَّلُ فِي : (الجِنْس ... البِيئَة ... العَصْر) .

كَانَت نَظْرَةُ (تين) نَظْرَةً جَدِيدَةً بِلا رَيْبٍ ؛ وَلَكِن : جَعْلُ هَذَا (الثَّالُوث المُقَدَّس) هُوَ الَّذِي يُحْتَكَمُ إِلَيْهِ دَائِمًا وَأَبَدًا : يُعَدُّ أَمْرًا جَائِرًا ظَالِمًا غَيْرَ مَوْضُوعِيٍّ وَلا مَنْهَجِيٍّ ؛ فَهُوَ خَاطِئٌ بِلا جِدَالٍ ؛ وَإِلاَّ فَلَو سَلَّمْنَا بِصِحَّتِهِ المُطْلَقَةِ - لَكَانَ مِن نِتَاجِ هَذَا التَّسْلِيمِ : أَن نُهْمِلَ أَخْطَرَ مَا بِالعَمَلِ الأَدَبِيِّ !! ؛ وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِـ : (أَصَالَةُ الأَدِيب) !!... ؛ وَأَن نُعْرِضَ إِعْرَاضًا قَبِيحًا عَن أَمْرٍ يُوسَمُ بِـ : (العَبْقَرِيَّةُ الإِبْدَاعِيَّة) !!.

كَذَلِكَ نَسْتَطِيعُ أَن نَقُول : إِنَّ النَّاقِدَ الَّذِي يُعَوِّلُ عَلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ ؛ إِذَا مَا أَرَادَ أَن يَدْرُسَ آثَارَ أُدَبَاءِ عَصْرٍ وَاحِدٍ وَبِيئَةٍ وَاحِدَةٍ وَجِنْسٍ وَاحِدٍ - فَإِنَّهُ سَيَخْضَعُ فِي عُبُودِيَّةٍ مُضْحِكَةٍ لِهَذَا القَانُونِ الَّذِي لا يَحْتَكِمُ لِسِوَاهُ مَهْمَا

كَانَت طَبِيعَةُ الشَّخْصِيَّةِ ؛ أو النِّتَاجِ ؛ أو المَوْقِفِ !!... ؛ فَكَأنَّهُ بِهَذِهِ المَقَايِيسِ يَجْعَلُ الجَمِيعَ بِلا مَثْنَوِيَّةٍ فِي دَائِرَةٍ هَامِشِيَّةٍ وَضِيعَةٍ !!.

ثُمَّ جاء (بْرُونتِيير) - [١٨٤٩ - ١٩٠٦ م] - ؛ فَكَانَت جُهُودُهُ الَّتِي عَوَّلَت عَلَى نَظَرِيَّةِ ((دَارْوِن)) فِي النُّشُوءِ وَالارْتِقَاء ؛ إِذ جَعَلَ مِن النَّظَرِيَّةِ سَبِيلَهُ إِلَى فَهْمِ كَيْفِيَّةِ نُشُوءِ الأَنْوَاعِ الأَدَبِيَّةِ وَتَطَوُّرِهَا ؛ وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ الشِّعْرَ الغِنَائِيَّ الرُّومَانِيَّ فِي القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ : تَطَوَّرَ عَن الوَعْظِ الدِّينِيِّ الَّذِي شَاعَ بِفَرَنْسَا فِي القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ.

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ تَشَدُّدَ (بْرُونتِيير) فِي الخُضُوعِ لِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً - أَفْسَدَ الكَثِيرَ مِن أَحْكَامِهِ ؛ وَجَعَلَ رُؤْيَتَهُ فِي مَنْأَىً عَن الرُّؤَى النَّقْدِيَّةِ المَوْضُوعِيَّةِ . ✂ . اهـ . (١) .

•••••

✪ - غُوسْتَاف لانسُون
Gustave Lonson
1934 - 1857

يُعَدُّ الأَكَادِيمِيُّ الفَرَنْسِيُّ الكَبِير غُوسْتَاف لانسُون الرَّائِدَ الأَعْظَمَ لِمَدْرَسَةِ المَنْهَجِ التَّارِيخِيِّ ؛ وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِن كَوْنِ هَذَا المَنْهَجِ أَصْبَحَ

---

(١) - ((مَنَاهِجُ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ)) لِلْكَاتِبِ : نِزَار شَاهِين المِصْرِي - وَهُوَ الاسْمُ المُسْتَعَارُ لِلأُسْتَاذ مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج - ؛ [ص : ١٠٨ - ١١٠] ؛ دَار أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِيِّ ؛ الطَّبْعَةُ الأُولَى : ٢٠١٢م .

يُعْرَفُ بَعْدَ رِيَادَةِ لانسُون لَهُ بِـ: ﴿ اللاَّنْسُونِيَّة ﴾ .

فِي عَامِ ١٩٠٩م صَرَّحَ غُوسْتَاف لانْسُون بِاتِّجَاهِهِ النَّقْدِيِّ ؛ وَذَلِكَ فِي مُحَاضَرَةٍ شَهِيرَةٍ أَلْقَاهَا بِجَامِعَةِ بُرُوكْسِل بِعُنْوَان ﴿ الرُّوحُ العِلْمِيَّةُ وَمَنْهَجُ تَارِيخِ الأَدَب ﴾ ؛ ثُمَّ نَشَرَ فِي عَامِ ١٩١٠م مَقَالَتَهُ الشَّهِيرَةَ أَيْضاً ﴿ مَنْهَجُ تَارِيخِ الأَدَب ﴾ ؛ وَهِيَ المَقَالَةُ الَّتِي اعْتَبَرَهَا أَنْصَارُهُ وَحَوَارِيُّوهُ بِمَثَابَةِ ﴿ إِنْجِيلُ المَنْهَج ﴾ ؛ حَيْثُ ذَكَرَ غُوسْتَاف لانْسُون فِي هَذِهِ المَقَالَةِ الخُطُوَاتِ الَّتِي يَجِبُ أَن يَسِيرَ البَاحِثُ الَّذِي يَتَبَنَّى المَنْهَجَ التَّارِيخِيَّ عَلَى وُفْقِهَا وَمُقْتَضَاهَا .

.....

ثُمَّ جَاءَ الأَكَادِيمِيُّ الفَرَنْسِيُّ رِيمُون بِيكَار ﴿ Rymond Picard ﴾ ؛ وَالَّذِي اشْتَبَكَ فِي مَعْرَكَةٍ نَقْدِيَّةٍ رَهِيبَةٍ مَعَ عَمِيدِ النَّقْدِ الفَرَنْسِيِّ الجَدِيد ﴿ رُولان بَارْت ﴾ ؛ وَأَسْفَرَت هَذِهِ المَعْرَكَةُ عَنِ الإِطَاحَةِ بِالمَنْهَجِ التَّارِيخِيِّ ـ عَلَى حَدِّ وَصْفِ بَعْضِهِم ـ .

.....

۞ ـ الدُّكْتُور أَحْمَد ضَيف
(١٨٨٠ـ ١٩٤٥ م)
وَالنَّقْدُ التَّارِيخِيُّ

مَعَ نِهَايَةِ الرُّبْعِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ العِشْرِين : بَدَأَ عَهْدُ الدِّرَاسَاتِ النَّقْدِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ العَرَبِيَّةِ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ نُقَّادٍ أَكَادِيمِيِّينَ دَرَسُوا مَبَادِيءَ

وَمُمَارَسَاتِ المَنْهَجِ التَّارِيخِيُّ عَلَى يَدَى أَقْطَابِ المَدْرَسَةِ الفَرَنْسِيَّةِ ؛ وَيَأْتِي عَلَى رَأْسِ هَؤلاء : الدُّكْتُور أَحْمَد ضِيف (١٨٨٠- ١٩٤٥) ؛ وَالَّذِي يُعَدُّ أَوَّلَ دَارِسٍ عَرَبِيٍّ فِي مَدْرَسَةِ لانسُون الفَرَنْسِيَّةِ ؛ فَهُوَ أَوَّلُ أُسْتَاذٍ لِلأَدَبِ العَرَبِيِّ أَوْفَدَتْهُ الجَامِعَةُ المِصْرِيَّةُ الأَهْلِيَّةُ لِلْحُصُولِ عَلَى الدُّكْتُورَاه مِن جَامِعَةِ السُّورْبُون بِبَارِيس ؛ ثُمَّ يَأْتِي طَه حُسَين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) ؛ وَزَكِي مُبَارَك (١٨٩١ - ١٩٥٢) .

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ السَّبْقَ الزَّمَنِيَّ يُعَدُّ شَيْئًا لا قِيمَةَ لَهُ ؛ إِذ العِبْرَةُ بِالسَّبْقِ العِلْمِيِّ المَنْهَجِيِّ ؛ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الدُّكْتُور مُحَمَّد مَنْدُور (١٩٠٩ - ١٩٦٥) هُوَ حَلْقَةُ الوَصْلِ الحَقِيقِيَّةِ بَينَ النَّقْدِ الفَرَنْسِيِّ وَالنَّقْدِ العَرَبِيِّ ؛ إِذ أَنَّهُ أَوَّلُ مَن أَرْسَى مَعَالِمَ « اللانسُونِيَّة » فِي النَّقْدِ العَرَبِي الحَدِيث ؛ وَذَلِكَ حِينَ نَشَرَ كِتَابَهُ (النَّقْدُ المَنْهَجِيُّ عِنْدَ العَرَب) مُذَيَّلاً بِتَرْجَمَتِهِ لِمَقَالَةِ لانسُون (مَنْهَجُ البَحْثِ فِي الأَدَب) ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي حُدُودِ عَامِ ١٩٤٦ م ؛ وَمَعَ حُلُولِ السِّتِّينِيَّات : أَخَذَ النَّقْدُ التَّارِيخِيُّ يَشُقُّ طَرِيقَهُ بِقُوَّةٍ فِي سَاحَةِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ .

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

✿ - وَبَعْد

وَبَعْد : فَالمَنْهَجُ التَّارِيخِيُّ مِن أَهَمِّ المَنَاهِجِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى تَفْسِيرِ تَشَكُّلِ خَصَائِصِ اتِّجَاهٍ أَدَبِيٍّ مُعَيَّنٍ ؛ كَمَا أَنَّهُ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ البَوَاعِثِ وَالمُؤَثِّرَاتِ

الَّتِى عَمِلَت عَلَى نَشْأَةِ الظَّوَاهِرِ وَالتَّيَّارَاتِ الأَدَبِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْمُجْتَمَعِ ؛ انْطِلاقًا مِن قَاعِدَة : (الإِنْسَانُ ابْنُ بِيئَتِهِ) .

وَخُلاصَةُ القَوْلِ : فَإِنَّ الْمَنْهَجَ التَّارِيخِىَّ مَا هُوَ سِوَى سِلْسِلَةٍ مِنَ الْمُعَادَلاتِ السَّبَبِيَّةِ ؛ وَتَأْتِى عَلَى هَذَا التَّرْتِيب : النَّصُ الإِبْدَاعِىُّ ثَمَرَةُ الْمُبْدِعِ ؛ وَالْمُبْدِعُ أَو الأَدِيبُ هُوَ صُورَةٌ انْعِكَاسِيَّةٌ مُبَاشِرَةٌ لِثَقَافَتِهِ ؛ وَالثَّقَافَةُ هِىَ نِتَاجُ البِيئَةِ الَّتِى نَشَأَ بِهَا ؛ وَالبِيئَةُ أَو الْمُحِيطُ الجُغْرَافِىُّ : جُزْءٌ مِنَ التَّارِيخ ؛ وَإِذَن ؛ فَالنَّقْدُ الأَدَبِىُّ هُوَ تَأْرِيخٌ لِلأَدِيبِ مِن خِلالِ بِيئَتِهِ وَوَطَنِهِ وَإِقْلِيمِهِ الجُغْرَافِىِّ .

وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَالْمَنْهَجُ التَّارِيخِىُّ دِعَامَةٌ مَرْكَزِيَّةٌ لا يَقُومُ النَّقْدُ الأَدَبِىُّ الْمُتَكَامِلُ وَالشُّمُولِىُّ وَلا يَصْلُحُ أَن يُوصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مَالَم تُوجَد هَذِهِ الدِّعَامَةُ الْمَنْهَجِيَّةُ ؛ فَالْمَنْهَجُ التَّارِيخِىُّ يُمَهِّدُ الطَّرِيقَ وَيُذَلِّلُ السَّبِيلَ لِلنَّاقِدِ وَيَرْسُمُ لَهُ مَلامِحَ الصُّورَةِ كَى يَقُومَ النَّقْدُ بِدَوْرِهِ فِى دِرَاسَةِ العَمَلِ الإِبْدَاعِىِّ ؛ فَهُوَ خُطْوَةٌ لا يَقُومُ النَّقْدُ الْمَنْهَجِىُّ بِدُونِهَا ؛ إِلاَّ أَنَّهُ ـ رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ ـ لا يُمْكِنُ أَن يُعَوَّلَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ ؛ فَهُوَ مَنْهَجٌ عَاجِزٌ عَن تَعْلِيلِ أَوْجُهِ الاخْتِلافِ وَالتَّبَايُنِ بَينَ الْمُبْدِعِينَ الَّذِينَ يَنْتَمُونَ إِلَى زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَاحِدٍ ؛ كَمَا أَنَّهُ مَنْهَجٌ يَصُبُّ اهْتِمَامَهُ عَلَى شَخْصِيَّةِ الأَدِيبِ وَبِيئَتِهِ ؛ وَيُعْرِضُ عَنِ النَّصِّ الإِبْدَاعِىِّ الَّذِى يُشَكِّلُ وَيُمَثِّلُ أَخْطَرَ قَضِيَّةٍ فِى الدِّرَاسَةِ النَّقْدِيَّةِ .

نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ الاجْتِمَاعِيّ

.....

﴿ إِنَّهُ مَنْهَجٌ يَتَكَوَّنُ أَوَّلاً وَقَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ مِن دِرَاسَةِ الأُسُسِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الوَاقِعِيَّةِ بِعِنَايَةٍ . ﴾ .

جُورْج لُوكَاتْش

.....

۞ - نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ الاجْتِمَاعِيِّ

۞۞۞۞۞

﴿ إِنَّ النَّقْدَ الاجْتِمَاعِيَّ يُفَسِّرُ نَوْعِيًّا كَيْفَ أَنَّ الكِتَابَةَ حَدَثٌ ذُو طَبِيعَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ . ﴾ .

إِنْرِيك أَنْدِرْسُون إِمْبِرْت

.....

المَنْهَجُ الاجْتِمَاعِيُّ : هُوَ ذَلِكَ المَنْهَجُ الَّذِى خَرَجَ إِلَى عَالَمِ الدِّرَاسَاتِ النَّقْدِيَّةِ مِن رَحِمِ المَنْهَجِ التَّارِيخِيِّ ؛ وَقَد نَشَأَ عَن طَرِيقِ النُّقَّادِ وَالبَاحِثِينَ الَّذِينَ سَبَرُوا وَتَكَوَّنَ عِندَهُمُ استِيعَابٌ كَامِلٌ لِفِكْرَةِ تَأْرِيخِيَّةِ الأَدَبِ ؛ وَارْتِبَاطِهَا بِتَطَوُّرِ المُجْتَمَعَاتِ المُخْتَلِفَةِ وَتَحَوُّلاتِهَا الظَّاهِرَةِ وَالجَلِيَّةِ تَبَعًا لاخْتِلافِ البِيئَاتِ وَالظُّرُوفِ وَالعُصُورِ ؛ أَى أَنَّ هَذِهِ الأَعْمَالَ النَّقْدِيَّةَ الَّتِى نَشَأَت فِى ظِلِّ فِكْرَةِ الوَعْيِ التَّارِيخِيِّ تَحَوَّلَت إِلَى وَعْيٍ اجْتِمَاعِيٍّ يَرتَبِطُ بِطَبِيعَةِ المُسْتَوَيَاتِ المُتَعَدِّدَةِ لِلْمُجْتَمَعِ ؛ وَيَرْتَبِطُ كَذَلِكَ بِفِكْرَةِ الطَّبَقَاتِ ؛ وَبِفِكْرَةِ تَمْثِيلِ الأَدَبِ وَتَصْوِيرِهِ لِلْحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَيَاةِ الذَّاتِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ ؛ فَالمَنْهَجُ الاجْتِمَاعِيُّ هُوَ دِرَاسَةُ العَمَلِ الأَدَبِيِّ عَلَى أَسَاسِ كَوْنِهِ يُعَدُّ جُزْءًا مِن بِنْيَةِ النِّظَامِ الاجْتِمَاعِيِّ ؛ فَيُخْبِرُنَا كَيْفَ وُلِدَ هَذَا العَمَلُ ؛ وَمَا هِىَ عَلاقَتُهُ بِالأَنْظِمَةِ وَالبِنَى الاجْتِمَاعِيَّةِ الأُخْرَى ؛ وَإِلَى أَىِّ الأُمُورِ يَهْدُفُ أَو يُشِير .

يُقُول جُورْج لُوكَاتْش : إِنَّهُ مَنْهَجٌ يَتَكَوَّنُ أَوَّلاً وَقَبْلَ أيِّ شَيْءٍ مِن دِرَاسَةِ الأُسُسِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الوَاقِعِيَّةِ بِعِنَايَةٍ .

وَيَقُولُ إِنْرِيك أَنْدِرْسُون إِمْبِرْت : إِنَّ النَّقْدَ الاجْتِمَاعِيَّ يُفَسِّرُ نَوْعِيًّا كَيْفَ أَنَّ الكِتَابَةَ حَدَثٌ ذُو طَبِيعَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ .

وَيَقُولُ بَعْضُ البَاحِثِينَ وَاصِفًا وَظِيفَةَ الأَدَبِ : إِنَّ الأَدَبَ يُصَوِّرُ لَنَا الحَيَاةَ الاجْتِمَاعِيَّةَ فِى الفَتْرَةِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا ؛ وَيُعْطِينَا صُورَةً وَاضِحَةً عَن وَقَائِعِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ .

وَقَد كَانَ لِقِيَامِ الثَّوْرَةِ الرُّوسِيَّةِ وَظُهُورِ الفِكْرِ الشُّيُوعِيِّ ؛ وَالَّذِى قَدَّسَ مَبْدَأَ أَنَّ الفَرْدَ فِى خِدْمَةِ الجَمَاعَةِ ؛ وَأَنَّ المُوَاطِنَ فِى خِدْمَةِ المُجْتَمَعِ ـ مَا أَدَّى إِلَى تَضْخِيمِ شَأْنِ هَذَا المَنْهَجِ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِى لَيْسَ وَرَاءَهَا مِن سَبِيل .

•••••

يَرَى أَصْحَابُ المَنْهَجِ الاجْتِمَاعِيِّ أَنَّ الأَدَبَ وَالإِبْدَاعَ كَكُلِّ أَمْرٍ مِن أُمُورِ الحَيَاةِ ؛ يَجِبُ أَن يُوَجَّهَ لِنَفْعِ المُجْتَمَعِ ؛ فَالمُبْدِعُ لا يَصْنَعُ الإِبْدَاعَ لأَنَّهُ يُرِيدُ ذَلِكَ وَحَسْب ؛ بَل عَلَيْهِ أَن يَنْطَلِقَ مِن خِلالِ مَشَاعِرِ التَّوَجُّهِ الأَعْظَمِ لِلْجَمَاعَةِ ؛ ثُمَّ يُعَبِّرُ عَن ذَلِكَ ؛ فَالإِبْدَاعُ الحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِى يَقْدِرُ عَلَى تَحْرِيكِ الشُّعُوبِ وَجَعْلِهَا تَتَفَاعَلُ مَعَ الوَاقِعِ بِالصُّورَةِ الإِيجَابِيَّةِ المُثْمِرَة .

•••••

.....

✿ - إِطْلَالَةٌ تَارِيخِيَّةٌ

مَعَ مَجِيءِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرِ المِيلادِىِّ - بَدَأَ الاهْتِمَامُ الحَقِيقِىُّ بِدَرَاسَةِ العَلاقَةِ بَينَ الأَدَبِ وَالمُجْتَمَعِ ؛ وَتَجَلَّى ذَلِكَ فِى قِيَامِ مَدَام دُوسْتَال بِنَشْرِ كِتَابِهَا ﴿ الأَدَبُ فِى عَلاقَاتِهِ بِالأَنْظِمَةِ الاجْتِمَاعِيَّة ﴾ - وَقَد ظَهَرَ عَام ١٨٠٠ م - وَالَّذِى تَنَاوَلَ تَأْثِيرَ الدِّينِ وَالقَوَانِينِ وَالأَعْرَافِ وَالعَادَاتِ عَلَى الإِبْدَاعِ الأَدَبِىِّ ؛ وَتَنَاوَلَ كَذَلِكَ تَأْثِيرَ الأَدَبِ عَلَيْهَا ؛ ثُمَّ جَاءَ دِي بُولانْد لِيُنَادِى بِفِكْرَةِ ﴿ الأَدَبُ تَعْبِيرٌ عَن المُجْتَمَعِ ﴾ .

وَقَد ذَكَرَ بَعْضُهُم : أَنَّ الجُذُورَ الأُولَى لِلْمَنْهَجِ النَّقْدِىِّ الاجْتِمَاعِىِّ تُنْسَبُ إِلَى ﴿ هِيجِل ﴾ ؛ إِذ أَنَّهُ هُوَ الَّذِى رَبَطَ بَينَ ظُهُورِ فَنِّ الرِّوَايَةِ وَالتَّغَيُّرَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ إِذ رَأَى أَنَّ الانْتِقَالَ مِنَ المَلْحَمَةِ إِلَى الرِّوَايَةِ إِنَّمَا جَاءَ نَتِيجَةَ صُعُودِ الطَّبَقَةِ البُورْجُوَازِيَّةِ وَمَا يَعِيشُ بِهَذِهِ الطَّبَقَةِ مِن هَوَاجِسٍ خُلُقِيَّةٍ وَتَعْلِيمِيَّةٍ .

.....

✿ - كَارْل مَارْكس

﴿ ١٨١٨ - ١٨٨٣ م ﴾

يَرَى كَارْل مَارْكِس أَنَّ الأَدَبَ يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا وَشَدِيدًا بِوَاقِعِ المُجْتَمَعِ الَّذِى يَحْيَا فِيهِ الأَدِيب ؛ وَقَالَ بِأَنَّ هُنَاكَ عَلاقَةُ انْعِكَاسٍ الَّتِى تَرْبِطُ مَا بَينَ البِنْيَةِ

التَّحْتِيَّةِ (الطَّبَقَات) وَالبِنْيَةِ الفَوْقِيَّةِ (الإِبْدَاعُ عَلَى اخْتِلافِ أَشْكَالِهِ وَصُوَرِهِ : أَدَبٌ ؛ أو فَلْسَفَةٌ ؛ أو فَن) ؛ وَلِهَذَا أَخَذَ يَبْحَثُ عَن صُورَةِ الْمُجْتَمَعِ فِي الأَدَب ؛ وَقَد انْتَقَدَ بَعْضُهُم هَذَا الرَّأْيَ بِحُجَّةِ أَنَّهُ مَازَالَت كَثْرَةٌ كَاثِرَةٌ مِنَ الأَعْمَالِ الإِبْدَاعِيَّةِ تُؤَثِّرُ بِدَرَجَةٍ مَلْحُوظَةٍ بِرَغْمِ كَوْنِهَا قَد صُنِعَت مُنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ ؛ فَهِيَ لَيْسَت نِتَاجَ الْمُجْتَمِعِ الآنِيِّ القَائِمِ إِلاَّ أَنَّهَا تَلْعَبُ دَوْرَاً خَطِيرَاً فِي تَشْكِيلِ وَصِنَاعَةِ وَعْيِهِ ؛ وَقَد صَرَّحَ كَارْل مَارْكِس بِصِحَّةِ وَصَوَابِ هَذَا الرَّأْيِ ؛ وَأَخَذَ يَبْحَثُ عَن تَفْسِيرٍ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ ؛ وَوَجَدَ التَّعْلِيلَ كَامِنَاً فِي (نَظَرِيَّةُ العُصُورِ الطَّوِيلَةِ) : وَهِيَ لا تَنْفِي تَأْثِيرَ الْمُجْتَمَعِ فِي الأَدَبِ ؛ إِلاَّ أَنَّهَا تَجْعَلُهُ مُمْتَدَّاً فِي الزَّمَانِ وَلَيْسَ وَقْتِيَّاً آنِيَّاً وَحَسْب .

يَقُول إِنْرِيك أَنْدِرْسُون إِمْبِرْت فِي كِتَابِهِ (مَنَاهِجُ النَّقْدِ الأَدَبِيُّ) ؛ [ص : 120 ـ 121] :

« يُمْكِنُ أَن نَذْكُرَ أَكْوَامَاً مِن أَمْثِلَةِ الْمَنْهَجِ الاجْتِمَاعِيُّ الَّذِي طَبَّقَهُ النُّقَّادُ الْمَارْكِسِيُّون ؛ وَبِخَاصَّةٍ فِي رُوسْيَا ؛ حَيْثُ تَكَادُ قُوَّتُهُ تُصْبِحُ رَسْمِيَّةً ؛ وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الْمَدْرَسَةَ الْمَارْكِسِيَّةَ اسْتَطَاعَت القَضَاءَ عَلَى الْمَدْرَسَةِ الشَّكْلِيَّةِ فِي رُوسْيَا عَامِ ١٩٣٠م ؛ وَالَّتِي يَعُودُ أَصْلُهَا إِلَى عَامِ ١٩١٥ ـ ١٩١٦م ؛ وَبَلَغَت أَوْجَهَا بَعْدَ عَامِ ١٩٢٠م .

وَفَضْلاً عَن مُمَارَسَةِ النَّقْدِ فَرَضَت مَذْهَبَ (الوَاقِعِيَّةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ) ؛ وَيَتَطَلَّبُ مِنَ الكَاتِبِ عِنْدَمَا يَنْسَخُ الوَاقِعَ بِصِدْقٍ أَن يُظْهِرَ البِنَاءَ الاجْتِمَاعِيَّ ؛ وَأَن يُشِيرَ إِجْمَالاً إِلَى قُوَّةِ الحِزْبِ الشُّيُوعِيِّ ؛ وَلِهَذَا يُصِرُّ النَّقْدُ الْمَارْكِسِيُّ

- عَلَى الأَقَلِّ فِي رُوسْيَا فِي الأَعْوَامِ الَّتِي سَبَقَت الحَرْبَ العَالَمِيَّةَ الثَّانِيَةَ - عَلَى تَقْوِيمِ الشَّخْصِيَّاتِ كَأَبْطَالٍ أَخْلاقِيِين؛ وَيَعْتَقِد جُورْجِي مَالِينْكُوف - مَثَلاً - أَنَّ مَفْهُومَ « الطِّرَاز » إِنْسَانِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا أَنَّهُ: « المَظْهَرُ الأَسَاسِيُّ لِلْفِكْرِ المُلْتَزِمِ فِي الفَنِّ؛ وَمُشْكِلَتُهُ دَائِماً سِيَاسِيَّة ».

وَبَعْدَ الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ: أَصْبَحَ النَّقْدُ المَارْكِسِيُّ الرُّوسِيُّ قَوْمِيًّا؛ مُغْرَماً بِالتَّعْلِيمِ. ✂ .أهـ.

.....

- المَارْكِسِيَّةُ وَأَثَرُهَا فِي النَّقْدِ المُعَاصِرِ:

عَوَّلَ كَارْل مَارْكِس فِي نَظَرِيَّتِهِ عَلَى التَّصَوُّرِ الفَلْسَفِيِّ لِلْعُصُورِ السَّابِقَةِ؛ وَجَعَلَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ مَقُولَة « الحَتْمِيَّةُ التَّارِيخِيَّةُ »؛ وَجَعَلَ نَظَرِيَّتَهُ هَذِهِ تَسِيرُ فِي خَطَّيْنِ مُتَوَازِيين:

- الأَوَّلُ: التَّرْكِيزُ عَلَى الأَشْيَاءِ المَادِيَّةِ الحِسِّيَّةِ؛ وَالتَّنْكِيلُ بِكُلِّ مَا هُوَ خَيَالِيٌّ أَو فَلْسَفِيٌّ؛ إِذ المَادَّةُ هِيَ القَانُونُ الَّذِي يَحْكُمُ.

- الثَّانِي: تَحْوِيلُ كَافَّةِ الأَعْمَالِ الإِبْدَاعِيَّةِ إِلَى دَعْوَةٍ صَرِيحَةٍ لِلْفِكْرِ المَارْكِسِيِّ الاشْتِرَاكِيِّ.

.....

✿ - جُورْج لُوكَاتْش

(1885 - 1970 م)

عَمِلَ النَّاقِدُ المَجَرِيُّ جُورْج لُوكَاتْش - انْطِلاقاً مِن اتِّجَاهِهِ المَارْكِسِيِّ -

عَلَى رَبْطِ أَشْكَالِ الوَعْيِ كَافَّةً بِالبِنْيَةِ الاقْتِصَادِيَّةِ المُحَدِّدَةِ لَهَا ؛ فَقَد كَشَفَ فِي كِتَابَاتِهِ عَنْ « بِلْزَاك » وَ « إِمِيل زُولا » عَن العَلاقَةِ الجَدَلِيَّةِ وَالحَتْمِيَّةِ بَيْنَ دِلالاتِ الأَعْمَالِ الإِبْدَاعِيَّةِ وَدِلالاتِ البِنْيَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الكِتَابَاتِ الأَدَبِيَّةِ بِوَصْفِهَا انْعِكَاسَاتٍ لِمَنْظُومَةٍ ظَاهِرَةٍ ؛ وَالانْعِكَاسُ عِنْدَهُ : هُوَ تَكْوِينُ بِنْيَةٍ ذِهْنِيَّةٍ يَتِمُّ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالكَلِمَاتِ .

وَهُنَا لابُدَّ مِن تَفْرِقَةٍ:

كَانَت المَقُولاتُ عِنْدَ « كَانط » : أَشْكَالٌ ثَابِتَةٌ لِلذِّهْنِ ؛ لا عَلاقَةَ بَيْنَهَا وَبَينَ أَىِّ بُعْدٍ تَارِيخِيٍّ .

وَمَعَ كَوْنِ أَنَّهَا أَصْبَحَت تَارِيخِيَّةً عِنْدَ « هِيجِل » ؛ إِلاَّ أَنَّهَا كَانَت تَرْتَبِطُ بِتَطَوُّرِ الذِّهْنِ المَوْضُوعِيِّ .

ثُمَّ أَضْحَت البِنْيَاتُ الذِّهْنِيَّةُ عِنْدَ « مَارْكِس » وَ« جُورْج لُوكَاتْش » : حَقَائِقُ تَجْرِيبِيَّةٌ يُنْتِجُهَا التَّطَوُّرُ التَّارِيخِيُّ لِطَبَقَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَنْتَمِى إِلَى وَسَطٍ اجْتِمَاعِيٍّ مُعَيَّنٍ .

يَقُول إِنْرِيك أَنْدِرْسُون إِمْبِرْت فِى « مَنَاهِجُ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ » ؛[ص : 121 ـ 124]:

« رُبَّمَا كَانَ جُورج لُوكَاتْش أَعْلَى مُؤشِّرٍ فِى النَّقْدِ المَارْكِسِىِّ ؛ وَهُوَ مَجَرِىٌّ يَكْتُبُ عَادَةً فِى اللُّغَةِ الأَلْمَانِيَّةِ ؛ وَيَرَى أَنَّ الأَدَبَ ظَاهِرَةٌ تَارِيخِيَّةٌ لَهَا أُصُولُهَا الضَّارِبَةُ فِى أَعْمَاقِ كِفَاحِ الطَّبَقَاتِ ؛ وَيَجِبُ عَلَى النَّاقِدِ أَن يَقَعَ عَلَى القَانُونِ الَّذِى يُفَسِّرُ حَتْمِيَّةَ العَلاقَةِ بَيْنَ المُجْتَمَعِ وَالفَنِّ ؛ وَتَجِبُ الإِشَارَةُ إِلَى

طَرِيقِ أَصْلِ الزَّهْرَةِ .

وَلَقَد دَمَّرَ النِّظَامُ الرَّأْسِمَالِيُّ وُحْدَةَ الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ وكَمَالَهَا ؛ وَهِيَ كُلٌّ فَرْدِيٌّ وَاجْتِمَاعِيٌّ ؛ وَرِسَالَةُ الشُّيُوعِيَّةِ هِيَ بِنَاءُ شَخْصِيَّةِ الفَرْدِ كَامِلَةً فِي نِطَاقِ التَّقَدُّمِ السِّيَاسِيِّ نَحْوَ العَدَالَةِ ؛ وَعِنْدَمَا يَتَّخِذُ لُوكَاتْش مِن كِبَارِ الرِّوَائِيِينَ فِي القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرِ مِثَالاً ؛ فَلِكَي يُوَضِّحَ لَنَا دَوْرَهُم فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ الأَيْدُلُوجِيَّةِ .

مُنْذُ تَكَوُّنَ المُجْتَمَعُ البُرْجُوَازِيُّ : بَدَا أَنَّ الفَرْدَ وَالمُجْتَمَعَ قَد انْفَصَلا ؛ وَالرِّوَايَةُ ـ وَهِيَ نَوْعٌ أَدَبِيٌّ بُرْجُوَازِيٌّ ـ اتَّجَهَت نَحْوَ بُعْدَيْنِ مُتَطَرِّفَيْنِ وَزَائِفَيْن :

الوَصْفُ المِثَالِيُّ المُجْمَلُ لأَفْكَارٍ مُخْتَلِطَةٍ مُشَوَّشَةٍ عَن الحَيَاةِ الخَاصَّةِ ؛ الَّتِي لا تُوجَدُ إِلاَّ فِي الوَرَقِ فَحَسْب ـ كَمَا يَقُولُ جِيمْس جويس ـ مِن جَانِبٍ : وَوَصْفٌ طَبِيعِيٌّ مِن جَانِبٍ آخَرٍ ؛ وَلأَنَّهُ يُغَالِي فِي وَصْفِ أَسَاسِ المُجْتَمَعِ بيُولُوجِيّاً وَآلِيّاً يَنْتَهِي بِإِفْقَارِ الوَاقِعِ نَظَرِيَّةً وَنَمَاذِجَ تَجْرِيدِيَّةً خَالِصَةً ـ كَمَا يَرَى أُوبْتُون سِينْكِلِير ـ .

الأَدَبُ الحَقِيقِيُّ وَاقِعِيٌّ ؛ وَيُعْرَضُ فِي شَكْلِ نَمَاذِجِ الالْتِحَامِ العُضْوِيِّ بَيْنَ الفَرْدِ وَالنُّمُوِّ التَّارِيخِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ : عِنْدَ بِلْزَاك ؛ وَتُولُسْتُوي ؛ وَالرِّوَائِيِينَ الرُّوسِ الآخَرِين ؛ مِثْل : شُولُخُوف .

يَعْرِفُونَ المَذْهَبَ أَو لا يَعْرِفُونَهُ ؛ فَقَد الْتَزَمَ الرِّوَائِيُّونَ الوَاقِعِيُّونَ بِكِفَاحِ عَصْرِهِم ؛ وَأَعْمَالُهُم وَثَائِقٌ لِلدَّوْرَةِ التَّارِيخِيَّةِ ؛ كَمَا هِيَ دَلِيلٌ عَلَى التَّقَدُّمِ

السِّيَاسِيُّ أَيْضَاً ؛ وَأَحْيَانَاً يُوجَدُ فِي الرِّوَائِيِّ صِرَاعٌ بَينَ مَفْهُومِهِ الشَّخْصِيِّ لِلْحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَإِرَادَتِهِ الجَمَالِيَّةِ فِي رَسْمِ الوَاقِعِ كَمَا يَرَاه ـ مَثَلاً : كَالصِّرَاعِ بَينَ القَنَاعَاتِ وَالأَوْهَامِ عِنْدَ بِلْزَاك ـ ؛ وَرُدُودِ أَفْعَالِهِ المُتَوَهَّمَةِ ؛ وَالصِّدْقِ القَوِيِّ الَّذِي أُعْلِنَ مَعَهُ سُقُوطُ النِّظَامِ الاجْتِمَاعِيِّ فِي عَصْرِهِ .

وَفِي حَالاتٍ أُخْرَى يَجِبُ عَلَى النَّاقِدِ أَن يَقُولَ رَأْيَهُ : لا فِي غَايَاتِ الرِّوَائِيِّ ؛ وَإِنَّمَا فِي الإِطَارِ الاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يُقَدِّمُهُ فِعْلاً ؛ وَإِذَا تَعَارَضَ هَذَا الإِطَارُ مَعَ وُجْهَةِ نَظَرِ الرِّوَائِيِّ السِّيَاسِيَّةِ ؛ أَو لَم يَتَعَارَض : فَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ ثَانَوِيَّةٌ .

وَيَتَفَحَّصُ المَنْهَجُ الاجْتِمَاعِيُّ جَوْهَرَ الرِّوَايَةِ : حَيْثُ الخَصَائِصُ وَالمَوَاقِفُ مُحَدَّدَةٌ ضَرُورَةً بِالجَدَلِيَّةِ المَادِيَّةِ لِلتَّارِيخ .

يَقُول لُوكَاتْش : إِنَّهُ مَنْهَجٌ بَسِيطٌ جِدَّاً ؛ يَتَكَوَّنُ أَوَّلاً وَقَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ : مِن دِرَاسَةِ الأُسُسِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الوَاقِعِيَّةِ بِعِنَايَةٍ ؛ وَالَّتِي فَوْقَهَا ؛ لِنَقُل : أُقِيمَ وُجُودُ تُولُسْتُوِي ؛ وَالقُوَى الاجْتِمَاعِيَّةُ الوَاقِعِيَّةُ الَّتِي تَحْتَ تَأْثِيرِهَا نَمَت شَخْصِيَّةُ تُولُسْتُوِي الإِنْسَانِيَّةَ وَالأَدَبِيَّةَ .

« وَفِي المَقَامِ الثَّانِي ؛ وَفِي عَلاقَةٍ وَثِيقَةٍ مَعَ السَّابِقِ ؛ يَتَسَاءَلُ النَّاقِدُ : مَاذَا تُمَثِّلُ أَعْمَالُ تُولُسْتُوِي ؟ ؛ مَا مُحْتَوَاهَا الفِكْرِيُّ وَالثَّقَافِيُّ الحَقِيقِيُّ ؟ ؛ وَمَاذَا صَنَعَ المُؤَلِّفُ لِكَي يَبْنِي أَشْكَالَهَا الجَمَالِيَّةَ فِي الكِفَاحِ مِن أَجْلِ تَعْبِيرٍ مُنَاسِبٍ لِذَلِكَ المُحْتَوَى ؟ » .

فَقَط بَعْدَ دِرَاسَةٍ مُتَحَرِّرَةٍ مِنَ الأَوْهَامِ اكْتَشَفْنَا وَفَهِمْنَا هَذِهِ العَلاقَات ؛ وَنَحْنُ فِي وَضْعٍ يَسْمَحُ لَنَا بِأَن نُقَدِّمَ تَفْسِيرَاً صَحِيحَاً لِوِجْهَاتِ النَّظَرِ الوَاعِيَةِ

الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا المُؤَلِّفُ ؛ وَأَن نُقَيِّمَ بِدِقَّةٍ تَأْثِيرَهُ فِي سَيْرِ الأَدَبِ .)) (١) .

وَمِنَ الوَاضِحِ : أَنَّ المُجْتَمَعَ يَجْذِبُ لُوكَاش فِي العُمْقِ أَكْثَرَ مِنَ الأَدَبِ ؛ وَأَنَّ السِّيَاسَةَ تَشُدُّهُ أَكْثَرَ مِن دِرَاسَةِ المُجْتَمَع . ﴾ . أهـ .

.....

يَهْدُفُ المَنْهَجُ الاجْتِمَاعِيُّ إِلَى إِعْطَاءِ الاهْتِمَامِ الأَعْظَمِ لِلْمَضَامِينِ الفِكْرِيَّةِ ؛ إِلاَّ أَنَّ ذَلِكَ أَدَّى إِلَى نَتِيجَةٍ سَلْبِيَّةٍ ؛ وَهِيَ : إِغْفَالُ الجَانِبِ الجَمَالِيِّ ؛ وَإِغْفَالُ عَلاقَتِهِ بِالدّلالاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالأَيْدُولُوجِيَّةِ ؛ وَلَم يُفَرِّق بَينَ العَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِيَّةِ فِي ذَاتِهَا وَبَينَ المَطْلَبِ الأَيْدُلُوجِيِّ ؛ وَجَعَلَ المُجْتَمَعَ وَحَسْب : هُوَ المِحْوَرُ الوَحِيدُ الَّذِي يَحْظَى بِاهْتِمَامِ المُمَارَسَةِ النَّقْدِيَّةِ .

.....

✿ - لُوسْيَان جُولْدمَان

Lucien Goldman

(1970 - 1913)

مِن مَحَاوِرِ الانْطِلاقِ الَّتِي عَمِلَ لُوسْيَان جُولْدمَان مِن خِلالِهَا : مِحْوَرُ السُّلُوكِ الإِنْسَانِيِّ ؛ فَهُوَ - أَي السُّلُوكُ الإِنْسَانِيُّ - يُجَاهِدُ مِن أَجْلِ صِنَاعَةِ التَّوَازُنِ مَا بَينَ الذَّاتِ الفَاعِلَةِ وَمَوْضُوعِ الفِعْلِ ؛ وَلِذَا فَإِنَّ المُمَارَسَةَ النَّقْدِيَّةَ تَسْتَوْجِبُ الكَشْفَ عَن هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ .

---

(١) - جُورْج لُوكَاش : ((دِرَاسَاتٌ فِي الوَاقِعِيَّةِ الأُورُبِيَّةِ)) ؛ لَنْدَن : ١٩٥٠م .

فَمِنَ التَّسَاؤلاتِ الَّتِي يَطْرَحُهَا لُوسْيَان جُولْدمَان:

مَنْ هِيَ الذَّاتُ الفَاعِلَة ؟ ؛ أي ـ مَن هُوَ المُبْدِعُ الحَقِيقِيُّ: أَهُوَ الفَرْدُ ؛ أم الجَمَاعَةُ ؟ .

وَيُجِيبُ لُوسْيَان جُولْدمَان عَن هَذَا التَّسَاؤلِ:

بِأنَّ الجَمَاعَةَ: شَبَكَةٌ مُعَقَّدَةٌ مِنَ العَلاقَاتِ المُتَبَادَلَةِ بَينَ الأَفْرَادِ ؛ فَيَجِبُ حِينَئِذٍ عَلَى مَن يَقُومُ بِدَوْرِ النَّقْدِ وَالسَّبْرِ وَالتَّحْلِيلِ أن يَكُونَ قَادِراً عَلَى تَحْدِيدِ بِنْيَةِ هَذِهِ الشَّبَكَةِ المُعَقَّدَةِ وَدَوْرِ الأَفْرَادِ الفَاعِلِينَ فِيهَا ـ كَي يُدْرِكَ العَلاقَةَ المَوْضُوعِيَّةَ مَا بَينَ الإِنْتَاجِ الإِبْدَاعِيِّ وَالمُبْدِعِ الحَقِيقِيِّ الَّذِي هُوَ الجَمَاعَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ وَلَيسَ الفَرْد ؛ إلاَّ أنَّهُ لا يَتَجَاهَلُ دَوْرَ الفَرْدِ ؛ إِذ لَوْلا الفَرْدُ مَا كَانَت الجَمَاعَةُ .

وَهَكَذَا تَمَكَّنَ لُوسْيَان جُولْدمَان مِن تَجَاوُزِ الأُسْلُوبِ المَعْرُوفِ فِي مَنْهَجِ النَّقْدِ الاجْتِمَاعِيِّ ؛ وَالَّذِي كَانَ يَعْمَلُ عَلَى رَبْطِ مُحْتَوَى العَمَلِ الإِبْدَاعِيِّ بِمُحْتَوَى الوَعْيِ الجَمَاعِيِّ: إِلَى أُسْلُوبٍ مَنْهَجِيٍّ يَعْمَلُ عَلَى دِرَاسَةِ المَضَامِينِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ أي دِرَاسَةُ العَمَلِ الإِبْدَاعِيِّ بِوَصْفِهِ بِنْيَاتٍ مُمَاثِلَةٍ لِلْبِنْيَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ شَرِيطَةَ التَّمَاثُلِ مَا بَينَ بِنْيَاتِ العَالَمِ المُتَخَيَّلِ وَعَالَمِ البِنْيَاتِ الذِّهْنِيَّةِ لَدَى أَعْضَاءِ الدَّائِرَةِ الجَمَاعِيَّةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ وَلَيسَ مِنَ الوَاجِبِ الفَرْضِيِّ أن تَكُونَ بِنْيَاتُ العَالَمِ المُتَخَيَّلِ انْعِكَاساً صَرِيحاً وَحَتْمِيّاً لِبِنْيَاتِ الجَمَاعَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ فَيَكْفِي أن تَكُونَ هُنَاكَ دَرَجَةٌ مِنَ التَّجَانُسِ ؛ وَهِيَ دَرَجَةٌ يَسْتَطِيعُ المُبْدِعُ مِن خِلالِهَا أن يَصْنَعَ عَالَماً تَامَّ الانْسِجَامِ فِي مُخَيِّلَتِهِ

تَتَوَافَقُ بِنْيَاتُهُ مَعَ تِلْكَ البِنْيَاتِ الَّتِى تَطْمَحُ إِلَيْهَا الجَمَاعَةُ ؛ وَتَنْعَكِسُ أَخْيِلَتُهَا وَأَفْكَارُهَا وَأَفْعَالُهَا بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ عَلَى الوَعْيِ الجَمَاعِيِّ .

وَيُمَيِّزُ لُوسْيَان جُولْدِمَان بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الوَعْى :

ـ الأَوَّلُ : الإِحْسَاسُ بِظَرْفِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَجْمَعُ مَا بَيْنَ أَفْرَادِ الجَمَاعَةِ ؛ وَذَلِكَ هُوَ مَا يُسَمَّى بِـ « الوَعْىُ القَائِم » ؛ وَهُوَ وَعْىٌ مُتَطَوِّرٌ فِى بِنْيَاتٍ مُتَغَايِرَةٍ وَمُتَلاحِقَةٍ .

ـ الثَّانِى : هُوَ الَّذِى يَهْدُفُ إِلَى تَصَوُّرِ مَا يَنْبَغِى وَمَا يَجِبُ أَن يَكُون ؛ وَذَلِكَ هُوَ مَا يُسَمَّى بِـ « الوَعْىُ المُمْكِن » ؛ أَى : صِنَاعَةُ رُؤْيَةٍ لإِمْكَانِيَّةِ تَغْيِيرِ الوَاقِعِ وَإِصْلاحِهِ عَلَى وِفْقِ مَا تَرَاهُ الجَمَاعَةُ ؛ كَى يَحْدُثَ التَّوَازُنُ المَنْشُودُ وَالمَأْمُول .

.....

وَبَعْد :

يَقُولُ الدُّكْتُور مُحَمَّد شِبْل الكُومِى فِى كِتَابِهِ « المَذَاهِبُ النَّقْدِيَّةُ الحَدِيثَةُ : مَدْخَلٌ فَلْسَفِىٌّ » ؛ [186 ـ 187]:

﴿ وَلَم تَتَبَلْوَر النَّظَرِيَّةُ السُّوسيولُوجِيَّةُ إِلاَّ بِاجْتِهَادَاتِ جُورْج لُوكَاش وَلُوسْيَان جُولْدِمَان وَغَيْرِهِمَا مِنَ المُفَكِّرِينَ وَالفَلاسِفَةِ وَالنُّقَّادِ الَّذِينَ اسْتَفَادُوا مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الأَدَبِيَّةِ الحَدِيثَةِ ؛ وَفِى مُقَدِّمَتِهَا : البُنْيَوِيَّةُ التَّوْلِيدِيَّةُ ؛ فَقَد سَعَوْا إِلَى تَأْسِيسِ مَا عُرِفَ بِعِلْمِ اجْتِمَاعِ الأَدَبِ ؛ الَّذِى لَم يَصْدُر عَن فَرَاغٍ ؛ حَيْثُ سَبَقَهُ الكَثِيرُ مِنَ الكُتُبِ وَالأَبْحَاثِ وَالدِّرَاسَاتِ الَّتِى حَاوَلَت أَن تُقَنِّنَ العَمَلِيَّةَ

الإِبْدَاعِيَّةَ وَمَدَى تَأْثِيرِهَا فِي الْمُجْتَمَعِ وَتَأَثُّرِهَا بِهِ ؛ وَكَانَ تَطْوِيرُ لُوسْيَان جُولْدِمَان لِمَا أَنْجَزَهُ جُورْج لُوكَاش فِي نَقْدِهِ لِلرِّوَايَةِ وَتَأْرِيخِهِ لَهَا ؛ تَعْمِيقاً لِهَذَا التَّيَّارِ السُّوسْيُولُوجِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ رَبْطاً عُضْوِيّاً بَيْنَ الْعَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِيَّةِ وَالظَّاهِرَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي مُخْتَلَفِ تَجَلِّيَاتِهَا وَتَطَوُّرَاتِهَا .

وَقَدْ كَانَ كِتَابُ جُولْدِمَان « الإِلَهُ الْخَفِيُّ » الَّذِي صَدَرَ عَامَ ١٩٥٥ مِنْ أَهَمِّ الْعَلَامَاتِ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ ؛ وَفِيهِ قَدَّمَ دِرَاسَةً عَنِ الرُّؤْيَةِ التَّرَاجِيدِيَّةِ عِنْدَ كُلٍّ مِنْ (بَاسْكَال) وَ (رَاسِين) ؛ وَمِثْلُ كُلِّ الْكُتُبِ الرَّائِدَةِ : أَثَارَ جَدَلاً عَمِيقاً ؛ إِذْ رَأَى الْبَعْضُ أَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى الْفَلْسَفَةِ وَيَبْتَعِدُ عَنِ الأَدَبِ !! ؛ وَرَأَى آخَرُونَ أَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى عِلْمِ الاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيِّ وَالْمَعْرِفِيِّ ؛ فِي حِينِ رَأَى آخَرُونَ أَنَّهُ يُمَثِّلُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مَرْجِعاً فِي عِلْمِ الاجْتِمَاعِ الأَدَبِيِّ .

وَلَابُدَّ أَنْ نُسَجِّلَ لِلْفَيْلَسُوفِ وَالنَّاقِدِ الْمَجَرِيِّ جُورْج لُوكَاش رِيَادَتَهُ الَّتِي أَنْهَى بِهَا الثُّنَائِيَّةَ الْمُفْتَعَلَةَ بَيْنَ الأَدَبِ وَالْمُجْتَمَعِ ؛ فَمُنْذُ عَامِ ١٩٢٣ عِنْدَمَا ظَهَرَ كِتَابُهُ (التَّارِيخُ وَالْوَعْيُ الطَّبَقِيُّ) : بَدَأَ رِيَادَتَهُ مُزَوَّداً بِرُؤْيَةٍ ثَاقِبَةٍ تُحَدِّدُ لَهُ الاتِّجَاهَ الإِيجَابِيَّ الْمُؤَثِّرَ ؛ وَتَوَجَّهَ اجْتِهَادُهُ النَّقْدِيُّ صَوْبَ هَدَفَيْنِ اثْنَيْنِ :

١ـ أَنْ يَكْشِفَ ـ أَوَّلاً ـ أَنَّ عَمَلِيَّتَيْ الإِنْتَاجِ الأَدَبِيِّ وَالأَيْدُلُوجِيِّ هُمَا جُزْءٌ لا يَتَجَزَّأُ مِنَ الْعَمَلِيَّةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الْعَامَّةِ .

٢ـ وَأَنْ يُشِيرَ ـ ثَانِياً ـ إِلَى الْمَهَامِ الإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يَتَحَتَّمُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ الْحَدِيثِ أَنْ يَنْهَضَ بِهَا ؛ وَالَّتِي تَتَمَثَّلُ فِي نَبْذِ وَاسْتِئْصَالِ مُجْتَمَعٍ قَدِيمٍ ظَالِمٍ ؛ وَرَفْضِ ثَقَافَتِهِ الْعَقِيمَةِ الْمُجْدِبَةِ ؛ وَبِنَاءِ مُجْتَمَعٍ آخَرَ لا يَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأَةِ الظُّلْمِ

الطَّبَقِىٌّ ؛ وَتَمْهِيدِ الطَّرِيقِ لإِنْسَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ؛ تُصْبِحُ فِيهَا العَلاقَاتُ بَينَ الإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ ؛ بَينَ الفَنِّ وَالعِلْمِ ؛ بَينَ الحُرِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ وَالضَّرُورَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ : خَصْبَةً مُثْمِرَةً ؛ حَيْثُ يَنْدَفِعُ النَّاسُ فِى ظِلِّهَا الحَضَارِىِّ إِلَى الإِنْتَاجِ العَامِ فِى حُبٍّ وَوَعْىٍ ؛ وَحَيْثُ يَكْشِفُ الفَنُّ وَالأَدَبُ عَن كُلِّ الطَّاقَاتِ الإِبْدَاعِيَّةِ الخَلاَّقَةِ ؛ إِذ لا يُوجَدُ مَن يَجْرُؤُ عَلَى القَوْلِ بِأَنَّ هَذِهِ الأَهْدَافَ الاسْتِيرَاتِيجِيَّةَ لِلْمُجْتَمَعِ المُتَحَضِّرِ تَتَعَارَضُ مَعَ الأَهْدَافِ الَّتِى نَادَى بِهَا الأُدَبَاءُ عَبْرَ العُصُورِ وَسَعَوْا إِلَى تَحْقِيقِهَا ﴾ . أهـ .

.....

يَقُول إِنرِيك أَندِرسُون إِمبِرت فِى ﴿ مَنَاهِجُ النَّقْدِ الأَدبِىٌّ ﴾ ؛[ص : 124 ـ 126]:

﴿ وَنَاقِدٌ آخَرُ هَامٌّ فِى مَارْكِسِيَّةِ اليَوْمِ : هُوَ الإِيطَالِىُّ جِالْفَانُو دِيلاَّ فُولْب : مُؤَلِّفُ ﴿ نَقْدُ الذَّوْق ﴾ ـ وَصَدَرَ عَامَ ١٩٦٠ ـ ؛ وَهُوَ أُسْتَاذٌ جَامِعِىٌّ ؛ وَفِى رَدِّ فِعْلٍ ضِدَّ مِثَالِيَّةِ كُرُوتشَه : تَرَكَ جَانِبًا تَفْسِيرَاتِ الشُّيُوعِيِّينَ وَتَابِعِيهِم وَفُرُوضِهِم ؛ وَدَرَسَ الأَبْنِيَةَ الشِّعْرِيَّةَ بِخَاصَّةٍ ؛ مِن وُجْهَةِ نَظَرِ المَادِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ .

فِى النَّقْدِ المَارْكِسِىِّ تُوجَدُ مُسَلَّمَاتٌ يُمْكِنُ أَن تُقْبَلَ بِسُهُولَةٍ أَكْثَرَ مِنَ الأُخْرَى ؛ مَثَلاً : مُسَلَّمَةٌ غَيْرُ مُدْهِشَةٍ فِى شَىْءٍ : أَنَّ العَمَلَ الأَدبِىَّ لَيْسَ نَيْزَكًا سَقَطَ عَرَضًا فَوْقَ الأَفْرَادِ ؛ وَإِنَّمَا إِبْدَاعُ فَرْدٍ فِى مُجْتَمَعٍ تَحْكُمُهُ عَوَامِلُ كَثِيرَةٌ ؛ مِنَ الاقْتِصَادِيَّةِ حَتَّى الأَيْدُلُوجِيَّةِ ؛ وَفِى مَرْحَلَةٍ مِنَ التَّطَوُّرِ التَّارِيخِىِّ مُحَدَّدَةٍ

بِدِقَّةٍ .

وَأَيْضاً يُمْكِنُ أن نَقبَلَ بِسُهُولَةٍ نِسْبِيَّةٍ مُسَلَّمَةَ : أنَّ العَمَلَ لَيسَ مُجَرَّدَ انْعِكَاسٍ لِلْمُجتَمَعِ فَحَسْب ؛ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مَعَ غَايَاتِهِ ذَاتِهَا ؛ وَيُحَرِّكُ مَشَاعِرَ القُرَّاءِ ؛ وَبِهَذَا المَعْنَى يُسْهِمُ فِى تَطْوِيرِ المُجتَمَعِ ؛ وَحَتَّى يُمْكِنُ أن نَقبَلَ مُسَلَّمَةَ : أنَّ أىَّ عَمَلٍ - وَهُوَ يَتَطَلَّبُ رُؤْيَةَ العَالَمِ ؛ فِى رُؤْيَةٍ جَمَاعِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنْهَا فَرْدِيَّةٍ - لَهُ مَعْنَىً أَكْثَرُ أَهَمِّيَّةً مِن مُجَرَّدِ مُحْتَوَاهُ القَوْلِيُّ .

نَعَم ؛ إِذَا كَانَ مُمْكِناً أن نُقِرَّ البِنَاءَ الفَنِّىَّ وَالبِنَاءَ الاجْتِمَاعِىَّ ؛ فَلأَنَّ العَمَلَ فِى التَّحْلِيلِ الأَخِيرِ هُوَ العَالَمُ الفَنِّىُّ الصَّغِيرُ لِلْعَالَمِ الاجْتِمَاعِىِّ الصَّغِيرِ ؛ وَلَكِن لَيسَ مِنَ السَّهْلِ قَبُولُ نَظَرِيَّةِ القِيَمِ النَّقْدِيَّةِ المَارْكِيسِيَّةِ الَّتِى تَعْتَقِدُ أَنَّ عَمَلاً مَا يُعْتَبَرُ جَيِّداً أو رَدِيئاً طِبْقاً لِتَلاقِيهِ سِيَاسِيّاً مَعَ تَحْرِيرِ الطَّبَقَاتِ المَطْحُونَةِ ؛ مَعَ الدَّعْوَةِ إِلَى كِفَاحٍ ذَكِىٍّ وَمُتَفَائِلٍ ؛ أو عَلَى النَّقِيضِ يُشِلُّ العَمَلَ الاجْتِمَاعِىَّ بِمَوَاقِفَ غَيرِ مَنْطِقِيَّةٍ ؛ سَلْبِيَّةٍ ؛ وَسَاقِطَةٍ ؛ وَمُتَخَصِّصَةٍ فِى فِكْرَةٍ عَبَثِيَّةٍ : كُلُّ شَىْءٍ أو لا شَىْء ؛ مُقْتَنِعٌ دِينِيّاً وَجَمَالِيّاً .

وَالكُتَّابُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا - رَغْمَ عَدَمِ الشَّكِّ فِى ذَكَائِهِم وَامْتِيَازِ كِتَابَاتِهِم - أن يَبْسُطُوا فِى كُلِّ عَمَلِهِم الإِحْسَاسَ بِقَانُونِ التَّقَدُّمِ الاجْتِمَاعِىِّ ؛ يَجْعَلُهُم النَّقْدُ المَارْكِسِىُّ مَسْئُولِين ؛ لأَنَّهُم لَم يَقُولُوا : مَا إِذَا كَانَ المَوْضُوعُ الاجْتِمَاعِىُّ أو الأَيْدُيُولُوجِىُّ الثَّوْرِىُّ غَائِبَيْنِ عَن هَذَا العَمَلِ ؛ وَأَنَّهُمَا أَفْلَتَا مِنَ المُؤَلِّفِ ؛ وَحِينَئِذٍ يَجِبُ أن نَشِى بِهَا كَقِيَمٍ سَلْبِيَّةٍ يَنْقُصُهَا الوُضُوح ؛ وَتَتَّسِمُ بِالتَّفَاهَةِ فِى طَرِيقَةِ وَصْفِ النَّشَاطِ الاجْتِمَاعِىِّ ؛ وَالعَجْزِ فِى استِخْدَامِ المَوَادِّ الفَنِّيَّةِ الَّتِى

وَضَعَهَا الْمُجْتَمَعُ فِى حَوْزَتِهِ ؛ لِكَى يَسْتَخْدِمَهَا فِى دِقَّةٍ كَمَا يَجِب ؛ وَهَكَذَا تُعَاقِبُ الكَاتِبَ عَنِ القِيَمِ الَّتِى يَجْهَلُهَا ؛ وَلا تُرِيدُ أن تُكَافِئَهُ عَنِ القِيَمِ الَّتِى يَعْرِفُهَا .». أهـ .

۞۞۞۞۞

نَظْرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ فِى الأُسْلُوبِ النَّقْدِىِّ لِلْمَنْهَجِ الاجْتِمَاعِىِّ

مَا مِن رَيْبٍ فِى كَوْنِ الْمَنْهَجِ الاجْتِمَاعِىِّ قَد أَفَادَ الحَرَكَةَ النَّقْدِيَّةَ لِتَوَافُرِ مَا بِالْمَنْهَجِ مِن إِمْكَانَاتٍ إِيجَابِيَّةٍ كَثِيرَةٍ تَظْهَرُ وَتَتَجَلَّى إِبَّانَ الْمُمَارَسَةِ وَالتَّحْلِيلِ ؛ وَيَتَبَيَّنُ مِن خِلالِ اسْتِقْرَاءِ الدِّرَاسَاتِ النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِيَّةِ ؛ أَنَّهُ يَقُومُ عَلَى هَذِهِ الرَّكَائِزِ:

1ـ جَعْلُ الاهْتِمَامِ الأَعْظَمِ يَذْهَبُ نَحْوَ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِى حَيَاةِ الأَدِيبِ ؛ مِثْل : الوَضْعُ الاجْتِمَاعِىُّ لِلأَدِيب ؛ مَكَانَتُهُ فِى الْمُجْتَمَع ؛ تَأْثِيرُهُ عَلَى طَبَقَاتِ الْمُجْتَمَع .

وَهَذِهِ هِىَ الْمَحَاوِرُ الأَسَاسِيَّةُ عِنْدَ نُقَّادِ الْمَنْهَجِ الاجْتِمَاعِىِّ .

2 ـ قَضِيَّةُ الْجُمْهُورِ الَّذِى يُمَثِّلُ الكِيَانَ الْمُجْتَمَعِىَّ مِن أَهَمِّ قَضَايَا هَذَا الاتِّجَاهِ النَّقْدِىِّ ؛ فَلابُدَّ مِن دِرَاسَةِ تَأْثِيرِ العَمَلِ الإِبْدَاعِىِّ عَلَى طَبَقَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمُخْتَلِفَةِ .

3 ـ قَضِيَّةُ : المُحتَوَى الاجْتِمَاعِيُّ ؛ الأَهْدَاف ؛ الغَايَات ؛ أى : المَضَامِينُ الاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِى تُجَاهِدُ التَّجْرِبَةُ الإِبْدَاعِيَّةُ مِن أَجْلِ تَحْقِيقِهَا ؛ وَهُنَا تَتَجَلَّى مَسْأَلَةُ الالتِزَامِ فِى الأَدَبِ .

4 ـ أَثَرُ الجَانِبِ الاقْتِصَادِىِّ عَلَى العَمَلِيَّةِ الفَنِّيَّةِ وَالتَّجْرِبَةِ الأَدَبِيَّةِ ؛ وَبَيَانُ دَوْرِهِ فِى المُجْتَمَع .

5ـ قَامَ نُقَّادُ المَنْهَجِ الاجْتِمَاعِىِّ بِطَرْحِ قَضِيَّةٍ هَامَّةٍ : هِىَ عَلاقَةُ الأَدِيبِ بِالمُجْتَمَعِ مِن جِهَةِ تَأْثِيرِ التَّطَوُّرَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ عَلَى الإِنْتَاجِ الأَدَبِىِّ ؛ مِن حَيْثُ : أَشْكَالُهُ ؛ مَضَامِينُهُ ؛ أَهْدَافُهُ ؛ غَايَاتُهُ .

6ـ هُنَاكَ ظَوَاهِرُ خَارِجِيَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ تَشْغَلُ نُقَّادَ هَذَا الاتِّجَاهِ ؛ مِثْل : أَثَرُ الرِّعَايَةِ عَلَى الإِنْتَاجِ الإِبْدَاعِىِّ ؛ كَرِعَايَةِ الدَّوْلَةِ ؛ أو الجُمْهُور ؛ أو الصُّحُف ؛ أو الجَامِعَات ؛ أو دُورِ النَّشْرِ ؛ وَوُجُوبُ النَّظَرِ إِلَى النِّظَامِ الحَاكِمِ ؛ لِمَعْرِفَةِ أَثَرِهِ عَلَى حُرِّيَّةِ الأَدَبِ وَازْدِهَارِهِ ؛ أو تَرَاجُعِ مَسْأَلَةِ الحُرِّيَّاتِ وَقَمْعِهَا .

.....

.....

❁ـ نَقْدُ المَنْهَجِ الاجْتِمَاعِىِّ

للمنهج الاجتماعىِّ جوانب قُصُورٍ عديدةٍ ؛ نحاول إيجازها فى التالى:

١ـ إصرار أصحاب المنهج الاجتماعىِّ على رُؤية الأدب على أنه انعكاسٌ للظُّروف الاجتماعيَّة للأديب.

ونجد أن هذا الرأى صحيحٌ إلى حَدٍّ ما ؛ فليس الأديب شيئاً مُنعزلاً عن مُجتمعه ؛ لكنه أيضاً يحتاج لأن يُعبِّر عن أشياء أُخرى مختلفة غير هُمُوم مُجتمعه.

٢ـ سيطرت التوجُّهات الماديَّة على كُلِّ شىءٍ فى هذا المنهج ؛ فالبنية الدنيا الماديَّة ـ فى نظر الاتجاه الماركسىِّ ـ تتحكَّم فى البنية العُليا التى يُعتبر الأدب جُزءاً منها ؛ فتزول حُريَّة الأديب ؛ لأنها مبنيَّةٌ على سيطرة المادة .

ومن جانبٍ آخرٍ: يُغفل هذا المنهج جانب الغيبيَّات وأثرها الفاعل فى توجيه الأُدباء من خلال الخُلُوص لله ـ سُبْحَانَهُ ـ ؛ واستحضار خشيته فى القول والفعل ؛ وهو يتَّصل بالمرجعيَّة الدينيَّة كجُزءٍ من الحُكم النقدىِّ .

٣ـ يهتمُّ هذا المنهج بالأعمال النثريَّة ـ كالقصص ؛ والمسرحيَّات ـ ؛ ويُركِّز النُّقَّاد على شخصيَّة البطل ؛ وإظهار تفوقها على الواقع ؛ مما يُؤدِّى إلى التزييف ؛ نتيجة الإفراط فى التفاؤل ؛ فتصوير البطل يجب أن يكون من خلال الواقع وتمثُّل الجوهر الحقيقىِّ لواقع الحياة .

٤ـ يغلب على أصحاب هذا الاتجاه: إفراطهم فى الاهتمام بمضمون العمل الأدبيِّ على حساب الشكل؛ فجاء (علم اجتماع النَّص) كتعويضٍ لهذا النَّقص؛ حيث يهتم باللغة باعتبارها الوسيط بين الحياة والأدب؛ وهى أداة فهم المُبدع وإبداعه.

.....

.....

✿ - الـوَاقِـعِيَّـةُ الاشْتِرَاكِيَّـة
(الـوَاقِعِيَّـةُ الجَـدِيـدَة)

.....

- نَظْـرَةٌ تَمْهِيدِيَّةٌ :

- أوَّلاً : الوَاقِعِيَّـةُ اصْطِلاحًا

الوَاقِعِيَّـةُ نِسْبَـةً إِلَى الوَاقِعِ المُعَاش ؛ وَالوَاقِعُ هُوَ مَـا يَظْهَرُ بِالطَّبِيعَةِ وَالحَيَاةِ ؛ أو مَا هُوَ مَوْجُودٌ بِالذَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَعِيشُ بِهَذِهِ الحَيَاة

وَالوَاقِعُ يَتَمَثَّلُ فِي نَوْعَيْن :

1- الوَاقِعُ الحَقِيقِيُّ .

2- الوَاقِعُ الفَنِـيُّ .

1- الوَاقِعُ الحَقِيقِيُّ : هُوَ الَّذِي إِذَا مَا وُصِفَ كَانَ الوَصْفُ مُطَابِقاً لِمَا هُوَ مَوْجُودٌ ؛ فَيَأْتِي الوَصْفُ وَكَأَنَّهُ صُورَةٌ صُوِّرَت فَجَاءَت بِكَافَّةِ التَّفَاصِيلِ مِن مِحْوَرِيَّةٍ وَفَرْعِيَّةٍ .

2- الوَاقِعُ الفَنِـيُّ : وَيُرَادُ بِهِ مَا قَامَت بِهِ التَّجْرِبَةُ الإِبْدَاعِيَّةُ مِن تَصْوِيرٍ لِلْوَاقِعِ ؛ وَلا يُشْتَرَطُ هُنَا أن يَكُونَ رَسْمُ الوَاقِعِ حَرْفِيّـاً ؛ بَل الشَّرْطُ الأَسَاسِيُّ أن تَأْتِي المَلامِحُ الكُبْرَى لِلْوَاقِعِ ؛ وَأَمَّا اخْتِرَاعُ الجُزْئِيَّاتِ وَالهَوَامِشِ ؛ فَهَذَا أَمْرٌ لا نَكَارَةَ فِيهِ ؛ بَل لابُدَّ مِنْهُ لِصَنَاعَةِ الأَثَرِ الَّذِي يُرِيدُ المُبْدِعُ إِحْدَاثَهُ ؛ وَهُنَا

يَكْمُنُ الفَارِقُ الجَوْهَرِىُّ بَينَ الْمُبْدِعِ وَالْمُقَلِّدِ .

.....

- الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّة وَالوَاقِعِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ

- الوَاقِعِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ :

نَشَأَت الوَاقِعِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِى نِهَايَةِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرِ عَلَى يَدَى الْمُبْدِعِ الكَبِيرِ (إِمِيل زُولا) ؛ إِلاَّ أَنَّ مَلامِحَهَا لَم تَتَّضِح وَتَتَحَدَّد إِلاَّ فِى القَرْنِ العِشْرِين .

وَقَد تَأَثَّرَت الوَاقِعِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ بِالنَّظَرِيَّاتِ العِلْمِيَّةِ وَعَمِلَت عَلَى تَطْبِيقِهَا ؛ فَالإِنْسَانُ كَمَا تَرَاهُ الوَاقِعِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ كَائِنٌ تُحَرِّكُهُ غَرَائِزُهُ ؛ فَحَيَاتُهُ الشُّعُورِيَّةُ وَالفِكْرِيَّةُ هِىَ انْعِكَاسٌ لإِفْرَازَاتِ الغُدَد ؛ فَهِىَ تَنْظُرُ إِلَى العَالَمِ نَظْرَةً مَادِيَّةً ؛ وَلا تُحَكِّمُ سِوَى مَا يَرَاهُ العَقْلُ ؛ وَلا تُؤْمِنُ بِالمِثَالِيَّاتِ أَو تُحَاوِلُ الاقْتِرَابَ مِنْهَا ؛ وَلِذَلِكَ لَم يَكُن مِنَ الْمُسْتَغْرَبِ أَن هَاجَمَت الأَدْيَانَ وَالرُّوحَانِيَّاتِ الصُّوفِيَّةَ ؛ بِحُجَّةِ كَوْنِهَا مِنَ الأُمُورِ الزَّائِفَةِ الوَهْمِيَّةِ الَّتِى لا تُجْدِى عَلَى الْمُجْتَمَعِ بِنَفْعٍ حِسِّىٍّ مَلْمُوسٍ ؛ وَتَرَى أَنَّ الجِنْسَ هُوَ الْمُحَرِّكُ الأَعْظَمُ لِلسُّلُوكِ الإِنْسَانِىِّ ؛ كَمَا أَنَّ الوِرَاثَةَ وَالبِيئَةَ تَعْمَلانِ عَلَى تَشْكِيلِ السُّلُوكِ الإِنْسَانِىِّ وَالطِّبَاعِ البَشَرِيَّةِ .

وَالوَاقِعِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ : تَهْدُفُ إِلَى مُحَارَبَةِ الظُّلْمِ وَالفَسَادِ وَالانْحِلالِ

الأَخْلاقِىِّ ؛ وَتُجَاهِدُ مِن أَجْلِ العَدَالَةِ وَالْمُسَاوَاةِ وَالْحُرِيَّةِ .

وَهِىَ تَعْنَى بِالتَّفَاصِيلِ مَهْمَا كَانَت مُخَالِفَةً لِلذَّوْقِ أو العُرْفِ السَّائِدِ ؛ إذ تَرَى أَنَّهُ لابُدَّ مِنَ الصَّرَاحَةِ وَالْمُوَاجَهَةِ ؛ وَأَنَّهُ لا مُبَرِّرَ لِلْحَذْفِ وَالتَّنْمِيقِ ؛ وَلِذَا فَهِىَ تَهْتَمُّ بِالأُمُورِ الْمَذْمُومَةِ وَالشَّاذَّةِ وَالقَبِيحَةِ ؛ مِن أَلْفَاظٍ وَأَقْوَال ؛ وَمِن أَفْعَالٍ وَأَعْمَال .

تَنْظُرُ الوَاقِعِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ إِلَى الْمُجْتَمَعِ فِى إِطَارِ الوحْدَةِ الكُلِّيَّةِ الْمُتَمَاسِكَةِ .

.....

- تَذْيِيل :

- الوَاقِعِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ
بِقَلَمِ شَيْخِ النُّقَّاد
الدُّكْتُور مُحَمَّد مَنْدُور

قَالَ فِى كِتَابِهِ (فِى الأَدَبِ وَالنَّقْد) ؛[ص : 111]:

« هَذَا الْمَذْهَبُ الَّذِى يَتَزَعَّمُهُ (إِمِيل زُولا) يُعْتَبَرُ تَطَوُّرًا طَبِيعِيًّا لِلْوَاقِعِيَّةِ ؛ فَأَصْحَابُهُ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْمُسَيْطِرَ عَلَى البَشَرِيَّةِ هُوَ حَقَائِقُ حَيَاتِهَا العُضْوِيَّةِ ؛ كَالغَرَائِزِ وَحَاجَاتِ البَدَنِ الْمُخْتَلِفَةِ ؛ وَأَمَّا الرُّوحُ : فَظَاهِرَةٌ ثَانَوِيَّةٌ لا سُلْطَانَ لَهَا عَلَى البَشَرِ ؛ وَمِن هُنَا يَرُدُّونَ تَصَرُّفَاتِ الإِنْسَانِ إِلَى عَمَلِ الغَرَائِزِ الغَامِضِ .

وَيَتَّصِلُ بِهَذَا الْمَذْهَبِ ظُهُورُ عِلْمِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِىِّ .

وَقَد رَاجَت تِلْكَ الأَبْحَاثُ فِى أَلْمَانْيَا وَالنِّمْسَا ؛ ثُمَّ امْتَدَّت إِلَى أُورُبَّا كُلِّهَا

فِي أَوَاخِرِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرِ وَأَوَائِلِ القَرْنِ العِشْرِين ؛ وَكَذَلِكَ فِي أَمرِيكَا ؛ فَكَتَبَ فِيهَا : فرُويد ؛ وَأَدْلِر ؛ وَيَنْج ؛ وَغَيْرُهُم مِمَّن بَحَثُوا عَن مُرَكَّبَاتِ وَعُقَدِ النَّفْسِ وَالأَحْلامِ وَعَمَلِ الغَرَائِزِ .

وَصَاحَبَ ذَلِكَ أَيْضاً نُمُوُّ عِلْمِ النَّفْسِ التَّجْرِيبِيِّ ؛ وَهُوَ الَّذِى يَدْرُسُ الإِنْسَانَ فِي المَعَامِلِ كَكَائِنٍ عُضْوِيٍّ .

وَكُلُّ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ مِن شَأْنِهَا أَن تُسَاعِدَ عَلَى نُمُوِّ الاتِّجَاهِ نَحْوَ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الأَدَب .

وَقَد حَدَثَ بَعْدَ انْتِهَاءِ حَرْبِ ١٩١٤ : ارْتِدَادٌ نَحْوَ الرُّوحِيَّةِ ؛ وَعِنَايَةٌ بِالجَانِبِ النَّفْسِيِّ الخَاصِّ مِنَ الإِنْسَانِ ؛ بِحَيْثُ لَم تَعُد هُنَاكَ سَيْطَرَةٌ لِمَذْهَبِ الطَّبِيعِيَّةِ أَو الفرُويدِيَّةِ فِي العَصْرِ الحَاضِرِ ؛ وَإِن كَانَت قَد شَغَلَت المَسْرَحَ إِلَى مَا بَعْدَ تِلْكَ الحَرْبِ ؛ وَكَانَ مِن أَكْبَرِ العُقُولِ الَّتِى رَدَّت هَذَا التَّيَّارَ عَقْلُ (بِرْجِسُون) : الفَيْلَسُوفُ الفَرَنْسِيُّ الَّذِى تَقُومُ فَلْسَفَتُهُ عَلَى مَذْهَبِ الحِسِّ البَاطِنِيِّ . ﴿ .اهـ .

.....

ـ الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ :

نَشَأَت الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ ـ أو : (الوَاقِعِيَّةُ الجَدِيدَةُ) ـ كَمُنَاهِضٍ فِي وَجْهِ الرُّومَانسِيَّةِ ؛ وَالوَاقِعِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ ؛ ثُمَّ أَخَذَت حَظَّهَا فِي الانْتِشَارِ مَعَ اتِّسَاعِ خَارِطَةِ الدِّرَاسَاتِ الاشْتِرَاكِيَّةِ .

وَقَد نَشَأَت الـوَاقِعِيَّةُ الاشتِرَاكِيَّةُ وَازْدَهَرَت فِي رُوسْيَا إِبَّانَ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَر ؛ وَهِيَ الَّتِي بَشَّرَت بِالثَّوْرَةِ وَمَهَّدَت لَهَا ؛ ثُمَّ تَجَلَّت قُوَّتُهَا بُعَيْدَ قِيَامِ الثَّوْرَةِ فِي عَامِ ١٩١٧ ؛ ثُمَّ انْتَقَلَت إِلَى كَافَّةِ البُلْدَانِ الاشتِرَاكِيَّةِ .

وَيُعَدُّ « بِلِنسكِي » الَّذِي غَادَرَ الحَيَاةَ سَنَةَ ١٨٤٨ م هُوَ أَوَّلُ مَن نَظَّرَ لِهَذَا المَنْهَجِ ؛ وَهُوَ مُؤَسِّسُ عِلْمِ الجَمَالِ الوَاقِعِيِّ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ مِنَ الاشتِرَاكِيِّينَ الخَيَالِيِّين ؛ ثُمَّ يَأْتِي « تَشَرْنِشفِكِي » وَالَّذِي رَحَلَ سَنَةَ ١٨٨٩م ؛ وَهُوَ الثَّوْرِيُّ الَّذِي دَعَا إِلَى ثَوْرَةِ الفَلاَّحِين ؛ وَنَادَى بِوُجُوبِ النِّضَالِ وَمُوَاجَهَةِ السُّلْطَةِ الحَاكِمَةِ وَالنِّظَامِ القَائِمِ ؛ فَنُفِيَ إِلَى سَيْبِيرْيَا ؛ وَلِهَذَا الرَّجُلِ رِسَالَةٌ بِعُنْوَان « عِلْمُ الجَمَال » ؛ وَالَّتِي تُعَدُّ بِمَثَابَةِ إِنْجِيلِ عِلْمِ الجَمَالِ الوَاقِعِيِّ ؛ وَقَد انْتَقَدَ مِن خِلالِهَا نَظَرِيَّةَ الفَنِّ لِلْفَن ؛ وَذَكَرَ أَنَّ الحَيَاةَ الوَاقِعِيَّةَ هِيَ مِقْيَاسُ الجَمَال .

.....

يُورِدُ الدُّكتُور مُحَمَّد مَنْدُور فِي كِتَابِهِ « الأَدَبُ وَمَذَاهِبُهُ » ؛ [ص 96 ـ 97] تَعْرِيفاً لِلْوَاقِعِيَّةِ الاشتِرَاكِيَّةِ ؛ فَيَقُول :

﴿ إِنَّ أَدَبَهُم ـ أَي أَدَبُ الأُدَبَاءِ الاشتِرَاكِيين : هَادِفٌ ؛ يَهْدُفُ إِلَى تَغْلِيبِ عَامِلِ الخَيْرِ وَالثِّقَةِ بِالإِنسَانِ وَقُدرَتِهِ ؛ وَأَنَّ وَاقِعِيَّتَهُم وَإِن كَانَت تَتَّخِذُ مَضْمُونَهَا مِن حَيَاةِ عَامَّةِ الشَّعْبِ ؛ إِلاَّ أَنَّ رُوحَهَا رُوحٌ مُتَفَائِلَةٌ ؛ تُؤْمِنُ بِإِيجَابِيَّةِ الإِنسَانِ ؛ وَقُدرَتِهِ عَلَى أَن يَأْتِي بِالخَيْرِ ؛ وَأَن يُضَحِّي فِي سَبِيلِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ ؛ فِي غَيْرِ يَأْسٍ وَلا تَشَاؤُمٍ وَلا مَرَارَةٍ مُسْرِفَةٍ . ﴾ .اهـ .

وَيَقُولُ الكَاتِبُ السُّوفِيْتِيُّ سِلِيمُونُوف : مَا نُسَمِّيهِ وَاقِعاً ؛ لَيْسَ إِلاَّ الصُّورَةَ الذِّهْنِيَّةَ الَّتِي لَدَيْنَا عَنِ الحَيَاةِ ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ لا يَتَّخِذُ وُجُودَهُ إِلاَّ مِنَ الصُّورَةِ الذِّهْنِيَّةِ الَّتِي لَدَيْنَا عَنْهُ ؛ وَلَمَّا كَانَت هَذِهِ الصُّورَةُ مِلْكَنَا ؛ فَنَحْنُ لا نَسْتَطِيعُ أن نُلَوِّنَهَا بِاللَّوْنِ الَّذِي نُرِيدُهُ وَالَّذِي فِيهِ مَصْلَحَةٌ لأَنْفُسِنَا ؛ ثُمَّ لا يَلْزَمُ كَي يُوصَفَ الأَدَبُ بِالصِّدْقِ أن يَقُصَّ مَا حَدَثَ فِعْلاً ؛ بَل يَكْفِيهِ أن يَقُصَّ مَا يُمْكِنُ حُدُوثُهُ ؛ وَبِذَلِكَ يُصْبِحُ أَدَباً مَعْقُولاً مُشَاكِلاً لِلْحَيَاةِ ؛ وَبِالتَّالِي صَادِقاً .

وَفِي (المُعْجَمُ الجَمَالِيُّ الرُّوسِيُّ) ؛ عُرِّفَت الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ عَلَى أَنَّهَا مَنْهَجٌ فَنِيٌّ ؛ يَتَمَثَّلُ جَوْهَرُهُ فِي الانْعِكَاسِ الصَّادِقِ المُحَدَّدِ تَارِيخِيّاً لِلْوَاقِعِ فِي تَطَوُّرِهِ الثَّوْرِيِّ .

وَيَنُصُّ عَلَى أَنَّ مَبَادِىءَ الوَاقِعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ تَتَمَثَّلُ فِي : « الأَمَانَةُ لِلْحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ الجِزْئِيَّةِ وَالقَوْمِيَّةِ ؛ وَالالْتِحَامُ العَمِيقُ بِالحَيَاةِ وَبِالوَاقِعِ ؛ شَخْصِيَّاتٌ نُمُوذَجِيَّةٌ فِي مَوَاقِفَ نُمُوذَجِيَّةٍ ؛ وَالبُرْهَانُ عَلَى الطَّابِعِ العَامِ لِعَمَلِيَّاتِ التَّحَوُّلِ الاجْتِمَاعِيِّ مِن خِلالِ صُوَرٍ فَرْدِيَّةٍ لِلأَشْخَاصِ وَالأَحْدَاثِ وَ : تَحْلِيلُ العَلاقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ لا تَعْكِسُ فَحَسْبُ اتِّجَاهَاتِ المَاضِي وَالحَاضِرِ ؛ وَإِنَّمَا تُشِيرُ أَيْضاً إِلَى طَبِيعَةِ تَطَوُّرِهَا فِي المُسْتَقْبَلِ ؛ إِذ أَنَّ الفَنَّانَ الوَاقِعِيَّ انْطِلاقاً مِن رُؤْيَتِهِ لِلْحَيَاةِ يَسْتَطِيعُ أن يَكْتَشِفَ القُوَى المُحَرِّكَةَ لِلْمُجْتَمَعِ ؛ وَأَن يَبْنِي مَنْظُورَهُ لِلْمُسْتَقْبَلِ عَلَى أَسَاسٍ وَاقِعِيٍّ عِلْمِيٍّ ؛ لا عَلَى أَسَاسٍ مِثَالِيٍّ خَيَالِيٍّ كَمَا كَانَ الوَاقِعِيُّونَ التَّقْلِيدِيُّونَ فِي نَظْرَتِهِم لِلتَّطَوُّرِ الاجْتِمَاعِيِّ ؛ وَمِن هُنَا نَعْثُرُ عَلَى جَوْهَرِ الرُّومَانْتِيكِيَّةِ الثَّوْرِيَّةِ دَاخِلَ الوَاقِعِيَّةِ

الاشْتِرَاكِيَّةِ وَتَفَاؤلِهَا التَّارِيخِىّ الصَّادِقِ .

وَانْطِلاقاً مِن هَذِهِ الرُّؤيَةِ فَإِنَّ الوَاقِعِيَّةَ الاشْتِرَاكِيَّةَ تَعْثُرُ عَلَى الجَوَانِبِ الإِيجَابِيَّةِ ؛ وَتَبْنِى مِثَالَهَا عَلَى أَسَاسٍ عِلْمِىّ يَتَجَسَّمُ فِى البَطَلِ الإِيجَابِىّ الَّذِى يُعَدُّ ثَمَرَةً لِلْخَيَالِ الفَنِىّ مِنَ الحَيَاةِ نَفْسِهَا .

عَلَى أَنَّ الأَعْمَالَ الوَاقِعِيَّةَ تَعْنِى بِتَحْلِيلِ العُيُوبِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ لِتُسْهِمَ فِى وَاجِبِ تَجَاوُزِهَا وَالانْتِصَارِ عَلَيْهَا . ✂ .أهـ .

.....

وَبَعْدُ :

تَفْرِضُ الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ عَلَى التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ أَن تَجْعَلَ مِن أَهَمِّ مَلامِحِهَا : تَصْوِيرُ الصِّرَاعِ الطَّبَقِىّ القَائِمِ مَا بَينَ طَبَقَةِ العُمَّالِ وَالفَلاَّحِينَ ؛ وَالطَّبَقَةِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ وَالبُورجُوَازِيَّةِ ؛ وَرَسْمِ صُورَةٍ لانْتِصَارِ الطَّبَقَةِ الكَادِحَةِ الَّتِى تَقْدِرُ عَلَى صِنَاعَةِ الخَيْرِ وَالجَمَالِ ؛ عَلَى الطَّبَقَةِ المُتَحَكِّمَةِ فِى رَأْسِ المَالِ وَالَّتِى تُمَثِّلُ القَهْرَ وَالظُّلْمَ وَالشَّرَّ فِى المُجْتَمَعِ .

وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ الوَاقِعِيَّةَ الاشْتِرَاكِيَّةَ لا تَقْنَعُ ـ كَحَالِ الوَاقِعِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ ـ بِتَصْوِيرِ الوَاقِعِ وَحَسْب ؛ بَل تَدْعُو إِلَى تَحْلِيلِ هَذَا الوَاقِعِ ؛ ثُمَّ النَّظَرِ فِى الأَسْبَابِ الَّتِى تَكْفُلُ لِلْجَمَاهِيرِ هَدْمَ القَدِيمِ الدِّيكْتَاتُورِىّ المُتَخَلِّفِ وَبِنَاءَ المُسْتَقْبَلِ الدِّيمُقْرَاطِىّ التَّقَدُّمِىّ ؛ فَالوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ تُؤْمِنُ بِضَرُورَةِ انْتِصَارِ الجَمَاهِيرِ فِى النِّهَايَةِ .

الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ لا تُعْرِضُ عَن مَسْأَلَةِ القُدْرَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَالبَرَاعَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ ؛ بَل هِيَ تَرَى أَنَّ الإِجَادَةَ التَّعْبِيرِيَّةَ مِن أَهَمِّ العَوَامِلِ الَّتِى تُؤَدِّى إِلَى التَّأْثِيرِ النَّفْسِيِّ وَالعَاطِفِيِّ ؛ إِلاَّ أَنَّهَا تُؤْثِرُ اللُّغَةَ السَّهْلَةَ وَالأُسْلُوبَ الَّذِى يَصِلُ إِلَى كَافَّةِ طَبَقَاتِ المُجْتَمَعِ ؛ إِلاَّ أَنَّهَا تَسْتَرْذِلُ الرَّكَاكَةَ الأَدَائِيَّةَ ؛ وَلا تُعْلِى مِن شَأْنِ الأَدَبِ الَّذِى يُنْتِجُ المَضَامِينَ الفِكْرِيَّةَ مِن دُونِ حِسٍّ فَنِّيٍّ وَأُسْلُوبٍ عَبْقَرِيٍّ مُؤَثِّرٍ .

.....

- تَذْيِيل :

- الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ

يَقُولُ الدُّكْتُور شُكْرِى مُحَمَّد عَيَّاد فِى كِتَابِهِ (المَذَاهِبُ الأَدَبِيَّةُ وَالنَّقْدِيَّةُ عِنْدَ العَرَبِ وَالغَرْبِيين) ؛ [ص : 23 ـ 34] :

« لَم تُخلِ السِّرْيَالِيَّةُ مَكَانَهَا لِلْكِتَابَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى ؛ لَقَد دَخَلَت مِصْرُ ـ وَالعَالَمُ العَرَبِيُّ كُلُّهُ ـ فِى دَوَّامَةِ الصِّرَاعِ العَالَمِيِّ ؛ وَلَم يَعُد مُمْكِنًا أَن يَخْرُجَا مِنْهَا ؛ وَمَعَ هَذَا الدَّوَرَانِ المَحْمُومِ حَوْلَ المَرْكَزِ : كَانَت مُعَادَلاتُ اكْتِشَافِ الذَّاتِ مُسْتَمِرَّةً بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ ؛ فَإِذَا كَانَت (جَمَاعَةُ الفَنِّ وَالحُرِّيَّةِ) قَد عَلَّقَت آمَالَهَا بِالثَّوْرَةِ العَالَمِيَّةِ ؛ وَرَأَت فِى الفَنِّ الحُرِّ ؛ غَيرِ المُقَيَّدِ بِأَيْدُلُوجِيَّةٍ مَا : طَرِيقًا مُوصِلاً إِلَى هَذِهِ الثَّوْرَةِ ؛ فَقَد سَاعَدَت الظُّرُوفُ العَالَمِيَّةُ ـ مَرَّةً أُخْرَى ـ عَلَى سُطُوعِ نَجْمِ السَّتَالِينِيَّةِ ؛ وَفِى رِكَابِهَا المَذْهَبُ الأَدَبِيُّ الَّذِى أَصْبَحَ مَبْدَأً رَسْمِيًّا لِلدَّوْلَةِ السُّوفِيتِيَّةِ مُنْذُ سَنَةِ ١٩٣٢ ـ أَعْنِى : الوَاقِعِيَّةَ

الاشْتِرَاكِيَّةُ ـ .

﴿ إِنَّ المَكَانَ الَّذِى احْتَفَظَت بِهِ السَّتَالِينِيَّةُ لِلْقَوْمِيَّاتِ وَالثَّقَافَاتِ القَوْمِيَّةِ : جَعَلَ الوَاقِعِيَّةَ الاشْتِرَاكِيَّةَ أَكْثَرَ قَبُولاً لَدَى الوَطَنِيينَ وَالقَوْمِيينَ العَرَب ؛ فَكُلُّ مَذْهَبٍ حَدَاثِيٍّ آخَرٍ كَانَ يَشِى بِمَنْبَتِهِ الأُورُبِيِّ ؛ وَيُنْذِرُ بِمَسْخِ الطَّابِعِ القَوْمِيِّ وَالرُّوحِ القَوْمِيَّةِ .

وَمَازَالَ بَعْضُ البَاحِثِينَ العَرَبَ يَعُدُّ « الوَاقِعِيَّةَ الاشْتِرَاكِيَّةَ » قِسْماً مِنَ الحَدَاثَةِ ؛ مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ الأُدَبَاءِ فِى الاتِّحَادِ السُّوفِيتِيِّ وَالدُّوَلِ الاشْتِرَاكِيَّةِ كَانُوا يَرَوْنَهُمَا نَقِيضَيْن ؛ بَل عَدُوَّيْن .﴾ .

كَانَ مَفْهُومُ الحَدَاثَةِ ـ وَلا يَزَال ـ يَتَغَيَّرُ بِاسْتِمْرَارٍ ؛ وَكَانَت مُغَامَرَاتُهَا فِى « الشَّكْل » لا تَنْتَهِى ؛ إِذ كَانَت عِنْدَ التَّحْلِيلِ الأَخِيرِ : مُحَاوَلَةً مُسْتَحِيلَةً لِلْبَحْثِ عَن مَعْنَىً ؛ بَعْدَ أَن فَقَدَت الحَيَاةُ مَعْنَاهَا بِغِيَابِ فِكْرَةِ الله .

أَمَّا الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ ؛ فَقَد كَانَ لَدَيْهَا إِيمَانُهَا البَدِيل ؛ الإِيمَانُ بِانْتِصَارِ الطَّبَقَةِ العَامِلَةِ فِى العَالَمِ كُلِّهِ ؛ وَقِيَامُ المُجْتَمَعِ الاشْتِرَاكِيِّ الَّذِى يَضْمَنُ السَّعَادَةَ لِجَمِيعِ أَفْرَادِهِ .

وَمِثْلُ كُلِّ نِظَامٍ إِيمَانِيٍّ كَانَ لِلْوَاقِعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ أَشْكَالُهَا الفَنِّيَّةُ المُسْتَقِرَّةُ ؛ أَو قُل : « كِلاسِيكِيَّتُهَا » الخَاصَّة ؛ فَهِىَ فِى مَجْمُوعَةِ الدُّوَلِ الاشْتِرَاكِيَّةِ مُلْتَزِمَةٌ بِتَصْوِيرِ « البَطَلُ الإِيجَابِيُّ » ؛ أَو : النُّمُوذَجُ الإِنْسَانِيُّ الجَدِيدُ ؛ الَّذِى اكْتَمَلَ خَلْقاً وَخُلُقاً عِنْدَمَا تَحَرَّرَت البرُولِيتَارِيَا مِن سَيْطَرَةِ الطَّبَقَةِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ ؛ وَهِىَ فِى البُلْدَانِ الَّتِى لَم تَتَحَرَّر بَعْدُ مِن سَيْطَرَةِ رَأْسِ المَالِ

مُلْتَزِمَةٌ بِتَصْوِيرِ وَاقِعِهَا بِمَا فِيهِ مِن إِيجَابِيَّاتٍ وَسَلْبِيَّات ؛ فَهِيَ لا تَخْتَلِفُ فِي هَذَا عَنْ « الوَاقِعِيَّةُ النَّقْدِيَّةُ » الَّتِي وَرِثْنَاهَا عَن المُجْتَمَعِ البُورْجُوَازِيِّ ؛ إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ « الوَاقِعِيَّةُ الجَدِيدَةُ » ـ كَمَا سَمَّاهَا بَعْضُهُم ـ تَستَنِدُ إِلَى النَّظَرِيَّةِ المَارْكِسِيَّةِ فِي تَحْلِيلِ المُجْتَمَعِ ؛ وَتَلْتَزِمُ بِالمَوْقِفِ التَّقَدُّمِيِّ المُتَعَاطِفِ مَعَ الطَّبَقَةِ العُمَّالِيَّةِ الصَّاعِدَةِ .

وَبِمَا أَنَّ « الوَاقِعِيَّةَ الاشْتِرَاكِيَّةَ » تَستَنِدُ إِلَى المَارْكِسِيَّةِ ؛ وَالمَارْكِسِيَّةُ مَذْهَبٌ شَامِلٌ ؛ تَجْمَعُهُ أَوْصَافٌ ثَلاثَةٌ : فَهُوَ « مَادِيٌّ ؛ جَدَلِيٌّ ؛ تَارِيخِيٌّ » ؛ فَمِن هُنَا كَانَت الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّةُ : مَذْهَبًا نَقْدِيًّا شَامِلاً أَيْضًا ؛ فَالمَضْمُونُ الطَّبَقِيُّ هُوَ الَّذِي يَرْسُمُ المَذْهَبَ الأَدَبِيَّ وَيُحَدِّدُ قِيمَةَ الأَدَبِ .

وَالتَّطَوُّرُ التَّارِيخِيُّ لِلْمُجْتَمَعَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ ـ وَجَوْهَرُهُ تَطَوُّرُ التَّرْكِيبِ الطَّبَقِيِّ ـ قَد اسْتَتْبَعَ تَطَوُّرًا مُمَاثِلاً فِي المَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ ؛ فَفِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ كَانَت الطَّبَقَةُ الإِقْطَاعِيَّةُ هِيَ الَّتِي تُهَيْمِنُ عَلَى النِّظَامِ الاجْتِمَاعِيِّ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ المَذْهَبُ الكِلاسِيُّ بِثَبَاتِهِ وَاحْتِرَامِهِ الشَّدِيدِ لِلْقَوَاعِدِ هُوَ المَذْهَبُ الأَدَبِيُّ السَّائِدُ .

ثُمَّ نَشَأَت طَبَقَةٌ جَدِيدَةٌ هِيَ الطَّبَقَةُ البُورْجُوَازِيَّةُ ـ طَبَقَةُ التُّجَّارِ وَالصُّنَّاعِ سَاكِنِي المُدُنِ ـ ؛ اتَّسَمَت ـ فِي فَتْرَةِ صُعُودِهَا ـ بِالمُغَامَرَةِ وَسِعَةِ الخَيَالِ ؛ فَكَانَ المَذْهَبُ الرُّومَنْسِيُّ تَعْبِيرًا صَادِقًا عَن طُمُوحَاتِهَا وَمُثُلِهَا ؛ وَكَانَ ـ بِهَذِهِ المَثَابَةِ ـ أَدَبًا تَقَدُّمِيًّا .

ثُمَّ لَمَّا تَحَوَّلَت إِلَى رَأْسِمَالِيَّةٍ احْتِكَارِيَّةٍ : فَقَدَت رُوحَ المُغَامَرَةِ ؛

وَاسْتَسْلَمَت لِلأَخْيِلَةِ المَرِيضَةِ ؛ وَهَكَذَا تَحَوَّلَت الرُّومَانْسِيَّةِ إِلَى عَاطِفِيَّةٍ مَائِعَةٍ ؛ ثُمَّ لَم تَلْبَث أَن أَخْلَت مَكَانَهَا لِشَتَّى التَّجَارِبِ الشَّكْلِيَّةِ ؛ الَّتِى تُجَرِّدُ الحَيَاةَ مِن مَعْنَاهَا وَقِيمَتِهَا ـ وَهَذِهِ هِىَ السِّمَةُ الرَّئِيسِيَّةُ لِلْحَدَاثَةِ مِن مَنْظُورِ الوَاقِعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ ـ .

وَكَانَت « الوَاقِعِيَّةُ النَّقْدِيَّةُ » ـ الَّتِى لَم يَغِب عَن وَعْيِهَا إِفْلاسُ الرُّومَانْسِيَّةِ بِتَحَوُّلِ البُورْجُوَازِيَّةِ مِن طَبَقَةٍ نَشِيطَةٍ مُغَامِرَةٍ إِلَى طَبَقَةٍ طُفَيْلِيَّةٍ تَعِيشُ عَلَى كَدِّ العُمَّالِ وَالفَلاَّحِينَ ـ حَرَكَةٌ تَقَدُّمِيَّةٌ ؛ وَلَكِنَّهَا وَقَفَت عِنْدَ حُدُودِ النَّقْدِ ؛ إِذ لَم تَكُن تَمْلِكُ النَّظَرِيَّةَ الاجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِى تُمَكِّنُهَا مِن رُؤْيَةِ احْتِمَالاتِ المُسْتَقْبَلِ كَامِنَةً فِى تِلْكَ الطَّبَقَاتِ المَطْحُونَةِ .

كَانَ لِهَذِهِ الأَفْكَارِ تَأْثِيرُهَا الكَبِيرُ فِى لُغَةِ النَّقْدِ عِنْدَنَا مُنْذُ أَوَاسِطِ الخَمْسِينِيَّاتِ ؛ وَأُطْلِقَ اسْمُ « النَّقْدُ الأَيْدُلُوجِيُّ » عَلَى ذَلِكَ النَّقْدِ الَّذِى يَلْتَزِمُ بِالنَّظَرِيَّةِ المَارْكِسِيَّةِ ؛ وَلَكِنَّ التَّأَثُّرَ بِالفِكْرِ المَارْكِسِيِّ لَم يَقْتَصِر عَلَى المَارْكِسِيينَ المُؤْمِنِين ؛ حَتَّى إِنَّهُ قَد يَصِحُّ القَوْلُ بِأَنَّ قَدْراً مِن هَذَا الفِكْرِ دَخَلَ فِى الثَّقَافَةِ المُعَاصِرَةِ بِوَجْهٍ عَام .

عَلَى أَنَّ الوَاقِعِيَّةَ الاشْتِرَاكِيَّةَ (أَو : الوَاقِعِيَّةُ الجَدِيدَةُ) كَانَت تُخْفِى تَحْتَ بَسَاطَتِهَا الظَّاهِرَةِ مُشْكِلاتٍ كَثِيرَةً صَعْبَةً ؛ وَعَلَى رَأْسِهَا مُشْكِلَةُ خُلُودِ الآثَارِ الأَدَبِيَّةِ العَظِيمَةِ الَّتِى أُنْتِجَت فِى عُصُورِ الإِقْطَاعِ أَو حَتَّى العُبُودِيَّةِ ؛ فَضْلاً عَن البُورْجُوَازِيَّةِ ؛ وَكَانَت مِثْلُ هَذِهِ المُشْكِلاتِ تُثَارُ فِى مُؤْتَمَرَاتِ الكُتَّابِ فِى الأَقْطَارِ الاشْتِرَاكِيَّةِ ؛ أَمَّا فِى العَالَمِ الغَرْبِيِّ : فَقَد كَانَ بَعْضُ النُّقَّادِ المَارْكِسِيينَ

يُحَاوِلُونَ أن يُوَسِّعُوا مَفْهُومَ (الوَاقِعِيَّة) بِحَيْثُ يَشْمَلُ (الحَدَاثَةَ) أَيْضاً ؛ وَأَمَّا العَالَمُ العَرَبِيُّ الَّذِى رَاجَت فِيهِ أفكَارُ الوُجُودِيَّةِ مُوَاكِبَةً لِلأَفكَارِ المَارِكِيسِيَّةِ : فَقَد أَفْرَزَ مَزِيجَهُ الخَاصُّ مِنَ الاثْنَين ؛ وَلَكِنَّ هَذَا المَزِيجَ ظَهَرَ فِى الإِبْدَاعِ الشِّعْرِىِّ بِوَجْهٍ خَاص ؛ فِى حِينِ بَقِيَت لُغَةُ النَّقْدِ أَمْيَلَ إِلَى البَسَاطَةِ النَّظَرِيَّةِ ؛ وَدَخَلَت فِى مَعَارِكَ جَانِبِيَّةٍ غَيْرِ مُثْمِرَةٍ مَعَ دَعْوَةِ (النَّقْدِ الجَدِيد) الَّتِى حَاوَلَت أن تُوَجِّهَ الاهْتِمَامَ إِلَى قِيمَةِ (الشَّكْلِ) فِى الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ .

وَمَعَ أَنَّ الفَرِيقَينِ ظَلُّوا يَتَحَدَّثُونَ عَن : (وُحْدَةُ الشَّكْلِ وَالمَضْمُون) ؛ وَارْتِبَاطِ الأَدَبِ بِالحَيَاةِ : فَإِنَّ هَاتَينِ القَضِيَّتَينِ - رُبَّمَا لِشِدَّةِ عُمُومِهِمَا - لَم تُضِيفَا شَيْئاً ذَا قِيمَةٍ إِلَى حَرَكَةِ النَّقْدِ أو إِلَى حَرَكَةِ الإِبْدَاعِ .

أَمَّا المَوْضُوعَاتُ الَّتِى بَرَزَت عَلَى سَاحَةِ النَّقْدِ - وَلَعَلَّهَا كَانَت أَقْوَى تَأْثِيراً فِى الإِبْدَاعِ ؛ وَإِن كَانَت قَد أَثَارَت لَدَى المُبْدِعِينَ أَيْضاً نَوْعاً مِنَ التَّمَرُّدِ ضِدَّ مُحَاوَلَةِ النَّقْدِ أن يَفْرِضَ عَلَيْهِم مَقَايِيسَهُ النَّظَرِيَّة - فَهِىَ تِلْكَ الأَقْرَبُ إِلَى الصُّورَةِ السَّاذِجَةِ لِلْوَاقِعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ ؛ مِثْلُ الدَّعْوَةِ إِلَى : (الأَدَبُ الهَادِفُ) أو بِعِبَارَةٍ أَكْثَرُ رِفْقاً : مُطَالَبَةُ العَمَلِ الأَدَبِىِّ بِأَن يَقُولَ شَيْئاً ؛ وَهَذَا الَّذِى يَقُولُهُ يَجِبُ - بِالطَّبْعِ - أن يَكُونَ مَضْمُوناً تَقَدُّمِيّاً ؛ وَمِثْلُ الهُجُومِ عَلَى الرُّومَانْسِيَّةِ المُتَهَافِتَةِ بِاسْمِ الوَاقِعِيَّةِ ؛ وَكَانَ لِهَذَا المَوْضُوعِ مَجَالُهُ الوَاسِعُ فِى نَقْدِ الرِّوَايَةِ وَالمَسْرَحِيَّةِ وَالقِصَّةِ القَصِيرَةِ ؛ وَهِىَ فُنُونٌ أَصْبَحَ لَهَا رَوَاجٌ كَبِيرٌ بِسَبَبِ زِيَادَةِ عَدَدِ القُرَّاءِ وَدَعْمِ الدَّوْلَةِ لِلْمَسْرَحِ .

مُنْذُ أَوَائِلِ الخَمْسِينِيَّاتِ : ظَهَرَ جِيلٌ جَدِيدٌ مِنَ النُّقَّادِ وَاكَبُوا عَهْدَ الثَّوْرَةِ ؛

وكَانَ انْتِمَاؤهُم الأَصْلِيُّ لِلْحَرَكَةِ المَارْكِيسِيَّةِ ؛ وَبَدَا لَهُم أَنَّهُم يَسْتَطِيعُونَ أَن يَدْخُلُوا فِى نَوْعٍ مِنَ الشَّرِكَةِ مَعَ العَهْدِ الجَدِيدِ ؛ يُمِدُّونَهُ بِالنَّظَرِيَّةِ الثَّوْرِيَّةِ الَّتِى كَانَ مُفْتَقِراً إِلَيْهَا ؛ وَيَسْتَمِدُّونَ مِنْهُ قَدْراً مِنَ السُّلْطَةِ يَأْمَلُونَ مِن خِلالِهِ أَن يَتَمَكَّنُوا مِن تَحْوِيلِ المُجْتَمَعِ نَحْوَ الاشْتِرَاكِيَّةِ ؛ وكَانَت السُّلْطَةُ السِّيَاسِيَّةُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلتَّعَاوُنِ مَعَ جَمِيعِ القُوَى لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا القَرِيبَةِ - وكَانَت أَهْدَافُهَا دَائِماً قَرِيبَة - ؛ وَلِذَلِكَ كَانَت تَتَغَيَّرُ أَحْيَاناً تَبَعاً لِتَغَيُّرِ مَوَازِينِ القُوَى فِى المَنْطِقَةِ العَرَبِيَّةِ وَفِى العَالَمِ ؛ وَإِن كَانَت الفِكْرَةُ الغَالِبَةُ عَلَيْهَا : هِىَ الفِكْرَةُ القَوْمِيَّةُ المُعَادِيَةُ لِهَيْمَنَةِ الغَرْبِ .

إِنَّ فَتْرَةَ الخَمْسِينِيَّاتِ وَالسِّتِّينِيَّاتِ - الَّتِى تَمَيَّزَت عَالَمِيّاً : بِاشْتِدَادِ الحَرْبِ البَارِدَةِ بَينَ المُعَسْكَرَيْنِ الغَرْبِيِّ وَالشَّرْقِيِّ ؛ كَمَا تَمَيَّزَت إِقْلِيمِيّاً : بِكَثْرَةِ الانْقِلابَاتِ فِى تِلْكَ الأَقْطَارِ بِالذَّاتِ الَّتِى كَانَت أَكْثَرَ تَقَدُّماً مِنَ النَّوَاحِى الاقْتِصَادِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ - ؛ هَذِهِ الفَتْرَةُ المُضْطَرِبَةُ : تَرَكَت آثَارَهَا العَمِيقَةَ فِى الأَدَبِ ؛ فَغَلَبَت عَلَيْهِ فِى أَوَاسِطِ الخَمْسِينِيَّاتِ وَاقِعِيَّةٌ سَاذِجَةٌ مُتَفَائِلَةٌ تَتَغَنَّى بِالسَّلامِ وَتُمَجِّدُ الانْتِصَارَاتِ القَوْمِيَّةَ ؛ وَتَسْتَمِدُّ مَوْضُوعَاتِهَا مِن حَيَاةِ النَّاسِ البُسَطَاءِ ؛ وَلَم يَكُن هَذَا الاتِّجَاهُ مَقْصُوراً عَلَى النَّثْرِ دُونَ الشِّعْرِ ؛ وَلا عَلَى الأَقْطَارِ الَّتِى حَكَمَتْهَا نُظُمٌ (ثَوْرِيَّةٌ) دُونَ تِلْكَ الَّتِى وَقَفَت حُكُومَاتُهَا ضِدَّ مُحَاوَلاتِ التَّغْيِيرِ ؛ فَقَد كَانَت تِلْكَ الفَتْرَةُ مِنَ الفَتَرَاتِ القَلِيلَةِ الَّتِى عَرِفَ فِيهَا العَالَمُ العَرَبِيُّ نَوْعاً مِن وُحْدَةِ الشُّعُورِ ؛ تَخَيَّلَ الكَثِيرُونَ فِيهَا أَنَّ الوُحْدَةَ السِّيَاسِيَّةَ أَصْبَحَت قَرِيبَةَ المَنَالِ ؛ فِى هَذِهِ الفَتْرَةِ بِالذَّاتِ كَانَ الجَوُّ

مُنَاسِباً لِلْوَاقِعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ كَى تَحْتَلَّ مَكَانَ الصَّدَارَةِ فِى النَّقْدِ الأَدَبِيِّ ؛ وَكَانَ فِى اسْتِطَاعَةِ نَاقِدٍ شَابٍّ أَن يُمْلِى عَلَى الكُتَّابِ الْمُبْدِعِينَ هَذِهِ الوَصَايَا الزدانوفية :

« فَمِن وَاجِبِ الأَدِيبِ الوَاقِعِيِّ : أَن يَكُونَ ذَا نَظْرَةٍ مُتَكَامِلَةٍ إِلَى العَالَمِ الَّذِى يَحْيَا فِى دَاخِلِهِ ؛ نَظْرَةٍ تُعَبِّرُ عَن فَهْمٍ مُتَرَابِطٍ لِهَذَا الكَوْنِ وَأَطْوَارِهِ ؛ وَبِشَكْلٍ خَاصٍّ يَنْبَغِى أَن يَتَّضِحَ هَذَا جَلِيّاً فِى فَهْمِهِ لِمُجْتَمَعِهِ الخَاصِّ وَتَجَاوُبِهِ مَعَهُ .

فَالأَدِيبُ فِى مِصْرَ ـ مَثَلاً ـ لا يَكْفِى أَن يَقْتَصِرَ فَهْمُهُ عَلَى القَرْيَةِ مَثَلاً ؛ إِذَا كَانَ قَد نَشَأَ فِى القَرْيَةِ ؛ أَو عَلَى الحَيَاةِ فِى القَاهِرَةِ إِذَا كَانَ أَدِيباً قَاهِرِيّاً ؛ وَإِنَّمَا الوَاجِبُ أَن يَكُونَ ذَا فَهْمٍ مُلِمٍّ مُتَكَامِلٍ لِلْمُجْتَمَعِ المِصْرِىِّ كَوَحْدَةٍ ؛ وَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنَ القُوَى المُخْتَلِفَةِ الَّتِى تَتَصَارَعُ فِى أَحْشَائِهِ . » .

لا شَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الرَّأْىِ كَانَ يَنِمُّ عَن تَبْسِيطٍ مُسْرِفٍ لِلْوَاقِعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ ؛ فَإِلْزَامُ القَصَّاصِ أَو الشَّاعِرِ أَن يَتَسَلَّحَ بِوَعْىٍ اجْتِمَاعِىٍّ شَامِلٍ حَتَّى يَكُونَ قَادِراً عَلَى الكِتَابَةِ الجَيِّدَةِ : شَرْطٌ يَتَجَاهَلُ اخْتِلافَ مَنَابِعِ الإِبْدَاعِ ؛ وَاخْتِلافَ الخِبْرَاتِ بَينَ كَاتِبٍ وكَاتِبٍ .

وَرُبَّمَا تَسَاءَلَ قَارِىءُ هَذَا النَّصِّ النَّقْدِىِّ :

تُرَى : هَل كَانَ « نجيب محفوظ » ـ مَثَلاً ـ يَعْرِفُ الشَّىْءَ الكَثِيرَ عَن الحَيَاةِ فِى القَرْيَةِ ؟ ؛ وَهَل كَانَ وَهُوَ يَحْصُرُ نَفْسَهُ دَاخِلَ حُدُودِ قَاهِرَتِهِ ـ الَّتِى لَم تُجَاوِزْ تَقْدِيراً : عَشَرَةَ كِيلُو مِتْرَاتٍ مُرَبَّعَةٍ ـ مَعَ إِلْمَامَاتٍ ـ كَالْمَامَاتِ

المُصيِّفِينَ - بِالعَاصِمَةِ الثَّانِيَةِ ؛ مَانِعَةٍ لَهُ مِن أن يُبصِرَ - بِوُضُوحٍ شَدِيدٍ - التَّغيُّرَاتِ العَمِيقَةَ الَّتِى كَانَ [يَمُرُّ] بِهَا المُجتَمَعُ المِصرِىُّ كَكُلٍّ ؟ .

- وَسُؤالٌ آخَرُ:

تُرَى : لَو استَمَعَ نَجِيب لِنَصِيحَةِ النَّاقِدِ الشَّابِّ : مَاذَا كَانَ يَكُونُ مِن أمرِهِ ؟ .

بِالطَّبعِ لَم يَكُن يُخشَى عَلَى نَجِيب مَحفُوظ ؛ وَلا كُلُّ الجِيلِ الَّذِى نَضِجَ فِكرُهُ وَأُسلُوبُهُ قَبلَ سُطُوعِ نَجمِ الوَاقِعِيَّةِ الاشتِرَاكِيَّةِ مِن مِثلِ هَذِهِ النَّصَائِحِ : فَهَذَا الجِيلُ لَم يَكُن يَستَقبِلُ الوَاقِعِيَّةَ لأوَّلِ مَرَّةٍ وَلا الاشتِرَاكِيَّةَ لأوَّلِ مَرَّةٍ ؛ وَلَم يَكُن شِعَارُ: « الأدَبُ لِلحَيَاة » غَرِيباً عَلَيهِ أيضاً .

لَقَد بَشَّرَ سَلامَة مُوسَى بِهَذِهِ الثَّلاثَةِ طُولَ عُمرِهِ ؛ وَكَانَت « المَجَلَّةُ الجَدِيدَةُ » فِى الثَّلاثِينِيَّاتِ مِنبَراً لِلفِكرِ « التَّقَدُّمِىِّ » الَّذِى تَجَاوَزَ دَعَوَاتِ التَّجدِيدِ حِينَ جَمُدَت هَذِهِ عِندَ مَوضُوعَاتٍ مُعَيَّنَةٍ وَأشكَالٍ مُعَيَّنَةٍ ؛ وَفِى العَالَمِ العَرَبِىِّ كُلِّهِ كَانَ ثَمَّةَ شُعُورٌ لَدَى شُبَّانِ تِلكَ الأيَّامِ بِأنَّ لِلأدَبِ « رِسَالَةً » نَحوَ مُجتَمَعِهِ الَّذِى تَفتِكُ بِهِ الأمرَاضُ جِسماً وَرُوحاً .

وَقَد أرَادَ يَحيَى حَقِّى (١٩٠٥ - ١٩٩٢) أن يَشعُرَ الجِيلُ الجَدِيدُ مِنَ النُّقَّادِ الَّذِينَ تَبَنَّوا الوَاقِعِيَّةَ الاشتِرَاكِيَّةَ : أنَّ لَهُم تُرَاثاً فِى النَّقدِ الأدَبِىِّ الاجتِمَاعِىِّ : نَابِعاً مِن بِيئَتِهِم ؛ وَمُرتَبِطاً بِأعمَالٍ أدَبِيَّةٍ أبدَعَهَا الجِيلُ السَّابِقُ ؛ فَضَمَّنَ كِتَابَهُ « خُطُوَاتٌ فِى النَّقدِ » مَقَالاً كَانَ قَد نَشَرَهُ فِى سَنَةِ ١٩٣٤ فِى مَجَلَّةِ « الحَدِيث » الحَلَبِيَّة ؛ وَعُنوَانُهُ : « تَوفِيقُ الحَكِيم : بَينَ الخَشيَةِ وَالرَّجَاء » ؛ وَقَد أدَارَهُ حَولَ

مَسْرَحِيَّةِ: « أَهْلُ الكَهْف » وَرِوَايَةِ: « عَوْدَةُ الرُّوح » ؛ وَفِيهِ يَقُول:

« هَل لِنَزَعَاتِ التَّصَوُّفِ مَحِلٌّ فِى مِصْر ؟ ؛ إِنَّهَا فِى مَيْدَانِ قِتَالٍ مَادِىٍّ يَسْتَلْزِمُ مِنْهَا أَقْصَى الجِهَاد !! ؛ وَسِلاحُهَا فِيهِ اعْتِدَادٌ بِالنَّفْسِ وَتَسَامٍ بِهَا ؛ وَالشُّعُورُ بِقِيمَةِ هَذَا الشَّعْبِ المَظْلُومِ المَرْدُومِ فِى الطِّينِ !! .

قَد يَكُونُ التَّصَوُّفُ مَفْهُومًا فِى إِنْجِلْتِرَا وَبِلْجِيكَا وَفَرَنْسَا ؛ فَمِن وَرَائِهِ جُيُوشٌ وَأَسَاطِيلُ تَحْمِى الكَرَامَةَ ؛ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ فِى مِصْرَ وَهِىَ عَلَى مَا هِىَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّعْفِ؟!! . » .

وَمَعَ أَنَّ كِتَاب « فِى المِيزَانِ الجَدِيد » يُمَثِّلُ المَرْحَلَةَ الجَمَالِيَّةَ فِى مَسِيرَةِ « مَنْدُور » : النَّاقِد ؛ فَإِنَّهُ ـ حَتَّى فِى هَذِهِ المَرْحَلَةِ ـ لَم يَكُن يَنْظُرُ إِلَى « الجَمَال » أَو « الذَّوْق » كَغَرَضٍ فِى ذَاتِهِ ؛ بَل كَسَبِيلٍ لِتَجْدِيدِ الحَيَاةِ وَتَغْيِيرِ الوَاقِعِ ؛ فَهُوَ يَقُولُ فِى مُنَاقَشَتِهِ لِكِتَابِ « زَهْرَةُ العُمْر » لِتَوْفِيقِ الحَكِيم:

« وَنَحْنُ فِى عَصْرِنَا الحَاضِرِ لَن نَسْتَطِيعَ أَن نُجَارِى التَّفْكِيرَ الأُورُبِّىَّ ؛ أَو أَن نُضِيفَ إِلَيْهِ إِضَافَاتٍ حَقِيقِيَّةٍ : إِذَا اكْتَفَيْنَا بِنَقْلِ هَذَا التَّفْكِيرِ ؛ وَذَلِكَ لأَنَّ الفِكْرَةَ الَّتِى تُبْنَى عَلَى فِكْرَةٍ أُخْرَى : لا تَلْبَثُ أَن تَنْحَلَّ مُتَعَثِّرَةً فِى فُتَاتِ المَنْطِقِ ؛ وَإِنَّمَا التَّفْكِيرُ الخَصْبُ هُوَ الَّذِى نَسْتَمِدُّهُ مِنَ الحَيَاةِ وَنَبْنِيهِ عَلَى الوَاقِعِ ؛ وَعَلَى هَذَا لا يَكُونُ لَنَا بُدٌّ إِذَا أَرَدْنَا أَن نُجَدِّدَ حَيَاتَنَا الرُّوحِيَّةَ مِن أَن نُغَيِّرَ مِن مُقَوِّمَاتِ تِلْكَ الحَيَاةِ وَاتِّجَاهَاتِهَا وَقِيَمِهَا ؛ وَهَذَا لَن يَكُونَ إِلاَّ إِذَا تَغَذَّيْنَا بِالآدَابِ وَالفُنُونِ الأُورُوبِيَّةِ مِن تَصْوِيرٍ وَنَحْتٍ وَمُوسِيقَى . » .

وَفِى مَقَالَيْنِ قَرِيبَيْنِ مِنَ العَهْدِ الَّذِى كُتِبَت فِيهِ مَقَالاتُ « المِيزَانُ الجَدِيد »

(١٩٣٩ ـ ١٩٤٤) تَحَدَّثَ مَنْدُور عَن : (العُمَّالِيَّةُ الفِكْرِيَّةُ) ؛ أى : مَكَانُ أَهْلِ الفِكْرِ ـ وَقَد تَعَوَّدْنَا بَعْدَ ذَلِكَ أن نُسَمِّيهِم المُثَقَّفِين ـ فِى المُجْتَمَعِ الحَدِيثِ بِاعْتِبَارِهِم : طَبَقَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ جَدِيدَةٌ ؛ تَلْحَقُ بِطَبَقَةِ العُمَّالِ « بِمَا لَهُم مِن حُقُوقٍ وَمَطَالِبَ وَمُشْكِلاتٍ » ؛ ثُمَّ عَن : (التَّوَازُنُ الاجْتِمَاعِيُّ) ؛ وَهِيَ أَشْبَهُ بِتَتِمَّةٍ لِلْمَقَالَةِ السَّابِقَةِ ؛ فَقَد تَتَبَّعَ فِيهَا تَطَوُّرَ الوَضْعِ الاجْتِمَاعِيِّ لِلْعَمَلِ عَلَى مَدَى التَّارِيخِ ؛ مِنَ النِّظَامِ العُبُودِيِّ ؛ إِلَى الإِقْطَاعِيِّ ؛ إِلَى الرَّأْسِمَالِيِّ .

فِى هَاتَيْنِ المَقَالَتَيْنِ : عَرَّفَ مَنْدُور تَعْرِيفاً بَالِغَ الوُضُوحِ بِمَفْهُومِ « العَمَل » ؛ بِاعْتِبَارِهِ : الخَالِقُ الوَحِيدُ لِلْقِيمَةِ ؛ وَدَوْرِ « المُفَكِّرِين » فِى التَّنْبِيهِ إِلَى هَذِهِ الحَقِيقَةِ ؛ وَلَكِن هَؤُلاءِ المُفَكِّرِينَ : (نَفَرٌ مِنَ الخَاصَّةِ ؛ وَالأَمْرُ لَم يَكُن يَوْماً بِيَدِهِم لِيَسْتَطِيعُوا تَحْقِيقَ نَظَرِهِم عَمَلاً ؛ فَهُم طَلائِعُ البَشَرِ ؛ وَلَكِنَّهُم لَيْسُوا قَادَتَهُ الفِعْلِيِّين .) .

وَعَلَى خِلافِ النَّظَرِيَّةِ المَارْكِيسِيَّةِ الَّتِى تُرْجِعُ النِّظَامَ الطَّبَقِيَّ فِى جَمِيعِ العُصُورِ إِلَى عَلاقَاتِ الإِنْتَاجِ ـ وَإِن لَم يَكُن مُنَاقِضاً لَهُ ـ : يُعَدِّدُ مَنْدُور :
(الأُسُسَ الَّتِى كَانَت تُمَكِّنُ مِنَ الوَجَاهَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ؛ فَهِيَ : الحِكْمَةُ ؛ وَالشَّجَاعَةُ ؛ وَوِرَاثَةُ الدَّمِ ؛ وَالزَّعَامَةُ الرُّوحِيَّة) .

إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ الأُسُسَ كُلَّهَا : تَزُولُ بِقِيَامِ الثَّوْرَةِ البُورْجُوَازِيَّةِ وَاسْتِتْبَابِ النِّظَامِ الرَّأْسِمَالِيِّ : حَيْثُ يُصْبِحُ المَالُ هُوَ الأَسَاسُ الوَحِيدُ لِلتَّقْسِيمِ الاجْتِمَاعِيِّ ؛ وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ ؛ وَأَهَمُّ مَظَاهِرِهِ : الانْحِلالُ الخُلُقِيُّ .

وَلا سَبِيلَ لِدَرْءِ هَذَا الخَطَرِ كَمَا يَرَى مَنْدُور إِلاَّ بِالاقْتِصَادِ المُوَجَّه .

يَبْدُو مَنْدُور فِي هَاتَيْنِ المَقَالَتَيْنِ : مُفَكِّرًا أَخْلاقِيًّا مِثَالِيًّا فِي صَمِيمِ عَقْلِهِ وَوُجْدَانِهِ ؛ فَإِدَانَتُهُ لِلنِّظَامِ الرَّأْسِمَالِيِّ هِيَ إِدَانَةٌ أَخْلاقِيَّةٌ تَسْتَنِدُ إِلَى مِثَالِيَّاتٍ أَخْلاقِيَّةٍ ؛ وَلا تَسْتَنِدُ إِلَى حَتْمِيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ كَالَّتِي يَقُولُ بِهَا المَارْكِسِيُّون .

وَتَبْدُو نَزْعَتُهُ المِثَالِيَّةُ بِوُضُوحٍ أَكْبَرَ فِي مَقَالَتِهِ التَّالِيَةِ (مُكَافَحَةُ الشَّكْلِيَّةِ) حَيْثُ يَرْوِي قِصَّةَ لِقَائِهِ - فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ بِبَارِيس - مَعَ رَجُلٍ فَرَنْسِيٍّ يَصِفُهُ بِقَوْلِهِ : إِنَّهُ (جَاوَزَ الخَمْسِين ؛ يَعْمَلُ وَكِيلاً لِلْمُحَافَظَةِ ؛ وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهُ يَنْحَدِرُ مِن أُسْرَةٍ مِنَ الأُسَرِ المُحَافِظَةِ ؛ وَكَانَ رَجُلاً جَافًّا فِي جِسْمِهِ وَرُوحِهِ ؛ أَنِيقًا فِي لَفْظِهِ وَمَلْبَسِهِ ؛ وَلَقَد عَلِمْتُ أَنَّهُ ابْتَلَى الحَيَاةَ وَابْتَلَتْهُ بِهُمُومِهَا الثِّقَالِ ؛ فَتَحَمَّلَهَا فِي بُطُولَةٍ ؛ وَلَقَد خَرَجَ مِن نَشْأَتِهِ وَمُلابَسَاتِ حَيَاتِهِ : بِفَلْسَفَةٍ قَوِيَّةٍ ؛ تَقُومُ عَلَى مَبَادِئِ الخُلُقِ الصَّارِمَةِ ؛ كَمَا تَقُومُ عَلَى الاعْتِدَادِ بِكَرَامَةِ الإِنْسَانِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى تَوْجِيهِ الحَيَاةِ وَإِخْضَاعِهَا لإِرَادَتِهِ .) .

وَيَشْتَبِكُ مَنْدُور مَعَ هَذَا الشَّيْخِ الجَلِيلِ فِي حِوَارٍ ؛ فَقَد كَانَ عَقْلُهُ مُمْتَلِئًا بِمَا سَمِعَهُ مِن أَسَاتِذَةِ الاجْتِمَاعِ فِي السُّرْبُون : مِن أَنَّ مَبَادِئَ الأَخْلاقِ لَيْسَت إِلاَّ ظَوَاهِرَ اجْتِمَاعِيَّةً تُمْلَى عَلَى الأَفْرَادِ دُونَ أَن يَكُونَ لَهُم دَخْلٌ فِي بِنَائِهَا ؛ أَو فَضْلٌ فِي الإِيمَانِ بِهَا ؛ وَإِنَّ إِرَادَةَ الإِنْسَانِ الحُرَّةِ لَيْسَت إِلاَّ وَهْمًا ؛ لأَنَّ الفَرْدَ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مُسَيَّرٌ بِغَرَائِزَ وَقُوًى دَفِينَةٍ .

فَمَا يَكَادُ الرَّجُلُ يَسْمَعُ مِنْهُ ذَلِكَ حَتَّى يَنْفَجِرَ غَاضِبًا !! ؛ وَيَسْأَلُهُ : أَتَظُنُّ أَنَّ حَقَائِقَنَا البَشَرِيَّةَ مِنَ اليُسْرِ ؛ بِحَيْثُ تُصَاغُ نَظَرِيَّات ؛ أَو يَكْشِفُ عَنْهَا التَّفْكِيرُ المُجَرَّدُ ؟!! ؛ وَهَب أَنَّ هَذَا الهُرَاءَ حَقٌّ ؛ فَأَيُّ فَائِدَةٍ سَتَجْنِي مِنْهُ الإِنْسَانِيَّةُ ؟!!.

يَرْوِى مَنْدُور ذَلِكَ الحَدِيث - وَهُوَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ - لِيَتَوَجَّهَ بِهِ إِلَى كَاتِبٍ شَابٍّ نَشَرَ مَقَالاً « حَوْلَ مُكَافَحَةِ الأُمِيَّةِ فِى ضَوْءِ عِلْمِ الاجْتِمَاع » ؛ وَزَعَمَ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الحَمْلَةَ لَن تَنْجَحَ إِلاَّ بَعْدَ أَن تَنْتَشِرَ الصِّنَاعَةُ فِى مِصْرَ وَيَتَغَيَّرَ « العَقْلُ الجَمَاعِىُّ » تَبَعاً لِذَلِك .

ثُمَّ يُلْقِى عَلَى ذَلِكَ الشَّابِّ دَرْساً كَالَّذِى سَمِعَهُ مِن الشَّيْخِ الفَرَنْسِىِّ : « لا يَا بُنَىَّ !! ؛ لَيْسَ هُنَاكَ عَقْلٌ جَمَاعِىٌّ كَمَا زَعَمْتَ أَو زَعَمَ لَكَ دُرْكَايم !! ؛ وَإِنَّمَا هُنَاكَ عَقْلٌ فَرْدِىٌّ ؛ هُنَاكَ إِرَادَةٌ حُرَّةٌ ؛ إِرَادَةٌ يَجِبُ أَن تَسْتَيْقِظَ فِى قُلُوبِ أَمْثَالِكَ فَتَهْدِمَ الصَّخْرَ !! . » .

وَيُمَثِّلُ لِهَذِهِ الإِرَادَةِ الحُرَّةِ : بِالتَّغَيُّرِ الهَائِلِ الَّذِى اسْتَطَاعَ « مُصْطَفَى كَمَال » و « سِتَالِين » أَن يُحْدِثَاهُ فِى بَلَدَيْهِمَا !!.

كَانَ مَنْدُور يَقُولُ عَن نَفْسِهِ إِنَّهُ « سَان سِيمُونِى » ؛ و « الكُونْت دِى سَان سِيمُون » : مُفَكِّرٌ فَرَنْسِىٌّ عَاصَرَ الثَّوْرَةَ الفَرَنْسِيَّةَ ؛ وَاشْتَرَكَ فِى حَرْبِ الاسْتِقْلالِ الأَمْرِيكِيَّةِ ؛ وَاشْتَهَرَ بِنَظَرِيَّتِهِ التَّطَوُّرِيَّةِ الَّتِى مَزَجَت الاشْتِرَاكِيَّةَ بِالدِّين ؛ وَيَعُدُّهُ المَارْكِسِيُّونَ بَيْنَ الاشْتِرَاكِيِينَ الخَيَالِيِينَ أَو الطُّوبَوِيين .

لَم يَكُن مَنْدُور مَارْكِسِيّاً إِذن ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ اشْتِرَاكِيّاً مِثَالِيّاً ؛ وَكَانَ فِى أَعْمَاقِ وُجْدَانِهِ مِصْرِيّاً مُحَافِظاً ؛ وَكَذَلِكَ كَانَ فِى نَقْدِهِ : كِلاسِيكِيّاً مُؤْمِناً بِالقَوَاعِدِ ؛ مُتَمَسِّكاً بِالعَقْلِ وَ « مُشَاكَلَةِ الوَاقِع » - كَمَا يَفْهَمُهَا الكِلاسِيُّون ؛ لا كَمَا يَفْهَمُهَا الوَاقِعِيُّون - .

وَقَد عَايَشَ الوَاقِعِيَّةَ الاشْتِرَاكِيَّةَ مُنْذُ بِدَايَةِ ظُهُورِ المَارْكِسِيَّةِ فِى مِصْرَ عَلَى

إِثْرِ الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ حَتَى وَفَاتِهِ سَنَةَ ١٩٦٥ ؛ وَقَبِلَهُ المَارْكِسِيُّونَ عَلَى مَضَضٍ كَمَا قَبِلُوا صَاحِبَهُ لِوِيس عَوَض : الَّذِى تُوفِّىَ بَعْدَهُ بِخَمْسِ عَشْرَةَ سَنَة .

وَلَم يَكُن هَذَا المِزَاجُ الكِلاسِيكِىُّ العَقْلانِىُّ الاشْتِرَاكِىُّ الشَّعْبِىُّ المِثَالِىُّ ؛ - رَغْمَ صِفَاتِهِ المَنْدُورِيَّةِ ((الخَالِصَةِ)) - شَيْئاً انْفَرَدَ بِهِ مَنْدُور دُونَ مُفَكِّرِى جِيلِهِ ؛ لَقَد شَهِدَت السَّنَوَاتُ السَّبْعُ الَّتِى سَبَقَت ثَوْرَةَ ٢٣ يُولْيَه : صِرَاعَاً مُتَزَايِداً بَينَ جَمَاعَةِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِين وَالشُّيُوعِيين ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الصِّرَاعَ - فِى مَجَالِ الحَرَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ الوَطَنِيَّةِ - كَانَ تَعْبِيراً عَن نَوْعٍ مِنَ الاسْتِقْطَابِ فِى مُنَاخٍ فِكْرِىٍّ وَاحِدٍ ؛ حَاوَلَ المُفَكِّرُونَ الطَّلِيعِيُّونَ - الَّذِينَ مَالُوا نَحْوَ هَذَا الطَّرَفِ أَو ذَاك - أَن يَتَجَاوَزُوهُ بِشَتَّى الحُلُولِ التَّوْفِيقِيَّةِ الَّتِى لَم يَسْتَطِع وَاحِدٌ مِنْهُمَا أَن يَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ التَّبَلْوُرِ الوَاضِحِ أَو المَذْهَبِ الفَلْسَفِىِّ المُتَكَامِلِ .

وَكَانَ مِن مَظَاهِرِ هَذَا الالْتِبَاسِ : أَنَّ بَعْضَ الشُّبَّانِ الَّذِينَ بَرَزُوا فِيمَا بَعْدُ فِى مَجَالاتٍ ثَقَافِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ - أُدَبَاءَ ؛ أَو مُؤَرِّخِين ؛ أَو كُتَّاباً سِيَاسِيين - : حَوَّلُوا انْتِمَاءَهُم مِن أَحَدِ الجَانِبَيْنِ إِلَى الآخَر ؛ فَلَم يَكُن الفَرْقُ بَيْنَهُمَا عَلَى المُسْتَوَى الفِكْرِىِّ بَعِيداً ؛ فَفِى الوَقْتِ الَّذِى كَانَ مَنْدُور يَنْشُرُ فِيهِ مَقَالاتَهُ السِّيَاسِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِى تَنْحُو نَحْوَ الإِصْلاحِ الجَذْرِىِّ - كَانَ « سَيِّد قُطْب » يَكْتُبُ : « العَدَالَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ فِى الإِسْلام » ؛ وَ« عَبْدُ الحَمِيد جُودَة السَّحَّار » يَكْتُبُ عَن أَبِى ذَرٍّ الغِفَارِىِّ ؛ وَكَانَت هُنَاكَ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَينَ الفَرِيقَين .

كَانَ الاتِّجَاهُ نَحْوَ أُورُبَّا عِنْدَ مَنْدُور لا يُنَاقِضُ اسْتِلْهَامَ عَصْرِ صَدْرِ الإِسْلام ؛ وكَانَ الـرُّجُوعُ إِلَى الصَّدْرِ الأَوَّلِ عِنْدَ الآخَرِينَ لا يُنَافِى الإِصْلاحَ الجَذْرِىَّ ؛ وَسَيَظَلُّ الاتِّجَاهُ التَّوْفِيقِىُّ مَلْحُوظاً عِنْدَ (عَبْدِ الرَّحْمَنِ الشَّرْقَاوِىِّ) مَثَلاً ؛ أَمَّا نَجِيب مَحْفُوظ ؛ الَّذِى تُقَدِّمُ مَجْمُوعَةُ أَعْمَالِهِ أَكْمَلَ شَهَادَةٍ عَلَى العَصْرِ مِن هَذَا الجِيلِ : فَلا يَزَالُ حَتَّى اليَوْمَ يَتَنَازَعُهُ الاشْتِرَاكِيُّونَ الدِّيمُقْرَاطِيُّونَ وَالإِسْلامِيُّون ؛ أَو لَعَلَّ الأَصَحَّ : أَنَّ كِلا الفَرِيقَيْنِ يَجِدُ نَفْسَهُ فِى أَدَبِهِ ـ ذَاعَت كَلِمَةُ لِوِيس عَوَض عَنْهُ : إِنَّ اليَمِينَ وَاليَسَارَ وَالوَسَطَ أَجْمَعُوا عَلَى قَبُولِهِ ـ .

وَإِذَا كَانَ الفَنُّ قَد استَطَاعَ ـ كَعَادَتِهِ ـ : أَن يَجْمَعَ هَذِهِ الأَطْرَافَ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ ؛ فَقَد يَكُونُ هَذَا دَلِيلاً عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ حَقِيقَةً جَوْهَرِيَّةً وَاحِدَةً قَد يَعْجَزُ الفِكْرُ الصَّرِيحُ عَنِ الإِمْسَاكِ بِهَا ؛ وَقَد يَتَصَارَعُ النَّاسُ حَوْلَهَا ؛ وَلَكِن يَبْقَى فِى أَعْمَاقِ النُّفُوسِ شُعُورٌ مُبْهَمٌ بِأَنَّ هُنَاكَ قُوَّةً مُوَحِّدَةً .

كَانَت السُّلْطَةُ السِّيَاسِيَّةُ تُشَجِّعُ التَّوْفِيقَ ـ بَل تَكَادُ تَفْرِضُهُ ـ ؛ أَو لَعَلَّ الأَصَحَّ أَن يُقَال : إِنَّهَا لَم تَكُن تَسْمَحُ بِأَىِّ صِرَاعٍ مَذْهَبِىٍّ ؛ حَتَّى لَو كَانَ مَجَالُهُ الأَدَب ؛ فَقَد كَانَت تُرِيدُ الوَحْدَةَ دَائِماً ؛ وَلَم يَكُن حَقُّ الاخْتِلافِ مَكْفُولاً حَتَّى للأَنْصَار ؛ كَانَت القَرَارَتُ تُؤْخَذُ عَادَةً بِالإِجْمَاعِ ؛ وكَانَ عَلَى اليَمِينِ وَاليَسَارِ أَن يَسِيرَا تَحْتَ عَلَمٍ وَاحِدٍ ؛ حَتَّى وَلَو تَبَادَلا الطَّعَنَاتِ خِلْسَةً مِنَ القَائِدِ ـ وَأَحْيَاناً بِرِضَىً خَفِىٍّ مِنْهُ ـ .

وَكَانَ لِهَذَا الاتِّجَاهِ العَامِ تَأْثِيرُهُ المُبَاشِرُ عَلَى الحَرَكَةِ الأَدَبِيَّةِ ؛ وَرَغْمَ مَا قَد يَبْدُو فِى ذَلِكَ مِن غَرَابَةٍ ؛ فَقَد كَانَت وَسَائِلُ النَّشْرِ جَمِيعُهَا فِعْلِيّاً فِى يَدِ

الدَّوْلَةِ ؛ حَتَّى قَبْلَ أَن تَؤُولَ إِلَيْهَا رَسْمِيّاً بِقَرَارَاتِ التَّأْمِيمِ ؛ كَانَت الإِذَاعَةُ وَالتِّلِفِزْيُون ـ الَّذِى أُدْخِلَ سَنَةَ ١٩٦١ ـ مَمْلُوكَيْنِ لِلدَّوْلَةِ ؛ وَكَانَت فِى مِصْرَ ـ بَعْدَ احْتِجَابِ « الوَفْدِ المِصْرِيّ » وَوَقْفِ صُدُورِ « المِصْرِيّ » وَمُلاحَقَةِ أَصْحَابِهِ : وَهُمَا جَرِيدَتَانِ وَفْدِيَّتَانِ ـ ثَلاثُ صُحُفٍ يَوْمِيَّةٍ « مُسْتَقِلَّةٍ » كَبِيرَةٍ :

ـ « الجُمْهُورِيَّة » : الَّتِى كَانَ صَاحِبُ امْتِيَازِهَا « جَمَال عَبْدِ النَّاصِرِ » نَفْسُهُ

ـ وَ « الأَخْبَار » : الَّتِى كَانَ صَاحِبَاهَا مُصْطَفَى أَمِين وَعَلِى أَمِين حَرِيصِينِ عَلَى اسْتِمْرَارِ عَلاقَتِهِمَا الحَسَنَةِ بِالسُّلْطَةِ ؛ كَمَا كَانَ أَكْبَرُ مُحَرِّرِيهَا ـ مُحَمَّد حَسنِين هَيْكَل ـ هُوَ الصَّحَفِيُّ المُقَرَّبُ مِن عَبْدِ النَّاصِرِ .

ـ أَمَّا الثَّالِثَةُ « المَسَاء » : فَقَد كَانَ يَرْأَسُ تَحْرِيرَهَا أَحَدُ أَعْضَاء « مَجْلِسِ قِيَادَةِ الثَّوْرَة » ؛ وَهُوَ : (خَالِد مُحْيِى الدِّين) ؛ وَكَانَ خَالِد مَارْكِيسِيّاً ؛ وَقَد اسْتَطَاعَ أَن يَجْمَعَ حَوْلَهُ فِى « المَسَاء » بَعْضَ أَقْطَابِ المَارْكِيسِيين .

وَقَد أُضِيفَت إِلَى هَذِهِ الصُّحُفِ الأَرْبَعَةِ خَامِسَةٌ ؛ وَهِىَ : « الشَّعْب » ـ الَّتِى حَلَّت مَحِلَّ « المِصْرِيّ » بَعْدَ أَن وُضِعَت مُنْشَآتُهَا تَحْتَ الحِرَاسَةِ ـ ؛ وَكَانَت تَنْزِعُ هِىَ الأُخْرَى مَنْزَعاً يَسَارِيّاً ؛ وَكَانَ مِن أَوَائِلِ كُتَّابِهَا : (مُحَمَّد مَنْدُور) و (أَحْمَد عَبَّاس صَالِح) : وَهُوَ يَسَارِيٌّ مَعْرُوف ؛ وَقَد انْتَقَلَ كِلاهُمَا فِيمَا بَعْد : إِلَى جَرِيدَةِ (الجُمْهُورِيَّة) ؛ كَمَا تَوَلَّى ثَانِيهِمَا : رِئَاسَةَ تَحْرِيرِ مَجَلَّةِ (الكَاتِب) الشَّهْرِيَّة ؛ الَّتِى كَانَت ذَاتُ مُيُولٍ مَارْكِيسِيَّةٍ وَاضِحَةٍ ؛ مِثْلُهَا مِثْلُ (الطَّلِيعَة) : الَّتِى أَصْدَرَتْهَا الأَهْرَامُ شَهْرِيَّةً فِى السِّتِّينِيَّات ؛ وَأَسْنَدَت رِئَاسَةَ

تَحْرِيرِهَا إِلَى يَسَارِيٍّ مَعْرُوفٍ آخَر؛ وَهُوَ: لُطْفِي الخُولِي.

وَإِلَى جَانِبِ هَذَا الدَّوْرِ الصَّحَفِيِّ: أَصْبَحَت الدَّوْلَةُ مَالِكَةً لأَكْبَرِ دَارَيْنِ لِلنَّشْرِ: «الدَّارُ المِصْرِيَّةُ»؛ و«دَارُ المَعَارِف»؛ وَكَانَت دُورُ النَّشْرِ «الحُرَّةِ» خَاضِعَةً لِرَقَابَةٍ شَدِيدَةٍ؛ وَمَا رَأَتْهُ الدَّوْلَةُ مِنْهَا مُرِيبًا فِي أَهْدَافِهِ أو مَصَادِرِ تَمْوِيلِهِ: فَقَد صَادَرَتْهُ بِقَرَارَاتٍ إِدَارِيَّةٍ.

لَقَد اسْتَقَرَّ هَذَا الوَضْعُ مُنْذُ مَارِس ١٩٥٤ - أي بَعْدَ عِشْرِينَ شَهْرًا مِن قِيَامِ الثَّوْرَةِ -: عِنْدَمَا تَحَدَّدَ نِظَامُ الحُكْمِ بِالقَضَاءِ عَلَى الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَالتَّعَدُّدِيَّةِ؛ وَأَصْبَحَ تَجَاوُزُ الحُدُودِ الَّتِي وَضَعَهَا النِّظَامُ لِكُلِّ فَرِيقٍ: أَمْرًا فِي غَايَةِ الخُطُورَةِ؛ وَمَعَ أَنَّ اليَسَارِيِّينَ بَدَوْا مُسَيْطِرِينَ عَلَى مُعْظَمِ أَجْهِزَةِ الإِعْلامِ؛ فَقَد كَانَ بِجَانِبِهِم فِي كُلِّ مَوْقِعٍ مَن يُرَاقِبُونَهُم؛ وَيُلْزِمُونَهُم جَادَّةَ النِّظَامِ؛ وَبِمَا أَنَّ النِّظَامَ أَصْبَحَ «اشْتِرَاكِيًّا»؛ فَقَد كَانَ عَلَى اليَمِينِيِّينَ أَيْضًا أَن يُظْهِرُوا الانْصِيَاعَ وَيَتَبَنَّوْا الأَيْدِيُولُوجِيَّةَ الرَّسْمِيَّةَ الَّتِي أَخَذَت تَتَشَكَّلُ بِسُرْعَةٍ: فِي مُوَاجَهَةِ اليَسَارِ المَارْكِسِيِّ؛ وَاليَمِينِ السَّلَفِيِّ؛ آخِذَةً مِن كِلَيْهِمَا مَا يُسَاعِدُ النِّظَامَ عَلَى الاسْتِقْرَارِ وَالازْدِهَار؛ وَهَكَذَا تَطَوَّعَ عَدَدٌ مِن أَسَاتِذَةِ القَانُونِ وَالاقْتِصَادِ لِرَسْمِ مَعَالِمِ: «اشْتِرَاكِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ»؛ بَيْنَمَا كَانَ المَارْكِسِيُّونَ يَتَحَدَّثُونَ عَن: «الاشْتِرَاكِيَّةُ العِلْمِيَّةُ»؛ وَظَهَرَ مِن عُلَمَاءِ الدِّينِ مَن قَدَّمَ تَفْسِيرًا اشْتِرَاكِيًّا لِلإِسْلام؛ وَرُفِعَ شِعَار: «لا شَرْقِيَّةٌ؛ وَلا غَرْبِيَّةٌ». وَالمُرَاد: الكُتْلَتَان؛ لا الحَضَارَتَان..

إِنَّ هَذَا المُنَاخَ السِّيَاسِيَّ وَالفِكْرِيَّ لا يُمْكِنُ تَجَاهُلُهُ وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَن

المَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ ؛ وَلا سِيَّمَا أَنَّ تَأْثِيرَهُ لَم يَتَوَقَّف عِنْدَمَا تَحَوَّلَ النِّظَامُ السِّيَاسِيُّ إِلَى انْفِتَاحٍ وَاسِعِ المَدَى فِى مَجَالِ السِّيَاسَةِ وَالاقْتِصَادِ ؛ وَمَحْدُودٍ جِدًّا فِى مَجَالِ الفِكْرِ وَالأَدَبِ ؛ وَلَم يَقْتَصِر هَذَا التَّأْثِيرُ عَلَى مِصْرَ ؛ فَقَد كَانَ لِمَا يَجْرِى فِى مِصْرَ انْعِكَاسَاتُهُ عَلَى سَائِرِ العَالَمِ العَرَبِيِّ مَشْرِقِهِ وَمَغْرِبِهِ - رَغْمَ اخْتِلافِ النُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ - ؛ إِذ كَانَت هَذِهِ النُّظُمُ تَجِدُ نَفْسَهَا مُضْطَرَّةً - عَلَى مُخْتَلَفِ الأَصْعِدَةِ - لاقْتِبَاسِ النِّظَامِ المِصْرِىِّ ؛ أَو عَلَى الأَقَلِّ تَشْجِيعُهُ لِتُقَاوِمَ مُحَاوَلاتِ الهَيْمَنَةِ المِصْرِيَّةِ .

إِنَّ العَالَمَ العَرَبِيَّ - فِى الوَاقِعِ - مَازَالَ يَعِيشُ فِى مِيرَاثِ ثَورَةِ ٢٣ يُولْيُه - إِن خَيْرًا وَإِن شَرًّا - ؛ وَالدَّعْوَةُ الَّتِى يُرَدِّدُهَا الكَثِيرُونَ اليَوْم : « الأَصَالَةُ وَالمُعَاصَرَة » ؛ هِىَ بِنْتُ الدَّعْوَةِ السَّابِقَةِ : « لا شَرْقِيَّةٌ ؛ وَلا غَرْبِيَّةٌ » ؛ وَالمُنَاخُ العَام - سِيَاسِيًّا وَثَقَافِيًّا وَفِكْرِيًّا وَفَنِيًّا - مَازَالَ مُنَاخًا يُفَضِّلُ : طَمْسَ الخِلافَاتِ ؛ وَالتَّغْطِيَةَ عَلَى المُشْكِلات ؛ بَدَلاً مِنَ الحِوَارِ الصَّرِيحِ البَنَّاء .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ « الوَاقِعِيَّةَ الاشْتِرَاكِيَّةَ » : هِىَ المَارْكِسِيَّةُ اللِّينِينِيَّةُ مُطَبَّقَةً فِى مَجَالِ الأَدَبِ ؛ وَأَنَّ النُّقَّادَ المَارْكِسِيِّينَ كَانُوا بَارِزِينَ عَلَى السَّاحَةِ مُنْذُ أَوَاسِطِ الخَمْسِينِيَّاتِ ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَم يَكُن يَتَكَلَّم عَن « الوَاقِعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ » ؛ بَل عَن « الوَاقِعِيَّةِ » فَحَسْب ؛ وَحَتَّى اصْطِلاحُ : « الوَاقِعِيَّةُ الجَدِيدَةُ » - الَّذِى اقْتَرَحَهُ « حُسَين مَرْوَة » - لَم يَكُن شَائِعَ الاسْتِعْمَال .

لَقَد عَرَّفَ مَنْدُور بِـ « الوَاقِعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ » تَعْرِيفًا مَدْرَسِيًّا مُخْتَصَرًا فِى كِتَابِهِ « الأَدَبُ وَمَذَاهِبُهُ » ؛ وَكَانَت سِمَتُهَا البَارِزَةُ فِى نَظَرِهِ : سِمَةً أَخْلاقِيَّةً ؛

تَتَّفِقُ مَعَ نَظَرِيَّةِ الأَخْلاقِ الكِلاسِيكِيَّةِ .

فَـ « الوَاقِعِيَّـةُ الاشْتِرَاكِيَّـةُ » : تُصَوِّرُ جَانِبَ الخَيْرِ فِي الإِنْسَانِ ؛ عَلَى عَكْسِ « الوَاقِعِيَّـةِ البُورْجُوَازِيَّـةِ » : الَّتِي تُصَوِّرُ جَانِبَ الشَّرِّ .

وَ « الوَاقِعِيَّـةُ الاشْتِرَاكِيَّـةُ » : تَسْتَحِقُّ اسْمَ « الوَاقِعِيَّـة » ؛ لأَنَّ « الوَاقِعَ » فِي الأَدَبِ لا يَلْزَمُ أَن يَقْتَصِرَ عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ ؛ بَل يَصِحُّ أَن يَشْمَلَ « مَا يُمْكِنُ أَن يَكُون » ؛ وَهَذَا هُوَ ـ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ ـ مَا يَقُولُهُ « أَرِسْطُو » عَنِ المُحَاكَاة .

وَهَكَذَا أَخَذَ النُّقَّادُ المَارْكِسِيُّونَ وَ« المُتَمَرْكِسُونَ » وَ« المُسَايِرُونَ » مَا وَافَقَهُم مِنَ « الوَاقِعِيَّـةِ الاشْتِرَاكِيَّـةِ » ؛ كُلٌّ عَلَى حَسْبِ ثَقَافَتِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ .

أَمَّا السِّمَتَانِ الأَكْثَرِ شُيُوعاً فِي « الوَاقِعِيَّـةِ الجَدِيدَةِ » العَرَبِيَّةِ ؛ فَكَانَتَا هُمَا السِّمَتَانِ الأَكْثَرِ مُوَافَقَةً لِتِلْكَ المَرْحَلَةِ :

ـ الدَّعْوَةُ إِلَى تَصْوِيرِ البُطُولَةِ النَّابِعَةِ مِن صَمِيمِ الشَّعْبِ ؛ أَو عَلَى الأَقَلِّ : الشَّخْصِيَّاتُ الإِيجَابِيَّةُ المُتَفَائِلَةُ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنِ الجَانِبِ المُشْرِقِ فِي الإِنْسَانِ ؛ وَالتَّخَلُّصِ مِن بَقَايَا الرُّومَانْسِيَّةِ المَرِيضَةِ الذَّابِلَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ الانْسِحَابَ مِنَ الحَيَاةِ بِالعَجْزِ عَن مُوَاجَهَةِ الوَاقِعِ . ». أهـ .

ـ نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ الفَنِىِّ

« المَنْهَجُ الجَمَالِىُّ »

.....

« فِى كُلِّ مَنْهَجٍ نَقْدِىٍّ ؛ وَفِى كُلِّ نَظَرِيَّةٍ يَكْمُنُ مَوْطِنٌ مِن مَوَاطِنِ القُوَّةِ وَالرُّؤْيَةِ الصَّحِيحَةِ الصَّادِقَةِ ؛ وَتَأْتِى نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ الفَنِىِّ : ... ؛ كَى تُمَثِّلَ الدَّوْرَ الإِبْدَاعِىَّ فِى العَمَلِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ ؛ أَلا وَهُوَ الدَّوْرُ الجَمَالِىُّ الَّذِى يَجْمَعُ مَا بَينَ : الإِبْدَاعِ ؛ وَالإِمْتَاعِ ؛ وَالجَمَالِ !! » .

نِزَار شَاهِين

.....

٭ـ نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ الفَنِىّ
«المَنْهَجُ الجَمَالِىُّ»

.....

٭ـ دَوْرُ المَنْهَجِ الفَنِّىّ ؟

المَنهجُ الفنىُّ هو المنهجُ الذى يتَّسِق ويتواءم مع الأعمالِ الأدبيَّة والنقديَّة : إذ يحرصُ فى المقامِ الأوَّلِ على :

١ـ الكشفُ عن طبيعة العمل الأدبىِّ .

٢ـ وظيفةُ هذا العمل .

٣ـ غايتهُ .

وهكذا يتبيَّنُ لنا أنَّهُ منهجٌ أدبىٌّ محض ؛ فهو لا يُلقى بالأعمالِ موضع الدراسة إلى أرض العُلُومِ الأُخرى.

فالمنهجُ الفنىُّ يتناولُ النَّصَّ الأدبىَّ تناولاً يعتمدُ على تحليله إلى عناصر أو أفكار ؛ ثُمَّ ينظُرُ إلى هذهِ الأفكارِ أو تلك العناصر بعين الأديب أو بنظرة الناقد ؛ فهو يأنف من سيطرة روح المؤرِّخ أو عالم النَّفس ؛ وإن كان لا يرى بأساً فى جعلِ التاريخ وعلم النفس من أدواتهِ فى بعضِ الأحايين ؛ ولكن دون الوقوع فى شِرَاكِهِمَا وشِباكهما... ؛ فهو منهجٌ يُعَوِّلُ على الأُصُولِ الفَنِّيَّةِ ولا يُقدِّمُ عليها شيئاً.

ينظرُ المنهجُ الفنىُّ فى نوع الأثر موضع الدراسة ـ قصيدة ؛ قصَّة ؛ رواية ؛ ترجمة حياة ؛ خاطرة ؛ مقال ـ: ثُمَّ ينظرُ فى قِيمِهِ الشُّعوريَّة وقيمِهِ التعبيريَّة ؛ ثُمَّ ينظرُ فى مدى انطباقها على الأُصُولِ الفنيَّة لهذا النَّمطِ الأدبىِّ .

وكذلكَ : فَبِمُكْنَةِ هذا المنهج أن يُحَقِّقَ القُدرة على فهم الخصائصِ الفنيَّة ـ الشُّعوريَّة والتعبيريَّة ـ للأديب من خلالِ دراسةِ أعمالِهِ .

نعم ؛ يلعبُ التأثيرُ الذاتىُّ دوراً عظيماً فى نظرةِ الناقد ؛ ولكنَّ مُنطلقاتهُ تكمُنُ فى الأُصُولِ الفنيَّة... ؛ فهو منهجٌ ذاتىٌّ فنِّىٌّ موضُوعىٌّ .

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

✿ ـ شُرُوطُ النَّاقِدِ الفَنِّىِّ

يجب أن تتوافر فى الناقد الفنىِّ شُرُوطٌ لابُدَّ منها ؛ وهىَ تتمثَّلُ فيما يلى :

١ـ الاطِّلاع الواسع على الأعمالِ الأدبيَّةِ الرَّائقةِ من جهةٍ ؛ ومن جهةٍ أُخرى : الوقُوف على النَّتاجات النقديَّةِ الأدبيَّة .

٢ـ الذَّوقُ الفنىُّ الرَّفيع ؛ والذى يتمثَّل فى :

أ ـ الهبةُ الفنيَّةُ الفطريَّةُ .

ب ـ الوقُوف على التجارب الشُّعوريَّة الذاتيَّة.

٣ـ توافر الموهبة القادرة على تطبيق القواعد النظريَّة على النُّمُوذج المُراد .

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

.....

✿ - الخَلْفِيَّةُ التَّارِيخِيَّةُ لِلمَنْهَجِ الفَنِّىِّ

من أبرز النُّقَّادِ القُدامى الذين عُرِفُوا بنفاذ النظرةِ وقُوَّة القُدرة على تطبيق أُصُول هذا المنهج وركائزه: (الآمِدِىُّ ت ٣٧٠هـ) فى كتابه الشهير: (المُوازنة بين أبى تمّام والبُحتُرىّ): فهو يُقيمُ منهجهُ على أُسُسٍ ومقاييس المنهج الفنّىّ.

وكذلكَ فإنَّ (القاضى الجرجانىّ ت ٣٦٦ هـ) فى كتابه (المُوازنة بين المُتنبِّى وخُصُومِهِ) يسيرُ على قاعدة: مُراعاة القِيم التعبيريَّة؛ شأنهُ فى ذلك شأن الآمدىِّ فى (المُوازنة).

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

✿ - مَقَاييسُ المَنْهَجِ الفَنِّىِّ

١ - العَاطِفَة:

من المُسَلَّمِ بهِ أنَّ أىَّ عملٍ أدبىٍّ تتكوَّنُ عناصرهُ من:

أ - العاطفة.

ب - الخيال.

ج - المعنى أو الفكرة.

د - الأُسلُوب.

وفى ظنِّى أنَّ العاطفة هى أبرز هذهِ العناصر - إذا حَسُنَت الفكرة؛ ويرع

خيالُ الأديب ؛ وراقَ الأُسلُوب ـ ؛ فالعاطفة هى العمل الأدبىِّ ؛ فإذا حَسُنَت جاد العمل ؛ وإذا فسدت فسد العملُ كُلُّهُ ؛ وعلى أساسها تتفاوت الأعمال ؛ وتتباينُ الملكَةُ الفنيَّةُ عند الأُدباء .

وهاهُنا مسألةٌ تحتاجُ إلى الإشارة إليها : وهى أنَّ الموسيقى مظهرٌ من مظاهر تعبير العاطفة ؛ ولكن هاهُنا فائدة :

أ ـ العملُ الأدبىُّ ـ والشِّعر منهُ بخاصَّةٍ ـ يجمعُ بين الصوتِ واللون ؛ بينما الموسيقى تعتمد على الصوتِ وحده .

ب ـ الموسيقى تسترعى العواطف لا العقل ؛ بينما العملُ الأدبىُّ يُعَوِّلُ على : مزج الحقائق العلميَّة بالعواطف الإنسانيَّة .

ـ عناصر العاطفة

أ ـ صدقُ العاطفة .

ب ـ قُوَّةُ العاطفة .

ج ـ ثباتُ العاطفة .

د ـ شُمُولُ العاطفة .

هـ ـ سُمُوُّ العاطفة .

......

أ ـ صدقُ العاطفة :

ولا يتحقَّقُ الصدقُ العاطفىُّ : إلاَّ إذا تغلغلت العاطفة فى أعماقِ العمل

الأدبيِّ ؛ لكونها أصيلةً صحيحةً ؛ ويتضح الأمرُ جليّاً : إذا تبينَّا قُوَّة النبض الشِّعريِّ في أشعار عباقرة فَنِّ القصيد العرب ؛ كعنترة ؛ والمتنبِّي ؛ ومحمود سامي البارودي ؛ ومحمود محمد شاكر ؛ إذ كانت البواعث صادقة ؛ وكانت النُّفُوس شاعريَّة بطبعها .

ب- قُوَّةُ العاطفة :

والعِلَّةُ التي عن طريقها تُعْرَفُ قُوَّة العاطفة من ضعفها : ما تتركهُ من أثرٍ في النَّفسِ والشُّعُور .

ج- ثباتُ العاطفة :

والمُرادُ بها : أن تظلَّ العاطفة في نفسِ الأديب على حالتها التي بدأ بها من حيثُ القُوَّة ؛ فلا تفترُ في ثنايا العمل ؛ فإذا رغبَ في التعبير عن معنىً عقليٍّ : بقيت عاطفتهُ كما هي ؛ وإن كان من غير المُستغرب أن تهدأ قليلاً لكونِ المقامِ من مقامات المعاني العقليَّة ؛ وليس بموضعٍ وجدانيٍّ رومانسيٍّ ؛ ولكنها لا تختفي ؛ وإلاَّ لأثَّرَ ذلكَ عند الحُكمِ على العاطفة من جهة ثباتها .

د- شُمُولُ العاطفة :

متى تمكَّن الشَّاعرُ من أن يُثِيرَ فينا العواطف المُختلفة بدرجةٍ واحدةٍ وبصُورةٍ لا تتغيَّر ولا تتبدَّل : كانَ في ذلك أعظم دليلٍ على شُمُولِ عاطفتهِ وبراعتهِا ؛ وهو أمرٌ قلَّما نجده .

.....

هـ- سُمُوُّ العاطفة :

تتفاوت العواطفُ فى درجتها ؛ فبعضها أسمى من الآخر ؛ فهُناك الإعجاب بجمال الأُسلُوب ؛ من حيثُ : صفاء العبارة ؛ وجمال الوزن ؛ وروعة الخيال .

وهُناك الإعجاب بالمعانى ؛ وهذا أسمى من الأوَّل ؛ والفارق هُنا كالفارق بين الطبع والصناعة .

......

- الخَيَال

ما من أحدٍ يستطيعُ أن يضعَ تعريفاً للخيالِ يُعَبِّرُ عن كُنْهِهِ ومَاهِيَّتِهِ ؛ إلاَّ أنَّنا نستطيع أن نقُول :

يحتاج الأديب أو الشاعر إلى التعبير عن الإحساسِ الكامن بداخلهِ من أجل تصويره وتجسيده ؛ فسبيلهُ آنذاك : هو التحليق فى فضاءات الخيال ؛ ثُمَّ يُحاولُ بعد ذلكَ أن يستخدمَ إمكاناتهُ الأُسلُوبيَّة من أجلِ إبراز ما يعتمل فى أعماقه فى صورةٍ تعبيريَّةٍ .

.....

✿- صُورُ الخَيَال :

ا- الخَيَالُ الابْتِكَارِيُّ :

هو الذى يعمل على المُواءمة بين صُور الحياة وحقائقها ؛ فيُكوِّن منها

صوراً خيالِيَّة .

ب ـ الخَيَالُ التَّألِيفِىُّ :

هو الذى يجمع بين تشبيهات مُتعدِّدة ؛ أو بين أفكارٍ وصورٍ مُناسبة ؛ ترتبطُ بأصلٍ واحدٍ من العاطفة الصحيحة ؛ فإذا لم تقُم على هذا الأساسِ الصحيح كانت وهماً .

ج ـ الخَيَالُ البَيَانِىُّ :

هو الذى يختار أجمل ما فى الطبيعة من عناصرٍ ؛ ثُمَّ يُفسِّر ما تنطوى عليه من لمسات الجمال .

وسواءٌ أكان الخيالُ ابتكاريًّا أم تأليفيًّا أم بيانيًّا : فإنَّهُ لا يُراد منهُ فى نهاية الأمر سوى : تجسيد الإحساس ؛ وإثارة العواطف .

ـ العَلاقَةُ بَيْنَ العَاطِفَةِ وَالخَيَال :

العلاقةُ بين العاطفة والخيال علاقةٌ وثيقةٌ وقويَّةٌ بلا ريب ؛ فإنَّ العاطفة إذا كانت صادقةً مُتوهِّجَةً أنشأت خيالاً رائعاً موثِّراً ؛ وإذا كانت باردةً مريضةً صَنعت خيالاً هزيلاً لا تأثير له .

......

.....

✿ـ نَظَرِيَّةُ الخَيَال ... عِنْدَ كُولِرِدْج

١ـ إِطْلالَةٌ تَارِيخِيَّةٌ :

إنَّ ارتباطَ الخيالِ بالوهم ؛ والخلط بينهما ؛ والخوف من جُمُوحِ الخيال : هُوَ أمرٌ قد لاقى شيئاً عظيماً من عناية الدارسين واهتمامهم مُنْذُ عُصُورٍ بعيدةٍ ؛ واختلفت النَّظرةُ وتباينت باختلاف : اتِّجاهات الأُدباء ؛ وطبيعة العصر ؛ والقيم الفنيَّة التى حظيت بالإجماع فى ذلك العصر .

ذهب سُقراط إلى أنَّ الخيالَ ما هو سوى نوعٍ من الجُنُونِ العُلْوِىِّ ؛ وكذلك كان يعتقد إفلاطون : فقد كان يؤمن بأنَّ الإلهامَ ضربٌ من الجُنُون ؛ تصنعهُ آلهةُ الشِّعْرِ فى نفسِ الشَّاعر .

وقد اعتنقت المدرسةُ الكلاسيكيَّةُ هذا الاتِّجاه : فنادت بالحقيقة وحدها ؛ وجعلت منها عِمَادَ الآدابِ والفُنُون ؛ فكان نتيجةً حتميَّةً أن تتضاءل قيمةُ الخيال عندهم ؛ وعدَّهُ النُّقَّادُ نوعاً من الجُنُون ؛ وأنَّهُ نزعةٌ عبثيَّةٌ فوضويَّةٌ لا تعرف العقلَ ولا تحترم سُلطانه ؛ فهو ظاهرةٌ مرضيَّةٌ لا تؤدِّى إلاَّ إلى كُلِّ ما هو مُنكرٌ شاذٌّ .

وكذلك ؛ فإنَّ أنصار النيوكلاسيكيَّة ذهبوا إلى مثل هذا الرأى ؛ بل لقد انعدمت قيمة الخيال تماماً عند صمويل جونسون أشهر ناقدٍ فى القرنِ الثامن

عشر [١٧٠٩ ـ ١٧٨٤ م] .

ديكارت : هاجم الخيالَ وحطَّ من قدره .

توماس هوبز : نادى بأنَّ العقل وحده هو جوهر الشعر .

دريدن : وصفهُ بأنَّهُ المَلَكَةُ الفوضويَّة التى لا تُراعى قانُوناً ؛ والتى هى مبعث الأوهامِ والجُنُون .

فى نهايات القرن الثامن عشر ومطالع القرن التاسع عشر : بدأت النظرة إلى الخيالِ تتغيَّرُ شيئاً فشيئاً ؛ وَعِلَّةُ هذا التغيُّرِ : أنَّ الاهتمام بالعاطفة بدأ يتزايدُ عند النُّقَّاد ؛ وكثُرت الدِّراسات والاجتهادات ؛ ونُوقِشَت القِيم القديمة ؛ وطُرِحَت أفكارٌ وآراءٌ جديدةٌ ؛ تناولها أصحابها بإتقانٍ وتأمُّلٍ .

٢ـ المَذْهَبُ الرُّومَانْطِيقِيُّ :

إذا كان هذا المذهب الجديد قد أطلق العَنَانَ للعاطفةِ ورفع من أمرها إلى غايةٍ بعيدةٍ ومجَّدها تمجيداً عظيماً ؛ فلا غرابة من عنايته أشدَّ العناية بأمر الخيال ؛ فقد أضحى أصحابُ هذا الاتِّجاه الجديد على اعتقادٍ يقينىٍّ بأنَّ الجمالَ الفنىَّ من المُحَالِ أن يتحقَّقَ إلاَّ عن طريقِ التجربة الذاتيَّة التى تخضعُ للعاطفة .

قَالَ وردزورث : « التجربةُ الفنيَّةُ فيضٌ تلقائىٌّ للعواطف القويَّة ؛ على أن يكون الانفعال المُثار فى حالة طُمأنينةٍ وهُدُوءٍ . » .

وَقَالَ وليم بليك : « إنَّ عالم الخيالِ هو عالم الأبديَّة » .

بل ذهب إلى تسمية الخيال بـ : « الرُّؤية المُقَدَّسة » ؛ وعدَّهُ الإمكانيَّة لِخَلْقِ الشَّاعر .

وذهب أصحاب هذا الاتِّجاه شوطاً بعيداً : فأصبح الخيال عندهم هو الوسيلة الأساسيَّة لإدراك الحقائق ؛ ووضعوا الخيال فى موضع العقل ؛ وأضحوا لا يحتكمُون لسواه .

يقول الشاعر الإنجليزىُّ العظيم بيرسى شلى فى مقالته الشهيرة « دِفَاعٌ عَن الشِّعْر » : أنَّ الشِّعْرَ تعبيرٌ عن الخيال ؛ وأنَّ العقلَ بالنِّسبةِ للخيال : كالآلة بالنسبة للصانع ؛ وكالجسدِ بالنِّسبة إلى الرُّوح .

ويذهب كيتس : إلى أنَّ الخيالَ قُوَّةٌ قادرةٌ على الكشف والارتياد ؛ عن طريق الخلق والحِسِّ والجمال ؛ كما أنَّ الخيالَ قادرٌ على إدراك الحقيقة القُصْوى .

٢ـ كُولِرِدْج ... حَيَاتُهُ وَسِيرَتُه

وُلِدَ صمويل تيلور كولردج فى الحادى والعشرين من أكتوبر عام ١٧٧٢ م فى قرية « أترى سنت ميرى » بمقاطعة « ديفون » بإنجلترا .

وكان أبوهُ قسيس تلك القرية التى وُلِدَ بها كولردج وناظر مدرستها ؛ وكان لهُ قسطٌ لا بأس به من العلم والمعرفة والاطِّلاع .

وقد ظهرت دلائلُ نجابتهِ فى طُفُولتهِ المُبكِّرة ؛ فقد كان غير ميَّالٍ إلى

اللعب عزوفاً عنه ؛ مُحِبّاً للجُلُوسِ وحدهُ ؛ مُقبلاً على القراءة ؛ يهوى القصص الخياليَّة والعاطفيَّة ؛ دائم العيش فى دُنيا التفكير والتأمُّلِ والأحلام.

عكف والدهُ على تعليمهِ بالبيت ؛ وكان الوالد سعيداً بهذا الأمر ؛ لكون صمويل هذا كان أنجب وأذكى أولاده ؛ مع كونهِ كانَ أصغرهم سِنّاً.

ولكنَّ هذا الوالد لم يبق لولده الصغير طويلاً ؛ فقد توفِّىَ وترك ولده وهو لَّما يزل فى التاسعة من عُمُرِهِ .

أُرْسِلَ كولردج وهو فى العاشرة إلى لندن لكى يلتحق بإحدى مدارسها الشهيرة ؛ وهُناكَ نشأت بينه وبين الزميل « تشارلز لام » صداقةٌ قويَّةٌ - وقد أصبح تشارلز لام فيما بعد من كُتَّاب إنجلترا الكبار - دامت إلى النهاية ؛ ومن الجدير بالذكر أنَّ تشارلز لام قد دَبَّجَ مقالةً بعد إثر موت صمويل كولردج ؛ نعاه فى هذا المقال ؛ وذكر ما كان من ذكريات الماضى ؛ ووصف شخصيَّة صديقه يوم كان تلميذاً بهذه المدرسة :

فذكر أنَّهُ كان شاعراً واسع الاطِّلاع ؛ مُفكِّراً يُحاولُ سبر أغوار الدين وما وراء الطبيعة من عوالمٍ .

واظب كولردج على الاهتمام بدراسته بهذه المدرسة ؛ ولم ينقطع عن ذلك إلاَّ لفترةٍ وجيزةٍ عَمِلَ فيها صبىٌّ حذَّاءٍ ؛ وما كان ذلك لفقره وسُوء أحواله ؛ بل كان محضَ رغبةٍ شاذّةٍ بالنسبة إلى مكانته وشخصيَّته ؛ ولكن سُرعان ما أقنعهُ أحدُ أساتذته بعبثيَّة ما يفعل ؛ فعاد إلى دراسته من جديد .

وفى سِنِّ التاسعة عشر ؛ وبعد أن أتمَّ دراسته بهذه المدرسة : التحق بجامعة

كمبريدج لدراسة علم اللاهوت راجياً أن يُصبح قِسيساً ؛ إلاّ أنّه قضَى أوقاته بهذه الجامعة فى اللهو والعبث !! ؛ إلاّ أنه ما فوّت على نفسه الفُرصة ؛ فدرس الرياضيّات والآداب الكلاسيكيّة ؛ وقام بقراءاتٍ واسعةٍ هائلةٍ ؛ وَعُرِفَ عنه إدمانه للنّقاش والجدال ؛ وفى أيّام إقامته فى كمبردج ظهر اهتمامه بالأوضاع والتطورات السياسيّة فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ أوربا ؛ إذ كان هذا العصر هو عصر الثورة الفرنسيّة ؛ وكان كولردج من الرافضين لفكرة إعلان الحرب على فرنسا.

وفى أواخر سنة ١٧٩٣ م هجر كولردج الجامعة فجأةً وبلا مُبرِّرٍ مُقنعٍ ؛ ورحل إلى لندن وليس معه من المال ما يكفى لِسَدِّ رَمَقِهِ ؛ فاضطرّ إلى الالتحاق بالجيش تحت اسمٍ مُستعار ؛ ومكث بالجيش أربعة أشهُرٍ كجُندىٍّ ؛ ثُمَّ توسَّطَ أخوهُ الأكبر لدى السُّلطات ؛ فسمحت لهُ بالخروج من الجيش مع بداية عام ١٧٩٤ م .

وعن السِّرِّ فى تركه الجامعة :

فقد ذهب البعض إلى أنّ اليأس سيطر عليه بعد أن استدان مبلغاً كبيراً من المال لم يكُن بِمُكْنَتِهِ سداده .

بينما ذهب آخرون إلى القول بأنّهُ ما ترك الجامعة إلاّ بسبب إخفاق قصّة حُبِّهِ الأولى .

عاد كولردج إلى الجامعة ؛ وفى يونيو من هذا العام سافر كولردج إلى إكسفورد فى زيارةٍ قصيرةٍ لأحد أصدقائهِ الذين تخرّجُوا من نفس المدرسة ؛

فتعرَّف على روبرت صذى ـ والذى أصبح فيما بعد أيضاً من كُتَّاب إنجلترا وشُعرائها ـ ؛ وكان طالباً بجامعة إكسفورد حينئذٍ ؛ فكان لهذا اللقاء أثرٌ حاسمٌ فى حياة كولردج .

نشأت الصداقةُ بينهما ؛ ودعاهُ روبرت لزيارته فى مدينة برستول أثناء العُطلة الصيفيَّة ؛ وهُناك عرَّفهُ روبرت على أُختِ خطيبتهِ ﴿ ساره فريكر ﴾ .

لقد كان روبرت يُشبه كولردج : فى أنَّهُ التحق بالجامعة لدراسة اللاهوت كى يُصبح قسيساً ؛ إلاَّ أنَّ قراءته للمؤرخ الإنجليزىِّ الشَّاك ﴿ جبون ﴾ ؛ قد زعزعت عقيدته الدينيَّة ؛ وكذلك فقد كان يؤمن بالمبادىء الجمهوريَّة الثوريَّة فى السياسة ؛ كما كان مُغرماً بأعمال روسو ؛ وبـ ﴿ آلام فرتر ﴾ لجوته .

وروبرت هو الذى أوحى إلى كولردج بفكرة ﴿ البنتيسقراطيَّة ﴾ ؛ فقد صادف أن قرأ روبرت إحدى قصائد الشاعر الإنجليزىِّ كولى : والتى كان يحلُمُ فيها باعتزال الحياة الاجتماعيَّة ؛ وبالمعيشة وسط الكُتُبِ فقط بكوخٍ ناءٍ بأمريكا ؛ فتحمَّس لهذه القصيدة وتمنَّى لو أمكنه تحقيق ذلك .

وتصوَّر كولردج أنَّ تحقيق هذه الرَّغبة ليس بالأمر البعيد المنال ؛ فقد قرأ كتاب ﴿ العدالة السياسيَّة ﴾ للفيلسوف الإنجليزىِّ وليم جدوين ؛ فاقتنع بأنهُ من الممكن أن يُصبح الإنسان كاملاً ؛ ثُمَّ أخذا يدعوان إلى هذه الفكرة .

﴿ البنتيسقراطيَّة ﴾ : هى نظامٌ اجتماعىٌّ مثالىٌّ ؛ قائمٌ على فكرة المساواة التَّامَّة ؛ وإنكار الملكيَّة الفرديَّة ؛ وتقديس الحياة الفكريَّة وحُريَّة الرَّأى والعقيدة .

وفى إبّان هذه الفترة خَطَبَ كولردج (ساره فريكر) بقصد الزواج منها والرَّحيل معها إلى أمريكا .

وفى سبتمبر عام ١٧٩٤ م عاد كولردج إلى جامعة كمبردج ؛ وذاع نبأ (البنتيسقراطيّة) ؛ وقرَّر كولردج هذه المرَّة أن يترك الجامعة إلى النهاية ؛ وحاول أحدُ أساتذته أن يُقنعه بالإعراض عن هذه الفكرة ؛ ولكنَّه أبى قبُولَ نصيحته .

كانت المُشكلة الكُبرى التى واجهت كولردج ؛ هى : كيف يجمع المال الذى يكفل له تحقيق رغباته ؟!! ؛ فباع بعض قصائده لأحد الناشرين نظير مبلغٍ زهيد ؛ وبدأ يُلقى المُحاضرات العامَّة فى شتَّى الموضوعات .

ما لَبِثَ الخلاف أن نَشِبَ بينه وبين روبرت ؛ فانصرف كولردج وقد صمَّم على إكمالِ طريقه وحده ؛ وبدأ فى إلقاء المُحاضرات السياسيَّة مُدافعاً عن الحُرِّيات الدُّستوريَّة ؛ كما عَمِلَ واعظاً دينيّاً يدعو إلى مبدأ التوحيد فى المسيحيَّة بدلاً من مبدأ الثالوث .

وفى عام ١٧٩٦ م أصدر مجلَّةً ثقافيَّةً سياسيَّةً باسم (الحارس) ؛ كان يُحرِّرها بأكملها بنفسه تقريباً .

وكان أهمُّ حدثٍ عَرِفَهُ كولردج فى هذه الفترة من حياته : هو مُقابلته للشاعر الكبير وليم وردزورث ؛ وقيام الصَّداقة القويَّة بينهما ؛ استأجر وردزورث بيتاً على مقربةٍ من القرية التى كان يُقيم فيها كولردج ؛ وأخذ صمويل كولردج يُمضى أكثر وقته مع وردزورث وأُخته سوروثى فى بيتهما

الجديد ؛ وكان الفقرُ الشَّديد يُنَغِّص على كولردج حياته ؛ فأخذ فى مُراسلة الصُّحُف أحياناً ؛ والخوض فى مشروعات لم تُسفر عن أىِّ أثرٍ مادىٍّ يُذكر ؛ واضطرته ظُرُوفه الماديَّة السيئة إلى التعويل على بعض أصدقائهِ ؛ ثُمَّ اُضطرَّ فى نهاية الأمر إلى قَبُول وظيفة واعظٍ دينىٍّ يدعو إلى المذهب التَّوحيدىِّ ؛ وذهب إلى بعض القُرى لإلقاء خُطبةٍ تجريبيَّةٍ اختباريَّةٍ ؛ فصادف ذلك وجُود أحد الأثرياء ؛ فأُعْجِبَ به إعجاباً عظيماً ؛ ولمَّا وقف على أمره وحاله قرَّر إنقاذه ممَّا هو فيه !! ؛ فوقف عليه فى يناير ١٧٩٨ م مبلغ مائة وخمسين جُنيهاً فى العام طيلة حياته ؛ وفعل الثرىُّ هذا بالتعاون مع أخيه ؛ وما اشترطا عليه سوى التفرُّغ للحياة الأدبيَّة ؛ فقضى كولردج هذا العام فى صُحْبَة وردزورث وشقيقته المُثقَّفة النَّابهة ؛ ينظم الشِّعر ويُناقشهما فى المسائل الأدبيَّة ؛ وفى أثناء هذا العام [١٧٩٧ ـ ١٧٩٨ م] كتب أجود أشعاره على الإطلاق ؛ مثل : ﴿ الملاَّح العتيق ﴾ ؛ ﴿ كوبلاخان ﴾ ؛ ﴿ كريستابل ﴾.

وفى عام ١٧٩٨م أصدر بالتعاون مع وردزورث ديوانهما الشهير ﴿ مقطوعاتٌ قصصيَّةٌ غنائيَّةٌ ﴾ ؛ ذلك الدِّيوان الذى لَعِبَ دوراً عظيماً فى تطور الشِّعر الإنجليزىِّ ؛ وكان الغرض الأوَّل من وراء نشر هذا الديوان جمع المال اللازم للذهاب فى رحلةٍ إلى ألمانيا .

وفى سبتمبر من عام ١٧٩٨ م سافر كولردج بصُحبة وردزورث وشقيقته إلى ألمانيا ؛ وكان كولردج يهدف من وراء هذه الرِّحلة إِلَى دراسة اللُّغة الألمانيَّة والأدب الألمانىِّ ؛ بينما كان قصد وردزورث وشقيقته زيارة معالم

ألمانيا ؛ فتوجَّه كولردج إلى جامعة جوتنجن ؛ والتحق بجامعتها وظلَّ فيها عدَّة أشهُرٍ يدرُس اللُّغويَّات ؛ ويتردَّد على مُحاضرات الأُستاذ (يلومنباخ) فى علم الفسيولوجيا ؛ وشرع كذلك فى قراءة أعمال الفيلسوف الألمانىّ كانط ؛ وأخذ فى وضع المادَّة اللازمة عن الفيلسوف الألمانىّ ليسنج .

وعاد كولردج فى يوليو ١٧٩٩ م مُثقلاً بالديون ؛ وبدلاً من أن ينتهى من تأليف كتابه عن ليسنج ليتمكَّن من سداد ديونهِ ؛ انصرف انصرافاً إلى دراسة الفلسفة ؛ ودراسة سبينوزا بوجهٍ خاص ؛ وسافر كولردج إلى منطقة البُحيرات بشمال إنجلترا لزيارة وردزورث ؛ إذ كان بلغه أنه مريضٌ ؛ وكان وردزورث قد اتَّخذ هذه المنطقة موطناً له بعد عودته من إنجلترا ؛ ولَمَّا وصل كولردج إلى موضع إقامة وردزورث عَلِمَ كَذِبَ الخبر ؛ فقضى بعض الوقت مع صديقه وشقيقته يجولون فى هذه المنطقة الرَّائعة ؛ وفى بيت وردزورث قابل كولردج (ساره هتشنسون) شقيقة خطيبة وردزورث ؛ ووقع كولردج فى غرامها ؛ وبَقِىَ حُبُّهُ اليائس لها يُعذِّبه سنين طويلة .

ولَمَّا كان لزاماً عليهِ أن يحصل على المال اللازم لسدادِ ديونه اتجه إلى ميدان الصَّحافة ؛ فذهب إلى لندن واشتغل بتحرير المقال الافتتاحىّ فى صحيفة (A Morning post) فى ديسمبر ١٧٩٩ م ؛ وكانت صحيفة مُتحرِّرة تُناهض الحُكُومة الإنجليزيَّة وسياسة الحرب ؛ كما كانت تُناهض أتباع فرنسا ؛ وكانت جميع مقالاته تدور حول السياسة الخارجيَّة .

ثُمَّ سَئِمَ حياة الصحافة ؛ فتركها فى مارس ١٨٠٠ م .

ترك هذا العمل ؛ وبدلاً من أن يتفرَّغ لكتابة مُؤلَّفهِ عن ليسنج ؛ اتَّفق مع إحدى دور النشر على كتابة مسرحيَّات ﴿ فللنشتين ﴾ للشاعر الألمانىِّ الكبير شيلر ؛ فترجم مسرحيتين ؛ ولم يتمكن من ترجمة الثالثة ولا من كتابة المقالِ النقدىِّ عن شيلر والذى كان قد وعد به الناقد .

وفى صيف عام ١٨٠٠م قرَّر الانتقال إلى منطقة البُحيرات لكى يكون على مقربةٍ من صديقه الحميم وردزورث ؛ ولم يكُن مُناخ هذه المنطقة الرَّطب يُلائم صِحَّة كولردج ؛ لأنهُ كان يُعانى من بعض آلام الروماتيزم ؛ فلم ينصرم عام ١٨٠٠ م حتَّى تدهورت صحته بصُورةٍ ملحوظةٍ ؛ وَمَرِضَ بالديسنتاريا ؛ وتورَّمت رُكبتاه وأصابعه ؛ ولازمه المرض طوال عام ١٨٠١ م ؛ ومن المُؤسف أن كولردج كان قد بدأ فى تعاطى الأفيون لتسكين الألم ؛ وفى هذه الفترة أخذ يقرأ للمتصوف جيوردانو ؛ وازدادت معرفته بأعمال كانط ؛ غير أنَّ صِحَّته استمرَّت فى التدهور ؛ وانعكس ذلك على حالته النفسيَّة ؛ وعاش حالةً من الحُزن والغضب ؛ فأخذ يُهاجم الأوضاع الاجتماعيَّة فى إنجلترا ؛ لأن الأديب لا يستطيع أن يعيش بها من دُون أن يُسىء إلى موهبته الأدبيَّة من أجل لُقمة العيش ؛ وأخذت تُراودهُ فكرة السَّفر إلى أمريكا ؛ وأحياناً يُفكِّر فى السَّفر إلى جنوب أوربا لكون هذه المنطقة تُلائم صِحَّته ؛ وازدادت حياته سُوءاً بسبب العلاقة الفاشلة بينه وبين زوجته ﴿ ساره ﴾ ؛ تلك التى عرفها أيَّام صُحبته لروبرت صذى ؛ وكتب إليه فى ذلك ؛ وأخبره بأنه من المُحال أن يجد السُّكُون الذى يرجوه مادامت بالقُرب

منه ؛ وذلك لضعف عقلها ورداءة مشاعرها ... ؛ ولم يكُن من المُستغرب بعد مُعاناته الطويلة من هذا الزّواج التّعِس أن يقضى أكثر شُهُور عام ١٨٠٣ م هائماً على وجهه فى إنجلترا : مُتنقّلاً من بيته فى الشّمال ؛ إلى بيت صديقه الثرىّ ودجود ؛ ثُمّ إلى مدينة لندن ؛ وصادف بهذه المدينة نجاحاً اجتماعيّاً رائعاً ... ؛ ثُمّ عاد إلى بيته فى ربيع عام ١٨٠٣ م ؛ فعاد إليه مرضه وألزمه الفراش لخمسة أشهُرٍ ؛ ولم تعُد لديه فى ظِلّ هذه الظروف القُدرة على أن ينظم الشّعر ؛ فعكف على الفلسفة عُكُوفاً دائماً ؛ وكان حُلمهُ الأعظم أن يُدوّن فلسفته فى مُجلّدٍ ضخمٍ ؛ ولكنّه لم يتمكّن من ذلك أبداً ؛ وفى هذه الفترة أيضاً أخذ يُفكّر فى وضع عددٍ من المؤلّفات الأدبيّة وغير الأدبيّة ؛ وكتب إلى روبرت صذى يقترح عليه أن يشتركا فى وضع تاريخٍ ثقافىٍّ لإنجلترا ؛ ولكن روبرت رأى أنّ هذا المشروع ليس من المُحتمل أبداً أن يتم ؛ وذلك لما يعرفه من طبيعة كولردج ؛ فقد كان من الواجب إذا ما أرادا ذلك أن يُناط بكولردج مُهِمّة تصنيف عددٍ من المُجلّدات ؛ وهو يعلم أنّ كولردج لا يُجيد مسألة الاستمرار فى العمل حتّى الفراغ منه ؛ ولذلك فقد مات هذا الأمل أيضاً .

ولم تتحسّن صحّة كولردج ؛ فعقد العزم على الرّحيل إلى جنوب أوربا ؛ وقرّر السّفر إلى جزيرة مالطة ؛ وكانت تابعة لبريطانيا ؛ وتمكّن من الحُصُول على قرضٍ من أحد أصدقائهِ كى يَسُدّ ديون زوجته ويتجهّز للسّفر ؛ وحصُلَ على خطابات توصية إلى حاكم مالطة ؛ ولم يتوقّف كولردج عن تعاطى

الأفيون ؛ وها هو قبل رحيله إلى هذه الجزيرة يُرسلُ خطاباً إلى أحد أصدقائه يطلب منه أن يأتى له بكميَّةٍ وافرةٍ من الأفيون لكى يأخذها معه ويستعين بها على مرضه وآلامه ؛ ثُمَّ رحل إلى جزيرة مالطة فى ربيع عام ١٨٠٤ م تاركاً راتبه السنوىَّ لزوجته .

وتمكَّن كولردج من أن ينال إعجاب حاكم مالطة ؛ فمنحهُ وظيفةً حُكُوميَّةً بها ؛ إلاَّ أنَّ العمل المُنظَّم لم يكُن يُلائم طبيعة كولردج ؛ فلم ينصرم عام ١٨٠٤ م إلاَّ وهومُتبرِّمٌ من طبيعة حياته بهذه الجزيرة ؛ وأصبح يُفكِّر فى العودة إلى إنجلترا ؛ ولم ينجح كولردج فى إنجاز أىِّ عملٍ أدبىٍّ أثناء إقامته بهذه الجزيرة ؛ إلاَّ أنَّهُ كان يُدوِّن أفكاره وخواطره فى مُذكِّراته التى تشتمل على عِدَّة مُجلَّدات - والتى لم يبدأ نشرها إلاَّ فى عام ١٩٥٧ م - ؛ ولم يتمكَّن كولردج من العودة إلى إنجلترا إلاَّ عن طريق إيطاليا ؛ فاستغرقت رحلته وقتاً أطول ممَّا كان يتوقَّع ؛ ولم يصل إلى إنجلترا إلاَّ فى صيف ١٨٠٦ م ؛ وهكذا عاد كولردج إلى وطنه بعد إقامته بمالطة ثلاثين شهراً كاملةً ؛ فى ظلِّ الوحدة والعُزلة والمرض والإفلاس ؛ ومن شِدَّةِ ضيق كولردج لم يستطع العودة إلى زوجته بعد إيابه ؛ وإنَّما ذهب إلى لندن إلى بعض أصدقائه وأخبره أنَّه جاء إلى لندن ليبحث عن موردٍ للرزق يُمكِّنهُ من تعويض ما أنفق فى رحلته .

كانت الحياة مع زوجته قد استحالت إلى ما يُشبه الجحيم ؛ وكان من المُحالِ أن يُواصِلَ الحياة معها ؛ واكتشف أصدقاؤه أنَّه جاء إلى لندن ؛ لا بحثاً عن عملٍ ؛ بل هُرُوباً من البؤس الذى يشعر به وهو فى ظلِّ زوجته

المجهولة... ؛ ولم يأت آخر عام ١٨٠٦ م إلاّ وقد انفصل عنها مؤثِراً للعُزلة على البقاءمعها ؛ ومُنذ هذا التاريخ وحتّى وفاته فى سنة ١٨٣٤م فإنّه لم يعرف سوى الوحدة ؛ أو أن يعيش برُفقة أحد أصدقائهِ الذين كانُوا يُشفِقُون عليه .

وأمام قسوة الدَّين ؛ اضطرَّ فى يناير ١٨٠٨ م إلى العمل كمُحاضرٍ ؛ فبدأ أوّل سلسلةٍ لهُ من المُحاضرات العامّة فى الأدب فى مدينة لندن ؛ وكان موضوع هذه السّلسلة هو أصُول الشّعر مُمثّلة فى شعر شكسبير وغيره من شُعراء الإنجليز ؛ مثل : سبنسر ؛ وميلتون ؛ ودريدن ؛ وبوب ؛ وفى الشّعر الإنجليزىّ المُعاصر ؛ وتمكّن فى هذه المُحاضرات من عرض آراءه فى الذّوق والخيال والعاطفة .

وبعد أن أتمّ هذه السّلسة ؛ عاد إلى منطقة البُحيرات حيث صديقه وردزورث وزوجته وشقيقته دوروثى ؛ وكانت « ساره هتشنسون » أخت زوجة وردزورث تُقيم معهم ؛ فعاش كولردج معهم أكثر أوقاته حتّى ربيع عام ١٨١٠ م ؛ وقد تمكّن كولردج فى هذه الفترة من التقليل من نسبة المُخدّر الذى كان يتعاطاه ؛ فظهرت آثارُ التحسُّن على صِحّتهِ وقُواه ؛ وفرح أصدقاؤهُ جميعاً بهذا الخبر ؛ وتمكّن فى عام ١٨٠٩م من البدء فى إصدار صحيفةٍ أسبوعيّةٍ كان يُحرِّرها بنفسهِ ؛ أطلق عليها اسم « الصّديق » ؛ وكانت تهدُف إلى مُناقشة مبادىء السياسة والعدالة والأخلاق والذّوق ؛ وقد نجح فى

إصدار أعدادٍ كثيرةٍ من هذه الصحيفة .

ثُمَّ غادرت ﴿ ساره هتشنسون ﴾ بيت وردزورث ؛ وكانت بمثابة الوحى الذى يدفعهُ إلى العمل ؛ فأثّر ذلك على نفسه ومشاعره ؛ ثُمَّ توالت بعض الأسباب التى دفعته إلى إيقاف إصدار الصحيفة فى مارس سنة ١٨١٠ م ؛ دُون أن يُكمل مُعالجة مواد برنامجه الموسوعىِّ الذى عرضه فى بداية إصدار الجريدة ؛ وخرج فى نهاية الأمر مُثقلاً بالديون .

ذهب كولردج إلى لندن ؛ وهُناك استضافهُ بعض أصدقائه ؛ ولكن حَدَثَ أن تشاجر كولردج مع هذا الصَّديق ؛ فغضبَ الرَّجُل وقال لكولردج أنَّهُ أخطأ حين استضافه ؛ وأنَّ وردزورث كان مُحِقّاً حين حذَّره منه ومن عاداته القبيحة ؛ ومن المُضايقات التى سبَّبها لأُسرته إبَّان إقامته معهم !! .

وكان لهذه الكلمات وقع الصاعقة على مشاعر كولردج ؛ إذ كان يُقدِّس وردزورث ويَعُدُّهُ مثال الصَّديق الكامل طوال الأربعة عشر عاماً الماضية .

وذهب كولردج إلى أحد الفنادق وأقام به لفترةٍ من الزَّمن ؛ ثُمَّ دعاه أحد أصدقائه للإقامة معه ومع أُسرته ؛ فَقَبِلَ كولردج هذه الدَّعوة ؛ وقد كان مُجبراً على قبُولها ـ كما هو الحال فى كُلِّ ما كان من أُمُور حياته ـ ؛ فأقام بصُحبة صديقه هذا عاماً ونصفاً.

وَعَمِلَ كولردج مُحاضراً مرَّةً ثانيةً ؛ وانشغلَ بهذا الأمر لكونه أصبح مصدره الوحيد ؛ وأصاب نجاحاً واضحاً فى سلاسل مُحاضراته التى تعدَّدت

أهدافها ؛ ثُمَّ اشتدَّ عليه المرض لكثرة ما كان يتعاطى من المُخدِّر ؛ وبلغ الأمر مبلغاً عظيماً ؛ حتَّى أنَّ البعض كان يخشى عليه من الانتحار.

وفى عام ١٨١٥ م انتقل إلى منزل صديقه مورجان بلندن ؛ وهو ذلك الصَّديق الذى استضافه آخر مرَّةٍ ؛ فهدأت صِحَّته وأعصابه ونفسه بعض الشيء ؛ وعاد إلى النشاط الأدبيِّ ؛ وطبع قصائده مُجمَّعة فى جُزئين ؛ وكان ينوى كتابة مُقدِّمةٍ لهذا الدِّيوان ؛ إلاَّ أنَّ هذه المُقدِّمة أخذت تنمو كَمِّياً وفكريّاً حتَّى صدرت فى كتابٍ مُستقلٍّ ؛ وهو كتابه المعروف « سيرةٌ أدبيَّة ».

وفى عام ١٨١٦ م عرض كولردج نفسه على طبيبٍ مُمتازٍ ؛ فأخبره أنَّ حالته ليست باليائسة ؛ ولكنَّهُ فى حاجةٍ إلى المُتابعة الطبيَّةِ وإلى العيش فى جوٍّ هادىءٍ ؛ واقترح عليه أن يعيش مع أحد زُملائه ويُدعى جلمان ؛ وأوصى جلمان به خيراً ؛ وذهب كولردج إلى هذا الفتى ؛ فَأُعْجِبَ جلمان بكولردج إعجاباً عظيماً ؛ وعاش كولردج فى بيت هذا الرَّجُل وكأنه أحد أفراد أُسرته حتَّى وفاته سنة ١٨٣٤ م .

وهكذا عاش كولردج حياةً هادئةً كان فى أمسِّ الحاجة إليها ؛ وساعدته هذه الحياة على الإنتاج والتفرُّغ لحياة الإبداع .

ففى عام ١٨١٧ م ظهرت له « سيرةٌ أدبيَّة » و « أوراق الحكمة » ؛ وفى ١٨٢٤ م انتُخِبَ كولردج عضواً فى الجمعيَّة الأدبيَّة الملكيَّة ؛ ومُنذُ هذا العام ركَّز جُهُوده فى ميدان الفلسفة والدِّين ؛ فظهر له عام ١٨٢٥ م كتاب « عَوْنٌ

على التأمُّل ﴾ ؛ ذلك العمل الذى جَلَبَ له شهرة كبيرة ومكانة عظيمة فى الأوساط الدينيَّة .

وقد قُدِّرَ لكولردج ووردزورث أن يلتقيا ثانيةً عام ١٨٢٨ م ؛ وذهبا معاً فى رحلةٍ إلى بلجيكا وألمانيا وهُولندا ؛ وفى مدينة بون الألمانيَّة قابلهم عددٌ كبيرٌ من أدباء ألمانيا ؛ مثل نيبور وشليجل ؛ إذ كانا فى ذلك الوقت من أشهر أدباء إنجلترا ؛ وأصبح بيت كولردج فى مدينة لندن مُنْذُ عام ١٨٢٤ م مُلتقى أدباء العاصمة فى أمسيات الخميس .

وفى سنة ١٨٣٠ م بدأت صِحَّة كولردج تتردَّى بصورةٍ جَلِيَّةٍ ؛ فلزم غُرفته بأعلى بيت جلمان .

وفى التاسع عشر من يوليو سنة ١٨٣٤ م أصابتهُ نوبةٌ مُفاجئةٌ من المرض أدَّت إلى وفاته فى اليوم الخامس والعشرين من الشَّهر المذكُور .

وقد نعاه وردزورث ؛ فقال أنَّهُ كان أروع شخصيَّةٍ عرفها فى تاريخ حياته .

ونعاه صديقه القديم تشارلز لام ؛ فقال :

﴿ إنَّ روحه العزيزة العظيمة تتردَّد علىَّ طول الوقت... ؛ وإنَّنى لم أر شبيهاً لهُ ؛ بل ربَّما لن يرى العالم شبيهاً له أبداً . ﴾.

.....

- كُولِرِدْج ... وَنَظَرِيَّةُ الخَيَال

كان من الطبيعىّ أن يُولى كولردج اهتماماً عظيماً للخيال ؛ وأن يُفْسِحَ لهُ مكانةً بارزةً فى منهجه النقدىّ ؛ ومن الجدير بالذكر أن نذكُر أن كولردج يختلف عن غيره من النُّقّاد الرُّومانتيكيين ؛ من حيث نظرته إلى الخيال ؛ فنظرته أشمل وأعم وأعمق ؛ وكذلكَ فقد رَغِبَ فى أن يجعل نظريَّته فى الخيال بمثابة جُزْءٍ من فلسفته العامَّة .

ولكن : لماذا انفرد كولردج بنظريَّته الفريدة عن الخيال ؟!!.

السِّرُّ الذى يكمُنُ وراء ذلك ؛ يتمثَّلُ فِى عِدَّةِ عوامل :

١- دراسته الطويلة وتأمُّله العميق للفلسفة المثاليَّة فى الفن .

٢- شخصيَّة كولردج ؛ والتى كانت تتمتَّع بصفاتٍ فرديَّةٍ هيأته لأن يكونَ قادراً على استبطان أعماق النَّفس ؛ وإدراك ما يدور فيها من أسرارٍ فى مراحل الإبداع الفنىّ ؛ وموهبته الذاتيَّة التى جعلته كإنسانٍ تزوره قوىً خارقةٌ من آنٍ لآخر ؛ فقد كان أقدر من غيره على سبر الأغوار الإنسانيَّةِ واكتشافِ الحقائق الذاتيَّة .

٣- قيام صداقةٍ بينه وبين الشَّاعر الكبير وردز ورث واتصاله بهِ ؛ فقد كان أكبر مُعينٍ لكولردج على اكتشاف ملكة الخيال فى الشِّعْر .

يقول كولردج فى كتابه (سيرةٌ أدبيَّةٌ) أنَّه بدأ يتنبَّه إلى وجود ملكةٍ

خاصَّةٍ سمَّاها فيما بعد بـ « ملكة الخيال » حينما كان يستمع إلى صديقه وردزورث وهو يُلقى عليه قصائده ؛ وآمنَ بعد اسبطانها بأنَّها وليدة ملكةٍ خاصَّةٍ تتميَّز عن غيرها من الملكات والمواهب ؛ ويُعَدُّ أهم ما لفت انتباه كولردج إلى إبداع وردزورث : قُدرته على الخلق ؛ أى خلق الجو والنَّغَم والعالم المثالىّ ؛ وهذا لا يتوافر إلا فى إنسانٍ مُرهف الحسّ عميق الشُّعُور ؛ فإدراك الحقيقة فعلٌ حدثىٌّ مُباشرٌ يعتمدُ على الإرادة والعاطفة .

إنَّ الذى يحدث فى الخيال الشِّعرىّ : هو أنَّ الشَّاعر يخلع رُوحه على موضوعات العالم الخارجىّ ؛ ويفرض عليها عاطفته ووعيه وذاته ؛ فهو يسبر أغوار هذه الموضوعات حسب رُؤيته ؛ ويكشف عن حقائقها الجوهريَّة .

يقول كولردج :

« إنَّنى أعتبرُ الخيال إذن : إمَّا أوليًّا أو ثانويًّا.

ـ فالخيال الأولىُّ : هو فى رأيى القوَّة الحيويَّة أو الأوليَّة ؛ التى تجعل الإدراك الإنسانىَّ مُمكناً ؛ وهو تكرارٌ فى العقل المُتناهى لعمليَّة الخلق الخالدة فى الأنا المُطلق .

ـ أمَّا الخيالُ الثانوىُّ : فهو فى عُرفى صدىً للخيال الأولىِّ ؛ غير أنَّه يوجد مع الإرادة الواعية ؛ وهو يُشبه الخيال الأولىَّ فى نوع الوظيفة التى يُؤدِّيها ؛ ولكنهُ يختلف عنه فى الدَّرجة وفى طريقة نشاطه ؛ إنَّهُ يُذيب ويُلاشى ويُحطِّم لكى يخلق من جديد ؛ وحينما لا تتسنَّى له هذه العمليَّة ؛ فإنَّهُ على

أىّ حالٍ يسعى إلى إيجاد الوحدة ؛ وإلى تحويل الواقع إلى المثالىّ ؛ إنّهُ فى جوهره حيوىٌّ ؛ بينما الموضوعات التى يعمل بها فى جوهرها ثابتةٌ لا حياة فيها ؛ أمّا التوهُّم فهو على نقيض ذلك ؛ لأنّ ميدانه المحدود والثّابت ؛ وهو ليس إلا ضرباً من الذّاكرةِ تحرّر من قُيود الزّمان والمكان ؛ وامتزج وتشكّل بالظّاهرة التجريبيّة للإرادة التى نُعبِّر عنها بلفظ ((الاختيار)) .

ويُشبه التوهُّم الذّاكرة : فى أنّهُ يتعيَّن عليه أن يحصُل على مادّتهِ كُلّها جاهزة وفق قانون تداعى المعانى . ﴾ .

فالخيالُ الأولىُّ : هو الذى يشترك فيه النّاسُ جميعاً فى عمليّات المعرفة ؛ ويقوم النّاس باستخدام ملكة الخيال هذه بطريقةٍ تلقائيّةٍ وبدُون وعيٍ منهم.

أمّا الخيالُ الثّانوىُّ : فهو خيال الشُّعراء ؛ ويُوجد مع الإرادة ؛ وهو خلاّقٌ بمعنى أنّهُ يخلقُ إنتاجاً فنيّاً حيّاً.

هذا ؛ بينما التوهُّم لا يخلُقُ إنتاجاً حيّاً ؛ بل تظلُّ المادّة التى يعملُ بها جُزئيّات باردة لا رُوح فيها ولا حياة .

ـ النَّتَائِجُ الَّتِى أَدَّت إِلَيْهَا فِكْرَةُ تَقْدِيسِ الخَيَال :

١ـ الشّعْرُ ليس مُجرّد تسليةٍ للنُّفُوس ؛ وإنّما هو وسيلةٌ من وسائل تفهُّم الحقيقة وتقييمها .

٢ـ الفرق بين ما يُسمّيه كولردج ﴿ العبقريّة ﴾ ـ وهى التى تتميّز بنشاط الخيال الشّعرىِّ ـ ؛ وبين الموهبة :

هو أنَّ نظرة العبقريَّة إلى الوجود نظرة مُباشرة تتميَّز بالجِدَّة وتتحرَّر من قُيُود العادة والعُرْف ؛ فالرَّجُلُ العبقريُّ هو من يُحطِّم السُّدَف التى تحول بينه وبين موضوع تأمُّلاته ؛ وعلى هذا فلا يُوجد شيءٌ مألوفٌ أو حقيقةٌ مُسلَّمٌ بها فى نظر العبقريِّ ؛ فكُلُّ ما يُوجِّه فكره وتأمُّله إليه يُصبح جديداً وذا دِلالةٍ مُباشرةٍ ؛ فالرَّجُلُ العبقريُّ هو من يُعيد إلى الحقائق الشَّائعة المألوفة جِدَّتها وفاعليتها فى الحياة الرُّوحيَّة الوجدانيَّة.

وللخيال علاقةٌ وطيدةٌ بمسألة الشَّكل والمضمون ؛ فللخيال قُدرةٌ عجيبةٌ على خلق الوحدة الحيَّة ﴿ الشَّكل والمضمون ـ اللفظ والمعنى ـ الوزن والموسيقى ﴾.

.....

.....

✿ ـ المَعْنَى أو الفِكْرَة

.....

ـ المَعْنَى أو الفِكْرَة أو الحَقِيقَة :

يُقصدُ بالفكرة أو الحقيقة : المعنى الذى حرَّك العاطفة أو هزَّها فى العمل الأدبىّ حتَّى تجلَّى ورأى نور الحياة ؛ إِذَن : فالفكرة فى الأعمال الأدبيَّة هى أساس العاطفة ؛ فلولاها ما تحرَّكت العاطفة ولا ظفِرَت بالأحاسيس.

ـ العَمَلُ الأَدَبِيُّ الإِبْدَاعِيُ..... وَالنَّقْدُ الأَدَبِيُّ :

الأولُ يُسلمُ مقادهُ للعاطفة ؛ ثُمَّ يتحرَّكُ بتحرُّكها ويمضى بمُضيِّها ؛ فالعاطفة هى عِمَادُ العمل الأدبىِّ الإبداعىِّ ؛ بينما الفكرةُ هى محور العمليَّات النقديَّة الأدبيَّة ؛ وقد يكون للعاطفة دورٌ هاهُنا ؛ ولكنَّهُ ثانوىٌّ ؛ وإن كان لا يُنكَرُ أيضاً أن العاطفة قد تلعبُ دوراً عظيماً فى الكتابات النقديَّة.

.....

✿ ـ الأُسْلُوب

الأُسلُوب : هو الإطارُ الذى يحملُ المعنى والمضمون .

فإذا كانت العاطفة هى ميزة الأُسلُوب ؛ كان الإطارُ إطاراً أدبيًّا بمعناه الخاص.

وأمَّا إذا ما حلَّت الفكرة مَحِلَّ الأُسلُوب ؛ كان الإطارُ إطاراً أدبيًّا بمعناهُ

العام.

- شُرُوطُ الأُسْلُوبِ الأَدَبِيِّ:

١ـ استخدام الأساليب التعبيريَّة الوجدانيَّة .

٢ـ إثارة العواطف وإيقاظ المشاعر.

٣ـ الجمع بين القُوَّةِ والرِّقَّة .

.....

٥- نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ التَّكَامُلِىّ

« لا يُوجَدُ فِى الحَقِيقَةِ نَاقِدٌ يَحْمِلُ
نَفْسَهُ عَلَى طِرَازٍ وَاحِدٍ فَقَط ؛ أو
مَنْهَجٍ وَاحِدٍ فَحَسْب ؛ وكُلُّ الفُرُوعِ
تَتَبَادَلُ نَتَائِجَهَا فِيمَا بَيْنَهَا عِنْدَمَا
يَكُونُ دَارِسُ الأَدَبِ نَاقِداً جَيِّداً » .

إِنْرِيك أَنْدِرْسُون إِمْبِرْت

.....

.....

۞ـ نَظَرِيَّةُ النَّقْدِ التَّكَامُلِىّ

۞۞۞۞۞

۞ـ نَظْرَةٌ شُمُولِيَّةٌ

.....

يقوم هذا المنهج على الأخذ من كَافَّةِ المناهج التى سلف ذكرها ؛ ويمزج بينها ويفيدُ منها فى إتقانٍ وبراعةٍ .

يقول العلاَّمة الدُّكتور شوقى ضيف ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ :

« لم يُوضع لِدراسة الأدبِ والبحث فى شخصيَّاته منهجٌ واحدٌ يعتمدهُ جميعُ الباحثين الغربيين ؛ وكأنَّ البحث الأدبىَّ أعقد من أن يخضعَ لمنهجٍ مُعيَّنٍ ؛ أو قُل أنَّهُ لا يُمكن أن يحتويه منهجٌ بعينه : ولذلك كان من الواجب على الباحث أن يفيد من هذه المناهج والدِّراسات جميعاً. » .(١)..

نستطيع أن نقُول : إنَّ اعتناق الباحث أو الناقد لمذهبٍ أو منهجٍ من مناهج النقد واقتصاره عليه ونبذه لما سواه ؛ يجعلهُ مُتعصِّباً لوسائل وإمكانات هذا المنهج ؛ ويُنكِر المناهج الأُخرى ؛ مما يفرض عليه الحرمان من قُدرات المناهج

---

(١) ـ « البَحْثُ الأدبِىُّ » ؛ (ص/ ١٢٩) ؛ دار المعارف ؛ الطبعة الثانية ؛ ط : ١٩٧٢م.

المُختلفة ؛ بينما الناقد التكامُلىُّ يصنع نقداً قوىَّ الجوانب كامل الأركان .

والذَّوق المُثقَّف وحده هو القادر على أن ينتقى من كُلِّ منهجٍ أدبىٍّ ما يُعِينُ على كشف الجمال الأدبىِّ الكامن فى الظواهر الشكليَّة ومعانى المضامين ؛ فالمنهج التكامُلىُّ هو المنهج الوحيد القادر على القضاء على جوانب القُصُور الموجودة فى كُلِّ منهجٍ من المناهج التى تحدَّثنا عنها فيما سبق .

﴿ تَمَّ الكِتَاب ﴾

✿ - دِيوَانٌ شِعْرِيٌّ :

الترنيمة الأخيرة !!

«القصائد العشر»

لِشَاعِرِ الشَّمَال

محمد محمود دحروج

الشَّهِير بـ :

« نِـزَار شَـاهِين المِصْرِي »

✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿

.....

ـ إهــداء

وَيَمْضِى العُمُر !!... ؛ وَوَلّى العُمْرُ يَا دَرْبِى !!
وَضَاعَ الحُلْمُ !!... ؛ وَضَاعَ الحُلْمُ لَن يَرْجِع !!
وَضَاعَ الحُلْمُ لَن يَرْجِع !! ؛ وَضِعْتَ هُنَاكَ يَا
قَلْبِى !! ؛ مُحَالٌ أن يَعُودَ الأَمْرُ ثَانِيَةً !!.... ؛
فَأنَا الَّذِى بَدَّدتُ أيَّامِى !!... ؛ أنَا المَأْسُورُ فِى
هَاذِى القَصَائِدِ كُلِّهَا !!... ؛ وَالذَّنْبُ ذَنْبِى !!.

وَدَاعًا أيُّهَا العُمُر !!

إِلَيْك !! :

أُهْدِى هَذِهِ الأَشْعَار

كُولِرِدْج العَرَب

نِزَار شَاهِين المِصْرِى

[1981ـ 2013]

.....

۞ـ تصـديـر

۞۞۞۞۞

﴿ قَدَرِيَّةُ الأَشْيَاءِ جَعَلَتْكَ الشَّرِيدَ
وكُلُّ غَائِبَ قَدْ أتَى !!
لَهْفِى عَلَيْكَ وَأنْتِ تَمْضِى
حَائِراً !!
ضَاعَت مَلامِحُكَ القَدِيمَةُ يَا فَتَى !! ﴾ .

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

.....

۞ - مدخل

۞۞۞۞۞

﴿إِنِّى هُنَا المَأْسُورُ تَحْصُرُنِى خُيُوطُ
العَنْكَبُوت !!
وَقِطَارُنَا العَجْلانُ دَوْمًا قَدْ يُجَاوِزُ
أو يَفُوت !!
وَعَزَائِى إِن جَاءَ المَسَاءُ غَدًا
فَرُبَّ نَفْسِى رُبَّمَا أَيْضًا هُنَالِكَ
قَدْ تَمُوت !!﴾.

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

.....

ـ بَيْنَ يَدَى الدِّيوَان :

بسم الله الرحمن الرحيم

.....

مَازِلْتُ أَذْكُر !! ؛ مَازِلْتُ أَذْكُرُ أُمْنِيَاتِي المَاضِيَه !! ؛ مَازِلْتُ أَذْكُرُ عَهْدَ أَحْلامِ اللَّيَالِي الخَالِيَه !! ؛ كُلُّ آمَالِي تَهَاوَت مِثْلَ عَرْشٍ هَالِكٍ وَالقَلْبُ مَا نَسِيَ الجِرَاحَ وَلا سَلا !! ؛ تَأْتِي المَوَاجِعُ كُلَّ حِينٍ أَمَّا ضِحْكَاتِي فَلا !! ؛ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ فِي زَمَنِ الشِّتَاء ؛ جَاءَت قَصَائِدُنَا تَقُولُ العُمْرُ وَلَّى مُسْرِعَاً وَالحَظُّ شَاء !! ؛ عَادَ المُسَافِرُ وَالحَقَائِبُ كُلُّهَا مَحْضُ احْتِضَارَاتِ الأَغَانِي الحَالِمَه !! ؛ مَحْضُ نَفْسٍ فِي فَلاةٍ فِي ضَيَاعٍ نَادِمَه !! ؛ إِلاَّ بَقَايَا مِن رِيَاحِ الكِبْرِيَاء !! ؛ جَاءَت الغِرْبَانُ تَنْعَبُ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ تَحْطِمُ مَا تَبَقَّى مِن سُكُون !! ؛ الكَوْنُ يَمْزُجُ لِي طَعَامَاً مِن رِيَاحِ القَهْرِ وَالحِرْمَانِ فِي ظِلِّ الكَآبَةِ وَالجُنُون !! ؛ تَاهَت خُطَاىَ هُنَاكَ فِي ظِلِّ انْتِظَارِ المَوْعِدِ !! ؛ وَاليَوْمَ أَحْيَا بَيْنَ أَحْزَانِي الَّتِي تَأْتِي هُنَالِكَ !!... ؛ مِن جَحِيمِ قَصَائِدِي !!.

ثم :

دِيوَان « التَّرْنِيمَةُ الأَخِيرَة » ؛ هُوَ دِيوَانٌ يَجْمَعُ كَافَّةَ القَصَائِدِ الَّتِي كَتَبْتُهَا تَحْتَ وَطْأَةِ الحُبِّ المُقَدَّسِ لِلنَّقِيَّةِ البَرِيئَةِ « أَسْمَاء » ـ أَطَالَ اللهُ

سُبْحَانَهُ فِى عُمُرِهَا ؛ وَأَقَرَّ عُيُونَهَا بِالسَّكِينَةِ وَالأَمَانِ أَنَّى كَانَا ـ ؛ وَلَم أُفْرِد دِيوَانًا وَأُوقِفُهُ عَلَى الحَدِيثِ عَن فَتَاةٍ أَحْبَبْتُهَا سِوَى هَذِهِ الفَتَاة ؛ لَم أَفْعَل ذَلِكَ مَعَ فَتَاةٍ أُخرَى وَلَن أَفْعَل !! ؛ فَـ «أَسْمَاء» هِىَ الحُبُّ الَّذِى مَا سَقَطَ يَوْمًا وَمَا تَرَنَّحَ عَلَى أَرضِ العِشْقِ وَالهَوَى !! ؛ «أَسْمَاء» !! ؛ إِنَّهَا الفَتَاةُ الحَالِمَةُ النَّقِيَّةُ الوَدِيعَة !! ؛ «أَسْمَاء» !! ؛ يَا لَهُ مِن اسْمٍ !! ؛ إِنَّهُ الاسْمُ الَّذِى مَا إِن يُذْكَرُ !!... ؛ إِلاَّ وَيَهْتَزُّ كِيَانِى !! ؛ وَتَمُورُ مَشَاعِرِى !! ؛ وَأَشْعُرُ بِأَنِّى تَائِهٌ بِلَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَسْطَ فَلاةٍ مُمْتَدَّةٍ مُتَرَامِيَةٍ رَهِيبَةٍ لا صَحْبَ بِهَا وَلا أَنِيس !!... ؛ «أَسْمَاء» !! ؛ كَيْفَ أَنْتِ اليَوْم؟!! ؛ «أَسْمَاء» !! ؛ سَامَحَ اللهُ الزَّمَن !! .

.....

«راهب الأدباء»

مُحَمَّد مَحْمُود دَخْرُوج

«نِزَار شَاهِين المِصْرِى»

مِن لا مَكَان !!..... لا وَطَن !!

.....

- دِيوَانٌ شِعْرِيٌّ:

الترنيمة الأخيرة »

«القصائد العشر»

لِشَاعِرِ الشَّمَال

محمد محمود دحروج

الشَّهِير بـ:

« نِزَار شَاهِين المِصْرِي »

« الترنيمة الأخيرة »

قَصَائِدُ الزَّمَنِ البَعِيدِ !!

.....

✿ - مَازِلْتُ أذكُر !!

.....

✿ مَازِلْتُ أذكُرُ كَيْفَ كَان !!
كَيْفَ وَادَعَنِى الطَّرِيقُ !! ؛
وكَيْفَ صَاحَبَنِى الزَّمَان !!
يَوْمَ التَقَيْنَا فِى الصَّبَاح !!
يَوْمَ أن كَانَ الجَمِيعُ هُنَاكَ فِى
صَمْتٍ يُدَاعِبُهُم نَدَى الفَجْرِ
الحَنُونِ !! ؛ وبَعْضُ ضِحكَاتِ
الرِّيَاح !!
((أسْمَاءُ)) !!... ؛ يَا ((أسْمَاءُ)) !!
... ؛ يَا ((أسْمَاء)) !!
يَا كُلَّ أحْلامِ البَرَاءَةِ وَالطَّهَارَةِ
وَالنَّقَاء !!
يَا وَرْدَةً قَد أخْجَلَت بِجَمَالِهَا
كُلَّ الزُّهُور !!
يَا رَبَّةَ الحُسْنِ وَالإبْدَاعِ فِى
كُلِّ المَوَاطِنِ وَالعُصُور !!

« أسْمَاءُ » !!... ؛ يَا « أسْمَاءُ » !!

... ؛ يَا « أسْمَاء » !!

هَل تَذْكُرِي يَوْمَ الصَّبَاح !!

فَهَا تَوَلَّى !! ؛ لَم تَعُد غَيْرُ

المَآسِي !! ؛ وَالكَآبَةِ !!

وَالجِرَاح !! . ❊ .

.....

ـ تَلاقَيْنَا !!

.....

تَلاقَيْنَا بِلا سَبَبٍ !!
سِوَى أَقْدَارِ
أَزْمِنَتِى !!
فَكُنْتُ أَمِيرُهَا الحَالِم !!
وَكُنْتِ هُنَاكَ فَاتِنَتِى !!
كَانَت عُيُونٌ مِثْلَ عَيْنِ
غَزَالَةٍ وَالسِّحْرُ
فِيهَا !!
مَن رَامَ حَلَّ رُمُوزِهَا
ضَلَّت خُطَاهُ رَأَى
الضَّيَاعَ وَأَوْبَةً حَيْرَى
وَتِيهَا !!
سِرْنَا عَلَى دَرْبٍ وَمَا
أَدْرِى !!

أأبُوحُ يَوْمَ لِقَاءِهَا أم هَل
أُقَابِلُهَا بِسِرِّى ؟!!
مَا بُحْتُ يَوْمَاً إِنَّمَا بَاحَ
الهَوَى !!
أنَّ الحَقِيقَةَ سَوْفَ تَبْقَى
رَغْمَ أَزْمِنَةِ التَّشَتُّتِ
وَالنَّوَى !!
وَبَقِيتُ أَعْوَامًا !! ؛
وَبَقِيتُ أَعْوَاماً وَهِى
تَرْقُب هُنَالِكَ أَن أُهَادِيهَا
بِنَصْرِى !!
ضَيَّعْتُ أَعْوَامِى عَلَى كُلِّ
الدُّرُوبِ مُنَاضِلاً !! ؛ وَبِيَوْمِ
عَوْدِى مَا رَجَعْتُ بِغَيْرِ
آلامِى وَقَهْرِى !!
لا تَقُولِى حَبِيبَتِى أَنِّى
نَسِيتُ وَأَنَّ هَذَا الحُبَّ قَد
يَغْدُو هَبَاء !!
قُولِى بِأَنِّى قَد أَرَدتُ أَبَى

الزَّمَانُ حِكَايَتِي » ؛ وَالحَـظُّ

شَـاء ».ﷺ .

.....

✿ ـ عَلَى سِفْرِ الهَـوَى !!

.....

✿ عَلَى سِفْرِ الهَـوَى كُنَّا
نُوَقِّعُ أُغْنِيَاتِ العَاشِقِ
الأَبَدِى !!
بِأَنِّى سَوْفَ أَذْكُرُهَا
بِكُلِّ دُرُوبِ أَيَّامِى
بِجَوْفِ الحُزْنِ رِيحِ اليَأْسِ
فِى عُمْرِى وَفِى
لَحْدِى !!
أُحِبُّكَ لَم يَغِب عَنِّى
سِوَى بَوْحِى إِلَيْكِ هُنَاكَ
فِى شِعْـرِى وَبِالنَّظَـرَاتِ !!
وَيَبْقَى الحُبُّ يَا لَيْلَى !!
لأَنَّ الحُبَّ فِى قَلْبِى !!
وَلَيْسَ هُنَاكَ فِى الكَلِمَات !!
أُحِبُّكِ !! ؛ قَهْرُ مَلْحَمَتِى
شَرِيعَـةُ دَهْـرِنَا الحَاكِم !!

وَيَغنَّى العَاشِقُ المَحْـرُومُ

يَبْقَى الشَّاعِرُ الحَالِـم !! . ٥٢ .

.....

✿ ـ مُحَالٌ لَم يَكُن حُبًّا !!

.....

✿ مُحَالٌ لَم يَكُن حُبًّا ؟!!
مُحَالٌ لَم يَكُن حُبًّا ؟!!
وَهَذَا الحُلْمُ لَم يَصْدُق ؟!!
كَمَاءٍ مِن عُذُوبَتِهِ
أتَيْتُ مَعِينَهُ أشْرَب
وَلَم أعْلَم ... ؛ بِأنِّى مِنْهُ
قَد أشْرَق ؟!!
خِدَاعٌ كُلُّهَا الدُّنْيَا ؟!!
أم أنِّى دَائِمَاً أعْبَث ؟!!
وَأنِّى دَائِمَاً وَاهِم ؟!!
لِمَاذَا العَوْدُ بِالخُسْرَانِ
هُوَ قَدَرِى ؟!! ؛ لِمَاذَا
الغَدْرُمِن دَرْبِى هُوَ
الحَاكِم ؟!!
مُحَالٌ لَم يَكُن حُبًّا !!
وَفِيهِ حَقِيقَةُ الأشْيَاء ؟!!

مُحَـالٌ لَـم يَـكُن حُبًّا !!
وَكُلُّ العُمْـرِ يَا أُخْتَاهُ قَـد
وَلَّى !! ؛ وَصَـارَ هَبَـاء !!
لِمَاذَا عَلَيْنَـا أن نَمْضِى
إِلَى الأَحْـزَان ؟!!
لِمَاذَا تَبْقَى أُغْنِيَتى بِـلا
وَجْـهٍ بِلا اسْـمٍ بِلا
عُنْـوَان ؟!!
لِمَاذَا تَـرْحَلُ الأَحْـلامُ
لا أُبْصِر لَهَـا سَبَبًا ؟!!
عَـذَابٌ كُـلُّ مَـا أَلْقَـى !!
مُحَالٌ !!... ؛لَـم يَـكُن
حُبًّا !! . ●ﻻ .

قصائد الرَّحيل !!
وأغنيات الفراق !!

.....

✿ـ عَرِّج عَلَيْنَا !!

.....

عَرِّج عَلَيْنَا هَاهُنَا يَا
حَادِى !!
قَد كُنْتُ أَبْكِى !! ؛ وكُنْتَ
تَبْكِى !! ؛ فَمَن يرَبّكَ فِى
الهَوَى كَانَ الحَزِينَ
البَادِى ؟!!
خَفِّف صَدَى الأَنَّاتِ
قَلْبِى مُدْنَفٌ ثَكِلٌ !!
مِل بِالقَوَافِلِ نَحْوَ
ذِكْرَاهَا فَإِنِّى تَائِقٌ
عَجِلُ !!
مَازِلْتُ إِن أَحْلُم بِعَوْدِ
مَشَاهِدِ المَاضِى البَعِيدِ
تَرُدُّنِى الأَحْزَانُ !! ؛ أَو يَأْتِى
يُحَوِّمُ فِى سَمَائِى الخَوْفُ

وَالوَجَلُ !!
يَا كُلَّ أَحْلامِى وَآلامِى
وَعُمْرِى وَمَوْئِلِى !!
كَم لِلْفَتَى مِن بَعْضِ أَحْلامِ
الهَوَى بِالأَرْضِ ثَمَّ يَعُودُ
قَد نَسِىَ الهَوَى !! ؛ وَحَنِينُهُ
دَوْمَاً لأَوَّلِ مَنْزِلِ !!
يَا كُلَّ أَوْجَاعِ الرَّسَائِلِ
وَالقَصَائِد !!
يَا رِيحَ دَهْرٍ لا يُسَالِمُ دَائِمَاً
كَانَ المُخَاصِمَ وَالمُعَانِد !!
يَا عِشْقَ قَلْبٍ لَم يَزَل يَنْعِى
وَيَبْكِى !!
يَا كُلَّ إِخْلاصِ الهَوَى العُذْرِىِّ
يَا غَضَبِى وَشَكِّى !!
يَا كُلَّ هَذَا الكَوْنِ يَا دَرْبِى
وَأَرْضِى !!
يَا رُوحَ مَن عَبَدَ العُيُونَ الحَالِمَاتِ
وَكَانَ قَلْبَاً وَاحِدَاً !! ؛ وَاليَوْمَ بَعْضِى !! ؛

قَدْ يُعَاتِبُ فِي الهَوَى

بَعْضِي !! . »

.....

۞ ـ لا تَذْهَبِي !!

.....

۞ لا تَذْهَبِي !!
لا تَذْهَبِي !!
أَسْمَاءُ لا !! ؛ لا تَذْهَبِي !! ؛
وَلَئِن عَزَمْتِ عَلَى الرَّحِيلِ
فَلَهْفَ نَفْسِي !! ؛ إِنَّمَا فَبِرَبِّ
هَذَا الكَوْنِ لا !! ؛ لا تَغْضَبِي !!
قَد رُمْتُ شَيْئاً إِنَّمَا غَدِرَ
الزَّمَانُ وَجَاءَ يَنْهَشُ مِثْلَ ذِئْبٍ
جَائِعٍ !!
أَسَتَذْهَبِينَ ؟!! ؛ أَسَتَذْهَبِينَ وَأَنْتِ
نَحْوَ البُعْدِ سَائِرَةٌ ؟!! ؛ وَأَنَا
سَأَمْضِي لَسْتُ أَذْكُرُ غَيْرَ حُلْمٍ
مَيِّتٍ أَو ضَائِعٍ !!
للهِ دَرُّكِ أَسْعَدَ اللهُ الفُؤَادَ الحَالِمَا !! ؛

مَا كَانَ ذَنْبُ الدَّهْرِ بَلْ ذَنْبِي !! ؛ لأَنَّي
كُنْتُ دَوْمَاً وَاهِمَا !!
يَا كُلَّ أَحْلامِي وَكُلَّ قَصَائِدِي !!
يَا أَيُّهَا العُمْرُ الصَّرِيعُ وَلَسْتَ يَوْمَاً
مِن هُنَاكَ بِعَائِدِ !!
أَفْنَيْتُ عُمْرِي لاجْلِ حُلْمٍ كُنْتُ أَعْلَمُ
أَنَّهُ لا لَنْ يَكُونَ !!
لَكِنَّنِي دَوْمَاً !! ؛ تُحَرِّكُنِي المَطَامِحُ وَالظُّنُونُ !!
يَا أَيُّهَا الوَجْهُ الَّذِي سَكَنَ الفُؤَادَ وَلَيْسَ
مِنْهُ بِبَارِحِ !! ؛
سَأَجُوبُ هَذَا الكَوْنَ ثُمَّ سَاعَةَ عَوْدَتِي
فَسَتُبْصِرِينَ هُنَاكَ عِشْقِي فِي سَمَاءِ حَقِيقَتِي
وَمَلامِحِي !!
وَبِكُلِّ حَالٍ !! ؛ وَبِكُلِّ حَالٍ أَنْتِ سَائِرَةٌ !! ؛
وَبِكُلِّ حَالٍ أَنْتِ ضَائِعَةٌ !! ؛ أَمَّا أَنَا فَالتِّيهُ
يَأْخُذُنِي وَلا أَدْرِي سَيَأْتِي بِغَيْبَةِ الأَسْرَارِ !!
إِن كُنْتُ أَبْكِي فِي الأَحَايِينِ الحَزِينَةِ ؛ إِنَّمَا
فِي لَحْظَةِ الصَّمْتِ الحَكِيمِ أَقُولُ لا تَأْسَفْ
وَلا تَأْسَى !! ؛ فَمَاذَا تَبْتَغِي !! ؛ إِن تَعْنِدِ الأَحْكَامُ

وَالأَقْـدَار ؟!! ﴾ .

.....

٭ ـ مَاتَ الكَلام !!

.....

٭ رَحَلَت وَقَالَت لا أَمَل !!
رَحَلَت وَقَالَت لا أَمَل !!... ؛
لا شَيْءَ بِالدَّرْبِ القَدِيمِ سِوَى
الضَّيَاعِ أو المَلَل !!... ؛
ارْحَل أُخَيَّ فَإِنَّ عُمْرَكَ يَنْقَضِي !!
... ؛ ارْحَم عُيُونَاً مِن سِنِينٍ لَم
تَنَم !! ؛ لَم تُغْمَضِ !!
إِنِّي سَأَذْهَبُ !!
إِنِّي سَأَذْهَبُ لا أُرِيدُكَ بَعْدَ
أن أنأى بَعِيداً تَحْيَا فِي دَيْرِ
المَرَارَةِ وَالأَسَف !!... ؛
مَا عَادَ لِي شَيْءٌ هُنَا !!... ؛ إِنِّي
سَأَذْهَبُ فِي طَرِيقٍ مُخْتَلِف !!
يَا أَيُّهَا الذَّائِب بِحُلْمٍ ضَائِعٍ !! ... ؛
يَا أَيُّهَا الذَّائِب بِحُلْمٍ ضَائِعٍ بَارِك
حَيَاتِي وَامْضِ فِي ظِلِّ العِنَايَةِ

وَالسَّلام !!

وَمَضَيْتُ لَم أَقْدِر دُعَاءً !! ؛

أو وَدَاعَاً !! ؛

سِرْتُ مَحْزُوناً !! ؛ وَقَد مَاتَ

الكَلام !! ﴿ .

قصائد الأحزان !!

.....

۞ - وَتَبْقَى بِمِحْرَابِ شِعْرِي !!

.....

۞ مَسِيرٌ !! ؛ رَحِيلٌ !! ؛ دُرُوب !!
جِرَاحٌ !! ؛ مَآسٍ تَجِيءُ وَتَمْضِي !! ؛
وَتَأْتِي خُطُوب !!
شِرَاعٌ بِكُلِّ المَوَانِي هُنَالِك !!
بِأَرْضِ الجَمَالِ الحَنُونِ وَيَوْمَاً
بِأَرْضِ الشَّجَا وَالمَهَالِك !!
شِرَاعٌ بِقَلْبِ البِحَارِ البَعِيدَةِ
يَنْأَى !! ؛ وَيَبْقَى يَدُور !!
وَعَامٌ !! ؛ وَعَامٌ !! ؛ وَعَامٌ !! ؛ وَتَفْنَى
الحَيَاةُ !! ؛
فَذَا الحُلْمُ يَرْحَل !! ؛ وَتَبْقَى
سُطُور !!
أَنَا اليَوْمَ عَائِد لِدَرْبِي وَأَرْضِي !! ؛
وَفِي الغَدِّ أُعْلِن رَحِيلٌ جَدِيدٌ !! ؛
فَأَغْدُو وَأَمْضِي
وَمَاتَ الرَّجَاءُ !! ؛ وَضَاعَت بُعَيْدَ الغِيَاب

رِيَاحُ الهَوَى وَالأَمَانِي !!
وَأَسْمَاءُ تَبْقَى وُجُوداً عَظِيماً يهَاذِي
القَصَائِدِ كَانَت بِلَحْنِ الأَغَانِي
رَحِيلٌ !! ؛ وَعَوْدٌ جَدِيدٌ !! ؛ رَحِيلٌ
سَفَر !! ؛
فَأَحْيَا بِهَمِّي وَعِشْقِي !! ؛ وَصَحْوِي
وَسُكْرِي !! ؛
وَتَفْنَى اللَّيَالِي !! ؛ وَتُعْلِن رَحِيلِي !! ؛
سِهَامُ القَدَر !!
وَأَضْحَى أَنَا مَحْضُ ذِكْرَى وَقَد كُنْتُ
حُلْماً بِأَرْضِ الحَقِيقَه !!
وَأَغْدُو مَسِيحاً بُعَيْدَ الوَدَاعِ !! ؛ وَأَضْحَى
نَبِيَّ الجِرَاحِ العَمِيقَه !!
وَأَسْمَاءُ تَبْقَى بِمِحْرَابِ شِعْرِي بِلَحْنِ
الهَوَى وَالخُلُود !! ؛
مُحَالٌ سَأَرْجِع لِدُنْيَا الحَيَاةِ !! ؛ وَلَكِن
يَقِينِي إِذَا تَنْطِقُ الاسْمَ مِنِّي ؟!!... ؛
فَصِدْقاً سَآتِي !! ؛ وَحَقّاً أَعُود !! ه .

.....

« ما بين الكأس »
وصوت من دمى »

وَمَازَالَت بِنَا الأَيَّامُ تجرِى فِى أعِنَّتِهَا
لا العَهْدُ عَهْدِى وَلا الأَحْلامُ أحْلامِى !!
مَازِلتُ فِى سُفُنِ الهَوَى لا ذَرْعَ لِى
لا النَّصْرُ عِنْدِى وَلا السِّهَامُ سِهَامِى !!
العَيْنُ مَا ظَفِرَت بِرُؤْيَةِ حُلْمِهَا ؛
يَا عَيْنُ لا نَصْرٌ هُنَاكَ ...... ؛ فَنَامِى !!
سَئِمَ الفُؤَادُ حِكَايَاتِى بِلا أثَرٍ .....
. ؛ وَسَئِمْتُ مِن طَيْشِى وَمِن أوْهَامِى !!
مَا كَانَ حُبِّى غَيْرُ ضِحْكَةِ عَابِثٍ ؛
حَرَقْتُ شِعْرِى... ؛ وَاعْتَقَلْتُ كَلامِى !!

وَكُنْتِ هُنَا ... ؛ وَمَازَالَ الزَّمَانُ كَعَادَتِهِ ... ؛ يَدُورُ بِنَا ... ؛ فَذَهَبْتِ فِى أقْصَى البِلادِ حَبِيبَتِى ... ؛ وَعَلَى صُخُورِ الوَهْمِ فَوْقَ طَرِيقِ قِصَّتِنَا ... ؛ بَقِيتُ أنَا !! ... ؛ مَازَالَ صَوْتُكِ يَبْتَدِرُ ... ؛ كَى يَبْعَثَ الإعْصَارَ فِى حُزْنِى وَفِى هَمِّى ... ؛ مَازَالَت الأنْفَاسُ مِنْكِ تَسِيرُ فِى رُوحِى ... ؛ وَفِى دَمِّى !!... ؛ مَازِلْتُ أنْظُرُ

عُمْرِيَ المُقْتَالُ يَحْيَا عِنْدَهَا !!... ؛ وَبِرَغْمِ إِخْفَاقِي !! ؛ وَعَجْزِي عَن تَنَاسِى عُيُونِهَا ... ؛ وَبِرَغْمِ أَنِّى لَم أَكُن يَوْمَاً لَهَا ... ؛ أَنَا قَد قَطَعْتُ العَهْدَ لا أُوقِظ فُؤَادِى كَى أَعِيشَ العُمْرَ أُبْصِرُهَا ... ؛ وَأَحْفَظَ حُبَّهَا !!... ؛ أَنَا المَلاَّحُ خَوْضُ البَحْرِ هُوَ نَهْجِي وَأَوْرَادِى وَأَعْرَافِي ... ؛ فَلِمْ إِن تَأْتِنِي ذِكْرَى !!... ؛ غَرِيقُ بِنَهْرِكِ الصَّافِي؟!!... ؛ لِيَ الحِرْمَانُ وَالحُزْنُ الَّذِى يَقْطُن بِأَوْرِدَتِى !!... ؛ لِيَ التِّيهُ الَّذِى مَزَّق هُنَالِكَ قَهْرَ أَسْئِلَتِى !!.

يَا حُزْنُ لا تَطْرُق بِيَوْمٍ قَلْبَهَا ... ؛ وَاجْعَل جِرَاحَ الكَوْنِ تَحْرِقُ مُهْجَتِى ... ؛ اجْعَلْنِى مَحْضُ ضَحِيَّةٍ عَلَى أُفَدِّيهَا لأَنَّ الدَّمْعَ قَد يَجْرَح لَهَا أَهْدَابَهَا ... ؛ سَأَرْحَلُ فِى مَتَاهَاتِى... ؛ أَعِيشُ خَيَالَ مَجْهُولٍ !!... ؛ بِلا مَاضٍ !!... ؛ وَلا آتٍ !!... ؛ سَأَمْضِى وَسْطَ أَوْدِيَةٍ مِنَ الحِرْمَانِ لاأُبْصِر سِوَى كَمَدِى ؛ سَأُغْلِقُ كُلَّ أَبْوَابِى.. ؛ سَأُبْحِرُ وِفْقَ تَيَّارِ الأُولَى خَبِرُوا مَلامِحَ طَعْنَةِ السُّهْدِ ؛ سَأَحْرِقُ كُلَّ أَشْعَارِى ؛ وَأَهْدِمُ كُلَّ أَسْبَابِى!!... ؛ وَبَعْدَ العُمْرِ أَن يَمْضِى... : أَعُودُ ذُؤَابَتِى شَابَت !!... ؛ فَأُبْصِرُ جَمْرَةَ العِشْقِ الَّذِى قَد كَانَ ؟!!... : مَا طُفِئَت !! ... ؛ وَلا ذَابَت !!... ؛ وَأَرْقُبُ رِيحَكِ المَعْشُوقَ يَسْرِى فِى شَرَايِينِى!!... ؛ يَجُوسُ خِلالَ أَوْرِدَتِى !! ... ؛ وَيَمْضِى فِى سَرَادِيبِى !!... ؛ وَرَغْمَ اليَأْسِ مِن عَوْدِ الَّذِى قَد كَانَ فِى العَهْدِ الَّذِى رَحَلا !!... ؛ سَأَحْيَا هُنَاكَ !!... ؛ فِى وَجَعِى !!... ؛ وَتَعْذِيبِى !!.

أَرَدتُ بُعَيْدَ تَجْرِبَتِى لأَن أَنْسَى ... ؛ وَاطْرَح مَا تَوَلَّى هُنَاكَ فِى عَهْدِى بِلا شَطٍّ !! ... ؛ بِلا مَرْسَى !!... ؛ وَأَن أَحْيَا فَلا أَذْكُر... ؛ خَيَالٌ كَانَ فِى زَمَنِى ؛

وَفِى أَمْسِى !!... ؛ وَعِنْدَ تَأَمُّلِى يَوْمَاً ؟!!... ؛ عَلِمْتُ بِأَنِّى لَم أَحْيى !! ... : سِوَى حُزْنِى !!... ؛ سِوَى أَلَمِى !!... ؛ سِوَى يَأْسِى !!.

عَلَى جَمْرِ الهَوَى أَمْشِى
وَأَرْشُفُ مِن عَذَابَاتِهْ !!
وَفِى ظِلِّ الجَوَى أَسْعَى
. ؛ وَأُسْقَى مِن مَرَارَاتِهْ !!
عَلَى دَرْبٍ مِنَ الحِرْمَانِ ضُيِّعَ مِن بِدَايَاتِهْ !!
أَسِيرُ بِوَسْطِ أَوْدِيَةٍ ...
... ؛ بِهَا حُزْنِى وَآهَاتِهْ !!
فَهَذَا الحُبُّ هُوْ عُمْرِى
؛ وَسِرِّى فِى مُنَاجَاتِهْ !!
بِهِ سُفُنِى وَأَشْرِعَتِى
. ؛ وَغَيْمٌ عِنْدَ مَرْسَاتِهْ !!
. ؛ أَنَا المَلاَّحُ فِى بَحْرٍ
.. ؛ سَأَبْدَأُ مِن نِهَايَاتِهْ !!

وَكُنْتُ اغْتَلْتُ قِصَّتَهَا بِأَوْهَامِى !!... ؛ وَفِى سُكْرِى !!... ؛ وَفِى كَأْسِى !!... ؛ وَبَعْدَ إِفَاقَتِى مِنْهَا !!... ؛ عَلِمْتُ بِأَنِّى لَم أَقْتُل !!... ؛ سِوَى نَفْسِى !! . ﴾ .

.....

٥

✿ - تَرْنِيمَةُ الأَوْرَاقِ الأَخِيرَةِ .... ؛ فِى السِّفْرِ الَّذِى !!... ؛ مَا عَرِفَ القَدَاسَةَ

أَسْمَاءُ يَا وَجَعَ الفِرَاقِ المُؤْسِفِ !!
وَخَلِى احْتَرَقْتُ ؛ وَذِى حَقِيقَةُ مَوْقِفِى !!
... ؛ أَسْمَاءُ يَا هَمَّ المِعَادِ بِلا رَجَا !!
.. ؛ مَاذَا يُفِيدُ تَوَجُّعِى وَتَلَهُّفِى ؟!!
وَخَلِى ابْتُلِيتُ وَلا دَوَاءَ بِمِثْلِهَا !!
قَرِحَت شُئُونُكِ يَا عُيُونُ فَكَفْكِفِى !!
؛ سَئِمَ الزَّمَانُ حِكَايَتِى وَتَلَدُّدِى !!
... ؛ يَا مَوْتُ هَاكَ تَوَدُّدِى وَتَزَلُّفِى !!
إِن لَم يَكُن فِى المَوْتِ إِلاَّ رَحْمَتِى !!
لَكَفَى ؛ فَكُن يَا مَوْتُ كُن لِى مُسْعِفِى !!
صَرَخَت طُلُولُ الحَىِّ وَيْلَكَ لا تَعُد !!
فَأَجَبْتُ لا أَدْرِى !! ؛ وَصَبْرِى لا يَفِى !!

أَسْمَاءُ يَا أَلَقَ البَرَاءَةِ وَالهَوَى !!... ؛ يَا فِتْنَةَ السَّنَوَاتِ يَا مَهْدَ الأُلَى ... ؛

قَد سَطَّرُوا فِي الكُتُبِ كَيفَ الحُبُّ !!... ؛ مَا سِرُّ الصَّبَابَةِ وَالجَوَى !!... ؛ يَا نَسْمَةً مَادَت عَلَى رُوحِي لِحِقْبَةَ مِن زَمَن !!... ؛ حِينَ اقْتُلِعْتُ مِنَ المَوَاطِنِ كُلِّهَا !!... ؛ وبَقِيتُ مَعْزُولاً بِلا اسْمٍ وَلا أَرْضٍ ؟!!... ؛ كَانَت حَقِيقَتُكِ البَرِيئَةُ لِي وَطَن !!... ؛ بِالبَسْمَةِ السَّكْرَى تَحَوَّلْتُ النَّبِيُّ المُنْتَظَر !!... ؛ وَبِلَحْظَةِ العَوْدِ الوَجِيعِ رَأَيْتَنِي !!... ؛ مَلْعُونٌ قَد حُرِمَ الأَمَل !!... ؛ رُوحِي تَجَلَّت مِثْلَ مَسْخٍ !!... ؛ لَم تَعُد تُنْسَب !!... ؛ لأَيَّامِ البَشَر !!
قَد عُدتُ !!

قَد عُدتُ لَم أَجْنِ أَحْلامِي وَلا فَرَحِي
لَم يَبْقَ مِن بَعْدِ تَرْحَالِي سِوَى شَبَحِي
... ؛ عَصْرُ المَرَائِيَ قَد وَلَّى ؛ وَهَانَذَا
... : أُنْشُودَةُ الثُّكْلِ مِن قِيثَارَةِ الجُرْحِ
وَحْدِي صُلِبْتُ ... ؛ بِلا جُرْمٍ أَتَيْتُ بِهِ
. ؛ لَم يُجْدِ عِنْدَهُمُ قَوْلِي وَلا شَرْحِي
... ؛ وَحْدِي قُبِرْتُ بِلا دَمْعٍ وَلا كَفَنٍ
...... ؛ وَمَرَّ قَوْمِي بِلا شَجَنٍ وَلا تَرَحِ
وَحْدِي نُسِيتُ ؛ أَنَا وَحْدِي ؛ وَكَم سَخِرَت
بِي الحَيَاةُ .... ؛ وَغُلَّ العَزْمُ فِي مَرَحِ
.. ؛ وَحَطَّمَت سَيْفَ آمَالِي بِلا سَبَبٍ
...... ؛ وَغَادَرَتْنِي بِلا حِصْنٍ وَلا صَرْحِ

إِذَا دَارَت بِنَا الدُّنْيَا !!... ؛ إِذَا دَارَت بِنَا الدُّنْيَا وَضَاعَت عِنْدَ أَقْدَامِي جَلِيَّاتُ الحَقَائِقْ !!... ؛ إِذَا ذَوَت الغُصُونُ هُنَاكَ بِوَسْطِ صَمْتِ مَوَاجِعِي فَتَحَوَّلَت أَغْلالُ !!... ؛ أَو صَارَت مَشَانِق !!... ؛ إِن صَارَ لَوْنُ الجَدْوَلِ الْمُنْسَابِ قَانٍ !! ؛ مِن دَمِي !!... ؛ إِن جَاءَت الغِرْبَانُ تَنْهَشُ مَا تَنَاثَرَ مِن بَقَايَا أَعْظُمِي !! ... ؛ لَو صِرْتُ مَاضٍ قَد تَلاشَى وَقِيلَ أَضْحَى مَحْضُ ذِكْرَى لَم يَعُد فِي الأَرْضِ نَفْسَا ؟!!... ؛ فَبِرَغْمِ ذَوْبِ جَمِيعِ أَشْلائِي فَإِنِّي لَسْتُ أَغْفَلُ !! ... ؛ إِي وَإِنِّي ؟!!... ؛ لَسْتُ أَنْسَى !!

.....

عِنْدَ احْتِضَارِي !!... ؛ عِنْدَ احْتِضَارِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ يُلْهِمَنِي التَّشَهُّدَ بِاسْمِهِ مِن خَوْفٍ أَن يَسْبِق لِسَانِي بِذِكْرِ حُبِّيهَا الْمُقَدَّس !!... ؛ حُبِّي أَنَا الْمَعْصُومُ !! ... ؛ حُبِّي أَنَا الْمَعْصُومُ بَيْنَا العِشْقُ فِي زَمَنِي كَلامٌ سَاحِرٌ !!... ؛ وَبُعَيْدَهُ يَغْدُو الهَوَى !! ... ؛ عِشْقٌ مُدَنَّس !!

.....

تَتَلاشَى مِن قَامُوسِ أَشْعَارِي تَرَاتِيلُ الحَيَاةِ جَمِيعُهَا !!... ؛ تَغْدُو عَوَالِمُ رِحْلَتِي صَرَخَاتُ شَيْطَانٍ بِأَرْضٍ كُلُّ مَا فِيهَا خَوَاء !!... ؛ وَأَعُودُ لِلخُلْدِ لِلدُّنْيَا الَّتِي بِالأَمْسِ كُنْتُ أُرِيدُهَا !!... ؛ وَأَعُودُ حَسْبٌ إِذَا مَا قُمْتُ فِي صَمْتِ اللَّيَالِي الْمُمْطِرَه !!... ؛ وَصَرَخْتُ فِي فَضَاءَاتِ كَوْنٍ شَاحِبٍ !!... : إِنِّي أُحِبُّكِ لَم أَزَل !!... ؛ إِنِّي أُحِبُّكَ يَا كَيْنُونَتِي الأُولَى !!... ؛ أُحِبُّكِ أَنْتِ يَا أَسْمَاء !!

.....

وَحَمَلْتُ جُرْحِي !!... ؛ وَحَمَلْتُ جُرْحِي عَلَى أَكْتَافِيَ العَذْرَاء !!... ؛
أَمْشِي كَإِنْسَانٍ ... ؛ وَرُوحِي !!... ؛ كُنْهُهَا أَشْلاء !!

.....

أَسْمَاءُ مَا هَانَت !!... ؛ وَظَنِّي أَنَّنِي رَغْمَ التَّشَتُّتِ أَنَّنِي مَا هُنْت !!
لَو أَنْظُرُ العَيْنَيْنَ قَبْلَ رَحِيلِ سَنَوَاتِي ؟!!... ؛ لَن يَذْكُرَ التَّارِيخُ فِي كُتُبِ
الهَوَى إِن جَاءَ دَوْرِي !!... ؛ أَنَّنِي قَد مِت !!
لَو غَادَرَ العُمْرُ الوَجِيعُ بِقَهْرِهِ ؟!!... ؛ وَبِآخِرِ اللَّحَظَاتِ جَاءَت تَرْقُبُ
مَشْهَدِي عِنْدَ الرَّحِيلِ ؟!!... ؛ فَكُلُّ العُمْرُ أَنْت !!

.....

أَو لَو تَسَلْطَنَ مَن تَسَلْطَنَ فَوْقَ صَرْحِ عُرُوشِهِم وَبَقِيتِ أَنْتِ رَفِيقَتِي !!... ؛
أَوَلَسْتُ أَعْظَمُ مَن مَلَكْ ؟!!
مَا مِن حِكَايَةِ عَاشِقٍ إِلاَّ وَتَفْنَى !!... ؛ إِن تَنَاسَى ... ؛ أَو هَلَكْ
أَمَّا أَنَا سَيَظَلُّ حُبِّي بَاقِياً مَادَامَ رَبِّي يَحْكُمُ الدُّنْيَا ... ؛ وَمَا دَارَ الفَلَكْ

.....

مَازِلْتُ أَعْزِفُ لَحْنَ أَيَّامٍ تَوَلَّت !!... ؛ مَازَالَ دَهْرِي رَاضِياً عَن كُلِّ عُشَّاقِ
الهَوَى !!.... ؛ إِلاَّ أَنَا !!..... ؛ يَا رُوحِيَ الثَّكْلَى وَيَا قَلْبِي المُعَذَّبَ وَسْطَ
لَعْنَتِهِ !! ... ؛ كُلُّ الكَآبَاتِ الَّتِي فِي عَصْرِنَا !!... ؛ صَارَت لَنَا !!

.....

خَفَّف صَدَى تِلْكَ المَلاحِمِ يَا فَتَى !!... ؛مَا عَادَ مِن أحَدٍ

هُنا !!... ؛مَا عَادَ مِن أحَدٍ هُنَالِك !!

لَم يَبْقَ مِن تَرْحَالِ أَزْمِنَتِك ؟!!... ؛سِوَى دَمْعِ المَسَالِك !!

لَم يُرَ قَلْبٌ كَقَلْبِكِ رُقِّعَت جَنَبَاتُهُ !!... ؛إِي لَم

نَر فِي النَّاسِ شِبْهِكَ !!... ؛لَم يَعُد حَالٌ كَحَالِك !!

إِن كَانَ عِيسَى قَد غَدَا وَالدَّمْعُ آيَتُهُ ؟!!... ؛فَأَنَا

مَسِيحٌ !!... ؛إِي وَأَحْلامِي !!... ؛

كَذَلِك !! . هـ .

تَمَّ الكِتَاب

.....

﴿ الفِهْرِسُ الجَامِعُ لِمُحْتَوَيَاتِ مَادَّةِ هَـذَا الكِتَـاب ﴾

- تَنْبِيه .... : ٩
- إِهْـدَاء .... : ١١ ـ ١٢
- تَصْدِير .... : ١٣
- مَدْخَل .... : ١٤ ـ ١٦
- كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوع : .... : ١٧ ـ ٢٧

مَقَالاتٌ لابُدَّ مِنْهَا

- حَظُّ الأَدِيبِ فِى مِصْر : .... : ٢٩ ـ ٣٥
- بَينَ كَرَامَةِ الثَّقَافَةِ وَضَآلَةِ المِهْنَةِ : .... : ٣٦ ـ ٣٩
- رِسَالَةُ الأَدِيبِ فِى مِصْر : .... : ٤٠ ـ ٤٤
- الفَنَّانُونَ وَالمَال : .... : ٤٥ ـ ٤٨
- كَلِمَةٌ عَن بِنْيَةِ هَذَا الكِتَاب : .... : ٤٩ ـ ٥٦

مناهج النقد الأدبى

.....

منهج النقد النفسى الأنثروبولوجى

- مَدْخَلٌ : .... : ٥٨
- إِطْلَالَةٌ : .... : ٥٩ـ ٦٠
- شُرُوعٌ : .... : ٦١ ـ ٦٤
- سِيجِمُونْد فُرُويد [١٨٥٦ ـ ١٩٣٦] : .... : ٦٤ ـ ٧٣
- أُتُو رَانْك [١٨٨٤ ـ ١٩٣٩] : .... : ٧٣ ـ ٨٦
- أَلْفِرْد أَدْلِر [١٨٧٠ ـ ١٩٣٧] : .... : ٨٦ ـ ٨٧
- كَارْل غُوسْتَاف يُونغ [١٨٧٥ ـ ١٩٦١] : .... : ٨٧ ـ ٩٧
- وَبَعْد : .... : ٩٧ـ ٩٨
- شَارْل مُورُون [١٨٩٩ ـ ١٩٦٦] : .... : ٩٨ ـ ٩٩
- وَبَعْد : .... : ١٠٠
- الآنِسَة بُودْكِين : .... : ١٠٠ ـ ١١٠
- المَنْهَجُ النَّفسِىُّ فِى الدِّرَاسَاتِ العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَة : .... : ١١١ ـ ١١٢
- دِرَاسَةٌ تَطْبِيقِيَّة :

○ ـ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر

(١٣٢٧ ـ ١٤١٨ هـ = ١٩٠٩ ـ ١٩٩٧)

مَوَاقِفُهُ وَنَظْرَتُهُ إِلَى الحَيَاة

فِى ضَوْءِ مَنْهَجِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِىُّ

.... : ١١٣ ـ ٢٧٨

.....

نظرية النقد التاريخى

ـ مَدْخَل : .... : ٢٧٩ ـ ٢٨٠

ـ تَوْطِئَةٌ : .... : ٢٨١ ـ ٢٨٢

ـ سَانْت بِيف [١٨٠٤ ـ ١٨٦٩ م] : .... : ٢٨٢ ـ ٢٨٤

ـ غُوسْتَاف لانْسُون 1857 ـ 1934 : .... : ٢٨٤ ـ ٢٨٥

ـ الدُّكْتُور أَحْمَد ضيف (١٨٨٠ـ ١٩٤٥ م) وَالنَّقْدُ التَّارِيخِىُّ : ٢٨٥ ـ ٢٨٦

ـ وَبَعْد : .... : ٢٨٦ ـ ٢٨٧

.....

نظرية النقد الاجتماعى

ـ مَدْخَل : .... : ٢٨٨

ـ تَوْطِئَةٌ : .... : ٢٨٩ ـ ٢٩٠

ـ إِطْلالَةٌ تَارِيخِيَّةٌ : .... : ٢٩١

- كَارْل مَارْكِس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) : .... : ٢٩١ - ٢٩٣
- المَارْكِسِيَّةُ وَأَثَرُهَا فِي النَّقْدِ المُعَاصِر : .... : ٢٩٣
- جُورْج لُوكَاتْش (1885- 1970 م) : .... : ٢٩٣ - ٢٩٧
- لُوسْيَان جُولْدِمَان (1913- 1970) : .... : ٢٩٧ - ٢٩٩
- وَبَعْد : .... : ٢٩٩ - ٣٠٣

نَظْرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ فِي الأُسْلُوبِ
النَّقْدِيُّ لِلْمَنْهَجِ الاجْتِمَاعِيُّ

- .... : ٣٠٣ - ٣٠٤

نَقْدُ المَنْهَجِ الاجْتِمَاعِيُّ

- .... : ٣٠٥ - ٣٠٦

الوَاقِعِيَّةُ الاشْتِرَاكِيَّة
(الوَاقِعِيَّةُ الجَدِيدَة)

- .... : ٣٠٧ - ٣٣١

.....

نظرية النقد الفنى
(المنهج الجمالى)

- مَدْخَل : .... : ٣٣٢

ـ دَوْرُ المَنْهَجِ الفَنِّيِّ : .... : ٣٣٣ ـ ٣٣٤

ـ شُرُوطُ النَّاقِدِ الفَنِّيِّ : .... : ٣٣٤

ـ الخَلْفِيَّةُ التَّارِيخِيَّةُ لِلمَنْهَجِ الفَنِّيِّ : .... : ٣٣٥

ـ مَقَايِيسُ المَنْهَجِ الفَنِّيِّ : .... : ٣٣٥ ـ ٣٣٩

ـ نَظَرِيَّةُ الخَيَال ... عِنْدَ كُولِرِدْج : .... : ٣٤٠ ـ ٣٥٩

ـ المَعْنَى أو الفِكْرَة : .... : ٣٦٠

ـ الأُسْلُوب : .... : ٣٦٠ ـ ٣٦١

.....

نظرية النقد التكاملى

ـ مَدْخَلٌ : .... : ٣٦٢

ـ نَظْرَةٌ شُمُولِيَّةٌ : .... : ٣٦٣ ـ ٣٦٤

تَمَّ الكِتَاب

.....

ـ دِيوَانٌ شِعْرِيٌّ :

الترنيمة الأخيرة !!

« القصائد العشر »

لِشَاعِرِ الشَّمَال

محمد محمود دحروج

الشَّهِير بـ:

« نِزَار شَاهِين المِصْرِي »

- إِهْـدَاء : .... : ٣٦٦
- تَصْدِير : .... : ٣٦٧
- مَدْخَلٌ : .... : ٣٦٨
- بَيْنَ يَدَى الدِّيوَان : .... : ٣٦٩ ـ ٣٧٠

.....

قصائد الزمن البعيد

- مَازِلْتُ أَذْكُر !! : .... : ٣٧٤ ـ ٣٧٥
- تَلاقَيْنَا !! : .... : ٣٧٦ ـ ٣٧٨
- عَلَى سِفْرِ الهَوَى !! : .... : ٣٧٩ ـ ٣٨٠
- مُحَالٌ لَم يَكُن حُبًّا !! : .... : ٣٨١ ـ ٣٨٢

.....

قصائد الرحيل !!
وأغنيات الفراق !!

- عَرِّج عَلَيْنَا !! : .... : ٣٨٤ ـ ٣٨٦

ـ لا تَذْهَبِى !! : .... : ٣٨٧ ـ ٣٨٩

ـ مَاتَ الكَلام !! : .... : ٣٩٠ ـ ٣٩١

.....

قصائد الأحزان !!

ـ وَتَبْقَى بِمِحْرَابِ شِعْرِى !! : .... : ٣٩٣ ـ ٣٩٤

ـ مَا بَيْنَ الكَأْسِ !! ؛ وَصَوْتٍ مِن دَمِى : .... : ٣٩٥ ـ ٣٩٧

✿ ـ تَرْنِيمَةُ الأَوْرَاقِ الأَخِيرَةِ .... ؛ فِى السِّفْرِ الَّذِى !!... ؛ مَا عَرِفَ القَدَاسَة

ـ.. : ٣٩٨ ـ ٤٠٢

تَمَّ الكِتَاب